أحمد شوقي بنبين

دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

دراسات في علم المخطوطات

والبحث الببليوغرافي

الكتـــاب : دراسـات فى علم المخطوطـات
والبحث البيليوغرافى
المؤلف : أحمد شوقي بنبيـن
الطبعـة : الثانية مزيدة ومنقحة 2004
الطبـع : المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي - الداوديات - مراكش
الهاتف: 91 25 30 044 / 74 37 30 044
الإيداع القانوني: 0104 - 2004
ردمك : 2 - 7 - 8218 - 9954

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

[illegible] المخطوطات العربية المهتمين بدراستها [illegible] "دراسات في علم المخطوطات". فقد مرت عشر سنوات على الطبعة الأولى وخلال العشر [illegible] مرحلة [illegible] وما ظهر من أبحاث ودراسات حول المخطوط العربي، [illegible] القيام بهذه المبادرة ليس لذكر الأبحاث الجديدة التي [illegible] الطبعة الأولى [illegible] في مختلف الميادين [illegible] من المخطوط [illegible] من [illegible] التحقيق [illegible] على هذا [illegible] في علم المخطوط العربي [illegible] على الطريق السليم التي [illegible] الأبحاث [illegible] في الطبعة الأولى [illegible] كتاب المخطوط العربي وعلم المخطوط لصديقنا الدكتور أيمن فؤاد سيد الذي بذل جهدا كبيرا في جمع الكثير من المعلومات النادرة عن المخطوط [illegible] وقد ساعده على ذلك عمله كخبير في المخطوطات بدار الكتب المصرية. وكذلك نشر صديقنا الدكتور قاسم السامرائي كتابا في علم المخطوط من علم الاكتناه [illegible] [illegible] الدكتور مصطفى [illegible]

أحمد شوقي بنبين

دراسات في علم المخطوطات
والبحث الببليوغرافي

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نقدم إلى قراء المخطوطات العربية المهتمين بدراستها كقطعة مادية الطبعة الثانية لكتاب "دراسات في علم المخطوطات". لقد مرت عشر سنوات على الطبعة الأولى ولازال العلم في مرحلة الطفولة رغم ما أقيم هنا وهناك من ندوات وما ظهر من أبحاث ودراسات حول المخطوط العربي. والذي دعانا إلى القيام بهذه المبادرة ليس تلكم الأبحاث الجديدة التي أغنينا بها المجموعة الأولى ولكنه الاهتمام المتزايد بدراسة المخطوط الذي نلاحظه في مختلف الهيئات العلمية وعند الشباب الطموح في الجامعة. وبالرغم من تركيز هذه الأبحاث عن المخطوط كمتن من المتون للتحقيق والدراسة والنشر، فإن بعض ذوي الغيرة على هذا التراث قد نشروا أعمالا عن علم المخطوط العربي يمكن اعتبارها مؤشرا على الطريق السليم التي تسير فيه الأبحاث الخاصة بهذا العلم. بالإضافة إلى الطبعة الأولى لكتابنا هذا ظهر كتاب المخطوط العربي وعلم المخطوط لصديقنا الدكتور أيمن فؤاد سيد الذي بذل جهدا كبيرا في جمع الكثير من المعلومات النادرة عن المخطوط كقطعة مادية وقد ساعده على ذلك عمله كخبير في المخطوطات بدار الكتب المصرية. وبعده نشر صديقنا الدكتور قاسم السامرائي كتابا في علم المخطوط سماه بعلم الأكتناه، درس فيه مجموعة من العناصر الخاصة بهذا العلم، وهو عبارة عن محاضرات منقحة أعطاها لطلبته في جامعة الرياض. وتلا هذا العمل معجمان عن مصطلح المخطوط، أولاهما معجم العالم الكندي "أدم كادجيك" وثانيهما "القاموس الكوديكولوجي" الذي نشره كاتب هذه السطور بالاشتراك مع الدكتور مصطفى طوبي.

إن ظهور هذه الأعمال المتخصصة لم يكن إلا بداية طريق طويل يهدي إلى سبر أغوار المخطوط العربي بحثا في تركيبه وصناعته وتاريخه وفي كل الجزئيات التقنية والعناصر الكوديكولوجية الحديثة. ومرة أخرى أقول إن المجموعة المبثوثة في هذا الكتاب ما هي إلا مجموعة من الأسئلة حول المخطوط العربي ما زالت بحاجة إلى البحث المتواصل وإلى الإجابات العلمية المتأنية ندعو العاشقين للتراث والمتطلعين من الشباب الطموح إلى الإسهام في هذا المشروع الكبير حتى يقطع المخطوط العربي تلكم الأشواط التي قطعها المخطوط الغربي في هذا المجال.

أحمد شوقي بنبين
مدير الخزانة الملكية

تقديم

تميزت الثورة التكنولوجية في هذا القرن العشرين من بين ما تميزت به بتيسير تسجيل المعارف على الشريط المسموع والمرئي ثم على أسطوانات الحاسوب وما يشبه هذا من حوامل المعارف ذات الخصوصيات المتنوعة. ويظل الكتاب لحد الساعة أوسع هذه الحوامل وأكثرها من حيث الاستعمال والاستهلاك. وللكتاب تاريخ كما أن للمعارف تاريخا، وقد كان ارتباط المعارف بوعائها الذي هو الكتاب أكثر أهمية في القرون السالفة لاسيما قبل هيمنة المطبعة ولاسيما بالنسبة لتراثنا. ولذلك قامت عند الضابطين للمعارف علوم عديدة تتعلق بالوعاء الذي هو الكتاب بقطع النظر عن محتواه، وكانت العناية بهذه العلوم والعلامات دليلا على درجة رقي الأمم في ضبط تاريخ علومها أو علوم غيرها. وقد سنحت للأستاذ أحمد شوقي بنبين فرصة الاحتكاك بمراكز بحث دولية في تاريخ الكتاب وعلوم المكتوب وتاريخ النصوص الذي يعتمد على عمليات فحص تقنية للمخطوطات بصفة خاصة. ومن هذا الاحتكاك الذي يرجع إلى ما قبل عقدين من الزمن، حينما كان يدرس بفرنسا والذي استمر على شكل تنقيبات مكتبية واتصالات مع الفنيين المختصين، ومن هذه الفرصة وفي اغتنامها جاءت الأبحاث المدرجة بين دفتي هذا الكتاب وتولد الهم المبثوث فيها، لأنها مكتوبة بخلفية مقارنة وتلهف ودعوة يريد بها صاحبها تنبيها إلى ثغرة في ميدان البحث عندنا ناجمة عن الجهل بتقنيات ذلك الفحص المتصل بالتراث المخطوط ونحن الذين نملك ذخائر من هذا التراث وندفع بأجزاء منه يوميا إلى دواليب المطابع لتخرجه بأسماء محققين ومعتنين بالنشر، قد لا يعلم العديد منهم حتى بوجود هذه العلوم والقواعد التي صار لها تاريخ هي الأخرى عند الأمم الراقية.

هذا هو هم هذا الباحث، وهو يشعرنا بأن الأمر ينبغي أن يعالج لا على مستوى الأفراد فحسب بل على مستوى إدخال تلك العلوم في مناهج الجامعة وبتكوين المختصين وإحداث مؤسسة على مستوى الفضاء العربي في مناهج الجامعة تكون مرجعا وتداول

المعالجات المشار إليها حتى تصير مرجوعا إليها في بابها ويوحي وجودها في حد ذاته بالجدية المطلوبة في التعامل مع النصوص؛ أي أن غياب هذه المؤسسة بمثابة غياب المحتسب، الأمر الذي يستمر معه ترك الحبل على الغارب في ميدان من الميادين الحيوية في صناعة العلم وتخريجه.

يحرص المؤلف على أن يقوي وعينا بأن المعالجات والتقنيات التي "يبشر" بها ليست من قبيل الممارسات التي لها مفعول سحري، لأن تناول العلم وضبطه هو قبل كل شيء من أفعال علماء مختصين، ولكنه يريد أن يلفت الانتباه إلى مناهج اصطلاحية، بل وحتى عمليات مخبرية قد دخلت هذا الميدان، أما المناهج الاصطلاحية فقد أسفرت عن صرامة كان القدوة فيها بعض الرهبان الصابرين على التنقيب والتدقيق في ما يخص المخطوطات، وأما العمليات المخبرية فهي من جملة الجوانب المساعدة التي أدت إليها التطبيقات العلمية الحديثة خدمة لجانب كان يعتمد على استنتاجات ذهنية لا غير.

إن الأبحاث المجموعة في هذه النشرية تعبر عن اهتمام رائد تقع مسألة علم المخطوط في صميمه ولكنه اهتمام أشمل بالبنية الرافدة للبحث التي هي المكتبة، وبالأدوات التي تتهيأ بها الاستفادة من المكتبات، وهي الفهارس بمعناها التصنيفي والجهبذي معا. وبالتعرض لهذه الجوانب المختلفة يسهم المؤلف في إجلاء الوضع العربي بالنسبة لفن من الفنون، كما يسهم في تاريخ التراث العربي عامة وتاريخ الثقافة المغربية بصفة خاصة. ففي مثل هذا العمل إزعاج للأذهان المستخفة بالتعامل مع النصوص وتحريض لهمم الطلاب المقبلين على التمرس بأدوات العلم، وفيه أيضا تبليغ الاحتجاج لمن له أمر تدبير التكوين ولاسيما في المعاهد والكليات. وفي التنقيبات المنجزة هنا أمثلة للاحتذاء والاقتداء، فعسى أن يكون لها وقعها المحمود لدى المهتمين وأن يكثر بها من يحمل مع المؤلف همه المبثوث بين ثنايا سطور هذا المجموع.

أحمد التوفيق

مقدمة الطبعة الأولى

تعالج أبحاث هذا الكتاب موضوعين من أهم المواضيع العلمية المتعلقة بالتراث العربي لم تحظ حتى الآن باهتمام المختصين في هذا المجال: أولهما علم المخطوطات، وثانيهما البحث الببليوغرافي. ففيما يخص علم المخطوط العربي أو الكوديكولوجيا فإنه لا زال حقلا بكرا على الرغم من بعض المحاولات الفردية التي ظهرت عند مستشرقين قلائل كتبوا بلغات أجنبية. إن البحث في هذا العلم قد يمكننا من الإجابة عن عدد من التساؤلات ظلت حولها الآراء متباينة والمواقف مختلفة. ومن الأمثلة على ذلك، قضايا تقنية قد تبدو من الجزئيات البسيطة، ولكن خطورتها معروفة لدى المختصين مثل الكراس أو الكراسة، فمن الناسخين للمخطوطات العربية من يعتبرها عشر ورقات ومنهم من يراها إحدى عشرة ورقة وفريق ثالث يجعلها ثماني أوراق لا غير. لا يمكن الجواب عن هذا التساؤل إلا بالوقوف على عدد أكبر من المخطوطات يُبحث في الذين نسخوها ومكان النسخ وزمانه. ومنها كذلك قضية التعقيبة إذ لا نعرف حتى الآن متى بدأ استعمال نظام التعقيبة في النساخة العربية، وهل هي ظاهرة سامية أو هندية أوروبية (indo européenne). ومن هذه القضايا كذلك قضية وقف الكتب، فما أقل الأعمال الأكاديمية حول هذا الموضوع، اللهم إلا ما كتبه بعض الأفراد من بينهم كاتب هذه السطور. إن دراسة الوقفيات دراسة كوديكولوجية تمكن الباحثين في الفيلولوجيا وعلم المخطوطات من تأريخ ما هو غير مؤرخ من مخطوطاتنا العربية التي تعد بالملايين، كما تساعدهم على تحديد أنواع الخطوط العربية تحديدا باليوغرافيا علميا. ومنها كذلك مشكلة النساخة والنساخ في التراث العربي. إنه لا يخفى على أحد من العلماء بالتراث العربي، المخطوط منه والمطبوع، الهنات والهفوات التي وقع فيها النساخون لهذا التراث على مرّ العصور والأحقاب. فعلى الرغم من نباهة المحققين وحذقهم عربا كانوا أو مستشرقين، فلربما فات البعض منهم التنبه إلى أخطاء فادحة وقع فيها النساخون، ولو تسلحوا ببعض قواعد العلم المختصة في هذا الشأن لكانت جهودا أنجح وأثمر.

إن بحث نسخ المخطوط بحثا كوديكولوجيا ودراسة الناسخين من عدة مستويات، وعلى الأخص منها مستوى السلوك، هو الذي يساعد على كشف هذه الأخطاء والهفوات. ولست أزعم أنني عالجت، في هذا المحور، كل عناصر علم المخطوط العربي، بل هناك مجموعة أخرى من القضايا تنتظر من يبحث فيها ويكشف عنها من المختصين - على قلتهم - في هذا المجال. وحتى النتائج التي توصلت إليها في الأبحاث التي هي بين أيدي القارئ الكريم ليست نهائية بل تحتاج إلى مزيد من البحث والتدليل والتوثيق.

أما المحور الثاني المتعلق بالبحث الببليوغرافي فإنه يهدف إلى لفت النظر إلى مشكل كبير يعاني منه الباحثون من شبابنا العربي في مختلف الجامعات وعلى جميع المستويات. إن عجز الطلبة الباحثين عن العثور على مصادر أبحاثهم ومراجعها يرجع أساسا إلى عدم الإلمام ببعض الأساليب الببليوغرافية التي تعتبر اليوم ضربة لازب في البحث العلمي الحديث. إن هذا النقص في التكوين الجامعي لطلبتنا يجعلهم يخبطون خبط عشواء في البحث عن المراجع التي يمكنهم الاستفادة منها في بحوثهم ومحاضراتهم. ويظهر هذا النقص جليا في الدراسات الجامعية حيث إننا لا نكاد نعثر فيما يسمى اليوم بالببليوغرافيا الخفية Bibliographie cachée على أشهر المؤلفات الببليوغرافية التي لا تكاد تخلو منها خزانة من خزانات الكتب الحديثة والتي تعتبر اليوم أساسية في البحث.

إن نظرة في معظم الأعمال العلمية والدراسات الجامعية تجعل القارئ يحس أن هناك قطيعة بين الباحثين وبين تلك الأدوات الببليوغرافية التي وضعها المختصون في مختلف اللغات ولا يمكن اعتبار البحث علميا أكاديميا دون استشارتها والإفادة منها.

إن أبحاث هذا المحور لا تعالج كليا هذا المشكل بقدر ما تهدف إلى تحسيس الباحثين بأهمية البحث الببليوغرافي وضرورته في البحث العلمي الحديث.

وإذا سبق لمعظم هذه الأبحاث أن نُشرَ في مجلات وطنية ودولية فإنه قد أعيد قراءتها وتمّ تنقيحها وألحقت بها أحدث الأبحاث في هذا المجال. ولا يفوتني في الختام أن أعرب عن

امتناني وشكري للأستاذ الجليل أحمد التوفيق الذي أبى إلا أن يقرأ هذه المحاضرات سطرا سطرا وأفادني ببعض ملاحظاته. كما أشكر الأستاذ محمد منيار الذي ما فتئ يشجعني على مواصلة العمل في هذا الميدان. وأخيرا أقدم جزيل الشكر للأستاذ عبد الواحد بنداود، قيدوم كلية الآداب، الذي وافق على نشر هذا الكتاب. والله من وراء القصد.

أحمد شوقي بنبين

ما المخطوط؟

جرت عادة الباحثين المهتمين بالمخطوطات من حيث تاريخها وفهرستها ونسخها وتوثيقها وتحقيقها وما ماثل هذه الموضوعات أن لا يتعرضوا للكلام عن كلمة مخطوط من حيث التأثيل والتأصيل اللغوي ومن حيث استعمالها لأول مرة في النصوص العربية. وقد برر هذا بعض الغربيين المختصين في هذا المجال بكون اللغة العربية ما زالت تفتقر إلى معجم تاريخي يحدد تاريخ الألفاظ، ويشير إلى النصوص الأولى التي ظهر فيها اللفظ على غرار معاجم اللغات الغربية. وقبل الخوض في المفهوم الدلالي لهذا اللفظ نشير إلى أن الفيلولوجيين[1] لا يقبلون استعمال لفظ مخطوط إلا إذا ألحق بكلمة كتاب، فيقولون الكتاب المخطوط لأنه ليس كل ما كتب باليد يعتبر بالضرورة مخطوطا. فشواهد القبور وما نقش على الأحجار وما نقر على الصخور لا يمكن اعتبارها مخطوطات. إن الكتابة باليد ليست ضرورية في ذاتها بالمفهوم الفيلولوجي للمخطوط. فلنبحث الآن في مادة هذا اللفظ في اللغة مع محاولة رصد بداية تداوله وذلك باستشارة المعاجم واستقراء النصوص التي يمكنها أن تمدنا بمعلومات عن بدء استعماله[2]. ومن الطبيعي عند أهل اللغة أن يبحثوا عن جدور الكلمات في أول نص عربي تم جمعه، ألا وهو القرآن الكريم، ومن يقرأ في كتاب الله يجد أن الإشارة الوحيدة لهذا الجذر هي ما جاء في قوله تعالى في سورة العنكبوت "وما كُنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك. إذا لارْتابَ المُبطلون"[3]. فجاءت المادة بصيغة الفعل ولا أثر لصيغة اسم المفعول الذي هو موضوع البحث.

ولن يجد المستقرئ لدواوين الشعر العربي منذ العصر الجاهلي إلى العصور الأخيرة أثراً لكلمة مخطوط كما تخلو معاجم العربية منها باستثناء ما جاء عنها في أساس البلاغة للزمخشري

---

[1]- الفيلولوجيا بالمفهوم الألماني هي الدراسة العلمية للنصوص الأدبية وتعني العناية بتوثيق النصوص وتحقيقها ونشرها والتعليق عليها. ولا نعني بها فقه اللغة الذي يدرس اللغة على المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية أو النحوية والدلالية والأسلوبية والبلاغية والوزنية والشعرية.

[2]- نشير إلى أن هذا البحث يقتصر على دراسة المصطلح من حيث الأصل والاستعمال والشكل ولا يتعداه إلى دراسة المخطوط كنص من النصوص أو كقطعة مادية التي هي من اختصاص علم المخطوط بمفهومه الحديث الذي يطلق عليه في الغرب لفظ Codicologie.

[3]- سورة العنكبوت: آية 47.

(538 هـ) وتاج العروس للزبيدي (1205 هـ). جاء في الأول: خط الكتاب يخطه، وكتاب مخطوط. وجاء في الثاني: كتاب مخطوط أي مكتوب فيه. وتبقى العربية خلوا من هذا اللفظ حتى اختراع الطباعة التي ستحدث تحولا في الحضارة العربية وتفرز مصطلح "مخطوط" ما كان ليظهر لولا ظهور ما يقابله وهو كلمة "مطبوع". ويصعب على الباحث في الوقت الراهن تحديد أول نص عربي ظهر فيه اللفظ لأن ذلك يدعو إلى استقراء شامل لكل النصوص الحديثة المتعلقة باكتشاف الطباعة. والذي لاشك فيه هو أن اللفظ ظهر مع ظهور الطباعة حجرية كانت أو سلكية. ولم يكن هذا الحدث خاصا باللغة العربية وحدها، بل حدث هذا كذلك في اللغات الأخرى التي عرفت بلادها هذا الاكتشاف الجديد. إن الباحث في لفظ مخطوط في اللغة الفرنسية (manuscrit) يجد أنه استعمل لأول مرة في أحد نصوص هذه اللغة في سنة 1594م أي في نهاية القرن السادس عشر للميلاد. وعلى الرغم من كون اللفظ لفظا لاتينيا (manuscriptum) فإن الفرنسيين استعاروه من اللغة الإيطالية التي عرفت استعمال اللفظ قبل فرنسا بحكم سبقها إلى التمسك بالنهضة الحديثة[4]. وقد أطلقوا على المخطوط لفظ (libri)[5] اللاتيني في مقابل مطبوع منذ بداية الطباعة، أما اللفظ المتداول الذي ظل طوال العصر الوسيط يطلق على الكتاب الذي لم يكن إلا مخطوطا فهو الكراس (codex) وهو لفظ لاتيني ويعني "كتاب"[6].

أما لفظ (manuscriptum) اللاتيني فإنه ظهر في هذه اللغة منذ القرن الثالث الميلادي. ولم يكن يعني ما أصبح يعنيه كمقابل للمطبوع في عصر النهضة بل كان يدل على النسخة التي يخطها المؤلف بيده لا بيد غيره والتي أصبح يطلق عليها اليوم في الغرب لفظ

---

[4]- إن إنشاء أول أكاديمية بالغرب تلكم التي عرفتها مدينة فلورنسا الإيطالية في القرن الخامس عشر. ولم تنشأ الأكاديمية في فرنسا التي يعتبرها البعض أول أكاديمية حديثة إلا في النصف الأول من القرن السابع عشر للميلاد أي في سنة 1634م على عهد ريشوليو Richelieu.

[5]- Libri- لفظ لاتيني أصله liber (وهو livre في الفرنسية الحديثة) والمعنى التأثيلي للفظ « liber » قشرة الشجرة التي كانت إحدى مواد الكتابة عند اللاتين. ونفس الشيء بالنسبة للفظ Biblo التي يعني "كتاب" في اليونانية، ويعني في أصله قشرة الشجرة التي يكتبون عليها. وهو لحاء الشجر عند العرب. و Biblio الكثيرة الاستعمال تصغير للفظ Biblo .

[6]- في اللغة التركية مثلا لم يظهر لفظ (أل يازمة) بمعنى مخطوط إلا بعد ظهور الطباعة وكانت تركيا من بين الدول الإسلامية الأولى التي سمحت بدخول الطباعة خصوصا بالحرف العبري.

أوتوغراف (autographe)[7] ونسميها نحن العرب النسخة الأصلية. والدليل على ذلك هو أن المفكر اللاتيني في القرن الأول قبل الميلاد شيشرون (cicéron) استعمل كلمة منوسكربتوم (manuscriptum) اثنتا عشرة مرة بمفهوم "أوراق خاصة" وهي أوراق خطها بيده. ولم تكن اللغة اليونانية لتختلف عن اللغة اللاتينية في هذا الاستعمال. فلفظ مخطوط اليوناني الذي ظهر في هذه اللغة في القرن الثاني قبل الميلاد كان يعني تلكم النسخة التي خطها المؤلف بيده. ولم تصبح في مقابل المطبوع إلا بعد عصر الطباعة شأن اللفظة اللاتينية. وقد أطلق على المخطوط اليوناني مصطلحات أخرى طوال العصر الوسيط.

أما العرب فقد سموا الكتاب المخطوط تسميات متعددة تختلف باختلاف العصور. فقد أطلقوا عليه في القرن الأول الهجري الرقيم، الزبور، المصحف[8] (بفتح الميم)، السفر، الرسالة، الكراسة[9]، الجلد، الجزء، المجلدة، الكناش أو الكناشة[10]، الدفتر[11] وغيرها. وقد أطلق على الكتاب في عصر التدوين والتأليف الديوان أو المدون والتأليف أو المؤلف والتصنيف أو المصنف.

---

[7]- لفظ (autographe) يوناني مركب من كلمتين: أوتو (auto): ذات وجرافين (graphein) : كتابة وهي النسخة التي نسخها المؤلف بنفسه. وقد ظهرت الكلمة في القرن السابع عشر عند العدول والمحامين وأصحاب القانون: فإذا نسخ العدل عقدا ووقعه فهو أصلي. ومن العقود انتقل اللفظ إلى المخطوط. وليس عندنا في العربية لفظ مقابل لذلك ونكتفي بقولنا: نسخة أصلية تلكم التي نسخها المؤلف أو أشرف على نسخها أو صححها أو ما قارب ذلك. ومن يمعن النظر في قوله تعالى: "ولا تخطه بيمينك" يجد أن الخط مرتبط باليد وأن المخطوط هو ما يكتبه الكاتب بنفسه، ولو تيسر للغة العربية أن تنحت لفظ مخطوط في الزمن الأول لكان يدل على ما كان يعنيه لفظ مانسكريبتم (manuscriptum) اللاتيني ولفظ مخطوط اليوناني من كونه النسخة التي يخطها المؤلف بيده لا بيد غيره.

[8]- لفظ " مصحف" بفتح الميم كان يعني كتابا في العربية في العصر الأول: يقول ابن عبد البر في "القصد والأمم" "من جملة ما وجد في الأندلس اثنان وعشرون مصحفا محلاة، كلها من التوراة، ومصحف آخر محلى بفضة..وكان في المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت" أما مصحف بضم الميم فحبشية أطلقت على القرآن الكريم بعدما تم جمعه في عهد الخليفة عثمان ويرجع السبب في ذلك إلى أن مادة (ص،ح، ف) حسب المستشرق الألماني نولدكه توجد في العربية وفي الحبشية بمعنى حفر، نقر ومنها كتب وتوجد كذلك في الحميرية اليمنية حسب ابن دريد (321هـ)، وهذا ما دفع المستشرق نولدكه (1930م) إلى القول بأن "مصحف" استعيرت إما من الحبشية أو الحميرية. وعلى الرغم من تأكيد السيوطي في الاتقان بأنها حبشية حسب رواية ابن مسعود فإن اللغة الأثيوبية بشقيها "الأمهرية والجعزية" استعارت الأبجدية العربية الجنوبية مما يؤكد الأصل الحميري لهذا اللفظ.

[9]- من الكلمات الغامضة في العربية ويعتقد البعض أنها ترجمة لكلمة كوديكس codex اللاتينية.

[10]- كلمة سريانية أصلها كوناش وكوناشة وهي مستعملة قديما.

[11]- دفتر: يونانية أصلها دفتريا (Diphteria) ومعناها الجلد كان يكتب عليه وتوجد الكلمة في النصوص اليهودية والأرامية والسريانية القديمة ولعلها دخلت العربية عن طريق الفارسية. وذكر المؤرخ اليوناني هيرودت (Herodote) أنها كلمة فينيقية وأنها من ضمن الكلمات الفينيقية التي دخلت اليونانية قديما الشيء الذي يؤكد الأصل السامي لهذا اللفظ. انظر معجم مصطلحات المخطوط العربي: أحمد شوقي بنبين – مصطفى طوبي.

وابتداء من القرن الرابع للهجرة حين اكتملت النهضة العلمية والتأليفية في المجتمع العربي أصبح يطلق على مصادر[12] التراث تسميات مثل الكتب الأصول، الكتب الأمهات، الكتب الأساسية لما تحويه من أساسيات العلم، بالإضافة إلى استعمال مصطلحات مثل التقييد، الفهرسة، الكشكول[13]، وغيرها كثير. وإذا كان ظهور لفظ "مخطوط" مرتبطا بصناعة المطبوع في التراث العربي فإننا نشير إلا أن المغاربة استعملوا عبارة "نسخة قلمية" في مقابل كتاب مطبوع قبل أن يجاروا المشارقة في استعمال لفظ مخطوط. وهذا ما صنعه علماء الإنسانيات (humanistes) عندما لجأوا إلى لفظ libri [14] اللاتيني عوض لفظ codex طوال عصر النهضة أي إلى نهاية القرن السادس عشر للميلاد حينما اصطلحوا على لفظ manuscrit اللاتيني والذي سبق الإيطاليون إلى استعماله لنفس الغاية قبل الفرنسيين.

أما من حيث الشكل فإن المخطوط العربي استعار شكل الكوديكس اللاتيني الذي كان عموديا[15]. وهو الشكل الذي ما زال يحتفظ به الكتاب حتى اليوم. ومعلوم أن الكوديكس ظهر تاريخيا في نهاية العصر القديم بعد انتقاله من الكتاب الملف أو اللفافة. وكان اللاتينيون يطلقون عليه لفظ (volumen)[16]. وبما أن هذا البحث لم يكن من شأنه الاهتمام بالجوانب العلمية والباليوغرافية والكوديكولوجية للكتاب المخطوط فإننا نرى من الواجب توضيح بعض النعوت التي ألصقت بالكتاب المخطوط في مختلف أنواع التراث، خصوصا بعدما أصبح موضوع دراسة المختصين من حيث علمه وتاريخه. ولا ندعي أننا سنحيط بها جميعا بل سنكتفي

---

[12]- مصدر بمعنى كتاب لفظ حديث وهو ترجمة للكلمة الأعجمية (source). ولم تستعمل عند القدماء إلا في علم النحو.

[13]- لفظ فارسي يعني وعاء من المعدن أو الخشب مرتبط بالدراويش يجمعون فيه الصدقات من مال وطعام وغير ذلك. ولذلك أطلق الكشكول على ذلكم الكتاب المتنوع الموضوعات. ومن أشهر هذا النوع من الكتب كشكول العاملي في القرن العاشر للهجرة.

[14]- libri تعني كتاب وهو الكوديكس. ويعتقد الفرنسيون أن المطبوع هو قبل كل شيء كتاب وليس سوى بديل (succédané) للمخطوط.

[15]- على الرغم من القول بأن الكتاب العربي المخطوط لم يظهر في البداية إلا بشكل عمودي فإن مكتبة جامعة هيدلبرج تحتفظ ضمن مجموعة البردي العربية بكتاب عربي بشكل لفافة يرجع إلى القرن الثالث للهجرة. وربما احتفظت بعض الخزانات الأوروبية ببعض النسخ القرآنية على شكل لفافات. وقد ظهرت في العصور الأولى في الأندلس بعض المصاحف القرآنية بشكل مربع. وقد كان هذا في فترة معينة محدودة، ولم يلبث أن عاد النساخ إلى الشكل العمودي للكتاب المخطوط خصوصا في مجال المصحف.

[16]- لفظ أصبح في الفرنسية الحديثة (volume).

بالإشارة إلى بعضها في انتظار تخصيص هذا الموضوع ببحث خاص. وأول ما يجب توضيحه في هذا المجال هو ما يسمى بالمخطوط العربي الإسلامي. إنه المخطوط الذي تناول موضوعا من الموضوعات الأدبية أو الفلسفية أو العلمية باللغة العربية ونسخ بالحرف العربي، ويتسع ليشمل مخطوطات الدول الإسلامية غير العربية كلغات إفريقيا السوداء واللغات الحامية كالأمازيغية واللغات الهندية - الأوروبية كالفارسية والأفغانية والأوردو (urdu) أو الباكستانية والعثمانية والتركية وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية التي استعارت حرف القرآن للكتابة. وقد تتبعها العالم الأوربي جوفروا روبير[17] (G. Roper) وأحصاها فوجدها مائة وتسعة وعشرين (129) لغة. ويدخل في هذا الإطار المخطوط الذي عالج موضوعا عربيا ولكنه بهجائيات غير عربية. إن الأرصدة العربية التي تملأ الخزائن الدولية تحتفظ بمجموعات من المخطوطات العربية نسخت بالحرف العبري كبعض مؤلفات ابن رشد الحفيد[18]، أو نسخت بالحرف اللاتيني أو كتبت بالحرف الكرشوني وهو الخط السرياني المستعمل في أحد الأديرة المسيحية في "سورية" يسمى كرشونة"[19]. وفي مقابل المخطوط العربي الإسلامي نجد المخطوط العربي المسيحي، إنه ذلكم الكتاب الذي يكون صاحبه مسيحيا لكنه يكتب باللغة العربية ويتناول فيه موضوعا عربيا أو يعالج قضايا عقائدية مسيحية. ومن الأمثلة على ذلك مؤلفات الكاتب المسيحي فضل الله الصقاعي 726هـ، من نصارى دمشق وضع مختصرا لوفيات الأعيان لابن خلكان كما وضع ذيلا عليه وسماه تالي وفيات الأعيان. كما وضع مؤلفون نصارى كتبا بالعربية أبرزوا فيها أهم القضايا الدينية المسيحية. وقد اهتم بهذا النوع من المخطوطات المستشرق الفرنسي جيرار طروبو (G.Troupeau) فوضع في سنة 1972 و1974

---

[17]- جوفروا روبير بيليوغرافي بخزانة جامعة كمبردج، متخصص في الدراسات الإسلامية. يشرف منذ سنة 1982 على الكشاف الإسلامي (Index Islamicus) بعدما كان يشرف عليه العالم بيرسن (J.M.Pearson).

[18]- بعض تلخيصات وترجمات ابن رشد للكتب الفلسفية اليونانية لم تصل إلا بالحرف العبري. وهذا من إيجابيات هذه الظاهرة.

[19]- المخطوط الكرشوني هو المخطوط العربي المكتوب بالحرف السرياني. ومدينة كرشونة (تسمية سريانية، قيل كرشون بمعنى البطن بالسرياني، وقيل هو اسم لأحد النصارى السريان) في سورية تعيش فيها جماعة سريانية في دير لهم وكتبوا العربية بحروف سريانية.

فهرسا في مجلدين للرصيد العربي المسيحي المحفوظ بالخزانة الوطنية الفرنسية[20]. ومن بين التسميات التي سُمّيَ بها المخطوط ما اصطلح عليه في الغرب بالمخطوط الجامعي (manuscrit universitaire ويطلَق على الكتاب الذي يتضمن المواد الأساسية التي تدرّس بالجامعات الغربية في نهاية العصر الوسيط وهي: الطب واللاهوت والقانون والفنون الحرة، ولا يعتبر المخطوط جامعيا ما لم يتناول هذه العلوم. ومنها كذلك ما نعتوه بالمخطوط الحديث وهو ذلكم الكتاب الذي خطه المؤلف بيده وقدمه للطابع أو الناشر، وهو مصطلح حديث النشأة ظهر بعد اكتشاف صناعة الطباعة. ومنها أيضا ما اصطلح عليه بالمخطوط الهجين. فالهجين في العربية من كان أبوه عربيا وأمه أعجمية. ويطلق هذا الوصف على المخطوط الذي يتم نسخه على مواد كتابية مختلفة كأن ينسخ جزء منه على الرق والجزء الآخر على الورق أو يكتب قسم منه على الكاغد العربي الأصيل وقسم آخر على الورق الأوروبي الذي يحمل تلكم العلامة المائية التي يطلق عليها الغربيون (Filigrane) والتي يخلو منها الورق العربي[21]. ومن الأمثلة على هذا ذلكم المعجم اللاتيني - العربي[22] الذي تحتفظ به مكتبة جامعة ليدن بهولندة، ورقا العنوان والتختيمة من الرق ومعظم المتن نسخ على الورق. وعلى الرغم من اعتبار هذا المعجم استثناء أو مفارقة كوديكولوجية فإن تركيبه المزدوج يبرز الانتقال التدريجي من الرق إلى الكاغد كمادة للكتابة. ومن النعوت التي ألصقت بالمخطوط العربي لفظ خزائني نسبة إلى خزانة. والمخطوط الخزائني (Bibliophilique) هو المخطوط الأنيق المزخرف المنسوخ نساخة جميلة رائعة برسم خزانة

---

[20]- نشر المستشرق الفرنسي G.Troupeau، بحثا درس فيه وقفيات مجموعة من المخطوطات المسيحية المحفوظة بالخزانة الوطنية الفرنسية وتبيّن له أن مثل هذه الدراسات قد تسهم في دراسة التاريخ والجغرافيا للديانة المسيحية. وقد أبرز واحد من هذه المخطوطات وجود طائفة قبطية مسيحية في جزيرة قبرص لأنه كان موقوفا على خزانة كنيسة قبطية في الجزيرة حسب الوقفية. وكان ذلك في القرن السابع عشر للميلاد. انظر: les actes du waqf des manuscrits arabes chrétiens – dans : la tradition manuscrite en écriture arabe. P.45. Paris 202.

[21]- من المعلوم أن الكاغد دخل أوروبا عن طريق العرب والدليل على ذلك وجود كلمة رزمة العربية التي تطلق على إضبارة من الكاغد توجد في كثير من اللغات الأوروبية كالإسبانية RAZMA والبرتغالية REZMA والفرنسية RAME وغيرها.

[22]- مكتبة جامعة ليدن (or.231) .

ملك أو أمير أو وجيه من الوجهاء. وقد يكون مصحفا مذهبا أو كتابا مرصّعا يكتبه خطاط ماهر، ولا تكاد تخلو خزانة من الخزانات العالمية من مجموعة من هذا النوع من المخطوطات تعرض في غالب الأحيان في أبهاء المكاتب أو في نظائر الزجاج كتحف نادرة. ومنها كذلك ما يسمى بالمخطوط الدعى (Bâtard) والدعى في اللغة هو الذي لا يعرف أبوه. وفي مجال التراث هو ذلكم المخطوط الذي لم يقابل على أصل من الأصول أو لم يكن في ملك عالم كبير أو لم يرتبط سنده بشيخ من الشيوخ، أو لم ينسخه نساخ معروف أو ما قارب ذلك. وكان القدماء يقولون، إن الكتب التي لم تصحّح على مؤلفيها ولو بوسائط، لا يجوز الاعتماد عليها في النقل[23]. وفي مقابل المخطوط الدعى نجد المخطوط الأصلي أو النسخة الأصلية (Original) وهي التي خطها المؤلف بيده (Autographe) أو أشرف على نسخها وصححها بنفسه. ومن هذه النعوت كذلك ما يسمى عند الغربيين بالمخطوط العلمي (Manuscrit Savant) الذي يبرز سمات خاصة قد تميزه عن المخطوطات عامة. ثم المخطوط النادر الذي لا توجد منه إلا بضع نسخ أو يتميز بصور وزخارف قد تميزه عن باقي المخطوطات ككتاب كليلة ودمنة. ومنها المخطوط الفريد الذي لا توجد منه إلا نسخة واحدة في العالم. وكم هي كثيرة تلكم المخطوطات الفريدة التي تم تحقيقها اعتمادا على تلكم النسخة الوحيدة. نذكر من بينها طوق الحمامة لابن حزم المحفوظة في خزانة جامعة ليدن بهولندة. وكتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة أو كتاب العرجان والبرصان والعميان والحولان للجاحظ والجزء الخامس من كتاب المقتبس لابن حيان المحفوظ كلاهما في المكتبة العامة والخزانة الملكية بالرباط. وسمي المخطوط منسوبا إذا تولد عن مخطوط أصلي أو قوبل عنه. أما المخطوط المبهم ويسمى كذلك المقطوع أو المعيب هو المبتور من الأول (acéphale) أو الأخير أو في كليهما معا (manuscrit en lambeaux) أو به علة من العلل. ومنها المخطوط المرحلي وهو المخطوط الذي يؤلف على مراحل كما صنع ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان. وهناك المخطوط المصوّر أي الذي أخذ

[23]- المكاتب الإسلامية: عبد الحي الكتاني بمسودة المكتبة العامة بالرباط 3002 ك.

بالصورة وليس منسوخا. ويطلق المخطوط المؤرخ على المخطوط الذي يحمل تقييد ختامه تاريخ النسخ، ويُسمى المخطوط مطلقا إذا خلا من تاريخ النسخ.

وخلاصة القول فإن مصطلح "مخطوط" حديث في كل اللغات وأن ظهوره أفرزه اكتشاف الطباعة. وإذا كان الاهتمام به كمتن قد بدأ منذ نهاية عصر النهضة الحديثة فإن الاشتغال به كقطعة مادية بدأ في القرن الماضي في إطار ما يسمى بعلم المخطوط بمفهومه الحديث أو الكوديكولوجيا بعناية الفيلولوجيين اللاتين. وإذا كان المخطوط الأوروبي قد خطا خطوات في هذا الإطار فإن المخطوط العربي الذي يعتبر أضخم تراث في العالم[24] مازال في المراحل الأولى من دراسته دراسة مخطوطية علمية حديثة.

[24]- تتراوح أرصدة المخطوطات العربية المحفوظة في مختلف خزائن العالم ما بين ثلاثة إلى خمسة ملايين مخطوط، بينما لا تتجاوز المخطوطات اليونانية خمسين ألف مخطوط 50000 وتتراوح المخطوطات اللاتينية بين ثلاثمائة ألف وخمسمائة ألف مخطوط.

علم المخطوط العربي

من الصعوبة بمكان في الوقت الراهن تحديد ما يسمى بـ "علم المخطوط" تحديدا نهائيا، وذلك بالرغم من تلكم التعريفات المتعددة المتناثرة في مختلف الدراسات الغربية كتبا كانت أو أبحاثا منشورة في الدوريات المتخصصة. والسبب في ذلك هو أن هذا العلم ما زال في بداياته الأولى، وطبيعي أن تختلف الآراء وتضطرب المواقف بين ذوي الاختصاص في تحديد هذا المولود الجديد. ولابد لنا في حالة إقدامنا على دراسة المكونات التأسيسية لعلم مخطوطات عربي حديث أن نشير بإيجاز إلى نشأة هذا العلم في الغرب ونحدد الأشواط التي قطعها عند الفيلولوجيين في أوربا المهتمين بالدراسات العلمية للنصوص التراثية الغربية، اليونانية واللاتينية منها على الخصوص. فإذا كانت دراسة المخطوط عند الفيلولوجيين وسيلة لممارسة عملية نقد النصوص، فإنها عند هذه الفئة الجديدة التي يدعى أصحابها بالكوديكولوجيين مادة أساسية تدرس لذاتها، باعتبار أنه لا يمكن البحث في توثيق نص من النصوص وتحقيقه ودراسته دون الإلمام بالأسس المادية وتحديد الطرق التي وصل إلينا بها هذا النص.

إن الكوديكولوجيا علم يستمد أصوله ومقوماته من أعمال الفيلولوجيين الكلاسيكيين الفرنسيين منذ القرن السابع عشر، خصوصا تلكم التي قام بها الرهبان البندكتيون في الكنائس والأديرة كالراهب منتفوكون (Montfaucon) [1741م] الذي يعتبر كتابه Bibliotheca bibliothecarum، أي مكتبة المكتبات أو ببليوغرافيا خزائن الكتب من أهم مصادر هذا العلم. وبالرغم من اتفاق المختصين في هذا المجال على استقلالية العلم، فإنهم اختلفوا في تعريف مفهومه وتحديد مكوناته. إن الكوديكولوجيا عند ألفونس دان (Alfonse Dain)- وإليه ينسب وضع هذا اللفظ codicologie - هو العلم الذي يهدف إلى دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية دون الاهتمام

بالخط. وبهذا تستقل الكوديكولوجيا عن الباليوغرافيا[1] التي كانت تعني "علم المخطوطات" بالإضافة إلى "علم الخطوط القديمة"[2]. إن هذا الاستقلال جعل مهمة الكوديكولوجي تشبه من بعض الوجوه مهمة الأركيولوجي الذي يهدف إلى إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة لتمكنه من دراسة حضارة من الحضارات الماضية. إنه جزء من التاريخ يدرس الكتاب المخطوط بوصفه موضوعا ماديا، أي بوصفه وعاء للنص[3]. لهذا اقترح أحد العلماء البلجيكيين مازي (Masai)[4] عبارة "آثارية المخطوط" (archéologie du manuscrit) للتعبير عن علم المخطوط فقال: "الكوديكولوجيا هي أركيولوجيا الكتب التي تعتبر أغلى وأنفس آثار حضارة معينة". وبرر "مازي" هذه التسمية بأن لفظ "كوديكس" (Codex) اللاتيني الذي يكوّن جزءا من كلمة كوديكولوجيا (codicologie) يستثني كل ما ليس بكتاب كالقراطيس واللفائف والرقم الطينية وما ماثلها من الأوعية القديمة التي يطلق عليها اللاتينيون لفظ "volumen"، ويعني باللاتينية اللفافة أو "الطومار" بالتعبير الشرقي.

وللخروج من هذا الغموض، لجأ بعض العلماء إلى استعمال عبارة أعم وأوسع من شأنها أن تعبر عن كل ما هو مكتوب، بما في ذلك اللفائف واللوحات الطينية، وهي "الكوديكولوجيا الوسيطة" (codicologie médiévale) بمعناها الواسع الذي يشمل "الكوديكس" بالإضافة إلى الأوعية القديمة السالفة الذكر. وأخيرا، اقترح الفيلولوجي البلجيكي جلبير وي (Gilbert Ouy) عبارة "وثائقية المخطوط" (archivistique du manuscrit) لأن الكوديكولوجي الذي يبحث بحثا ماديا في مجموعات المخطوطات يكاد يشبه في طريقته ومنهجه في البحث تلكم الطرق التي يستعملها الوثائقي في بحث الوثائق ودراستها.

---

[1]- لذلك أصبح اللفظان (باليوغرافيا وكوديكولوجيا) يختلفان من حيث الهدف ومن حيث المنهج. الباليوغرافي هو الخبير في مادة الكتابة، طريقته هي طريقة المؤرخ الذي يدرس تطور الظواهر في الزمن. أما الكوديكولوجي فهو الخبير في مادة المكتوب (l'écrit) تشبه طريقته طريقة العالم الأثري.

[2]- كان العلماء الألمان يقولون " الباليوغرافيا التطبيقية أو التاريخية" (Paläographie) للتعبير عن علم المخطوطات قبل أن يستعملوا لفظ هاندشريفتنكونده (Hands chriftenkunde)، واحتفظوا بلفظ " باليوغرافيا" لعلم الخطوط القديمة.

[3]- Albert Derolez, Codicologie des manuscrits en écriture humanistique sur parchemin, p.7.

[4]- منذ 1950 بدأ فرانسوا مازي (F.Masai) يهتم بهذه القضية حيث أثبت أن مخطوطات العصرين القديم والوسيط يجب أن تدرس وحدها كما تدرس كل آثار الحضارت القديمة.

وفي محاولة للنهوض بعلم المخطوطات وإيمانا منهم بتقدمه وتطويره، ارتأى المختصون في هذا المجال الذين كانوا يفكرون ويعتبرون أن دراسة المخطوط ما كانت إلا إحدى الوسائل لدراسة التحولات الثقافية في مجتمع من المجتمعات، أن يعتمدوا مقاربة معاكسة تتجلى في جعل التاريخ الثقافي أداة ووسيلة للبحث في تاريخ المخطوط. وقد يتم هذا بدراسة الأرصدة الضخمة من المخطوطات المحفوظة في خزائن العالم دراسات خاصة تمكنهم من الإجابة عن العديد من التساؤلات مثل: ما عدد المخطوطات التي نسخت في جهات خاصة في فترة معينة من فترات التاريخ؟ وما الوسائل المستعملة لإنجازها؟ وكيف كانت التكلفة؟ وما المردود الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذه العمليات؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي كانت تخامرهم عندما كانوا يحاولون وضع المخطوط في محيطه المادي والتاريخي والجغرافي. وهنا يلجأ الكوديكولوجيون إلى ركوب البحث الكمي في دراسة علم المخطوط، لأنه هو الطريق الوحيد الذي قد يمكن من تموقع الكتاب في سياق إنتاج الكتب في عصره ويمكن من تقدير الخصائص الفردية للمخطوطات في الزمان والمكان. ولتحقيق هذه الأهداف، عمل الفرنسيون في الثلاثينيات من القرن الماضي على تأسيس معهد في إطار المركز الوطني للبحث العلمي (C.N.R.S) لدراسة المخطوطات دراسة كوديكولوجية سموه "معهد البحث وتاريخ النصوص". وكانت الشعب البارزة فيه هي: شعبة المخطوطات اليونانية، وشعبة المخطوطات اللاتينية، وشعبة المخطوطات الفرنسية الوسيطية ومخطوطات عصر النهضة[5]. وقد أضافوا فيما بعد شعبتين لدراسة المخطوطات العبرية والعربية لما تبين لهم أن الدراسات الكوديكولوجية الخاصة بمخطوطات الشرق الأوسط شبه منعدمة، كما تأكد لديهم أن مناهج البحث والقواعد التي وضعوها لدراسة المخطوطات الغربية قد يمكن تطبيقها في دراسة المخطوطات الشرقية[6].

---

[5]- هناك جماعة للبحث في الإنسانيات الفرنسية (l'humanisme français) في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين تدرس مخطوطات هذه الفترة دراسة كوديكولوجية.

[6]- وقد نشروا مجموعة من الأبحاث المهمة أفاد منها علم المخطوط الحديث. والدليل على ذلك هو أنهم درسوا التراث اليوناني المخطوط بالمناهج نفسها التي درسوا بها التراث اللاتيني، بالرغم من كون التراث اللاتيني تراثا موروثا وملكا لهم، وكون التراث اليوناني تراثا وافدا.

وقد جهزوا هذا المعهد الفريد بمختبر علمي لدراسة المخطوط دراسة علمية مستعيرين من أجل ذلك تقنيات علم الفيزياء وعلم الكيمياء لصيانة المخطوطات والحفاظ عليها كالتحليل الكيميائي للأمدة والأحبار والأوعية، كما استعملوا ما يسمى بالهولوغرافيا (holographie) التي تمكنهم من المقارنة بين الخطوط والبتارديوغرافيا (bétaradiographie) لمعرفة ما يسمى بالفيليغران (filigrane) أو علامة الكاغد المائية وغيرها من التقنيات التي عملت على حل مجموعة من المشاكل المطروحة على مستوى المخطوط كان حلها من قبيل المستحيل حتى الآن كقراءة الحروف التي اندثرت وفك رموز النصوص التي محيت أو انطمس بعضها لسبب من الأسباب.

وعلى الرغم من إحداث شعبة في هذا المعهد لدراسة المخطوط العربي كوديكولوجيا، فإن النتائج لم ترق إلى ما وصلت إليه باقي الشعب، بما في ذلك الشعبة العبرية. فبقيت الكوديكولوجيا العربية حقلا بكرا لم يهتم به إلا في العقود الأخيرة من القرن الماضي، وذلك من خلال مجموعة من الدراسات القليلة التي نشرها ثلة من المستشرقين الهولنديين أو بعض الفرنسيين أمثال فون كننسلفد (Von Koninksfild) وفيتكام (Withkam) وفيكرز (Wiguers) وديروش (Déroche) وآخرين يمكن عدهم على رؤوس الأصابع. وأما تلكم الدراسات حول المخطوط العربي التي وضعها بعض الرواد من المستشرقين والمحدثين من العرب منذ النصف الأول من القرن الماضي كالخطاطة العربية (1905Arabic Paleography م) للعالم موريتز (Moritz) والكتاب الإسلامي (The Islamic Book) لمؤلفيه توماس أرنولد (T.Arnold) وأدولف كرومان (A.Grohmann) والكتاب العربي (The Arabic Book)[7] للعالم الدنماركي جوهانيس بدرسون (Pederson Johannes). والكتاب العربي المخطوط إلى القرن العاشر الهجري لصلاح الدين المنجد وغيره من ذوي الاختصاص كقاسم السامرائي في كتابه عن علم الإكتناه والباحث أيمن فؤاد سيد في كتابه الكتاب العربي وعلم المخطوطات. أقول إن تلكم الدراسات وهذه الأعمال على أهميتها واهتمامها بالمخطوط العربي، من حيث النشأة

---

[7]- نشر الكتاب أولا باللغة الدانماركية عام 1946م ولم يظهر باللغة الإنجليزية إلا في عام 1984م بترجمة جوفروي فرينش (G.French) ولم ينتقل إلى العربية إلا في عام 1989م ترجمه السيد حيدر غيبة وطبع بدمشق بمطبعة الأهالي.

والنساخة والتجليد والوراقة والخط وغيرها، لم تجب عن التساؤلات التي يطرحها علم المخطوط الحديث وفق مكوناته وقواعده وأساليبه. شأن هؤلاء المحدثين عربا ومستشرقين شأن أسلافنا العلماء - رحمة الله عليهم - فيما يخص العناية بالمخطوطات. فلا يستطيع أحد أن ينكر أياديهم البيضاء على هذا التراث، فقد قيدوا أوابده ووضعوا كتب الفهرسات والتراجم والمؤلفات التي اهتمت بالكتاب المخطوط كتابة وقلما وصناعة وتجليدا وتذهيبا واصطلاحا وتجارة وما إلى ذلك مما عبر عنه الأقدمون بالوراقة التي جعلها ابن خلدون شاملة للانتساخ والتصحيح والتسفير وسائر الأمور الكتبية والدواوين، غير أنها لم تتعرض للتقنيات والجزئيات والحفريات والمعالجات التي تفرضها مقومات الكوديكولوجيا الحديثة ومكوناتها.

ما هي مكونات هذا العلم إذن؟ وما هي العناصر الأساسية التي يجب معالجتها وتناولها لتأسيس علم مخطوط عربي؟ وما هي المهام والوظائف المنوطة بهذا العلم؟

إن مكونات علم المخطوط العربي وعناصره ووظائفه لا تختلف كثيرا عن مكونات الكوديكولوجيا الغربية، مادامت المناهج والقواعد الحديثة التي وضعت لدراسة المخطوط العربي يمكن تطبيقها على المخطوط الشرقي، بالرغم من الفوارق الكثيرة بين الشرق والغرب. وأول مهام الكوديكولوجي غربيا، كان أو شرقيا، هي وضع القوائم والكشافات لمجموعات مخطوطات الخزائن تمهيدا لوضع فهارس علمية مبنية على قواعد ثابتة. فإذا خطا الغربيون خطوات مهمة في هذا المجال، فإن التراث العربي المخطوط مازال يفتقر إلى كشاف شامل لهذا التراث بالرغم من الجهود المبذولة هنا وهناك في مختلف جهات المعمورة. ولتحقيق هذه الغاية، يجب القيام بمسح شامل لهذا التراث على مستوى البلاد العربية والبلاد الإسلامية[8]. ثم نختم بإحصاء للمخطوطات العربية المحفوظة في خزائن العالم.

---

[8]- نشير هنا إلى الإستبانة التي وضعتها الإيسيسكو عن مشروع حماية المخطوط وصيانتها في الدول العربية والإسلامية.

وقد يمكِّن هذا الإنجاز من تحقيق بعض العناصر الأساسية لتأسيس علم مخطوط عربي، وهي وضع فهارس علمية أولا، ثم وضع الفهارس الموحدة[9] (collectifs catalogues) التي تعتبر اللبنة الأولى لوضع فهرس دولي موحد يضم جميع المخطوطات العربية، ثم القيام بفهارس حسب الفنون، كفهارس المخطوطات الطبية والفلاحية وكتب الصنعة وغيرها، ثم فهارس بالمخطوطات الفريدة والنادرة، وأخرى بالمخطوطات المؤرخة[10]، وأخرى بالمخطوطات القديمة أو الأصلية، وأخرى بالمزخرفة والخزائنية، أو فهارس خاصة بمخطوطات عالم واحد مختصرة أو مطولة، إلى غير ذلك من الفهارس العلمية التي نراها وضعت لتراث الغرب. وظهور بعض الأعمال من هذا القبيل في جهة من الجهات وبشكل انفرادي قد لا يعني أننا في الطريق القويم للقيام بهذه المهمة الأساسية من مهام علم المخطوط العربي. وإذا كانت الفهرسة من عناصر علم المخطوطات القليلة التي تمارس في العالم العربي والتي يمكن اعتبارها مكونا أساسيا من مكونات علم المخطوط، فإن اختلاف المناهج وتضارب الآراء بين المشتغلين بها من حيث النمط المتبع والبطاقة النموذجية لا تساعد على البث في هذه القضية بثا نهائيا يمكننا من المرور إلى باقي المكونات كالقيام بوضع ما يسمى بـ **فهارس الفهارس**. إن أول محاولة شبه رسمية لهذا النوع من الفهارس هي تلكم المحاولة التي قام بها المستشرق الألماني بروكلمان في الجزء الأول من كتابه الكبير **تاريخ الأدب العربي**، بالرغم من ندرة الفهارس الخاصة بالتراث العربي المخطوط حتى نهاية القرن التاسع عشر وهو الزمن الذي وضع فيه هذا المستشرق كتابه (1898م). وقد تتابعت المحاولات إلى الثمانينيات حين وضع العالم العراقي كوركيس عواد كتابه **فهارس المخطوطات العربية في العالم** مرورا بالمستشرق الفرنسي فاجدا في كتابه **دليل الفهارس وقوائم المخطوطات العربية** (1949م) وويسمان (Huisman) في كتابه **المخطوطات**

---

[9]- تجدر الإشارة إلى مشروع الباحث الأمريكي ريشاردتسون(Richardson) الذي وضع " الفهرس الدولي الموحد للمخطوطات" (A Union World Catalogue of Manuscript Books). غير أن هذا المشروع قد توقف ولم يعد من السهل وضع فهرس من هذا الحجم في الوقت الراهن.

[10]- إن التاريخ الدقيق أو التقريبي للمخطوطات يمكن من إعطاء قواعد متينة لتاريخ النصوص، كما يعمل على تقدم الدراسات الباليوغرافية التي تبحث في علم الخطوط وتاريخها وتطورها.

العربية في العالم ثم كتاب فؤاد سيزكين تاريخ التراث العربي. ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى المحاولات الطموحة في هذا المجال التي يضطلع بها كل من معهد المخطوطات العربية ومعهد آل البيت لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن.

ويبقى التراث العربي المخطوط حتى الآن مفتقرا لهذه العملية التي من شأنها إعطاء فكرة عن أرصدة المخطوطات العربية في العالم، وبالتالي تبرز إلى حد ما وضعية هذا التراث ومدى اهتمام أهل الاختصاص به. ومما يدخل في صميم الكوديكولوجيا القيام بوضع فهارس النساخ والمجمعين وهواة الكتب ومجموعات المخطوطات أو الخزائن. لا يخفى على الباحثين في التراث القديم وأصحاب التحقيق تلكم المشاكل التي صدرت عن النساخ طوال التاريخ الإسلامي. إن جهل النساخ والسرعة في النسخ واختلاف الأذواق والمذاهب والعقائد والاتجاهات السياسية وغيرها وما ترتب عن ذلك من تصحيف وتحريف وسقط وخلل- كل ذلك خلف أثره في التراث المخطوط، الأمر الذي يدعو إلى القيام بمجموعة من الأعمال العلمية لمعالجة هذه المشاكل يكون أولها وضع فهارس للنساخ ومونوغرافيات خاصة بهم تمكن الكوديكولوجيين من التعرف عليهم والبحث في حياتهم وسلوكهم وتخضعهم لنظرية الجرح والتعديل على غرار ما فعل المحدثون برواة الحديث. أما البحث في الخزائن ومجموعات الكتب وفي أصحابها ومالكيها وفي مصادر المخطوطات وتناقلها بين الخزائن والدول والأشخاص وما شابه ذلك قد يمكن المختصين من الإجابة عن بعض التساؤلات التي تؤرقهم وتشغل بالهم مثل التساؤل عن الأيدي التي تناولت الكتاب وتصفحته وتملكته وقرأته وحشته وعلقت عليه، وعن المكتبات أو المجموعات الخطية التي كان ينتمي إليها المخطوط، ثم عن الطرق التي مر منها في تناقله بين هذه المجموعات إلى أن استقر به الأمر في خزانة معينة. إن من شأن هذا البحث أن يساعد على اكتشاف الأسباب التي دعت إلى ضياع مخطوط معين بعدما استفاد منه المؤلفون ونقلوا منه أو اقتبسوا منه وما أكثر تلكم المؤلفات التي اقتبس منها وضاعت مع الزمن ! وقد حاول بعض المحدثين من الغيورين على هذا التراث أن يعملوا على إيجاد المفقود من الموجود،

فجمعوا مجموعات من النصوص التي فقدت أصولها من بطون ما هو موجود من كتب التراث، فسلكوا طرقا ووضعوا قواعد للبحث عن هذه المصادر وتلكم النصوص[11]. ويدخل في هذا الإطار البحث عن أسماء مؤلفي الكتب المجهولة المؤلف، وما أكثرها في كتب التراث العربي! إن كتب التراجم والفهرسات والمؤلفات البيلوغرافية العربية ملأى بالمصنفات التي لا نعرف لها مؤلفا. وقد يمكن العثور على هذه الأسماء، بالرغم من الصعوبات التي يفرضها مثل هذا البحث الذي لا يستطيع خوض غماره إلا ذوو التجربة من جهابذة العلماء المتمرسين على التعامل مع التراث.

وفي هذا الإطار كذلك، تطرح قضية مصطلح علم المخطوط، وهو حقل مازال بكرا. إن غياب معجم بهذه المصطلحات يترتب عنه القصور في الوصف وعدم الدقة في الفهم والتعريف. فما أوفر تلكم الألفاظ الخاصة بالمخطوطات التي لا نفهم معناها، منها الفارسي والتركي والهندي والعربي! وما أكثر تلكم الحالات التي تواجهنا في مجال الاختصاص التي نحتاج إلى الألفاظ للتعبير عنها والتعريف بها!

إن معالجة هذه القضايا وما ماثلها مما يدخل في صميم علم المخطوط من طرف ذوي التجربة والعلم الواسع والإحاطة الكاملة بكتب التراث والتعمق في معرفة الكاغد والحبر والجلد والرق والتسفير والأقلام والزخرفة والتصوير والمخطوط وما إلى ذلك، هي التي تقعد العلم وتضبطه وتقننه. يقول أحد المحدثين: "إن علم المخطوطات تجارب تحتاج إلى التقعيد، وقواعد تحتاج إلى المصطلحات، واصطلاحات تحتاج إلى التعريفات، وضوابط تحتاج إلى التقنين، ومعارف تحتاج إلى التدوين، وخبرة تحتاج إلى التلقين". ومما يدعو إلى التفاؤل هو تلكم المبادرات التي تجلت في إقامة ندوات دولية خاصة بمخطوط الشرق الأوسط نال منها المخطوط العربي حظه كالندوة الدولية عن الكوديكولوجيا في باريس سنة 1984م، وندوة

---

[11]- عثر على كثير من النصوص الشعرية والنثرية والفقهية في بطون الكتب، خاصة منها ما يسمى بـ"المؤلفات الموسوعية"، وهي نصوص منقولة أو مقتبسة من كتب لم نعرفها إلا بالاسم. انظر: حكمت ياسين، القواعد المنهجية في التنقيب عن المفقود من الكتب والأجزاء التراثية.

إصطانبول سنة 1986م، وندوة كلية آداب الرباط سنة 1992م عن **المخطوط العربي وعلم المخطوطات**، وندوة مؤسسة الفرقان بلندن سنة 1993م: **دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبار المادة والبشر** وندوة باريز سنة 1994م، والندوات الأخيرة في إيطاليا وفي معهد المخطوطات بالقاهرة الذي لا يستطيع أحد أن ينكر جهوده في هذا المجال. كل هذه الندوات قد تمخضت عن أعمال طبع معظمها كما طبعت إلى جانبها أعمال تدخل في صميم الكوديكولوجيا العربية كالكتاب الذي نشرته ثلة من الفرنسيين بإشراف الأستاذ ديروش عن الكوديوكولوجيا العربية **ومعجم المصطلحات التقنية والببليوغرافيا** الذي نشره العالم الكندي آدم كادجيك (A.Gacek)[12]. وبالرغم من هذه المحاولات الطموحة الفردية، فإن علم المخطوط العربي مازال يحبو. وإذا أردنا له الوقوف على رجليه ليخطوَ خطوات علمية ناجحة على غرار ما حدث عند الغربيين، فلابد من إحداث مؤسسة على مستوى الفضاء العربي تكون مرجعا يرجع إليه للبتّ في القضايا، مستفيدا من التجربة الغربية في مجال الكوديكولوجيا، متنورا بعقول أسلافنا النيرة ومستقطبا لذلك مجموعة من خيرة أهل العلم وذوي الاختصاص والتجربة المعاصرين المتمرسين بالتعامل مع المخطوطات، الذين مات معظمهم وبدأت تجنح للغروب شمس من بقي منهم. وإن غياب هذه المؤسسة التي يمكن أن تكون البؤرة التي تصب فيها جهود هؤلاء الأفراد في مجال لن يتقدم ويتطور إلا في إطار العمل الجماعي لمن شأنه أن يعمل على تكريس الاستمرار في ترك الحبل على الغارب في ميدان من الميادين الحيوية في صناعة العلم وتخريجه.

---

[12] ـ نشر باللغة الإنجليزية بليدن بهولندة سنة 2001. وقد نشر الباحثان أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي أول معجم باللغة العربية عن مصطلحات المخطوط العربي(قاموس كوديكولوجي) في سنة 2003م بالمغرب. وستصدر طبعة ثانية مزيدة ومنقحة في غضون سنة 2004م.

علم المخطوطات والتحقيق العلمي

جرت عادة العاملين في مجال التحقيق العلمي للتراث العربي أن يعتمدوا في هذه العملية العلمية على نسخة أو نسخ متعددة من المخطوط الواحد باعتبارها نسخا تحتاج إلى شيء من التصحيح والتخريج والمقابلة لتصل بهم إلى النسخة الأصلية أو إلى صورة قريبة منها. والحقيقة أن هذه المخطوطات التي تمت بالاعتماد عليها وبواسطتها عملية التحقيق وأن الطريقة أو الطرق التي اتبعت في تحقيق ذلك ليس من شأنها، كما لا يمكنها أن تفضي إلى ما نتوخاه من هذه العملية من نتائج. ويرجع السبب في ذلك بالأساس إلى أن النسخ المعتمدة لم تخضع للبحث الفيلولوجي الدقيق كما أنها لم تطبق في دراستها قواعد وأساليب علم المخطوطات الحديث. فما هو الدور الذي تلعبه الكوديكولوجيا في عملية التحقيق العلمي؟ إذا كان علم المخطوطات الحديث أو الكوديكولوجيا يبحث في تاريخ المكتبات وفي مصادر المخطوطات وفي الفهرسة وفي الوقفيات والتملكات وفي النساخة والنساخ وفي الجوانب المادية للمخطوط وفي كل ما هو خارج عن النص فإن هذا العرض الوجيز لن يتناول من العناصر المكونة لهذا العلم إلا عنصرين يعتبران أكثر ارتباطا من غيرهما بعملية التحقيق العلمي: أولهما البحث أو التفتيش عن المخطوطات، ثانيهما أثر النساخة والنساخ في المخطوط العربي عبر تاريخه الطويل.

إن التفتيش عن المخطوطات وفهرستها وتأريخها والبحث في مظانها يعتبر المرحلة الأولى في الدراسة سواء بالنسبة للكوديكولوجي الذي يهتم بالمخطوط كقطعة مادية أو بالنسبة للفيلولوجي الذي يسعى إلى نقد نص المخطوط ونشره. والغاية العلمية من عملية البحث عن المخطوطات هي جمع أكبر عدد ممكن من نسخ المخطوط الواحد قد تمكن الفيلولوجي من وضع تاريخ لنص هذا المخطوط الذي أصبح السبيل العلمي الوحيد للوصول إلى نسخة المؤلف أو إلى صورة قريبة منها. ولقد دأب المحدثون من المهتمين بشؤون التراث العربي المخطوط أن

يكتفوا في التحقيق بنسخة واحدة من الكتاب إذا لم يعرف غيرها أو بنسخ معدودة يعتمدون أقدمها أو أصحها، ويحتفظون في الهوامش بالروايات المختلفة الموجودة في النسخ التي اعتبرت ثانوية مع تخريج الأبيات الشعرية أو تكميلها وشرح الغريب من الألفاظ وترجمة الأعلام وغير ذلك مما نجد له أثرا عند القدماء في توثيق كتب سابقيهم وتحقيقها، كما صنع مثلا أبو عبيد البكري في كتاب اللآلي في شرح أمالي القالي أو كما نجد عند عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب.

إن اعتماد نسخة واحدة في التحقيق شيء يرفضه علماء الفيلولوجيا اليوم، فالأولى بعمل من هذا القبيل أن يسمى تصحيحا لأن النسخة الفريدة ليس من شأنها أن تخضع للأساليب الحديثة في نقد النصوص، وعلى قدر علمي فإن معظم النسخ الفريدة التي خضعت لهذه العملية العلمية في تراثنا العربي كثيرا ما كانت ناقصة أو ملأى بالأخطاء من حيث مستوى التراكيب أو الألفاظ أو الأعلام، الشيء الذي فتح الباب على مصراعيه للنقد الحدسي والتخمين في الإصلاح[1]. وفي حالة وجود نسخ معدودة فإن مفهوم النسخة المعتمدة ومفهوم أقدم نسخة مفهومان غير واردين عند علماء الفيلولوجيا. إن النسخة الأم أو النسخة الأساس هي التي تمثل أقدم شكل للمخطوط بعد إخضاع نسخه المختلفة والمتعددة لعملية تاريخ النص (Histoire du texte) الذي يهدف إلى إعادة بناء وتركيب النسخة الأصلية. أما مفهوم "أقدم نص" أو "أقدم نسخة" وهو شعار كثير التداول عند دعاة التحقيق فإنه لا اعتبار له فيلولوجيا، فكم من نسخة حديثة أقوم وأقل خطأ من النسخة العتيقة إما لأنها سليلة عائلة سليمة قديمة أو لأنها نسخت عن نسخة أكثر قدما قريبة من النسخة الأصلية.

وإذا جاز لنا أن نتحدث عن مفهوم "أقدم نص" فباعتباره إحدى النسخ التي تساعد على تسهيل مأمورية المحقق في الوصول إلى النسخة الأم (archétype) التي ليست نسخة المؤلف ولكنها المنطلق لما بقي محفوظا ومتداولا من نسخ المخطوط. إن الاعتماد إذن على نسخة

---

[1]- **طوق الحمامة**، لابن حزم الذي توجد منه نسخة فريدة في خزانة جامعة ليدن بهولندة هي نسخة ناقصة لأن إحالات ابن حزم عليها في مؤلفاته الأخرى إحالات غير موجودة في نسخة هولندة. كذلك إحالات العلماء عليها بعد ابن حزم إحالات لا نعثر عليها في هذه النسخة اليتيمة. وكذلك قل في النسخة الفريدة لكتاب **الانتصار** لأبي الحسين الخياط والمحفوظة بدار الكتب بالقاهرة، إنها مليئة بالأخطاء ولا ينبغي اعتمادها في التحقيق.

واحدة أو عدة نسخ لم يعد مقبولا علميا وعمليا في عملية نقد النص مهما كانت الطرق والمناهج المطبقة في التناول. كما أنه لا ينبغي أن نمارس التحقيق العلمي بالطرق السالفة الذكر بدعوى قلة نسخ المخطوط الواحد أو عدم وجودها، بل يجب التفتيش عن المخطوطات وتجميعها وفهرستها لتتم الاستفادة منها في هذه العملية. ولا يعني وجود نسخ فريدة انعدام أخريات لنفس المخطوط. إن ما جمع حتى الآن وفهرس من المخطوطات العربية يقدره المختصون بثلاثة ملايين، وإن ما هو غير مفهرس وما لم يكتشف بعد بل لا يزال رهين محابس المكتبات العامة والخاصة يفوق ما هو معروف ومفهرس، ولا أدل على ذلك مما يكتشف من مخطوطات وما يصدر من فهارس المخطوطات من حين لآخر. فاعتبارا لهذه الاكتشافات التي تكاد تكون يومية، فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ليس مقبولا ولا معقولا ألا يبقى من الكتاب المخطوط سوى بعض نسخه على الرغم من تناقله وتنسيخه وتداوله عبر العصور في مختلف خزانات المدارس والجامعات والزوايا والمساجد التي تعد بالمآت وربما بالآلاف في أرجاء العالم الإسلامي الفسيح. إن التقصير الذي منيت به قضية البحث عن المخطوطات أدى إلى القصور في عملية تحقيق كتب التراث وإن عدم العثور على ما يكفي من نسخ المخطوط الواحد بعد التقصي والبحث في فهارس الخزانات لا يعني بالضرورة فقدان هذه النسخ إلى الأبد بدعوى أن المكتبات الإسلامية خضعت لألوان من التخريب والإتلاف والإهمال عبر التاريخ. إن ما تعرضت له خزانات أوربا من الإحراق وما أصابها من النهب والسرقة أكثر بكثير مما منيت به مكتباتنا العربية الإسلامية، ومع ذلك فإن خزانات الغرب تعج بملايين المخطوطات وتزخر بمآت النسخ من المخطوط الواحد. ولا ينبغي أن يعتقد أن الاجتياح الذي تعرض له التراث العربي عبر العصور هو السبب الوحيد في إتلاف الكثير من المخطوطات بل كان الاختلاف في الرأي وفي العقيدة والمذهب كما كان الإهمال كذلك من الأسباب التي كانت تدعو إلى فقدان الكتب واختفائها زمنا طويلا ثم لا تلبث أن تعود إلى الظهور بعدما تنتهي الدواعي وتزول الأسباب التي دعت إلى غيابها.

ومن الأمثلة على هذه الظاهرة في تراثنا العربي ما يرويه ياقوت في **معجم الأدباء**[2] عن أبي حيان التوحيدي الذي يحكي بدوره عن أبي بكر الإخشيد الذي رغب في الحصول على كتاب مفقود للجاحظ هو: **الفرق بين النبي والمتنبي**، فاستأجر مناديا ينادي في عرفات يسأل الناس عن هذا الكتاب، وعلى الرغم من الحشد العظيم فإنه لم يعثر عليه، واليوم، يحكي التوحيدي فإنه لا تخلو خزانة من نسخة منه، وقد رأيت أكثر من مائة نسخة. ويروي أن ابن خلكان كان يشكو من عدم حصوله على أكثر كتب المعري بينما يشهد أحد المتأخرين بوقوفه على معظم كتب أبي العلاء. كما قضى البيروني أكثر من أربعين سنة وهو يفتش عبثا عن نسخة من كتاب ماني **سفر الأسرار** إلى أن وفق إلى الحصول عليها[3]. ويقول ابن رشد في **كشف مناهج الأدلة**: إنه أراد الوقوف على بعض كتب المعتزلة استجلاء لبعض المشكلات الفلسفية التي كان يعنى بها فلم يتمكن من الحصول عليها، فهل فقدت بعض كتب المعتزلة قبل زمن ابن رشد (595 هـ)؟ وهل يبدو معقولا أن يعجز رجل كابن رشد عن الحصول على تراث المعتزلة الذي يمثل قسمة من أهم قسمات تطورنا الفكري والحضاري لو لم تمتد إليه بعض الأيدي لإخفائه ثمانية قرون؟ إن هذه الأيدي التي امتدت إلى تراث المعتزلة لم تكن غير أيدي المعتزلة أنفسهم، "إن فرقة الزيدية (زيد بن علي بن الحسين) التي تعتقد مذهب المعتزلة أقامت لها دولة في اليمن، فلما وقع الاضطهاد للمعتزلة على عهد العباسيين وشن خصومهم حملات الإبادة ضد كتبهم وآثارهم الفكرية أرسل واحد من أئمة الزيدية باليمن الرسل فجمعوا بقايا تراث المعتزلة من المواطن التي كانوا يعيشون فيها وجاءوا إلى صنعاء بهذه الكنوز وهناك نسخت وحفظت في مكتبات صنعاء وخاصة مكتبة الجامع الكبير، وهناك بقيت بعيدة عن أنظار الدنيا كلها لعدة قرون حتى إن كتاب بروكلمان **تاريخ الأدب العربي** يخلو من أية إشارة إلى هذه المخطوطات. وظل الحال كذلك حتى الخمسينات من هذا القرن حين سافرت بعثة من جامعة القاهرة فاطلعت عليها وصورت الكثير منها. ومنذ ذلك الوقت أمكن الوقوف على كتب كتبها المعتزلة

---

[2] - **إرشاد الأريب**: ج 6، ص. 721. انظر: كذلك: فرانز روزنتال: **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**: ص.53.

[3] - نفس المصدر، ص. 51 نقلا عن رسالة البيروني في فهرست كتب الرازي، ص.3.

أنفسهم وليس خصومهم، وأصبح باستطاعة الدارسين أن يعرفوا آراء المعتزلة من مصادرها لا من مصادر خصومهم"[4].

إن هذه الأمثلة تكفي لتنبيه المهتمين بشؤون التحقيق إلى أن ما يعتبرونه في حيز المفقود من المخطوطات قد يوجد الكثير منه محفوظا في مختلف الخزانات. إن التقصير في التفتيش عن المخطوطات جعل الكثير مما اعتبر محققا من كتب التراث غير ذي قيمة، بل اعتبرت هذه الكتب وهذه الأعمال من حيث المستوى الفيلولوجي مضيعة للوقت والجهد والمال بعدما اكتشفت نسخ أخرى للكتاب المحقق ألزمت الباحث المحقق إلزاما إلى إعادة النظر في تحقيقه كما دعت الباحث الدارس إلى إعادة النظر فيما أصدره من أحكام وما استخلصه من نتائج اعتمادا على النسخة المحققة. وأقتصر في هذا المجال على مثالين يتعلقان بعالمين يعتبران من كبار المحققين ومن المؤلفين القلائل الذين وضعوا تآليف في قواعد تحقيق النصوص؛ هذان العالمان هما المرحوم عبد السلام هارون وصلاح الدين المنجد. إن هارون حقق كتاب سيبويه واعتمد في عمله على نسخ أربع محفوظة كلها بدار الكتب بالقاهرة، إن هذه النسخ حسب هارون نفسه إما مجهولة الناسخ وعارية من تاريخ النسخ أو أنها حديثة العهد أو هي أوراق متناثرة، الانتفاع بها جد عسير، ولا تصلح لغير الاستئناس. ولو تقصى شيخ المحققين البحث عن نسخ أخرى للكتاب لوجد ثلاث نسخ في مكتبات تركيا ورابعة بخزانة جامعة "برنستن" بالولايات المتحدة وجميعها أقدم وأوثق من تلكم التي اعتمدها في تحقيقه. وقد تجمع عند باحثة فرنسية في المركز الوطني للبحث العلمي بباريز هي إمبير جنفييف (Imbert Geneviève) سبع وسبعون نسخة من كتاب سيبويه[5] وهو عدد كاف لتحقيق الكتاب تحقيقا حسب الأساليب الحديثة في نقد النصوص، وستتمكن هذه الباحثة من القيام بتاريخ نص الكتاب الذي سيعطي ولا شك نصا لمؤلف سيبويه مخالفا لكل النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعتا درنبورغ الفرنسي وهارون

[4]- **التراث في ضوء العقل**: عمارة محمد ، ص. 173.

[5]- اكتشف فؤاد سيزكين ستاوستين نسخة من الكتاب (انظر تاريخ التراث العربي) واكتشفت الباحثة جنفييف Geneviève إحدى عشرة نسخة - واكتشف أخيرا في إحدى زوايا المغرب الأقصى نسخة أخرى من كتاب سيبويه فأصبح العدد ثمانا وسبعين نسخة (78).

المصري، وسيضطر الباحثون في النحو العربي بعد صدور هذا العمل ونشره إلى تغيير موقفهم من كثير من آراء سيبويه النحوية. أما الأستاذ صلاح الدين المنجد فإنه قد حقق كتاب **اللغات في القرآن** المنسوب لأبي عبيد القاسم بن سلام (224 هـ) معتمدا على نسخة واحدة محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق. وقد فات المحقق أن الكتاب طبع مرتين إحداهما بهامش **تفسير الجلالين**، وثانيهما بهامش كتاب **التيسير في علم التفسير**، كما توجد للكتاب مخطوطتان محفوظتان في كل من خزانة شستر بتى (Chester Beatty) بإيرلندا وخزانة أسعد بإصطنبول[6]. ولو قرأنا في ما نشر أخيرا من فهارس المخطوطات العربية في العالم لعثرنا بالتأكيد على نسخ أخرى من الكتابين السالفي الذكر ربما كانت كافية من حيث العدد لتمكن المحقق من القيام بوضع تاريخ للنص.

ومن محاولات المحدثين النادرة في مجال القيام بتاريخ النص في التراث العربي المخطوط تلكم التي قام بها كل من محمد بن تاويت الطنجي ومحسن مهدي في تحقيق كل من **رحلة ابن خلدون شرقا وغربا** وكتاب **ألف ليلة وليلة**. لقد بذل الرجلان الجهد في جمع أقصى عدد من نسخ الكتابين مكنهما من وضع تاريخ نصهما على الطريقة الحديثة. وإذا ثبت لدى علماء الفيلولوجيا أن الوصول إلى نسخة تماثل شكل النسخة الأصلية شيء غير وارد فإن ابن تاويت قد وصل إلى النسخة الأم[7] التي انبثقت عنها كل النسخ الموجودة. أما محسن مهدي فقد توصل إلى نموذج من ألف ليلة وليلة يختلف كل الاختلاف عن النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعة بولاق[8].

---

[6]- التقصير في البحث عن المزيد من نسخ المخطوط الواحد كثيرا ما يلاحظ عند المهتمين بشؤون التحقيق. بالإضافة إلى المثالين المذكورين أعلاه يمكن الإشارة إلى **المزهر في اللغة** للسيوطي الذي يبقى بحاجة إلى تحقيق علمي حديث، بعد طبعاته الثلاث بما فيها طبعة بولاق تولى تحقيقه ثلة من العلماء فاعتمدوا النسخ المطبوعة وأغفلوا نسخا خطية أخرى أشار إلى كثير منها بروكلمان في تاريخه كنسخ برلين ولندن وباريز، والموصل، ومانشستر والإسكوريال واصطنبول ودمشق وغيرها.

[7]- النسخة الأم هي أقدم شاهد على الشكل المحفوظ لنص المؤلف. وإذا وصل البحث إلى أشكال مختلفة من النص المخطوط فهذا يدل على نسخ لمهات عديدة. ودور الفيلولوجي الذي يريد أن ينشر نصا يقتصر أولا على إيجاد النسخة الأم لهذا النص.

[8]- يذكرنا عمل محسن مهدي بعمل الفيلسوف والفيلولوجي الألماني كارل لخمان (Karl-Lakhmann, 1851) الذي كان من واضعي قواعد تاريخ النصوص تلكم القواعد التي طبقها في دراسته لكتاب الشاعر اللاتيني لوكريس (Lucrèce) ق.ام في الطبيعة (De rerum natura) فخرج بنص يختلف كل الاختلاف عن كل النسخ المخطوطة والمطبوعة. =

إن البحث عن المخطوطات وتجميعها يعتبر المرحلة الأولى والعنصر الأساسي في عملية التحقيق العلمي. إن الكوديكولوجي أو المختص في علم المخطوطات - وليس المحقق وناقد النص - هو الرجل المؤهل الموكول له عملية التفتيش وذلك في إطار منظمة أو معهد أو مجمع أو أكاديمية توفر له الوسائل المادية لتحقيق ذلك. وإن المحاولة التي يقوم بها بالتعاون كل من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ومعهد المخطوطات العربية لجمع المخطوطات والحصول على فهارسها ونشرها[9] لتعتبر لبنة من اللبنات التي سيقوم عليها صرح عملية التحقيق العلمي الصرف في البلاد العربية والإسلامية.

أما العنصر الثاني من عناصر علم المخطوطات التي أخذت على نفسي دراسة أثره وعلاقته بعملية التحقيق هو النساخة وتأثير النساخ في المخطوطات العربية في مختلف الأماكن والبلدان. إن تناقل المخطوطات ونسخها عبر العصور دعا إلى الكثير من الإضافات والحذف والتغيير والتبديل، قد شوه النصوص أحيانا وغيرها تغييرا كاملا أحيانا أخرى، الشيء الذي جعل القيام بتاريخ النصوص ضربة لازب ومرحلة أساسية في عملية نقد النصوص[10]. وسوف أعالج هذه القضية من خلال نص من كتاب **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع** للقاضي عياض. يقول المؤلف عن عملية النسخ: "فليقابل نسخته من الأصل بنفسه حرفا حرفا حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها ومطابقتها ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة

= أما بالنسبة للقدماء من العرب المسلمين فيمكن اعتبار محاولة اليونيني في تحقيق روايات البخاري نموذجا لتاريخ النص، وإن لم يتوفر الرجل على الأساليب التي استحدثها مؤرخو النصوص المحدثون. وتجدر الإشارة إلى أن محاولة اليونيني هذه هي الغاية التي تهدف إليها مدرسة الفيلولوجيين المحدثين في ألمانيا التي توجه أبحاثها في الروايات المختلفة للخبر الواحد في كتب التراث العربي.

9- يقتصر العمل على:
- حصر فهارس المخطوطات.
- الحصول عليها بالشراء أو التصوير.
- اشتراك المجمع والمعهد في نشر الفهرس الشامل للمخطوطات بعد إعداده.

10- ظهر تاريخ النصوص لما شعر العلماء بأن النصوص القديمة التي يقرأونها ليست هي النصوص التي تركها مؤلفوها والتي تعرضت مع الأيام لتغييرات وإضافات كثيرة. ظهر هذا العلم عند لخمان Lakman ومنافسيه وعلى الأخص في الأعمال التي خص بها لخمان الإنجيل ومؤلفات الشاعر لوكريس Lucrèce وبالأخص منها كتاب **الطبيعة** كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويعتبر الألمان أسياد علم الفيلولوجيا في القرن 19م بحكم تعدد الجامعات وجلب العلماء نتيجة السياسة اللامركزية السائدة آنذاك.

العارف دون مقابلة، نعم ولا نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح، فإن الفكر يذهب، والقلب يسهو، والنظر يزيغ والقلم يطغى"[11]. إذا كانت عملية المقابلة أساسية في هذا النص فإنه يمكن استخلاص ظواهر أخرى تتعلق بالنساخة وبالناسخ كذلك. فالمقابلة حرفا حرفا كما يدعو إليها المؤلف والتي هي عملية أساسية في عمل الناسخ توحي لنا بأن المعاينة طريقة شائعة في النساخة العربية بالإضافة إلى المشافهة حيث يملي الشيخ ويكتب عنه الطلبة أو يملي قارئ ويكتب عنه الناسخ. وتأكيد المؤلف على القراءة حرفا حرفا زيادة في التحري حتى لا يخطئ. إن التحليل السيكولوجي لعملية النسخ دعا أحد علماء الفيلولوجيا وهو دي روسو (Desrousseaux) إلى تمييز أربع عمليات في فعل الناسخ المعاين تحدث في نفس الوقت ولابد أن توقع ممارسها في الخطأ:

1. قراءة النص.

2. حفظ النص.

3. الإملاء الداخلي.

4. تنفيذ عملية الكتابة[12].

هذا هو الميكانيزم السيكولوجي لعمل الناسخ وهو الذي يفسر أو يعلل أخطاء النسخ التي يحدث معظمها أثناء المرحلة أو العملية الثالثة التي هي الإملاء الداخلي. وبالإضافة إلى ذلك فإن طب العيون الحديث قد أثبت أن القارئ لا يقرأ إلا جزءا من الكلمة ويكمل قراءته بالحدس والتخمين، ومن هنا إلحاح القاضي عياض على قراءة الكلمات حرفا حرفا. ثم يقول: "ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف" بمعنى أن الناسخ الثقة ذا النية الحسنة قد لا يسلم من الوقوع في الخطأ، فمهما كان الناسخ متشبثا بقول الشاعر القديم:

[11]- الإلماع: القاضي عياض، ص.159.

[12] -Alphonse Dain : **Les Manuscrits** , éd. « Les Belles lettres », p.41.

وما من كاتب إلا سيفنى ويبقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

وكيفما كان حرصه على تجنب الخطأ ودعاؤه لنفسه في خاتمة الكتاب بعفو الله[13] وحسن الخاتمة فإنه يخطئ ويحرف بدون قصد، لهذا وجب الاحتياط كيفما كانت طبيعة الناسخ ومهما كان مصدر النسخة. وبالإضافة إلى هذا الحذر يجب التحقق من تاريخ النسخ إذا كانت النسخة المنقول منها مؤرخة[14]، ولا يغتر الناسخ بالتواريخ المثبتة على ظهر المخطوطات، فكم من مخطوط مؤرخ تأريخا قديما وهو منسوخ حديثا، في مثل هذه الحالات يصبح البحث في العناصر الباليوغرافية والكوديكولوجية للمخطوط كالخط والورق وغيرها شيئا ضروريا، وحتى قدم الورق لا يكون بالضرورة دليلا على قدم المخطوط في الزمن. يحكي ياقوت الرومي أن ابن البواب تولى مكتبة بهاء الدولة في شيراز، وفي أحد الأيام صادف بين كومة من الكتب نحيت جانبا مجلدا بلون أسود تبين أنه جزء من القرآن في ثلاثين مجلدا مكتوبة بخط ابن مقلة، وأن هذا أثار أقصى إعجابه، وقد نجم عن هذا البحث في المكتبة العثور على تسعة وعشرين مجلدا، وبقي أحد المجلدات مفقودا، وعندما أنهي الأمر إلى علم بهاء الدولة أمر هذا بإتمام الكتاب وعرض على ابن البواب أن يكتب المجلد المفقود بشرط أن يتلقى ثوب الشرف ومائة دينار إذا تبين تعذر التمييز بين المجلد المكتوب حديثا وباقي المجلدات. وقد قبلت هذه الشروط، وبحث ابن البواب في المكتبة عن ورق قديم شبيه بورق المجلدات الباقية، وكتب المجلد المفقود بطلاء الذهب بعد تعتيقه، ثم جلده مستعملا غلافا مأخوذا من كتاب آخر. وعندما تذكر بهاء الدولة الأمر بعد سنة، جلبت له النسخ الثلاثون، وفحصها بدقة دون أن يستطيع اكتشاف النسخة المكتوبة حديثا، فاحتفظ بها جميعا على أنها أعمال ابن مقلة[15].

13- ظاهرة معروفة في أوربا في العصر الوسيط. كان الرهبان ينسخون بحذر وإخلاص رجاء ثواب الله والتكفير عن ذنوبهم.

14- كثيرة هي المخطوطات غير المؤرخة والمحفوظة في الخزانات العالمية ومن بين مهمات الكوديكولوجي تاريخ النسخ غير المؤرخة وبالتالي وضع فهارس المخطوطات التي تثبت تاريخها علميا. وهذه عمليات لا تزال تفتقر إليها مخطوطاتنا العربية.

15- تفيد القصة بأن كتابة ابن البواب لم تكن بعيدة جدا عن كتابة ابن مقلة كما أن التزوير شيء ممكن. أما ابن البواب الذي قام بعملية النسخ فلم يستلم المكافأة المتفق عليها، ولكن أجيب طلبه بالحصول على كل الورق الصيني المقطوع في المكتبة=

ويروي ياقوت كذلك بأن خطاطا من القرن السابع الهجري اشترى صفحة من خط ابن البواب بأربعين درهما نسخها على ورق قديم وأعطى النسخة إلى بائع الكتب باعها بدوره بستين درهما على أنها خط ابن البواب[16].

كثير من النساخ يقلدون النسخة المنقول منها تقليدا كاملا حتى لا يميز بينهما كما رأينا في المثالين السابقين وذلك إظهارا لدهائهم وعبقريتهم، وهذه الحالة من الأسباب التي دعت اليوسي إلى أن يقول في الملزمة الرابعة والعشرين من كتاب القانون "وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين"[17]. ثم قال المؤلف: ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح فإن الفكر يذهب والقلب يسهو والنظر يزيغ والقلم يطغى. .يفهم من هذه العبارات أن الناسخ مهما كانت طبيعته فإنه يكتب تحت تأثير سيكولوجيته الخاصة وذوقه الشخصي وشخصيته الكاملة، فلابد إذن للنص المنسوخ من أن يتأثر بهذا السلوك لأن نسخ النصوص وتناقلها على العموم هو قبل كل شيء عمل إنساني خاص، وهذه الخاصية الإنسانية هي التي ينبغي الكشف عنها في خلال دراستنا لتراثنا العربي المخطوط. فذهاب الفكر وسهو القلب وكلال النظر وطغيان القلم ظواهر إنسانية تعتري الناسخ فيغير أو يحرف بدون أن يشعر. ودراسة النسخ المختلفة للمخطوط الواحد دراسة كوديكولوجية قد تؤدي بالباحث الدارس إلى اكتشاف الأسباب التي دعت الناسخ إلى الوقوع في هذه الأخطاء. والنسخ الخطية التي من شأنها أن تساعد الباحث على اكتشاف هذه الأسباب هي النسخ التي نجت من التصويب والإصلاح واحتفظت بالأخطاء التي بواسطتها يتمكن مؤرخ النصوص من الوصول إلى أصل أو مصدر الخطأ. إن من بين الأخطاء التي يقع فيها محققو النصوص العربية اعتمادهم نسخة مصححة وتسميتهم لها بالنسخة الجيدة. إن مفهوم النسخة الجيدة مفهوم غير وارد في المعجم الفيلولوجي. وإذا جاز لنا أن نتحدث عن النسخة الجيدة فهي النسخة التي احتفظت

= والذي يكفي للبقاء عنده عدة سنوات. إرشاد الأريب، المجلد 6، ص. 34 نقلا عن الكتاب العربي لـ " يوهانس بيدرسن"، ص.88 في الطبعة الإنجليزية وص.113-114 من الترجمة العربية.

16- نفس المرجع، ص. 113-114.

17- القانون: لأبي علي الحسن اليوسي، الملزمة 24، ص.4، (ط.حجرية).

بالأخطاء وليس تلكم التي تم تصحيحها، إن هذه الأخيرة تضلل المؤرخ للنصوص وربما تقبر إلى الأبد فكرة الوصول إلى النسخة الأم أو النمط الأعلى الذي انبثقت عنه باقي النسخ.

إن مشاكل النساخة والنساخ قديمة قدم هذا التراث. وقد شعر القدماء بخطورتها منذ بداية حركة التأليف فقاوموها بقدر الوسائل والأدوات المتوفرة لديهم. إن وجود إجازات النسخ المثبتة على ظهور المخطوطات على غرار إجازات الرواية والسماع، وكذا وجود عبارات في الوقفيات تمنع نسخ المخطوط لدليل على الاحتياط الذي كان يتخذه القدماء إزاء النساخ، ونفس هذا الاحتياط هو الذي دفع القدماء إلى ظاهرة الاستطراد التي تعج بها النصوص القديمة حيث كانوا يكتبون كل شيء في المتن لأن الحواشي وهي غير المتن تكون عرضة للحذف من قبل النساخ أو عرضة للإقحام، وفي حال إقحامها في المتن يقع اضطراب في المخطوط[18]. إن آثار النساخة في تغيير وتحريف النصوص العربية أكثر من أن تعد، وإن البحوث النظرية لا تفضي إلى نتائج ملموسة في هذا المجال، وليس المحقق الطارئ هو الذي يحل المشكلة، ولكنه العالم بالمخطوطات المتعامل معها والمتمرس على دراستها كالتفتيش عنها والبحث في مصادرها والمقابلة فيما بينها والقيام بدراسات مختلفة فيما يخص أدوات الكتابة والأدوات المكتوب عليها[19] ودراسة خطوطها وتأريخ ما لم يؤرخ منها ثم وضع قوائم بالنساخ على غرار تلكم التي وضعت بالنسبة لنساخ المخطوطات الإغريقية واللاتينية[20] ثم البحث في حياة النساخ وسلوكهم وإخضاعهم حسب الإمكان لما يسمى عند المحدثين بنظرية الجرح والتعديل للتأكد مما ينسخون، لأن مثل هذه البحوث والدراسات يفتقر إليها تراثنا العربي ومفروض القيام بها عمليا قبل الاهتمام بعملية التحقيق العلمي.

18- ابتداء من القرن الثامن الهجري شعر الناس بالحاجة إلى الحواشي والهوامش فكانوا عندما يضيفون أو يستطردون يميزون هذه الإضافة وهذا الاستطراد بقولهم: "تنبيه"، "فائدة"، "تعليق"، "حاشية"....انظر: **مناهج العلماء المسلمين:** لفرانز روزنتال، ط 1980، ص.111.

19- التحليل الفيزيائي والكيميائي للوعاء وللمداد (وهي تقنيات مستعارة من علوم الفيزياء) دراسة علامات الكاغد أو الفيليغران (Filigranes) والبتراديوغرافيا (Betaradiographie) والولوغرافيا (Holographie) لمقارنة الخطوط. إلخ...

20- وضع فوجل Vogel عام 1909 لائحة بالنساخ الإغريق تفصل القول في كل ناسخ وفي كل ما نسخه من مخطوطات. كما وضع J.W.Bradley لائحة بالنساخ اللاتين عام 1887م.

لقد أصبح ضربة لازب في العالم العربي التفكير في إنشاء معهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا codicologie وتكوين مختصين في هذا العلم قادرين على الاهتمام والعناية بأضخم تراث مخطوط عرفه تاريخ الإنسان. إن الأعمال العلمية والتقنية التي سيقوم بها علماء الكوديكولوجيا في مجال المخطوط العربي ستفيد الباحثين المهتمين بالتحقيق أيما إفادة، وإن النتائج التي سيفضي إليها هذا النوع من البحث لمن شأنها أن تعطي وجها آخر للنصوص التي اعتمدت حتى الآن في استخلاص النتائج وإصدار الأحكام.

فهرسة المخطوط العربي

التجربة المغربية

إن اطلاعنا على فهارس المخطوطات واستقراءنا للمجموعات الخطية التي تحتفظ بها مختلف خزائن الكتب المغربية دعانا إلى تناول موضوع التجربة المغربية في ميدان الفهرسة من خلال ثلاثة محاور.

يعالج المحور الأول وضعية التراث العربي المخطوط في المغرب قديما وحديثا، حيث يحكي قصة بدايته ثم العوامل التي عملت على تجميعه في الخزائن وعلى رأسها اهتمام المغاربة بالورقة المكتوبة، وبالتالي عناية كل ملوك المغرب من الشرفاء الأدارسة إلى الملوك العلويين بنوادر المخطوطات ونفائسها، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول عليها وجلبها من جميع دول المعمورة. إن هذا الاهتمام الذي يتمثل في اقتناء المخطوطات ونسخها واستنساخها وترجمتها وتأليفها برسم الخزانات الملكية هو السبب الذي جعل المغرب من أكبر الدول العربية الإسلامية حفاظا على فرائد هذا التراث، يقصده الباحثون من كل الأقطار.

ويعالج المحور الثاني قضية فهرسة هذا التراث الحضاري الضخم الذي تزخر به خزاناتنا العديدة فتبين من خلال الوقوف على اللوائح والفهارس أن الفهرسة في المغرب لازالت تطرح العديد من التساؤلات لم تجد بعد أجوبة عنها. إن معظم ما وضع من فهارس حتى الآن لا يختلف عن تلكم القوائم و الأدلة التي كان يضعها القيمون على المكتبات القديمة للمجموعات الخطية دون التفكير في أي تنسيق أو تصنيف منهجي ييسر استعمالها والاستفادة منها. وعلى الرغم من محاولة المحدثين - مستشرقين وعربا- وضع فهارس تخضع لأساليب فهرسية حديثة، فإن عملية فهرسة المخطوطات تبقى بحاجة إلى أن تأخذ بعين الاعتبار المعطيات العلمية والتقنية الحديثة.

أما المحور الثالث فيهتم بذلك الذي أنيطت به مهمة الفهرسة بالمغرب، حيث تبين أن معظم الذين وضعوا هذه القوائم هم من الفقهاء والعلماء والشيوخ والطلبة. وعلى الرغم من تكوينهم العلمي وتجربتهم الكبيرة في التعامل مع المخطوطات فإن فهارسهم تفتقر إلى أساليب الفهرسة الحديثة. وختم البحث بالتساؤل عن مفهوم الفهرسة الذي طالما لم يحدد تحديدا علميا باعتبارها عنصرا من عناصر علم المخطوطات فإن التباين فيما يخص مواصفات المخطوط يبقى سائدا في البطاقة النموذجية التي نسعى جاهدين منذ عقود لوضعها لتصبح مثالا يحتذى في المراكز و المكتبات.

إن الحديث عن فهرسة المخطوطات في المغرب يستوجب الحديث أولا عن مصادر هذه المخطوطات، وعن الطرق المختلفة التي عملت على تجميعها نسخا واستنساخا وتأليفا وترجمة واقتناء، إلى أن أصبحت هذا الرصيد الغني الذي تزخر به مكتباتنا والذي جعل المغرب الأقصى قبلة الباحثين من جميع الأصقاع، بحثا عن نوادر المخطوطات التي قد يعز نظيرها في جهات أخرى.

إن هذا التراث المحفوظ اليوم في المغرب في مختلف خزاناته يعبّر شاهدا صريحا على اندماج بلد البرابرة في الحضارة العربية منذ القرون الإسلامية الأولى. ولم يكن من المصادفة في شيء العثور في مسجد خزانة "بزو"[1]، على النسخة الوحيدة في العالم لكتاب **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، لعالم البصرة الكبير أبي عثمان الجاحظ[2]. وعلى الرغم من قلة الأخبار والمعلومات عن خزانات الكتب في مصادر التاريخ والتراث بالمغرب فإنه كان للكتاب مكانته في هذا البلد. إن المسافة الجغرافية والثقافية التي تفصل بين المغرب والمشرق الذي يعتبر منبع حضارة الكتابة تحث المغاربة على إعطاء الكتب وكل شيء مكتوب عناية ومكانة شبه مقدسة تتجلى في حركة الشيوخ الذين ينحنون لجمع كل ورقة مطبوعة أو مخطوطة تعترضهم في

[1]- مدينة صغيرة على جبال الأطلس.
[2]- حققه اعتمادا على هذه النسخة اليتيمة المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط الدكتور محمد مرسي الخولي، ونشره عام1972، ط. ثانية 1981. والدكتور عبد السلام هارون في سنة 1987 و1990م.

طريقهم وحفظها في حفرة أو ثقبة حائطية حتى لا تدوسها أقدام المارة. نلاحظ أن اهتمام المغاربة بالكتاب قديم، وتقديسهم للورقة المكتوبة عريق، فلا غرابة إذن في كون المغرب يحتضن خزانات تضم أهم الأرصدة المحفوظة في مختلف بلدان الغرب الإسلامي بأكمله. وإذا أردنا أن نعطي فكرة عن رصيد التراث العربي المخطوط في المغرب في الوقت الراهن فلابد من الحديث ولو باختصار عن حالة هذا الرصيد في العصور السابقة. إن طبيعة المخطوطات في المغرب في العصور الأولى حتى العهد المرابطي لا تكاد تختلف عن طبيعة المخطوطات في المشرق. وكل المعلومات التي أمكن الحصول عليها بالرغم من ضآلتها تنبئ بأن معظم الكتب كانت عبارة عن مصاحف قرآنية، وكتب فقه وحديث. ويدلنا على هذا تلكم الأخبار المتعلقة باهتمام أمراء الدولة المرابطية بالفقه المالكي، ودعوة الفقهاء إلى وضع كتب الفروع المتعلقة بهذا المذهب. ولم يكن لكتب المعارف الأخرى، خاصة كتب الفلسفة والتصوف مكان في الخزانة المغربية بل يعاقب عقابا صارمًا من وُجدت عنده هذه الكتب، يقول المراكشي في المعجب: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعُمل بمقتضاها ونبذ ما سواها . . .، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام. وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين. . .، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه"[3].

لم تعرف الخزانة المغربية إذن تغييرا في محتوياتها حتى بداية القرن السادس الهجري الذي عرف نهاية المرابطين. وقد بدأت مع بداية الموحدين الذين كانوا أكثر تفتحا من سابقيهم كتب الفلسفة والتصوف تجاور كتب الفقه والحديث والتفسير في الخزانات الخاصة والعامة، وليس أدل على هذا من ظهور أكبر صوفية المغرب في هذا العهد، ووضع أكبر التآليف وأشهر

[3] - المعجب للمراكشي، ط 1978، ص 254، 255.

شروح كتب فلسفة الإغريق. فبإيعاز من عبد المؤمن وضع أبو مروان عبد الملك بن زهر كتاب **الأغذية**. وبدعوة من أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الموحدي وضع الفيلسوف ابن رشد شروحه لمؤلفات أرسطو. وفي هذا العهد كذلك ألف ابن الزيات التادلي كتاب **التشوف إلى رجال التصوف**[4]، الذي يعتبر أكبر مؤلف عن صوفية المغرب في العصر الوسيط.

أما في العهد المريني، فإن كل علوم العصر قد دُرست وأُلف فيها. ففي جامع القرويين يدرس - إلى جانب الفقه والتفسير - علوم الرياضيات وعلم الفلك وعلوم أخرى مشابهة. وقد جلبت أو نسخت كل المؤلفات التي تعالج هذه العلوم مما زاد رصيد المخطوطات في المغرب تنوعاً وغنى، وحفز العلماء والوجهاء والملوك إلى البحث عن المخطوطات واقتنائها مهما كان الثمن. إنه العهد الذي عرف خلاله المغرب أكبر العقول وأهم الكتب في التاريخ والحضارة. ولم تكن عهود الشرفاء السعديين والعلويين بأقل اهتماما من هؤلاء بجمع الكتب ونسخها واستنساخها وجلبها من جميع الجهات. وكان المنصور الذهبي السعدي - مثلاً - يأتي بالكتب من إسطنبول والقاهرة وشبه الجزيرة العربية وغيرها من البلدان، وكانت أكبر وأفخر هدية يتلقاها من سفرائه وأقربائه ووزرائه، تلكم التي تكون عبارة عن كتاب مخطوط أو كتاب نادر أو مصحف يحتفظ به في خزانته. ومما يدل على اهتمام الملوك العلويين بهذا الجانب هو كون جُلهم علماء شاركوا في البحث والتأليف والترجمة[5]، فأسسوا الخزانات التي لعبت أكبر الأدوار في الحفاظ على هذا التراث، ووضعوا على رأسها عالماً أو قاضيًا أو وزيرا، كما صنع المولى إسماعيل حين جعل على رأس خزانته الخاصة الوزير اليحمدي. هذا الاهتمام هو الذي جعل الخزانة المغربية في الوقت الحاضر من أهم خزانات العالم غنى بالمخطوطات وحفاظا على أصولها ونفائسها.

وبالإضافة إلى ذلك يعتقد الباحثون في مجال المخطوطات أن المغرب يحتفظ في بعض الخزانات العامة، وربما ضمن الأرصدة التي لم تفهرس بعد وكذلك في خزانات أخرى خاصة،

4- حققه لولا أدولف فور (A.Faure) عام 1958، وأعاد تحقيقه أحمد التوفيق عام 1984.

5- وضع محمد بن عبد الله العلوي مجموعة من المؤلفات طبع جلها بالمغرب، كما اهتم محمد بن عبد الرحمن بالترجمة، حيث أشرف على ترجمة كتاب للاند (lalande) في علم الفلك.

بكتب الإغريق واللاتين التي نقل بعضها إلى العربية والتي لا توجد في أي بلد عربي آخر. ومما يدل على هذا هو اهتمام الباحثين الأوربيين بهذه الكتب وبحثهم عنها في بلاد المغرب. لقد أصبح المغرب في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً البلد العربي الوحيد الذي لم تطأ أرضه بعد أقدام المستعمر. ولهذا كله أصبح المغرب كعبة الباحثين الذين يسعون إلى الحصول على ما تعذر العثور عليه من مخطوطات عربية مترجمة في جهات أخرى. إن عدداً من الوثائق التاريخية التي نشر بعضها هنري دوكستري في كتابه: **المصادر الدفينة لتاريخ المغرب**، تؤكد ما ذكرناه، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الباحث الشرقي "باي العباسي"[6] قدم إلى المغرب وقضى وقتاً طويلاً في خزانة جامع القرويين يبحث عن عشريات تيتوس ليفوس (TITE LIVE)، الذي يعتبر محفوظاً في إحدى خزانات هذا البلد، وعلى الرغم من عدم العثور عليه في ذلك الوقت فإن المستشرق الفرنسي[7] ليفي بروفنسال الذي بحث بدوره عن عشريات هذا المؤرخ اللاتيني، أكد من جهته أن المؤرخ ابن خلدون قد قرأ هذا الكتاب في ترجمته الكلية أو الجزئية إلى العربية، واستقى منه الأخبار المتعلقة بواقعة "كان" (Cannes)، التي جرت سنة 216 قبل الميلاد، وهزم خلالها القرطاجنيون بزعامة "هانيبال" عساكر الرومان برئاسة "فارون". وإذا خلت اليوم المكتبات العمومية المغربية من هذه المخطوطات، فهذا لا يعني أنها غير موجودة أو أنها فقدت إلى الأبد، بل إنه من شبه المؤكد أنها آلت إلى خزانة من خزاناتنا الخاصة العديدة التي لا تزال مجهولة[8] والتي تضم بلا شك في خباياها أرصدة هائلة من المخطوطات تكاد تفوق ما هو محفوظ ومفهرس ومتداول في مختلف الخزانات العامة. إن هذا التراث الغزير الذي تجمع لدى المغاربة منذ العصور الإسلامية الأولى قد حفظته وصانته مكتبات مختلفة يمكن حصرها في أنواع ثلاثة: المكتبة الملكية، المكتبات الخاصة، والمكتبات العامة. وقد لعبت كلها دوراً بارزاً في حفظ

---

[6]-Voyages.1802.

[7]- اكبر المستشرقين اهتماما بالمخطوطات المغربية 1956 م.

[8]- يقدر الباحثون أن الخزانات الخاصة بمنطقة سوس بالجنوب المغربي تشمل ما يزيد على مائة ألف مخطوط.

وتنظيم هذه الحصيلة الحضارية التي أفادت الباحثين مستشرقين وعرباً في الوقوف على معالم الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في المغرب.

(أ) الخزانة الملكية

إن الخزانة الملكية التي تعدّ أول مؤسسة تفصح عنها كتب التاريخ والحضارة قد عملت عبر التاريخ على نسخ المخطوطات واستنساخها وترجمتها إلى لغة الضاد، فتجمع لديها ذلك الرصيد الذي جعل منها - كما قلنا سابقاً- أهم خزانة في الغرب الإسلامي بأكمله. يحكي أبو عبيد البكري بأن عدداً كبيراً من العلماء والأدباء - أندلسيين ومغاربة - كانوا يقصدون بلاط الخليفة الإدريسي يحيى الرابع وأن كثيراً من الوراقين كانوا يعملون بخزانة القصر ينسخون الكتب. "..... إنه كان ينسخ له عدد من الوراقين"[9]. وقد بلغت هذه الخزانة مكانة مرموقة على عهد المرابطين والموحدين وعرفت نمواً وازدهاراً على عهد المرينيين والسعديين والعلويين. يحدثنا المراكشي في المعجب، عن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن الذي كان عالماً محباً للفلسفة أنه أمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي"[10]. "ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك من قبله ممن ملك المغرب"[11]. ولم يكن يكتفي هذا الخليفة بما يقتنيه من كتب وبما يهدى له منها من طرف السفراء والعلماء والوجهاء بل كان يلجأ إلى القوة لاحتكار أي خزانة خاصة جاء إلى سمعه أنها تضم مجموعة من كتب الفلسفة التي كان يعشقها؛ وقصة السيطرة على خزانة العالم "المراني" التي حدثنا عنها المراكشي في كتابه المعجب أكبر دليل على هذه الظاهرة[12]. بلغت هذه الخزانة أوجها ابتداء من القرن الثامن الهجري، فقد كان معظم ملوك المغرب علماء محبين للكتب لا يدخرون وسعاً في اقتنائها واستنساخها

---

[9]- البكري : كتاب المغرب ط الجزائر، ص: 132.

[10]- كانت خزانة المستنصر تضم أربعمائة ألف مخطوط، وبلغت فهارسها أربعاً وأربعين مجلداً، حسب ما جاء في "نفح الطيب" للمقري. ج: 1، ص: 184.

[11]- المعجب المراكشي، ص: 349، ط 1978.

[12]- المرجع السابق، ص: 348.

وترجمتها للاستفادة منها وإفادة الباحثين من العلماء والمؤلفين الذين كانت تعجُّ بهم بلاطاتهم على مر العصور، ولا تزال المكتبة الملكية المغربية تحتفظ بالكثير من المخطوطات عليها حواشي الملوك وتعليقاتهم وتملكاتهم أو إشارات إلى أوامرهم بتأليفها برسم خزاناتهم الخاصة. وقد جعلوا على رأس هذه المكتبات قضاة ووزراء وحجابا، إيمانا منهم بدور هذه المؤسسات في تطوير المجتمع وترقيته. وإذا كانت الخزانة الملكية خزانة خاصة، فإن الوضع الذي تتميز به من حيث محتوياتها وغناها واقتناؤها لنفائس المخطوطات ونوادرها ودورها العلمي الكبير الذي أناطت به نفسها منذ ظهور الملكية في المغرب جعلها تتبوأ مكانة تميزها عن المكتبات الخاصة التي تميزت بها البيوتات المغربية منذ القدم. إن كتب التاريخ والحضارة المغربية تعجُّ بالأخبار عن هذه الخزانات التي تزين بيوت الأمراء والوزراء والوجهاء والعلماء والتجار والأغنياء الذين لم يكن جهل بعضهم ليثنيهم عن البحث عن الكتب الجميلة الأنيقة والمزخرفة، وإذا غفل المؤرخون عن ذكر بعض هذه الخزائن فإننا نعرفها اليوم ونقيمها من خلال التملكات التي لا تزال ماثلة على ظهر الكثير من المخطوطات المحفوظة في مختلف الخزانات. وللتدليل على ذلك يحدثنا الإفراني في نزهة الحادي أن الوزير السعدي عبد العزيز الوزكيطي، وحاجب السلطان أحمد المنصور الذهبي كانت له خزانة خاصة تضم خمسين ألف كتاب على الرغم من مستواه العلمي المتوسط. وتدلنا خاتمة كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم أن هذا الكتاب ألف برسم خزانة أمير سبتة أبي القاسم بن أبي العباس العزفي. ومن مميزات هذه الخزانات أنها كانت مفتوحة في وجه الباحثين من العلماء للقراءة والنسخ وأنها كانت تسمح بإعارة الكتب.

(ب) المكتبات العامة

أما المكتبات العامة فإنها بدأت في المغرب على غرار البلاد المشرقية، داخل المساجد، وهذه المكتبات أربعة أنواع: مكتبات المساجد، مكتبات المساجد الجامعة، مكتبات المدارس العتيقة، ومكتبات الزوايا.

مكتبات المساجد

ظهرت مكتبات المساجد مع ظهور المسجد في المغرب، وما سميته بمكتبات المساجد الجامعة فإنها تلكم المكتبات التي أسست بإزاء بعض الجوامع الكبرى التي كانت تقوم بدور الجامعة في العصر القديم، وأخص منها بالذكر خزانة جامع القرويين الذي يعتبر أقدم جامعة عربية إسلامية، وخزانة جامع ابن يوسف بمراكش الذي أسسه علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي في مطلع القرن السادس الهجري، وقد كان للخزانتين مع ما يماثلهما من مؤسسات دور كبير في تطوير الثقافة وفي الحفاظ على المخطوطات، ولا تزالان إلى اليوم تؤديان هذا الدور.

مكتبات المدارس

وبإزاء هذه المكتبات توجد مدارس عتيقة خصوصاً في المدن القديمة كفاس ومراكش لإيواء الطلاب الآفاقيين. إن هذه المؤسسات التي كان يقطن فيها الطلبة كانت مزودة بمكتبات للمطالعة والقراءة، ولم تكن مقتصرة على القاطنين وحدهم بل كانت تتجاوزهُمْ إلى غيرهم من طلبة المساجد والمعاهد الأخرى[13].

مكتبات الزوايا

وبالإضافة إلى ذلك بدأت تظهر في المغرب، خصوصاً ابتداء من القرن العاشر الهجري زوايا قامت بأدوار بارزة سواء في تطوير الثقافة أو في سبيل الحفاظ على التراث المخطوط. وعلى الرغم من كون السبب الرئيسي في إنشاء هذه المؤسسات سياسيا، وذلك لمواجهة الغزو المسيحي للمغرب منذ القرن التاسع، فإنها قد أعطت أكبر العقول وأعظم المؤلفات وأهم الخزانات التي عرفها تاريخ المغرب منذ عصر السعديين. ولا تزال خزانة زاوية تامجروت الناصرية بالجنوب المغربي شاهدة على ذلك. أما خزانة الزاوية الدلائية التي كاد يتم لزعمائها الاستيلاء على المغرب بأكمله في القرن الحادي عشر الهجري فإنها كانت حسب المؤرخين في

[13]- نشرت مجموعة من الأبحاث في مجلات مغربية باللغة الفرنسية عن المدارس العتيقة بالمغرب. انظر - مثلا- بحث المستشرق Neigel الذي نشره في مجلة العالم الإسلامي، العدد 5 عام 1959 عن مدرسة ومكتبات أبي الجعد.

مستوى خزانة الحكم المستنصر الأموي التي كانت تضم أربعمائة ألف كتاب. يحدثنا الشيخ عبد الحي الكتاني أن الكثير من كتب هذه الخزانة قد آل إلى خزانة السلطان العلوي المولى الرشيد الذي حبس بعضها على خزانة المسجد الكبير بمكناس[14]. كما آل رصيد منها إلى خزانات أخرى، كخزانة الزاوية العياشية وخزانة مسجد مدينة "بزو" التي عثر فيها على النسخة الوحيدة لكتاب **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، للجاحظ 255 هـ.

بعد هذا العرض المختصر عن العوامل والظروف التي عملت على إنشاء المكتبات وتجميع أرصدة المخطوطات في المغرب، نرى الآن كيف تم تنظيمها وفهرستها قديماً وحديثاً. إن كتب التراث والحضارة التي لا تتحدث عن خزانات الكتب إلا عرضاً لا تفصح القول عن أنظمة هذه الخزانات إلا نادرا، وعندما تتعرض لذلك فإنها تقتصر على ذكر اسم القيم عليها، وذكر بعض محتوياتها من غير أن تتجاوزهما إلى الحديث عن عملية الفهرسة التي هي موضوع البحث. وعلى الرغم من جهود المغاربة القدماء في محاولة فهرسة المخطوطات فإنها لا تعدو أن تكون قوائم ولوائح لا تخضع لأي نظام أو ترتيب، والواقع أن الفهرسة بدأت مع بداية الخزانة المنظمة في المجتمع المغربي في العصر الحديث. وأول فهرس من هذا الصنف جدير بالإشارة إليه هو الفهرس الذي وضعه المستشرق الفرنسي (ألفرد بل) Alfred Bel لمجموعة خزانة القرويين في مطلع هذا القرن. وسنتتبع الآن الفهارس التي وضعت حتى الآن لمختلف الخزانات المغربية حسب التقسيم الثلاثي الذي اقترحناه في مقدمة هذا البحث، نتلوه بالحديث عن المناهج المتبعة في الفهرسة وتقييمنا لها، ثم نختم بإبراز موقفنا تجاه الفهرسة وبعرض بعض المقترحات لتقويم هذه العملية العلمية.

الخزانة الملكية: الفهارس

أشرنا آنفاً إلى أن المصادر لم تفصح عن ذكر فهارس الخزانة الملكية إلا ما أشارت إليه من لوائح تفتقر إلى كل المواصفات التي تتميز بها الفهرسة الحديثة، ويبقى أن أول محاولة وضعت

---

[14]- الكتاني: المكتبات الإسلامية: مخطوط المكتبة العامة، ص: 19.

لترتيب مخطوطات الخزانة الملكية [15] وفهرستها تلكم التي قام بها العلامة محمد الفاسي، من خلال البحث الذي نشره عام 1964 بمجلة البحث العلمي بعنوان: **الخزانة السلطانية وبعض نفائسها** . بعد مقدمة موجزة عن تاريخ المكتبات المغربية عموماً، والمكتبات الملكية خصوصاً، أشار المؤلف إلى الدور الرئيسي الذي لعبته هذه المؤسسات في حفظ التراث مع عَرْض لعدد من نوادر الخزانة محيلاً على بروكلمان وليفي بروفنسال وحاجي خليفة. وقد كان التّرتيب الذي وضعه محمد الفاسي لهذه الخزانة على الشكل التالي:

- وصف بعض النوادر والنفائس، السيرة النبوية، الجغرافية، الرحلات، الأنساب، تاريخ المغرب العربي، التراجم، القرآن الكريم، القراءات، التجويد، علوم القرآن، التفسير، الطب، علم الفلك، الفقه، اللغة، النحو والصرف، العلوم الطبيعية، الموسيقى. وقد نشر محمد الفاسي عددا من المقالات في نفس المجلة وصف خلالها هذه المخطوطات، ورتبها حسب الفنون المشار إليها [16] . وتلا هذه الأبحاث كتاب محمد المنوني بعنوان: **منتخبات من نوادر المخطوطات**، نشر عام 1978 بتقديم مدير الخزانة عبد الرحمن الفاسي رحمه الله. اختار الفقيه المنوني من نوادر المكتبة بعض مؤلفات الملوك والسلاطين وما كتبه الأندلسيون السودانيون والمشارقة وما كتب بالخط الكوفي، وقد ذكر بعض المخطوطات التي لها قيمة باليوغرافية مع عرض موجز لمحتوى المخطوط. وتشكل الكتب المختارة الفنون التالية : المصاحف، التفسير، الحديث، السيرة، الفقه وملحقاته، الكلام، اللغة والنحو، الأدب، التاريخ، الأنساب، التراجم، الجغرافية والرحلات، السياسة، الرياضيات، الطبيعيات، الفلاحة، الكيمياء، الفلك والتنجيم، الموسيقى، علوم متنوعة. واستهل المنوني هذا الكشاف بمقدمة تناول فيها مجموعة من الوثائق، وهي عبارة عن بيعات سلطانية وظهائر ملكية أصلية ومكاتبات ورسائل وتقاييد، ثم تناول الحديث عن الوثائق

---

[15] ـ من مكارم الأخلاق وروح الإنصاف و الاعتراف بالحق لذويه القول بأن هذه المجموعة الغنية التي أصبحت تسمى الخزانة الملكية قد تم إخراجها واستخراجها من الغروم و جمع شتاتها و إحصاؤها بإيعاز و إشراف مؤرخ المملكة فضيلة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور عضو الأكاديمية.

[16] ـ عدد المخطوطات المشار إليها في هذه الأبحاث ـ الفهرسة 151 بحثا.

التي توجد في الكنانيش[17]. وقبل هذا العمل المتعلق بالمنتخبات كان الفقيه المنوني قد شرع في وضع فهرس شامل لمخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف[18]، عالج فيه 438 مخطوطا. بعد مقدمة عن المكتبات الملكية بالمغرب بدأ المنوني فهرسه الطبوغرافي للمكتبة الحسنية، حيث يذكر عنوان الكتاب، ورقمه، واسم المؤلف، وعدد أوراقه وشكله، ووصف الخط، واسم الناسخ - إذا وجد- ثم تاريخ النسخ، ويشير أحياناً إلى كتب التراجم التي ترجمت للمؤلف، والفهارس والكتب البيليوغرافية التي ذكر فيها الكتاب، وكذلك إلى بعض الخزائن المغربية التي توجد فيها نسخة من المخطوطات، كالمكتبة العامة وخزانة القرويين. ولم تحتو الفهرسة على مسارد أوكشافات لأن صاحبه لم يتمّه، وآخر كتاب ذكره **شرح الرسالة السمرقندية** في آداب البحث. وفي سنة 1980 نشر محمد عبد الله عنان (ت 1985) أول فهرسة للمخطوطات التاريخية[19] المحفوظة بالخزانة الحسنية. بعد مقدمة تعرض فيها إلى حرص ملوك الغرب على جمع نفائس الكتب ونوادرها، أشار إلى أن عدد كتب التاريخ بلغ ألف مخطوط وأنها تعالج الموضوعات التالية: التاريخ العام، تاريخ الشرق العربي، تاريخ المغرب العربي، السيرة والأنساب، التراجم والمناقب، الرحلات، وأخيرا بمجموعة الوثائق، وهي عبارة عن رسائل سلطانية وإجازة العلماء وظهائر ملكية. ويضم هذا الفهرس كذلك ما وجد من مؤلفات تاريخية ضمن ما يسمى بالمجاميع. وقد عرّف المؤلف هذه المخطوطات، وذلك بوصفها وذكر وفاة مؤلفيها واستعراض محتوياتها، وذكر ما يمكن ذكره من نظائرها الموجودة في المكتبات الأخرى مع إحالتها على مظانها في معاجم الفهارس العلمية، مثل بروكلمان، والغزيري (الإسكوريال)، والمتحف البريطاني، والفاتكان وغيرها، ثم يختم بذكر تاريخ ومكان النشر، هذا إن كان الكتاب قد نشر.

17- وضعت الخزانة الحسنية فهرسا للكنانيش مستقلا سنشير إليه.
18- فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف: تصنيف محمد المنوني: المطبعة الملكية 1983.
19- محمد عبد الله عنان: فهرسة قسم التاريخ وكتب الرحلات. مطبعة النجاح الجديدة.صدرت طبعة ثانية للفهرس سنة2000 في مجلدين من إنجاز عبد العالي لمدبر ومحمد سعيد حنشي و إشراف ومراجعة أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة الحسنية صححت الأخطاء وأضافت ما غفل عنه عبد الله عنان من مخطوطات وما اقتنته الخزانة من مجموعات خاصة.

وقد سلك المفهرس في الترتيب الفهرسي لأسماء الكتب على حروف المعجم الطريقة المغربية التي تقدم الكاف واللام والنون على الصاد والضاد والعين والسين والشين، جريا على ما سار عليه الكتاب المغاربة منذ القديم في تصنيف فهارسهم الأبجدية.

وفي سنة 1982 بدأت الخزانة الحسنية بإشراف محافظها آنذاك محمد العربي الخطابي بنشر فهارس الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات[20]. بعد مقدمة تاريخية على غرار مقدمة المجلد الأول تعرض المفهرس للحديث عن العلوم عند المسلمين، ثم ذكر السبب الذي دعاه إلى تناول مخطوطاتها بالفهرسة، وهو حسب ما جاء في المقدمة تلبية لرغبة أكاديمية المملكة المغربية ومقررات مؤتمر الطب[21] الإسلامي الذي انعقد في الكويت في شهر يناير 1981، وأوصى بتشجيع دراسة الطب الإسلامي، ونشر كتبه، وإنشاء منظمة إسلامية تعنى بإحياء العلوم الطبية الإسلامية في مجال التراث والبحث العلمي.

يضم الفهرس 288 كتاباً، يمكن حصرها في ثلاثة مواضيع:

1- كتب الطب والصيدلة والأغذية وحفظ الصحة.

2- أراجيز ومنظومات في الطب والصيدلة.

3- البيطرة والحيوان والنبات.

من بين كتب الطب: هيولي علاج الطب[22] لحنين بن اسحق، وهو ترجمة من السريانية إلى العربية لكتاب **المادة الطبية** Materiel Medical، للطبيب اليوناني Dias Coridas، **وتقويم الأدوية**[23] ليوحنا بن بختيشوع، **وكتاب الأغذية** لأبي مروان بن زهر، وغيرها . ومن بين الأراجيز

---

[20]- فهرس الطب والصيدلة: دار النجاح الجديدة 1982.

[21]- نشير بالمناسبة إلى أن وزارة الأوقاف المغربية قد أعادت في 1980 نشر أول كتاب في تاريخ الطب العربي، نشر عام 1876 بالفرنسية للوسيان لوكلير (L.Leclerc)، و قد أنجز هذا العمل الجليل بإيعاز من وزير الأوقاف أنذاك الطبيب الدكتور أحمد رمزي عضو أكادمية المملكة حاليا.

[22]- يوجد منه ثلاث نسخ.

[23]- يوجد منه ست نسخ.

أرجوزة في الطب[24] لابن سينا، وأرجوزة ابن عزرون في الحميات والأورام، وأرجوزة الفشتالي في الطب. أما ما يخص البيطرة والفلاحة فنذكر منها **ديوان الحيوان** للسيوطي (911هـ) **وكتاب الفلاحة** لابن البصال (ت 499 هـ)[25].

وفيما يخص وصف المخطوط فقد سلك المفهرس الطريقة الشرقية في ترتيب الحروف، فيذكر اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، وكل ما يدخل في ما يسمى بالعنوان البيليوغرافي، ثم يذكر بداية ونهاية المخطوط على غرار **كشف الظنون** لحاجي خليفة، ثم الزخرفة والتسفير، واسم الناسخ وتاريخ النسخ إن ذكر، ثم المسطرة والقياس وعدد الأجزاء. وختم الفهرس بأربعة كشافات:

1- كشاف عناوين المؤلفات.

2- كشاف الأراجيز.

3- كشاف أسماء المؤلفين.

4 - كشاف الناسخين.

وكلها مرتبة ترتيبا ألفبائيا. ويمكن اعتبار هذا الفهرس كتابا في تاريخ الطب، لأن الخزانة الملكية تضم عددا من النصوص الطبية نقلت في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية والعبرية، ودُرّست في جامعات أوربا، مثل مونبوليي بفرنسا، وأكسفورد بانجلترا، وليدن بهولندة. وفي السنة نفسها أي عام 1983 ظهر المجلد الثالث من فهارس الخزانة الحسنية، وهو الفهرس الوصفي لمخطوطات الرياضيات والفلك وأحكام النجوم والجغرافيا[26].

أكد المفهرس في مقدمته أنه لم يخرج في الطريقة التي اتبعها في ترتيب هذا الفهرس عن النهج الذي اتبعه في فهرسة كتب الطب. وتمتد عصور مخطوطات هذا الفهرس من القرن الثالث الهجري إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وينتسب مؤلفوها إلى مختلف آفاق العالم

---

[24]- يوجد منه أربع نسخ.

[25]- يوجد منه نسختان تحت رقم 6332 و6519.

[26]- طبع بمطبعة المعارف الرباط 1983.

الإسلامي، ومنهم عدد من مشاهير الأعلام الذين أسهموا بعلمهم و مصنفاتهم إسهاما نافعا كان له أبعد الأثر في تطور العلوم وتقدم الحضارة البشرية. ويؤكد المفهرس كذلك أن المجموعة التي يضمها هذا الفهرس تحتوي على عدد كبير من النوادر تنفرد بها الخزانة الحسنية، أو يعزُّ نظيرها في خزانات الكتب الشهيرة الأخرى، ومن هذه النوادر مصنفات علماء ينتسبون إلى أقطار الغرب الإسلامي برزوا في الحساب والجبر والمساحة والهيئة والتوقيت وآلات الرصد المختلفة[27]. فهرس المؤلف 589 مخطوطاً. يذكر عنوان الكتاب، واسم المؤلف، وأول النسخة ونهايتها، ثم يعطي ملخصاً لمحتوى المخطوط، ونوع الخط، ولون المداد، وأخيراً اسم الناسخ، وتاريخ النسخ إن وجد في تقييد الختام (Colophon). وقد ذيل المفهرس كتابه بكشافات ثلاثة: أولها خاص بأسماء مخطوطات الرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا. والثاني خاص بأسماء المؤلفين، والثالث خاص بأسماء النساخ. وكلها مرتبة ترتيبا ألفبائيا. أما المجلد الرابع من فهارس الخزانة الحسنية فقد خص به المفهرس مخطوطات المنطق وآداب البحث، والموسيقى، ونظم الدولة والفنون الحربية وجوامع العلوم[28] وأشار في المقدمة إلى موضوعات المخطوطات المفهرسة، ثم إلى مشاريع الخزانة المستقبلية مع التأكيد على الحفاظ على النهج الذي سار عليه في الفهارس السابقة، وذيله بالكشافات التالية :

- كشاف المخطوطات التي اشتمل عليها المجلد الرابع.
- كشاف على المستدرك على المجلدين الثاني والثالث.
- كشاف بأسماء المؤلفين الواردة أسماؤهم في المجلد الرابع.
- كشاف بأسماء مؤلفي المستدرك.
- كشاف بأسماء الناسخين بالمجلد الرابع.
- كشاف بأسماء الناسخين بالمستدرك.

[27]- انظر: مقدمة الفهرس، ص 6.

[28]- الفهرس الوصفي لمخطوطات المنطق، وآداب البحث والموسيقى ونظم الدولة والفنون الحربية وجوامع العلوم، مع مستدرك على المجلدين الثاني والثالث: محمد العربي الخطابي. الرباط 1985 موافق 1405 هـ.

وقد خص القسم الخامس من فهارس الخزانة الحسنية بمخطوطات الكيمياء وتعبير الرؤيا والعلوم الخفية[29] واعتبره آخر فهرس للعلوم العقلية المحفوظة مخطوطاتها بالخزانة. وقد وصف فيه 567 مجلدًا، فيها العديد من النوادر التي يعز نظيرها، وكذلك ما تم استخراجه من المجاميع. ويدل الوصف على أن مجموعة كبيرة من كتب الكيمياء نسخت برسم خزانة السلطان الحسن الأول الذي كان مولعا بعلم الكيمياء. وتضم هذه المجموعة مؤلفات جابر بن حيان (ت 196هـ)، وابن وحشية (ت 296هـ)، ومنظومات الطغرائي (ت 513هـ)، وأرجوزة المنبهي (ت 1164هـ)[30] وغيرها. وخُتم الفهرس بمسارد خاصة بكل فن، وهي كالتالي:

مسرد مخطوطات الكيمياء، مسرد الأوفاق وأسرار الحروف والتنجيم والزايرجة، وما شابه ذلك، مسرد بأسماء المؤلفين الذين اشتمل عليهم الفهرس، وأخيرا مسرد بأسماء الناسخين حسب الرقم الترتيبي للمخطوطات. وكل هذه الفهارس مرتبة ترتيباً ألفبائياً.

وآخر فهرس يخرجه العربي الخطابي، هو ذلكم الذي فهرس فيه مخطوطات علوم القرآن، والذي كان يريد له أن يكون القسم الأول من فهارس العلوم الشرعية[31]، وقد قسمه إلى أقسام ثلاثة:

1- التجويد والقراءات والرسم القرآني.

2- التفسير.

3- مباحث خاصة أو عامة شاملة لعلوم القرآن (الأحكام، الإعراب، شرح الغريب، آداب حمل القرآن، أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، خواص القرآن...).

ويضم الفهرس نوادر ونفائس معظمها نصوص، وأخرى عبارة عن أراجيز كانت أجوبة عن أسئلة الفقهاء المتعلقة بقراءة القرآن، وتجويده ورسمه. وقد خص هذه الأقسام بمسارد

---

[29] - الفهرس الوصفي لمخطوطات الكيمياء و تعبير الرؤيا والعلوم الخفية: تصنيف محمد العربي الخطابي. الرباط 1986.

[30] - أرجوزة في الصنعة من نظم أبي مدين محمد بن محمد المنبهي، رقمها: 4195.

[31] - الفهرس الوصفي لعلوم القرآن الكريم. الرباط1987 . كان هذا آخر فهرس يصدره الخطابي.

بأسماء المؤلفين، وختمها بمسرد للنُساخ على غرار ما صنعه فيما سبق من فهارس، وكل ذلك حسب الترتيب الألفبائي. وقد واصلت الخزانة المولوية فهرسة ما لم يفهرس من مخطوطات وذلك حسب الموضوعات وهو النظام الذي اتبع من البداية. فبالإضافة إلى فهرس التاريخ الذي صدر في مجلدين في عام 2000 أنجزت الخزانة فهرس مخطوطات الأدب في جزأين سنة 2001 من إعداد محمد سعيد حنشي وعبد العالي لمدبر بإشراف ومراجعة وتقديم أحمد شوقي بنبين. يضم الفهرس أكثر من خمسمائة مخطوط. كما نشرت في عام 2003 فهرس مخطوطات البلاغة والعروض من إنجاز الباحثين المذكورين وإشراف وتقديم مدير الخزانة. وفي نفس السنة نشرت الخزانة الملكية فهرس مخطوطات اللغة و يضم حوالي مائتين وخمسين مخطوطا وفهرسا لمخطوطات النحو والصرف ويشتمل على ما يزيد على ألف مخطوط، كلها من إعداد الباحثين خالد زهري ومصطفى طوبي بإشراف ومراجعة وتقديم أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة. و قد حاولنا في هذه الفهارس إبراز المواصفات والبيانات الضرورية في الفهرسة الحديثة[32]. أما ما يخص الوثائق بما في ذلك الكنانيش، فقد نشرت الخزانة فهرسين، خص المجلد الأول منها بالكنانيش (السجلات الرسمية)، واهتم الثاني بالمراسلات الملكية وغيرها، وقد وضعهما موظفون بالمكتبة الملكية تحت إشراف مديرها آنذاك.

- **فهرس الكنانيش**[33]

الكناش[34] مثل التذكرة أو الفهرسة هو تقييد يسجل فيه صاحبه شؤونه الخاصة كالإشارة إلى الكتب التي قرأها أو درسها أو ألفها أو إلى بعض الأحداث التي ربما لا نعثر عليها في كتب التاريخ. ويبدو أن هذا النوع من التأليف بدأ يظهر عند المغاربة في القرن الرابع

---

[32]- بالإضافة إلى فهرسة المخطوطات نشرت الخزانة المولوية ديوان شاعر الحمراء بتحقيق أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة في طبعتين اثنتين، كما نشرت أول معجم في اللغة العربية في مصطلحات المخطوط العربي. وفي سنة 2003 نشرت الخزانة كتاب تاريخ خزائن الكتب بالمغرب من إنجاز أحمد شوقي بنبين وترجمة مصطفى طوبي. و ستنشر قريبا المكاتب الإسلامية للشيخ عبد الحي الكتاني اعتمادا على مسودة محفوظة بالمكتبة العامة بالرباط.

[33]- فهرس الكنانيش (السجلات الرسمية) المجلد الأول : إعداد عمر عمور – الرباط 1983 .

[34]- تسمية مغربية تقابلها كلمة "التذكرة" في المشرق، كتذكرة الصفدي مثلا.

عشر الميلادي[35]. والكناشات كثيرة في المغرب ويرجع لها الفضل في الحفاظ على الكثير من الأخبار وعلى العديد من عناوين الكتب وبعض محتوياتها، مما جعل بعض العلماء والمؤلفين يضعونها ضمن مصادرهم، على غرار ما صنعه أحمد بابا التنبكتي في مقدمة كتابه **نيل الابتهاج**[36]. ويعتبر هذا الفهرس أول فهرس للكناشات المغربية الخاصة بالدولة العلوية الشريفة وهي عبارة عن السجلات الإدارية الرسمية لهذه الدولة وعددها خمسة وعشرون وثمانمائة كناش، أقدمها يرجع إلى عهد السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل (1141م - 1171م). أما مواضيعها فمتنوعة، ويمكن تقسيمها كما يلي:

- قسم يشتمل على البيانات المالية المتعلقة:

أولا: بالموانئ (الصادرات والواردات)

ثانيا: بالجبايات والرسوم وخرص الغلال.

ثالثا: بمداخيل وصوائر بيت المال والأملاك المخزنية.

- قسم يحتوي على نسخ المراسلات الحكومية الصادرة و الواردة.

- قسم يضم نسخ بعض المعاهدات الدولية التي أبرمتها المملكة المغربية مع بعض الدول الأجنبية. هذا فضلاً عن كنانيش أخرى متعلقة بالشؤون الخاصة بالبيت الملكي وبالأمور العسكرية.

وقد رتب هذا المجلد على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خاص بالمواضيع مع بيان رقم الكناش وتواريخه، واسم السلطان الذي تم التسجيل في عهده.

القسم الثاني: يتضمن كشفا بأسماء الأعلام البشرية الواردة في الكنانيش.

---

35. أقدم كناشة معروفة لدينا تلكم التي وضعها عبد الرحمن بن محمد الجادري الفاسي818 هـ. تعتبر هذه التذكرة مفقودة، وقد احتفظ ببعض الشذرات منها في كل من "شرح دلائل الخيرات"، لمحمد العربي الفاسي، و"المعيار" للونشريسي.

36. المنوني : الكناشات المغربية : مجلة" المناهل"- العدد الثاني1975 .

القسم الثالث: وهو كشف بأسماء الأماكن المذكورة في السجلات[37].

ويلي فهرس الكنانيش فهرس الوثائق[38] الذي صنفت مواضيعه على الشكل التالي:

1) الشؤون الدينية (الأحباس - الحج).

2) الشؤون الخاصة بالبيت الملكي.

3) التعيينات والإعفاءات.

4) الأمن الداخلي والخارجي.

5) أمور الجيش والسلاح.

6) الجبايات والرسوم والمكس.

7) الموانئ والملاحة.

8) الشؤون المالية والاقتصادية والأملاك المخزنية والجماعية.

9) التجارة الداخلية والخارجية.

10) الأجانب والحمايات القنصلية

11) السفارات.

12) أهل الذمة.

13) مراسيم التوقير والاحترام.

14) الهدايا والهبات.

15) مواضيع متنوعة.

37- انظر تقديم الفهرس، للعربي الخطابي، ص: 3 و4.

38- قسم الوثائق: المجلد الثاني- القسم الأول- المراسلات، تصنيف أمينة النابر وعمر عمور. ويزيد عدد الوثائق المحفوظة بالخزانة الحسنية على مائة وخمسين ألف وثيقة.

يضم هذا المجلد الوثائق المتعلقة بالشؤون الدينية والشؤون الخاصة بالقصر الملكي والتعيينات والإعفاءات علي عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1822 - 1859). وقد صنفت تصنيفا زمنيا مع رقم كل وثيقة وتاريخها وموضوعها الخاص، وأضيف إلى ذلك مسرد بأسماء الأعلام البشرية ومسرد آخر بأسماء المدن والقبائل والأماكن التي ورد ذكرها في الوثائق المفهرسة. وقد خصت أمينة النابر القسم الثاني[39] للمراسلات المتعلقة بالأمن الداخلي والخارجي على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، وهو مرتب كسابقه بحسب المواضيع العامة التي بني عليها تصنيف وثائق الخزانة، مع مسرد للإعلام ومسرد للأماكن التي ورد ذكرها في المراسلات.

الخزانات الخاصة

أما الخزانات الخاصة فإنها متعددة، ولكنها غير مفهرسة. فالمفهرسة منها لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد. وقبل عرض الفهارس المطبوعة المعروفة والمتعلقة بالمكتبات الخاصة، يجب الاعتراف بأن أعظم خزانة خاصة مغربية عرفها العصر الحديث تلكم التي جمعها العلامة عبد الحي الكتاني والتي حوت ما لم تحوه مكتبة معاصرة سواء في الشرق أو في الغرب، غير أن هذه الخزانة العظيمة قد ذهبت بذهاب صاحبها وآل معظمها إلى الخزانة العامة[40] وانتقل جزء منها إلى الخزانة الملكية[41]. وأول الخزائن الخاصة المعاصرة التي تمت فهرسة جزء منها خزانة الأسرة الصبيحية بمدينة سلا[42]. وبعد تقديم لمدير معهد المخطوطات العربية حينئذ يعرض محمد حجي واضع الفهرس نبذة عن تاريخ هذه الخزانة من تأسيسها إلى وضعيتها الحالية متحدثا عن محتوياتها وطبيعة مخطوطاتها وصيانتها وغير ذلك. وقد أكد

---

[39]- فهارس الخزانة الحسنية: قسم الوثائق، المجلد الثاني - القسم الثاني- المراسلات - تصنيف أمينة النابر. وكانت فهارس الوثائق والكنانيش مرقونة في طبعتها الأولى وقد تم طبعها بالمطبعة الملكية سنة 2003 مع تصحيح الأخطاء وإضافة كنانيش ووثائق أخرى بتقديم أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة الحسنية

[40]- حولت إلى الخزانة العامة عام 1959.

[41]- أكبر خزانة خاصة في المغرب الحديث خصصت لها جريدة السعادة مقالات متتابعة بقلم عدد من العلماء، نذكر منهم محمد بوجندار الرباطي، ومولاي عبد الرحمن بن زيدان، انظر كذلك: عبد الله الجراري: "شذرات تاريخية" ص 167.

[42]- فهرس الخزانة الصبيحية بسلا: تصنيف محمد حجي. منشورات معهد المخطوطات العربية. الكويت 1985.

المؤلف أنه اقتصر على وصف الكتب المخطوطة المجلدة، وأجّل الخروم والوثائق والكناشات إلى مرحلة ثانية. أما منهج الفهرسة فقد ركز "حجي" فيه على ذكر اسم المؤلف وسنة وفاته ومَصْدَرًا لترجمته واسم الناسخ وتاريخ النسخ ومكانه. وقد صنف المخطوطات المفهرسة في عشرة مواضيع:

1. القرآن وعلومه.
2. الحديث وعلومه
3. التوحيد والمنطق - والفقه وأصوله.
4. التصوف
5. اللغة: النحو والصرف، والبلاغة، والعروض، والأدب.
6. التاريخ، التراجم والمناقب والأنساب، الرحلات إلخ...
7. الحساب، الهندسة...
8. الطب- الأعشاب- الحيوان - الموسيقى.
9. الكيمياء- سر الحرف- الخط- الأوفاق- الزايرجات.
10. متنوعات منها: مبادئ العلوم- التعليم- السياسة...

وذيل محمد حجي هذا الفهرس بكشافات ألفبائية عامة: كشاف للكتب، وآخر خاص بالمؤلفين، وجعل الفهرس الثالث خاصا بأسماء الناسخين. والجدير بالذكر أن هذه الخزانة هي من بين الخزائن الخاصة القليلة المفتوحة في وجه الباحثين بدءا بتلامذة الابتدائي إلى مستوى التعليم العالي. أما الخزانة الخاصة الثانية التي تمت فهرستها هي خزانة العلامة عبد الله كنون (ت: 1989) رئيس رابطة علماء المغرب والتي يوجد مقرها بمدينة طنجة، حيث عاش صاحبها وجامعها رحمه الله[43]. لقد تجمع لدى هذا العالم طيلة حياته العلمية مئات من

[43]- فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنون. إعداد الأستاذ عبد الصمد العشاب. 1997م/1417هـ

المخطوطات والمطبوعات الحجرية وأضاف إليها عدداً من المصورات التي استخرجها من دور الكتب بمصر وإسبانيا[44]. وقد تم تصنيفها حسب العلوم والفنون ابتداء من نسخ مصاحف القرآن حسب القراءات، فكتب الدراسات القرآنية والتفسير، والحديث، والفقه، والتصوف، والتاريخ، والأنساب والطبقات والتراجم، والسياسة، والرحلات، والدواوين، والأدب، والعروض، والبلاغة، والتوحيد، والنحو واللغة، والمنطق والفلسفة، والفلك، والتوقيت والحساب، وعلم الجداول، والأوفاق، والفلاحة وغيرها.

وتتلخص طريقة المفهرس في الخطوات التالية:

- عنوان المخطوط واسم مؤلفه وتاريخ وفاته.
- ذكر أوله وذكر آخره وتاريخ التأليف وتاريخ النسخ إن وجدا.
- وصف المخطوط والإشارة إلى طبعه إن طبع وتاريخ الطبع ومكانه.
- وصف المخطوطات داخل المجاميع.
- تخصيص كل نسخة من نسخ الكتاب الواحد برقم خاص.

وينبغي الإشارة إلى أن هذا الفهرس يضم كذلك لائحة خاصة بالمطبوعات الحجرية التي يعتبرها المؤلف لندرتها في حكم المخطوط.

وقد ذيل المفهرس فهرسه هذا بلوائح المخطوطات مرتبة حسب التصنيف السابق، مع كشاف عام لعناوين المخطوطات، وفهرس للأعلام، كلاهما مرتب ترتيباً ألفبائياً، ولائحة بالمراجع والمصادر التي رجع إليها كـ كشف الظنون وفهارس المخطوطات.

ومن بين الفهارس المطبوعة المتعلقة بمخطوطات الخزانات الخاصة الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي (1974م)[45]. يقول المؤلف في مقدمة الفهرس: "تعتبر خزانة

44- حبسها صاحبها على طلبة العلم وهو على قيد الحياة عام 1985.

45- الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي : أربعة أجزاء: تأليف عبد الرحمن بن العربي الحريشي 1991 - 1997م. طبعت الأجزاء الثلاثة الأولى بمطبعة الدار البيضاء، وطبع الجزء الرابع والأخير بمطبعة الرسالة بالرباط.

كتب مؤسسة علال الفاسي من أغنى الخزانات الخاصة بالمغرب" . وإن قسم المخطوطات منها بالخصوص ليزخر بكثير من النفائس والنوادر . لقد كان المرحوم الزعيم علال الفاسي يبذل من وقته وماله في سبيل اقتناء الكتب والمخطوط منها على الأخص ما يمكن الاطلاع عليه بإلقاء نظرة على فهرس خزانته العامرة[46] . "وبالإضافة إلى المخطوطات تشمل الخزانة مؤلفات المرحوم علال الفاسي العديدة مخطوطة ومطبوعة، ثم المطبوعات الحجرية، فالمطبوعات الجديدة، وأخيراً المجلات والدوريات. وقد خص المؤلف كل جزء من الأجزاء الأربعة لمجموعة من الفنون. وهكذا عالج في الجزء الأول: السيرة النبوية، الأنساب، المناقب، التراجم، الفهارس والإجازات والأسانيد، التاريخ والجغرافية، الرحلات، الوفيات، الرياضيات، الفلك، التوقيت، الأوفاق والجدل، الطب والصيدلة، الفلاحة، السياسة وكنانيش العلماء .

وعالج في الجزء الثاني: المصاحف، القراءات، التفسير، الحديث، التوحيد، الفلسفة، والكيمياء، والمنطق .

وقد فهرس في الجزء الثالث كتب الفقه والنحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة . وخصص المجلد الأخير للتصوف والآداب وعلوم مختلفة .

وضع المؤلف لكل مخطوطين رقمين بارزين: يشير أولهما إلى الرقم الترتيبي لهذا الفهرس، ويشير ثانيهما إلى رقم المجلد الذي يوجد به المخطوط بالخزانة .

أما طريقة الفهرسة التي سلكها المؤلف في هذا الكتاب فجاءت على الشكل التالي:

1. عنوان المخطوط .
2. اسم المؤلف ولقبه وعام وفاته .
3. أول ما افتتح به المؤلف كتابه .
4. عدد صفحات المخطوط ومقياسها ومسطرتها .

---

[46]ـ مقدمة المفهرس ص 5. مجموع مخطوطات الخزانة 2400 مخطوط.

5. تاريخ التأليف وتاريخ النسخ واسم الناسخ إن أمكن.

6. نوع الخط.

7. الإشارة إلى المراجع التي ذكرت الكتاب أو ترجمت مؤلفه.

وفي آخر الكتاب صنع فهرسين مرتبين على حروف المعجم: الأول بعناوين الكتب والثاني بأسماء المؤلفين. وقد سطر في المقدمة - على غرار القدماء في مقدمات كتبهم - المصادر والمراجع التي استعان بها، ولجأ إليها في وضع الفهرس **ككشف الظنون** لحاجي خليفة، **والمعسول** للمختار السوسي، **وفهرس الفهارس** للكتاني، **ودائرة المعارف الإسلامية** الغربية، **وأعلام** الزركلي، وغيرها[47]. ويُضمُّ إلى هذه الخزائن الخاصة خزانة عالم وسياسي آخر معروف بمواقفه السياسية وآرائه الفكرية ومساهماته الثقافية التي تتمثل في العديد من المؤلفات والأبحاث تأليفاً وتحقيقاً ونشرا. إنه المرحوم محمد الفاسي (ت 1993م) الذي كان أول وزير للتعليم بعد استقلال المغرب. وفي خزانته ستة عشر ألف كتاب، لكن عدد المخطوطات لا يتجاوز 361 مخطوطا. وقد آلت هذه الخزانة بأكملها إلى القصر الملكي وأصبحت جزءا من خزانته[48]. وقد وضع لهذه المجموعة كشاف متواضع بعنوان: **الرصيد الوثائقي للفقيد محمد الفاسي**: طبع على الحاسوب في ثلاث وعشرين مجلدا، ويبدو أن هذا الكشاف من صنع مختص بالحاسوب وربما يكون أحد أفراد العائلة، يضع العنوان وأمامه قيمته المادية[49]. ويختم بالملاحظات إن كان هناك ما يلاحظ. ومعظم الكشاف خال من الملاحظات، باستثناء ثلاث مخطوطات حبست على جامع القرويين، ووضع عليها طابع إدارة هذه المؤسسة. ولم يخضع الكشاف لأي ترتيب أو تصنيف، فقد جاء ترتيبه وفق الصناديق التي جمعت فيها المخطوطات والتي بلغ عددها ثلاثة عشر صندوقا.

47- رغم اشتغاله بالسياسة وزعامته لأقدم حزب سياسي بالمغرب كان الأستاذ علال الفاسي من فطاحل العلماء الذين كانت لهم مشاركات عظيمة في تكوين الناشئة. له مؤلفات عديدة طبع الكثير منها ولا يزال الكثير منها ينتظر النشر. وقد كان شاعرا مجيدا طبع ديوانه في عدة مجلدات. وفي سنة 1977 ضمت إلى مؤسسة علال الفاسي خزانة أحد الوجهاء المثقفين وأحد رجال السياسة المبرزين المرحوم أحمد بناني الذي كان سفيرا ومديرا للمراسم الملكية. تشمل المخطوطات والمطبوعات معا، ولم تفهرس بعد.

48- احتفظت الخزانة الحسنية بالرباط بالمطبوعات والدوريات، ونقلت المخطوطات إلى خزانة القصر الملكي بمراكش.

49- بلغت القيمة الإجمالية لهذه المخطوطات 62595 درهما أي ما يزيد على ستة آلاف دولار.

ومن بين المكتبات الخاصة التي وضعت لها قوائم ولوائح خزائن بعض الوجهاء التي آلت إلى القصر الملكي بمراكش، وهي على التوالي: مجموعة عبد الحي الكتاني[50]، وخزانة الصديق الفاسي، ومكتبة محمد بن عبد السلام بناني، وخزانة عبد الكبير الفاسي، ومخطوطات عبد السلام الفاسي، وخزانة مولاي الحسن بن المهدي، ومجموعة محمد الفاسي، وأخيراً خزانة أحمد بن مسعود[51]. وقد كلفت لجنة ملكية عام 1982 برئاسة الفقيه محمد المنوني بفحصها وفهرستها فوضعت لها لائحة[52] مرقونة محفوظة بالقصر الملكي، وتضم هذه الخزانة نوادر ونفائس عزَّ نظيرها في باقي الخزانات، ولم تفتح بعد في وجه الباحثين.

ومن بين الخزانات الخاصة المفتوحة في وجه العلماء ولم تفهرس بعد - أو هي في طريق الفهرسة - خزانة الفقيه محمد داود بتطوان، والخزانة السودية بفاس التي أسسها سليل هذه العائلة العريقة وأحد علمائها السيد أحمد بنسودة[53]. وليست هاتان الخزانتان ومثيلاتهما في مغرب اليوم إلا امتدادا لما كانت عليه الخزانات الخاصة عبر تاريخ المغرب الطويل.

والصنف الثالث والأخير من المكتبات المغربية هو الذي نعتّناه في بداية هذا البحث بالمكتبات العامة[54]. وقسمناه أربعة أقسام: مكتبات المساجد، مكتبات المساجد الجامعة[55]، مكتبات المدارس العتيقة، ومكتبات الزوايا. فباستثناء بعض اللوائح والقوائم المتعلّقة بمجموعات بعض المساجد[56] والتي لا تخضع لأي تصنيف منهجي أو موضوعي والتي وضعها الفقهاء والشيوخ والطلبة، فإننا لم نقف على أي فهرس منهجي تتوفر فيه شروط ومواصفات الفهرسة الحديثة.

50ـ قسم كبير منها آل إلى الخزانة العامة بالرباط.

51ـ لا تتجاوز عدد مخطوطاتها خمسة عشر مخطوطا.

52ـ تبلغ محتوياتها ثلاثة آلاف مخطوط تقريبا

53ـ هناك العديد من الخزانات الخاصة والغنية يمكن التعرف إليها من خلال مؤلفات المختار السوسي، خصوصا فيما يتعلق بمكتبات جنوب المغرب، أو من خلال مقالات وأبحاث كتلكم التي نشرها محمد حجي مثلا عن مكتبات الصحراء المغربية، ومحمد زبان عن خزانة بني عبد الجبار بفجيج.

54ـ يشمل هذا الصنف كذلك فهارس مخطوطات المكتبات العامة المعاصرة كالمكتبة العامة بالرباط والمكتبة العامة بتطوان.

55ـ يضم هذا القسم كذلك المجموعات الخطية المحفوظة في الجامعات العصرية المغربية.

56ـ لائحة المخطوطات الموجودة بخزانة الإمام علي بتارودانت 1973 تضم 166 مخطوطا.

إن الفهارس المنهجية الحديثة لم تر النور عندنا إلا مع الحماية الفرنسية التي ارتأت بعد استقرارها بالمغرب ووقوفها على حالة خزانات الكتب أن تعيد تنظيمها وتعالج مخطوطاتها وتفهرسها على غرار ما حدث في الخزانات الأوربية[57]. وقد وقع الاهتمام أول الأمر بخزانات المساجد الجامعة، وعلى الأخص منها خزانة جامع القرويين التي يشهد التاريخ بما قام به من تكوين وتثقيف للعلماء والأدباء والفقهاء والفلاسفة عبر التاريخ من جهة، ولأن هذه الخزانة كانت تضم أهم مجموعة خطية في المغرب من جهة ثانية. وهكذا وبأمر من وزير العدل آنذاك العالم أبي شعيب الدكالي تكونت لجنة من الشيخ عبد الحي الكتاني والفقيه عبد الواحد الفاسي والعالم إدريس بن طلحة بمساعدة وتنسيق المستشرق الفرنسي ألفرد بل (Alfred Bel) مندوب الكتابة العامة للحكومة الشريفة للتعليم الإسلامي بفاس[58]، كلفت بالبحث في ما بقي من مخطوطات الخزانة وجمع شتاتها وترميم ما ينبغي ترميمه وتكميل الناقص منها من مجموعات مختلف خزانات المغرب، ثم تنظيمها وفهرستها مع وضع الكشافات لتيسير استعمالها. وبعد سنتين من التنقيب والعمل الجاد رأى النور أول فهرس منهجي لمخطوطات خزانة في المغرب[59] بتقديم للشيخ الكتاني بسط القول فيه عن الوضعية المزرية التي آلت إليها هذه الخزانة. يقدم لنا الفهرس 1542 مخطوطا و98 مطبوعا حجريا، مرتبة حسب الفنون التالية: التفسير- القراءات - الحديث- الفقه - النحو- اللغة- الأدب- الطب - الهندسة- التوقيت - المنطق- الأصول- التصوف -

---

[57]- يقول يوسف أسعد داغر : "إن المستشرقين الفرنسيين كانوا السباقين إلى وضع الفهارس المنهجية لمكتبات شمال إفريقيا". انظر دليل الأعارب: بيروت 1947 ص 89.

[58]- قبل التحاقه بالقرويين كان "ألفرد بل" مديرا لمدرسة تلمسان بالجزائر.

[59] -Catalogue des livres arabes de la Bibliothèque de Qarawiyyin, Fès 1917/1335

من المعلوم أن أول قائمة لمخطوطات القرويين هي التي نشرها روني باسه (Rene Basset) بعنوان :

« Les manuscrits de deux Bibliothèques de Fès (Qarawiyyin et Reif) Bulletin de correspondance africaine, 1883.

كما نشرت قوائم أخرى بعد ذلك، نذكر منها:

1. فهرس نوادر خزانة القرويين: محمد العابد الفاسي: مجلة معهد المخطوطات: المجلد 5 عام 1959.
2. قائمة بأسماء المخطوطات الموجودة في خزانة القرويين: وزارة الثقافة 1973.
3. قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين: وزارة التهذيب الوطني والشبيبة والرياضة 1960.
4. j. Shasht – sur quelques manuscrits de la Bibliothèque de la mosquée Qarawiyyin à Fès : Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Levi –Provençal : Paris 1962.

التوحيد وأخيراً المجاميع والملحقات. وقد خص المفهرس كل مخطوط باسم مؤلفه وعنوانه، وعدد أجزائه، وحالته بالخزانة، ووعائه (جلد أو ورق)، ورقمه بالفهرس، وذكر أول سطر من المخطوط. وانتهى الفهرس بمسردين مرتبين ترتيبا ألفبائيا: أحدهما خاص بالعناوين، وثانيهما خاص بأسماء المؤلفين. أما الفهرس الشامل والأخير الذي وصف جميع محتويات هذه الخزانة الكبيرة التاريخية فهو الذي وضعه القيم على الخزانة محمد العابد الفاسي (ت 1975م) ونشره ابنه في أربعة مجلدات[60]. قدم ابن المؤلف الفهرس بمقدمة ضافية تحدث فيها عن والده مصنف الكتاب وأعطى نبذة تاريخية موجزة عن خزانة القرويين، ثم تناول الحديث عن المحافظين الذين توالوا على رأس الخزانة بأمر من الملوك، وأخيراً أشار إلى مصادر محتويات هذه الخزانة. وقد تم جمع هذا الفهرس بطريقة عشوائية ولم يخضع تأليفه لأي تصنيف أو ترتيب، لكن الجزء الأول اشتمل معظمه على مخطوطات القرآن الكريم وعلومه والحديث والسنة والفقه، واشتملت الأجزاء الثلاثة الأخرى على باقي الفنون من أدب وبلاغة وفلسفة وطب وفلك وغيرها[61]. ويمتاز الفهرس بتلكم التراجم الضافية التي خص بها المؤلف العلماء والفقهاء والمفكرين، وما نسب لهم من أخبار ونوادر وما خلفوه من مؤلفات، الأمر الذي جعل صاحب التقديم يقول: "فإن كتاب أبي عبد الله محمد العابد الفاسي ليس فهرساً للمخطوطات فحسب، بل هو كذلك معجم للأدباء"[62]. أما فيما يخص وصف المخطوطات فإن المفهرس يذكر عنوان المخطوط ثم أجزاءه الأصلية وما هو موجود منها بالخزانة، ثم اسم المؤلف الكامل، ثم يشير إلى ما يعرفه من نسخ المخطوط المحفوظة في مختلف الخزانات الوطنية والدولية، ثم يصف حالة المخطوط، فيقول: "هو صحيح أو مبتور، نوع الخط، ثم الوقف إذا كان عليه تحبيس، ثم يشير إلى ما يحمله من هوامش وطرر وتعليقات وشروح، ويختم وصفه بعدد الأوراق والصفحات،

60- فهرس مخطوطات خزانة القرويين (1979 – 1979) محمد الفاسي الفهري.

61- يقول محمد الفاسي في المقدمة: " إن خزانة القرويين تحتوي على جميع الفنون التي ألف فيها المسلمون، مع مكانة خاصة للقرآن والحديث والعلوم الشرعية" ص 32.

62- مقدمة الفهرس، ص 34. يذكرنا هذا الفهرس بالفهرس الذي وضعه الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus) في القرن الثالث قبل الميلاد لخزانة الإسكندرية التي كان قيّما عليها، فقد توسع كاليماخوس وأطنب في الحديث عن الفلاسفة والمفكرين أصحاب التآليف المحفوظة بالخزانة الشيء الذي جعل المحدثين يعتبرون الفهرس تاريخا للفكر اليوناني.

فعدد السطور، والمقياس، فالناسخ، فالوعاء (جلد أو ورق)، وإذا كان جلداً فمن أي أنواع الجلد، ثم التسفير، وأخيراً يذكر اسم الناسخ إذا ذكر. وقد أنهى محمد الفاسي هذا الكتاب بفهرس خاص بأسماء المؤلفين في مجموع الأجزاء الأربعة، باعتبارها حسب قوله المدخل الرئيسي لدى الباحث، وأخذ بعين الاعتبار الاسم العائلي، نظراً لشيوعه ورسوخه في الحافظة أكثر من غيره، وأتبعه باسم العَلم واسم الأب تفاديا للخلط. وقبل وضع هذا الكشاف قال: "إن لهذا الفهرس قصة مشوقة تملك الذهن وتحكم الوجدان، إنها قصة المخطوط العربي بالمغرب، وعلى الخصوص بمركز إشعاعه طيلة قرون جامعة القرويين بفاس"[63].

أما المسجد الجامعة الثاني جامع ابن يوسف فإن أول فهرس وضع له كان ذلكم الذي أنجز بأمر من الخليفة السلطاني المولى عبد الحفيظ عام 1329 هـ، يقول مؤلفه: إنه سطر الكناشة على خمسة أضلاع: الضلع الأول لاسم المؤلف، واسم الكتاب، وتاريخ وفاة المؤلف، والثاني للنسخ الموجودة من قلم أو طبع، والثالث لعدد الأجزاء، والرابع لصفتها من صحيح أو متلاش، والخامس لنمرتها الخصوصية المرموز بحرف ن. خ، والعمومية ن. ع.

وقد قسم المفهرس فهرسه الذي سماه كناشة إلى 18 باباً: المصاحف - القراءات- التعبير- الحديث- الصلاة على النبي- التوحيد- التصوف- الوعظ- الأصول- الفقه- التاريخ- اللغة- المنطق- الطب - النحو والصرف- الأدب- البلاغة- متنوعات.

وقد ختم هذه الكناشة التي وصف فيها 470 مخطوطاً بالمصادر التي اعتمد عليها في عمله، ككشف الظنون، وابن خلكان، وابن خلدون وآخرين.

أما الفهرس الأحدث الذي وضع لهذه الخزانة فهو فهرس العالم الصديق بلعربي، المسمى فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف[64] بمراكش، وهو أكبر حجما من الأول، حيث

[63]- الجزء الرابع من الفهرس، ص 393. إن محمد العابد الفاسي مؤلف هذا الفهرس قد وضع كتاباً عام 1960 بمناسبة مرور 1100 سنة على بناء القرويين سماه: المكتبة العلمية: تحدث فيه عن تاريخ هذه الخزانة منذ تأسيسها إلى اليوم ذاكرا أهم وأقدم مخطوطاتها، كالمصحف الكوفي المكتوب على رق الغزال، والذي يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الثالث الهجري.

[64]- فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف، الصديق بلعربي: دار الغرب الإسلامي بيروت 1414- 1994.

وصف فيه صاحبه ما يقارب 2000 مخطوط. ويبدو من خلال معاينة هذا الفهرس أن صاحبه حاول وضع فهرس دقيق للتعريف بالمخطوطات حسب الطرق الحديثة المتبعة في وضع الفهارس، ولهذا أخذ بعين الاعتبار المواصفات التالية: رقم المخطوط- عنوانه- مؤلفه- أوله- تاريخ التأليف- الناسخ- تاريخ النسخ- مكان النسخ- التملك- التحبيس- مكان التحبيس- نوع الخط- مسطرته- مقياسه- ملاحظات مختلفة. وقد وجه عناية كبرى إلى الصفحات الأولى والأخيرة من كل مخطوط لتسجيل ما يحمله من تحبيسات أو تملكات أو إجازات أو سماعات أو تقاريظ وتوقيعات وخطوط، وأسماء الموقعين على الوثائق المختلفة من قضاة وعدول وقيمين وطوابع رسمية وغير ذلك[65]. وأنهى المؤلف فهرسه بكشافات أربعة: كشاف المؤلفين، كشاف الكتب، كشاف المحبسين، وكشاف الموضوعات. إنه فهرس يختلف عما سبق وصفه من فهارس من حيث مواصفات المخطوط كذكره للتحبيس والإجازات والسماعات وما ماثل ذلك[66].

أما خزانات الجامعات الحديثة فإن كل محتوياتها مطبوعات باستثناء كلية آداب الرباط التي تحتفظ بمجموعة مهمة من المخطوطات تجمعت لديها بسبب الأدوار الثقافية التي قامت بها منذ أن كانت مدرسة للغة العربية واللهجات البربرية عند تأسيسها مع بداية الحماية الفرنسية، إلى أن أصبحت أول كلية للآداب بعد استقلال المغرب. وقد وضعت هذه القائمة حليمة فرحات، وصفت فيها أكثر من 300 مخطوط تعالج العديد من الفنون والمعارف، بدءاً بالقرآن الكريم وانتهاء بكتب الطب والمنطق[67]. وقد اعتمدت المؤلفة في وصفها للمخطوط : عنوانه، مؤلفه، أوله وآخره، نوع الخط، تاريخ النسخ، مسطرته، ثم الإشارة إلى مصدر أو مرجع له علاقة بالكتاب. وقد يلاحظ لأول وهلة أن نوعاً من الاضطراب يسود هذه القائمة التي تفتقر إلى الكشافات أو المسارد الخاصة بعناوين الكتب أو أسماء المؤلفين. ويدخل في صنف

65- مقدمة الفهرس. أقدم مخطوط تحتفظ به خزانة جامع ابن يوسف نسخ في القرن الخامس الهجري.

66- في عام 1984 وضع الصديق بلعربي فهرسا مختصرا للخزانة سماه: " الفهرست المختصر لخزانة ابن يوسف بمراكش" اقتصر فيه على العنوان واسم شهرة مؤلفه أو لقبه، نشرته كلية آداب مراكش.

67- مخطوطات كلية الآداب والعلوم الإنسانية: الرباط سنة 1980، مطبوع بواسطة آلة الاستنساخ، ويقع في 112 صفحة من الحجم الكبير. وقد سبق للسيدة فرحات أن نشرت هذه القائمة تباعاً في فترات مختلفة في مجلة كلية آداب الرباط بين سنة 1980 وسنة 1982.

المكتبات العامة مكتبتان احتفظتا حتى الآن بأضخم وأهم المجموعات الخطية المحفوظة للخزانات العمومية، هما المكتبة العامة بالرباط والمكتبة العامة بتطوان. إن خزانة الرباط التي تأسست على عهد الحماية والتي كان لها وما زال دور القيام بشؤون المكتبة الوطنية قد حظيت بقصب السبق من حيث التنظيم والفهرسة[68]. خضعت أول مجموعة منها للفهرسة منذ سنة 1921 على يد المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال الذي حاول جاهداً أن يضع فهرساً[69] حديثاً يحترم كل مواصفات الفهرسة الحديثة. إنه أول فهرس يستشير تاريخ الأدب العربي لبروكلمان بحثاً عن نسخ أخرى للمخطوط المفهرس. والمخطوطات المفهرسة تعالج معظم العلوم العربية بدءا بالقرآن وانتهاء بالموسيقى والجاميع. وقد صدّر ليفي بروفنسال فهرسه بمقدمةٍ تاريخية عن المجموعة الخطية التي ينوي فهرستها وأنهاه بكشافات ثلاثة مرتبة ترتيباً ألفبائياً، أحدهما خاص بالمؤلفين بالفرنسية، وثانيها خاص بعناوين الكتب باللغة العربية، وخص الثالث لمطابقة الأرقام الترتيبية في السجل العام لأرقام الكتب في الفهرس[70]. وقد فهرس مجموعات أخرى بعد ليفي بروفنسال كل من: ر. بلاشير ورونو وغيرهما. وفي سنة 1954 أصدر الرجراجي وعلوش القسم الثاني في جزءين من فهارس الخزانة العامة سائرين على خُطى ليفي بروفنصال في فهرسة المخطوطات[71]. وفي عام 1973 ظهر القسم الثالث من فهارس المكتبة العامة تم فيه وصف 1056 مخطوطا مشيا على نسق الفهارس السابقة[72]. ونشر المرحومان محمد إبراهيم الكتاني وصالح التادلي في سنة 1997م المجلد الخامس من فهارس

---

[68]- آلت إليها بعد الاستقلال كثير من خزانات الساسة والوجهاء والوزراء مثل الأجلاوي باشا مراكش والمقري الصدر الأعظم و الحجوي وزير العدل والشيخ عبد الحي الكتاني وآخرين. وقد شرعت الدولة المغربية في بناء خزانة وطنية في سنة 2003.

[69]- يضم الفهرس أكثر من 500 مخطوط وعنوانه: .Les Manuscrits arabes de Rabat : Paris E.leroux 1921 وأعيد طبعه في عام 1998 بعناية الأستاذين التادلي والمرابطي.

[70]- يعد هذا الفهرس الثالث من نوعه بعد فهرس A.Bell للقرويين و Maillard بالنسبة لمخطوطات المسجد الكبير بطنجة الذي نشره في مجلة العالم الإسلامي العدد 35 عام 1917 بعنوان:
" La Bibliothèque de la grande mosquée de Tanger In : RMM

[71]- المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانة العامة برباط الفتح : القسم الثاني . باريس الجزء الأول 1954 . الجزء الثاني 1958 تم وصف 2300 مخطوط تقريبا. أعيد طبعهما في سنة 1997م وفي سنة 2001م بتقديم الأستاذ أحمد التوفيق مدير الخزانة العامة للكتب.

[72]- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة للكتب والوثائق بالمغرب: القسم الثالث، الرباط 1973.

المخطوطات المحفوظة بهذه الخزانة وصفا فيه ما يزيد على تسعمائة مخطوط في النحو والتصريف واللغة والبلاغة والعروض والأدب والنقد الأدبي والأدب الشعبي والتاريخ والتراجم والمناقب والإجازات والفهرسات والأنساب والرحلات والقصص والحكايات والتربية وآداب اللياقة والخط والموسيقى والنظم الإدارية والفروسية والسبق والرماية وعلم الحيوان والكيمياء والطب والرياضيات والحساب والهندسة والهيئة وعلم الفلك والتوقيت والتعديل والرصد والتنجيم وعلم الأسماء وعلم الأوفاق والجداول والأذكار والأوراد وتعبير الرؤيا والردود والمناظرات. وقد تمت هذه الفهرسة وفق شروط الفهرسة العلمية الحديثة.

وفي سنة 1994م نشر الفقيه المنوني الجزء الخامس من فهارس الخزانة وصف فيه ما يزيد على أربعمائة مخطوط من مجموعة الشيخ عبد الحي الكتاني التي آلت إلى المكتبة العامة بعد استقلال المغرب عام 1956م. وقد ذيله بكشاف بأسماء المؤلفين وآخر بعنوان الكتب. وقد واصل الأستاذ سعيد المرابطي فهرسة قسم مما لم يفهرس من مخطوطات فنشر في سنة 2002 فهرستا وصف فيه حوالي مائتين وسبعين مخطوطا معتمدا في ذلك على مجموعة من البيانات أضفت على عمله هذا طابعا علميا، وكان هذا الفهرس هو السابع والأخير الذي وضع لهذه الخزانة حتى كتابة هذه الأسطر.

أما المكتبة العامة بتطوان التي تشتمل على 2407 مخطوط فإنها لم تفهرس هي كذلك بأكملها. والفهرس الحديث الذي نشر[73] يقتصر على القرآن وعلومه كالتجويد والقراءات والتفسير. وقد حاول المفهرسان أن يكونا أكثر تفصيلاً وتدقيقاً من غيرهما في وضع هذا الفهرس كأن يبحثا في تاريخ ميلاد ووفاة المؤلف بالتاريخين الهجري والميلادي، كما يذكران بداية ونهاية كل مخطوط مع الإشارة إلى نوع الخط (نسخي أوشرقي أوجبلي)، وعن حالته (رديء، جميل، دقيق، واضح)، وعن الألوان، ثم تاريخ النسخ واسم الناسخ، وختم المفهرسان عملهما بكشافات ثلاثة ألفبائية : كشاف العناوين، وكشاف الناسخين، وكشاف المصادر والمراجع

73 - فهرس مخطوطات خزانة تطوان : قسم القرآن وعلومه. إعداد المهدي الدليرو ومحمد بوخبزة. تطوان 1987، 236 صفحة.

المعتمدة في الفهرسة. وقد أنجز المؤلفان القسم الثاني الذي نشرته وزارة الثقافة سنة 1984، فوصفا فيه مخطوطات الحديث والسيرة النبوية، وسيصدر قريباً القسم الثالث الذي فُهرِسَتْ فيه كتب الفقه. ولم يختلف القسم الثاني عن القسم الأول من حيث التنظيم والفهرسة.

وتختم فهارس المكتبات العمومية بما صدر من قوائم للمجموعات المحفوظة بمختلف مكتبات الزوايا المغربية. إن هذه الزوايا التي أسست لمقاومة المستعمر منذ القرن العاشر الهجري قد قامت بأدوار ثقافية كبرى بإزاء دورها السياسي، وعلى الرغم من أهمية المخطوطات التي لا تزال تحتفظ بها حتى اليوم، فإنها للأسف لم تخضع لفهرسة علمية حديثة. كل ما هنالك قد وُضعت لبعض هذه الزوايا قوائم ولوائح مبعثرة سنشير إليها بإيجاز، وبقي البعض الآخر[74] عبارة عن غابات كثيفة يصعب دخولها بل يتعب من يحاول استشارة محتوياتها. وبما أن الزوايا تشرف عليها وزارة الأوقاف فقد قامت هذه الأخيرة بوضع قوائم أولية لبعض هذه الخزائن، وهكذا وضع الفقيه محمد المنوني لائحة في جزأين لمجموعة زاوية تمكروت" الزاوية الناصرية" التي تبلغ 4200 مخطوط[75]. ثم نشر عام 1985 دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت[76]، مضيفا إليه ما لم يسجل في اللائحتين المذكورتين، واحتفظ المفهرس بالطريقة التي سلكها في وصفه للمخطوطات، حيث يذكر الرقم الترتيبي ثم رقم الكتاب، ثم عنوانه واسم مؤلفه، وعدد الأجزاء، وتاريخ النسخ دون مراعاة أي ترتيب معين مما يجعل الدليل صعب الاستخدام. والزاوية الثانية التي تضم مكتبة عظيمة هي الزاوية الحمزية العياشية بجبل آيت عياش. ظهرت القوائم الأولى لهذه الخزانة في القرن التاسع عشر. وهكذا في سنة 1852 وُضع لها دليل بعنوان: **فهرسة خزانة أبي سالم وأحفاده**[77]. وفي سنة 1926

74- خزانة زاوية أبي الجعد مليئة بالمخطوطات والمصاحف والظهائر والمراسلات السلطانية والكناشات، وليس لها قوائم تعرف بها وبعددها الذي يبدو هائلا.

75- لائحة مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت: محمد المنوني: الجزء الأول. 1973 الجزء الثاني. 1974 مرقونة.

76- دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت- الرباط. وزارة الأوقاف1985 -221 صفحة.

77- رقمه بمكتبة الزاوية 245 -- ونسخة أخرى محفوظة في المكتبة الوطنية بباريز تحت رقم 4725. أقدم مخطوط محفوظ بهذه الخزانة نسخ عام 421 هـ على رق الغزال بخط أندلسي.

صورت بعثة لمنظمة اليونسكو 269 مخطوطاً . وفي سنة 1963 نشر محمد المنوني في مجلة تطوان بحثاً بعنوان: **مكتبة الزاوية الحمزاوية : صفحات من تاريخها**[78]: صدَّر المؤلف بحثه بمقدمة تاريخية عن الزاوية، ثم وصف مجموعة من المخطوطات بما فيها المجاميع، ذاكراً العنوان، واسم المؤلف، واسم الناسخ، وتاريخ النسخ ورقم الكتاب في الخزانة. وأحياناً يذكر بداية المخطوط أو نهايته. أما المحتوى فإنه لا يختلف عن الكتب المتداولة في الزوايا المغربية. أما مكتبة "زاوية تنغملت" التي يرجع تأسيسها إلى العصر السعدي، فإنها تحتوي على 738 مخطوطاً حسب اللائحة التي وضعتها لها الأوقاف عام 1973 والتي اقتصر فيها على اسم المؤلف وعنوان المخطوط وتاريخ النسخ[79]. ولا تخضع لأي ترتيب أو تنسيق[80] . وقد وضع الباحث عبد الرحيم العلمي فهرساً للمخطوطات المحفوظة بالمسجد الأعظم في تازة في جزأين مع مقدمة عرّف فيها بمدينة تازة وبالمجموعة الخطية التي تحتفظ بها خزانة المسجد[81] .

وبعد فهذه فهارس وقوائم[82] المخطوطات العربية الإسلامية المحفوظة في مختلف خزانات المغرب. فما هي طبيعتها وما الطرق التي اتبعت في وضعها والقيام بها؟ ومن هم هؤلاء الذين أنيطت بهم هذه المهمة العلمية؟ وهل يمكن القيام أخيرا باقتراح بطاقة نموذجية لفهرسة المخطوط العربي دون محاولة القيام مسبقاً بتحديد مفهوم الفهرسة تحديداً علميا، باعتبارها عنصراً من عناصر علم المخطوطات الحديث المعبر عنه في الغرب بالكوديكولوجيا (Codicologie).

إن اختلاف التسميات التي أطلقت على فهارسنا المغربية: دليل، فهرس، قائمة، لائحة، كشف، مسرد، كشاف، كاش، أو كناشة وغيرها يوحي بالاضطراب وبالحاجة إلى تحديد المصطلح الذي نريده للكتاب الذي تم فيه وصف مخطوطات خزانة معينة. وللتذكير فإن أطروحة الترادف غير موجودة في اللغات، وإن كل كلمة لها معنى خاص تدل عليه، ومرادفها لا يعني معناها

78. محمد المنوني : مجلة تطوان عدد 8 سنة 1963 -ص 97 - 117.
79. لائحة المخطوطات الموجودة بزاوية تنغملت بإقليم بني ملال ؛ وزارة الأوقاف 1973 .
80. آلت خزانة هذه الزاوية بأمر من أمير المؤمنين الحسن الثاني رحمه الله إلى الخزانة الحسنية حيث خضعت للتنظيم والفهرسة.
81. فهرس مخطوطات الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة في جزءين في عام 2002 م.
82. تربو على مائة قائمة.

بالضبط بقدر ما يقصد به تقريب معنى الكلمة المرادفة. إن كلمة دليل لا تعني قائمة، والكشاف ليس هو الفهرس، والمسرد ليس هو الكناشة أو الدليل. فالكلمات الفرنسية المقابلة لهذه المصطلحات والمستعملة في إطار الفهرسة (Répertoire- index-Catalogue) تفيد في الاستعمال معاني مختلفة للتعبير عن عملية وصف المخطوطات. (l'index) هو الكشاف الذي يقتصر فيه صاحبه على اسم المؤلف وعنوان الكتاب ورقمه في الخزانة، وكشاف[83] المستشرق فاجدا (Vajda) (ت 1981)، الذي وضعه لمخطوطات باريس خير مثال على ذلك. [84](le Catalogue) هو الفهرس الذي يتناول فيه صاحبه وصف المخطوطات وصفا تفصيلياً كما جاء في فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية الفرنسية الذي بدأه فاجدا (Vajda) بمساعدة سوفان (I. sauvan) والسيدة كيدون [85](Guesdon). أما كلمة (Répertoire) التي تعني الدليل، فإنها لا تستعمل للمخطوطات بقدر ما تستعمل للتدليل على المطبوعات أو لإحصاء الجمعيات والمنظمات والأشخاص مع شيء من التفصيل، إنها في منزلة بين الكشاف والفهرس. لكن ماذا عن استعمال واصفي المخطوطات للمصطلحات السالفة الذكر في المغرب؟ إن إلقاء نظرة سريعة على ما سبق وصفه من فهارس وقوائم وأدلة يكشف عن العشوائية التي تسود استعمال هذه المصطلحات التي يرسلها المؤلفون على عواهنها كعناوين لمؤلفاتهم دون التركيز على ما تعنيه بالضبط. إنها في رأيهم كلمات مترادفة لا تفاوت كبيرا بينها، ينوب بعضها عن بعض على الرغم من اختلاف الحاصل في محتوى هذه الكتب التي كان وصف المخطوطات موضوعاً لها. هذا من حيث المصطلح، أما من حيث طبيعة هذه الفهارس فإنها مضطربة

---

[83] - Index général des manuscrits arabes musulmans de G. Vajda : Bibliothèque Nationale : Paris : 1953.

[84] - تطلق هذه الكلمة كذلك على لائحة الكتب الموجودة في مكتبة تجارية أو قائمة كتب دار من دور النشر.

[85] - Catalogue des manuscrits arabes, première partie : Manuscrits chrétiens : par Gérard Troupeau.
- Tome I et II Paris 1972 et 1974.
- catalogue des manuscrits arabes. Deuxième Partie : Manuscrits masulmans.
- Tome II 1978. Paris 1985. par Vajda et Sauvan.
- Tome III Paris 1985. par Vajda et Sauvan.
- Tome IV Paris 1985. par Y. Sauvan
- Tome V Paris 1995. par Y. Sauvan et Marie Geneviève Balty - Guesdon

أشد ما يكون الاضطراب، إن معظم القوائم رتبت مخطوطاتها بحسب ترتيبها على رفوف الخزانة ولا يعدو أن يكون هذا الترتيب مطابقا لسجل دخول الكتب للمكتبة. وهذا ما حصل مثلاً في دليل خزانة الزاوية الناصرية بتامكروت ولائحة مخطوطات الزاوية الحمزاوية. وقد روعي في قوائم أخرى أحجام الكتب في الترتيب دون الأخذ بالاعتبار أي نوع من التنسيق والتصنيف. وكثير من هذه القوائم يفتقر إلى كشافات بعناوين المؤلفات وأسماء المؤلفين من شأنها أن تيسر العمل للباحث عن مخطوط معين أو مؤلف من المؤلفين. إن طبيعة هذه القوائم تذكرنا بفهارس المكتبات القديمة الموقوفة على المؤسسات الدينية، والتي كانت عبارة عن لوائح للكتب لا تخضع لأي ترتيب، تكون عادة ضمن كتاب الوقف الذي يشرف على القيام به القاضي أو الناظر أو كل من سمحت له مؤهلاته القانونية والشرعية بتحوز الوقف واستلامه.

وعلى الرغم من محاولة بعض الفهارس القليلة القيام بوصف للمخطوطات وصفاً تتوافر فيه بعض شروط الفهرسة الحديثة، فإنها تبقى مفتقرة إلى الكثير من العناصر والمواصفات التي تفرضها أساليب هذه العملية العلمية. إن الفهارس التي وقفت عليها لم أجد واحدا منها يشير إلى ظاهرة التعقيبة، هذه التقنية التي هي عبارة عن نوع من الترقيم استعمله القدماء لترتيب المؤلفات من جهة، ولمساعدة المختصين في صناعة المخطوط كالمسفرين في ترتيب ملازم الكتاب من جهة أخرى، وباستثناء فهرس واحد أشار إشارات عابرة إلى التسفير في وصف المخطوط فإن كل الفهارس قد أهملت هذه الظاهرة التي تعتبر عاملا مهما لتأريخ المخطوط العربي. إن تجليد الكتاب المخطوط من المواطن التي يستهدفها كل من الكوديكولوجي، أي عالم المخطوطات والمفهرس حينما يكونان بحاجة إلى توثيق نسخة من مخطوط معين. باستثناء القلة القليلة لا نجد ضمن هذه الفهارس من اهتم بالسماعات والإجازات والتملكات التي لها هي بدورها أهمية بالغة بالنسبة لمن يؤرخون للمخطوط العربي. وهل الاهتمام بهذه الظواهر ضروري في فهرسة المخطوط أم يدخل في اختصاص عالم المخطوطات؟ وإذا كانت هذه طبيعة ما ظهر حتى الآن مما سمي بفهارس المخطوطات التي قلنا إنها تفتقر في مجملها إلى أبسط قواعد الفهرسة العلمية، فمن هو ذلك الذي أنيطت به هذه المهمة؟ إن معظم الذين وضعوا

القوائم التي تم وصفها سابقاً لا يختلفون في تكوينهم وتعليمهم وتجربتهم من فقهاء المساجد وشيوخ الزوايا وطلبة المدارس العتيقة والمحبسين الذين كانوا يضعون قوائم للكتب دون مراعاة أي تنسيق منهجي أو تصنيف موضوعي، تيسيرا للعثور عليها والاستفادة منها في الدراسة والبحث. إن الذين وضعوا هذه القوائم لا تنقصهم الكفاءة العلمية ولا التجربة في ميدان المؤلفات بل يفتقرون في ممارستهم لعملية الفهرسة إلى التقنيات الحديثة وإلى التمكن من أساليب علم البيبليوغرافيا الحديث. لا بد للمفهرس من أن يكون بيبليوغرافيا، لأن مجموعة التساؤلات التي يطرحها العنوان البيبليوغرافي (L'adresse bibliographique) لمخطوط معين تقتضي وجود مفهرس ملم بقواعد البيبليوغرافيا وأساليبها الحديثة. وهذا الإلمام هو الذي يمكنه من الإجابة عن الأسئلة التقنية والعلمية التي تطرحها عملية الفهرسة من جهة ويقتضيها الوصف التاريخي والكوديكولوجي للمخطوطات من جهة أخرى. وبالإضافة إلى الإلمام بالبيبليوغرافيا على المفهرس أيضا أن يكون باليوغرافيا يستطيع التمييز بين أنواع الخطوط القديمة. معظم أدلة المخطوطات في المغرب تشير إلى نوعية الخط الذي كتبت به المخطوطة، فتقول: خط شرقي أو خط مغربي، ولكن لا نعثر إلا قليلاً على الأدلة التي تحدد بالتدقيق هذا الخط. فإذا كان الخط مغربيا[86] مثلا، فهو إما أندلسي أو مغربي أو موريتاني أو غير ذلك. وإذا كان في المغرب الأقصى فهو فاسي أو صحراوي أو سوسي أو بدوي أو غير ذلك.

وإذا كان بعض العلماء الذين اهتموا بالمخطوطات واشتغلوا بها عقوداً من الزمن يستطيعون التمييز بين هذه الخطوط القديمة، فإن المغرب يبقى بحاجة إلى باليوغرافيين مختصين بعلم الخطوط القديمة. هذه بعض المواصفات التي ينبغي توافرها في المفهرس وهي التي تجعله قمينا بممارسة هذه العملية العلمية. وليس كل العلماء وكل المشتغلين في حقل المكتبات جديرا باقتحام هذا الميدان الذي يقتضي حدا أدنى من علم المخطوطات والباليوغرافيا أو علم الخطوط، بالإضافة إلى ثقافة مخطوطية وتجربة كافية وتكوين عام.

---

[86] - بمعنى الغرب الإسلامي.

ولنتساءل أخيراً: هل يمكن اقتراح بطاقة نموذجية لفهرسة المخطوط العربيٍ تأخذ بعين الاعتبار كل المعطيات العلمية والتقنية الحديثة قبل أن نحدد مفهوم الفهرسة تحديدا نهائيا يجمع عليه العلماء والمختصون، ويحظى بقبول كل من المهتمين بالمخطوطات في جميع المراكز والمكتبات العربية.

إن الفهرسة كما هو معلوم جزء من علم المخطوطات، وهذا الأخير عبارة عن عدة علوم كالبحث في تاريخ المكتبات وحياة النساخ وفي تاريخ المخطوطات، وفي مصادر المجموعات، وفي وضع الكشافات والفهارس، وما إلى ذلك. وقد يلاحظ المتتبع لفهارس المخطوطات في العالم العربي، أن بعض الفهارس ذات الاتجاه التفصيلي قد ضمنها أصحابها بعض المواصفات التي قد تبتعد عن الفهرسة التي تقصد إلى التعريف بالمخطوط تعريفاً علميا نسبيا، يفيد الباحثين والمحققين منهم على وجه الخصوص. فالإشارة إلى مصدر المخطوط مثلاً هو من اختصاص الباحث في تاريخ المخطوطات الذي يهتم به في المعاهد العلمية الخاصة بالتراث المخطوط. وعملية المقابلة بين النسخ الخطية لا يدخل في مهمة المفهرس بقدر ما يدخل في اختصاص مؤرخ النصوص والمحقق العلمي على السواء. فلا ينبغي للمفهرس الذي يضع فهرساً مفصلاً للمخطوط أن يحل محل علماء المخطوطات والمهتمين بتاريخ النصوص والفيلولوجيين على السواء. أعتقد أن هذه أشياء لا محل لها في أي عمل علمي يهدف بالدرجة الأولى إلى الضبط البيبليوغرافي للمخطوطات وإلى التعريف بها وتوثيق وجودها.

إن عدم تحديد مفهوم الفهرسة تحديداً علميا هو الذي دعا إلى الاختلاف الكبير الذي نلاحظه في الفهارس التي وضعت حتى الآن، سواء من طرف العرب أو من طرف المستشرقين. إن الممارسين لهذه العملية في إطار المخطوطات العربية، بدءاً بالشوام الذين مارسوها في أوربا منذ القرن السابع عشر إلى المحدثين من العرب والمستشرقين يجدون أنهم قد فهرسوا المخطوطات حسب اجتهاداتهم الشخصية، وآرائهم الفردية. فمنهم من وضع الكشافات (Index)، واعتقد أنه وضع فهارس، ومنهم من بالغ في تصوره لعملية الفهرسة فاقتحم دون شعور مجال علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا (Codicologie)، أو مجال

التحقيق العلمي، ظناً منه أنه مارس الفهرسة العلمية. كما نعتقد جازمين أنه لا مجال لاقتراح بطاقة وسط لفهرسة المخطوط، بدعوى أنها لا هي مفصلة ولا هي مختصرة، على غرار ما صنعهً أصحاب القوائم والأدلة، كما أنه لا مجال لقبول نوعين من الفهرسة إحداهما مطولة خاصة بالمعاهد العلمية، وأخرى مختصرة يمارسها المكتبيون والمفهرسون للمخطوطات في المكتبات الوطنية.

وعليه فإنه لا يمكن اقتراحٍ أي نموذج للبطاقة الفهرسية قبل تحديد مفهوم الفهرسة تحديداً علمياً يتم في حدوده، ووفقا لشروط وصف المخطوط العربي.

وبعد فهذه خزانات الكتب المغربية التي اكتظت بتراث العروبة وزخرت بآثار الإسلام والتي تشرف على أمجاد وعظمة هذه الدولة العربية الإسلامية وتحكي للأجيال الحاضرة والمقبلة قصة أسلافنا الخالدين مشارقة ومغاربة وتنقل لهم بصدق وأمانة جهودهم وعبقريتهم، وذلك بما تحويه اليوم من مخطوطات وبما تحتفظ به من وثائق وسجلات.

تقنيات فهرسة المخطوطات العربية

تقديم:

مما لا جدال فيه أن الفهرسة قد رافقت الإنسان طوال حياته المتحضرة، وساعدته على تنظيم معارفه المكتوبة وتنسيقها وحفظ آثاره الأدبية وصيانتها. وقد أصبحت الفهرسة اليوم أداة ضرورية ووسيلة فعالة للباحثين في حقل التراث الإنساني والعاملين في مجال المكتبات على السواء. والمخطوط العربي من أطول مخطوطات العالم عمرا، وأكثرها عددا وأجذرها بالاهتمام والعناية والتنظيم.

فما هي الطرق التي استخدمها القدماء والمحدثون في وصفه والتعريف به وتنظيمه؟ وما علاقة الفهرسة العلمية للمخطوط بعلم المخطوطات وتاريخ النصوص؟

إن من أقدم ما وصلنا من فهارس القدماء شذرات من الفهرس البيبليوغرافي الذي وضعه الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus) في القرن الثالث قبل الميلاد لأهم خزانة في العصر القديم وهي خزانة الأسكندرية[1]. ويعتقد الأخصائيون أنه أول فهرس منهجي وضع في التاريخ باعتبار الطريقة العملية التي لجأ إليها كاليماخوس في تقسيمه للمعرفة تقسيما علميا وتصنيف الكتب حسب هذا التقسيم. ولم يكن العرب ليجهلوا هذا النوع من العلم والتقنية لتنظيم مكتباتهم ووضع الفهارس اللازمة لها. فكتب المصادر ملأى بالأخبار التي تحدثنا عن فهارس الخزانات الخليفية. فقد جاء في كتابي العبر ونفح الطيب أن ابن حزم قال: "أخبرني تليد الخصيّ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير"[2].

1ـ شذرات من هذا الفهرس محفوظة بالخزانة الوطنية بلندن.
2ـ يتعلق الأمر بخزانة الحكم المستنصر 366 هـ النفح، ج 1، ص. 362.

وإذا كانت المصادر تقتصر على ذكر الفهارس دون الإفصاح عن نوعيتها وطريقة صياغتها، فإن اكتشاف بعض الفهارس التي يعود بعضها إلى القرن السابع الهجري[3] يعطينا فكرة عن مدى اهتمام القدماء بهذا الجانب كما يرشدنا نسبيا إلى الطرق التي استخدموها في فهرستهم للمخطوطات، هذه الطرق التي نلاحظ بعض آثارها في الفهارس الحديثة.

وإذا كان القدماء من الغربيين يستعملون عددا من المصطلحات للتعبير عن هذه العملية الفنية كأن يقولوا مثلا Catalogue أو Repertorium أو Bibliotheca أو Inventarium أو Index، وهي كلمات يونانية ولاتينية، فإن القدماء من العرب المسلمين استعملوا كلمة "فهرست" الفارسية ليس للتعبير عن فهرسة المخطوطات والخزانات فقط، ولكن للتعبير أيضا عن علم البيبليوغرافيا الذي هو غير علم الفهرسة. فلم يكن "فهرست" ابن النديم مثلا كتابا في الفهرسة بقدر ما هو كتاب بيليوغرافي بهر بتنسيقه وتنظيمه وتصنيفه المحدثين من المستشرقين والأخصائيين في الأدب البيبليوغرافي.

وفي العصر الحديث شاءت إرادة الله تعالى ألا يبقى تراثنا العربي المخطوط محفوظا بخزاناتنا العربية وحدها، بل انتقل لأسباب شتى إلى معظم بلدان العالم حتى لا تكاد تخلو خزانة من الخزانات من رصيد من هذا التراث. وقد حازت أوروبا حصة الأسد من هذه المخطوطات، الشيء الذي جعلها تسبق إلى الاهتمام به وصيانته والاستفادة منه، وذلك بتسجيله وفهرسته وتنظيمه وتيسير سبل الحصول عليه. وإذا كان لعلماء الغرب أن يفكروا في فهرسة مخطوطاتنا التي يملكون منها أكثر مما نملك، فإنهم لم يأنسوا من أنفسهم القدرة اللازمة، والكفاءة العلمية للقيام بهذا العمل العلمي فنادوا على أصحابه الشرعيين من العرب المشارقة ليفهرسوا ويضعوا القوائم البيبليوغرافية. وهكذا كانت الفهارس البيبليوغرافية الأولى للمخطوطات العربية من وضع العلماء السوريين واللبنانيين، فمنذ سنة 1644 م فهرس بطرس دياب الحلبي المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة الملكية[4] بباريس، ثم فهرسها كل من باروت

---

[3]- أشير هنا إلى فهرس خزانة التربة الأشرفية وفهرس مكتبة جامع القيروان.

[4]- الخزانة الوطنية حاليا.

السوري الذي كان مترجما في مكتبة الملك، ثم الأب عسكري الماروني قبل أن يشتغل بها Renaudot و d'Herbelot و de Slane و Blochet و Vajda وسواهم. وكان الغزيري[5] (Casiri) أول من فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالإسكوريال بإسبانيا قبل أن يشتغل بها H.Derenbourg و Renaud و L- Provençal وسواهم.

أما المخطوطات العربية في إيطاليا فقد وضع فهرستها في "فلورنسا" Florence عواد السمعاني عام 1742[6] كما اشتغل بفهرستها في خزانة الفاتكان يوسف شمعون السمعاني عام 1756[7]، قبل أن يشتغل بها مستشرقون إيطاليون أمثال Gabrielli و G.Levi Della Vida وسواهما[8].

أما الفهارس المنهجية التي وضعها المستشرقون للمخطوطات العربية فلم تظهر إلا في منتصف القرن الماضي. وليس هذا من الغرابة في شيء إذا ما علمنا أن الفهارس التي وضعوها للمخطوطات اليونانية واللاتينية لا تعدو كونها قوائم بأسماء المؤلفين وعناوين الكتب. أما الفهارس المنهجية فلم تصدر في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر[9].

ولما تنبه المسلمون إلى عظيم شأن تراثهم المخطوط وقيمته، وأقروا العزم على جمعه والاطلاع عليه والبحث فيه، فإنه قد تجمع لديهم المجموعات النفيسة والنادرة سواء ما نفضوا عنه الغبار من خزاناتهم العربية، أو ما اطلعوا عليه وجلبوه وصوروه من الخزانات الأجنبية،

5- أشار steinschneider في فهرسته للمخطوطات الإفريقية بالإسكوريال إلى وجود قائمة بمخطوطات الإسكوريال العربية محفوظة بخزانة الفاتكان بروما، بحث عنها "درنبورغ" ووجد أنها بضعة أوراق لا أهمية لها، ويبقى أن عمل الغزيري عمل رائد وأولي في هذا الإطار، وفهرسته هو:
Bibliotheca Arabico-Hispana Escuriolensis, Brill-Leiden 1660-1670
ترجم إلى اللغة العربية أيام المولى سليمان 1815م باقتراح الأديب المغربي محمد بن عبد السلام السلوي وزير السلطان المذكور، وهو نسخة فريدة محفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 6792.

6 -Assemani (S.E) : **Bibliotheca medicae laurentinae cadicum manuscriptum orientalium catalogus,** Florence 1742.

7 - Assemani (J.S) : **Bibliotheca apostolicae vaticanae cadicum manuscriptorn catalogus,** pars Iti Roma, 1756.

8- معظم هذه الفهارس قد وضع على غرار كشف الظنون لحاجي خليفة الذي يمكن اعتباره أول فهرست علمي للمخطوطات العربية والتركية والفارسية، والماروني العسكري أضاف إلى العربية المخطوطات السريانية وأضاف الغزيري إلى هذه اللغات الكرشوني والخاميانو وهي اللغة الإسبانية المكتوبة بحروف عربية بيد آخر مسلمي إسبانيا.

9- كانت فرنسا من بين الدول الأوروبية السباقة إلى وضع فهارس منهجية للمخطوطات اللاتينية والفرنسية وأول فهرس منهجي صدر فيها كان عام 1849م.

فكان لزاما عليهم ومن أجل الضبط الببليوغرافي أن ينظموه ويفهرسوه، فظهرت إلى جانب الفهارس الموضوعة في الغرب، فهارس عربية متعددة تختلف من حيث الأساليب والبيانات والطرق والصيغ الببليوغرافية. وإذا كان الأستاذ المنجد قد حصرها في ثلاثة أنواع: فهارس مختصرة، وأخرى مفصلة، وثالثة أكثر تفصيلا مع اقتراحه لخطة خاصة بالفهرسة، فإن الأخصائيين في هذا الميدان لا يزالون حتى اليوم يقترحون الخطط والتصورات الشخصية لفهرسة المخطوط العربي.

ولست أهدف في هذا البحث إلى تكرار مختلف الاقتراحات المتعلقة بتقنيات فهرسة المخطوطات، بل سأقف فقط عند بعض العناصر لهذه العملية العلمية، والتي أعتبرها مواصفات أساسية للمخطوط العربي كالإشارة إلى الخط والناسخ ووسائل الكتابة، كالجلد والورق وغيرها، ثم عملية تأريخ المخطوط غير المؤرخ.

الإشارة إلى خط النسخة ليس بالشيء الجديد بالنسبة للفهرسة الحديثة، فالقدماء كانوا يشيرون إلى نوع خط المخطوطات كما جاء في فهرست مكتبة جامع القيروان والذي تحدث فيه واضعه عن أصناف الأقلام والأحبار، وعن الخطوط المنسوبة، وأنواع أخرى من الخط كالصقلي والنباري"[10]. ويلاحظ في معظم فهارسنا الحديثة أن المفهرس يكتفي بالإشارة إلى الجهة التي ينتمي إليها الخط المستعمل كأن يقول: خط شرقي أو خط مغربي دون الإشارة بتدقيق إلى مكانه وعصره. وبما أن محور هذه الندوة هو المخطوط العربي في الغرب الإسلامي فإن المخطوطات التي نسخت بخط مغربي لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث لتحديد الأنواع المختلفة من الخطوط المغربية. فإذا كان الخط مغربيا فهو إما أندلسي أو مغربي أو جزائري أو تونسي أو موريطاني أو غير ذلك وإذا كان مغربيا مثلا أهو فاسي؟ أو صحراوي؟ أو سوسي؟ أو بدوي؟ أو غير ذلك؟. أعتقد أن هذا النقص الملاحظ في فهارسنا يرجع إلى أمرين: أولهما أن الخط المغربي لم يحظ بما حظي به الخط الشرقي من الدراسة والبحث، فالنقاش لا يزال

[10] ـ نسبة إلى "النبارة" بليبيا (أنظر دراسة على هذا الفهرس في الجزء الثاني من مجلة معهد المخطوطات العربية)، عام 1957.

حتى الآن قائما حول أصل الخط المغربي أهو متفرع عن الأندلسي كما زعم ابن خلدون؟ أم هو شيء آخر كما قرر ذلك المستشرق الهولندي O.Houdas[11]؟ ثانيهما أن المغرب يفتقر كباقي الدول الشرقية إلى باليوغرافيين مختصين بعلم الخطوط القديمة.

وإذا انتقلنا من الخط إلى ناسخه لاحظنا أن المفهرسين عموما يشيرون إلى النساخ إشارات عابرة، وهذا شيء طبيعي، لأن المفهرس لا يهمه البحث في شخصية الناسخ وفي سلوكه، بل مهمته تسجيل اسمه بين مواصفات المخطوط. فالنساخة والنساخ موضوع لم يحظ هو الآخر بما يستحقه من البحث، وهذا النوع من الدراسات ضروري للمفهرس والباحث على السواء. فإذا كان القدماء يعتبرون النساخة شيئا مثيبا من الناحية الشرعية حيث يضيفون اسمهم في المخطوط ليدعى لهم مع المؤلف ولهذا كانوا يقولون:

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه[12]

إذا كان القدماء يعتقدون هذا الاعتقاد فإن عددا من النساخ قد بدلوا وغيروا عن قصد أو غير قصد، كأن يحاول الناسخ إظهارا للمهارة، وخدمة للعلم والدين، أن يقلد خط النسخة التي نقل منها بدقة كبيرة حتى لا يميز بينهما، فتكون نسخة كتبت في القرن العاشر قد نسبت من حيث الخط والتأريخ إلى القرن الخامس أو السادس. على المفهرس إذن أن يكون قوي الحدس واسع الاطلاع بأنواع الخطوط إذا أراد أن يحدد خط النسخة تحديدا علميا صحيحا. أما فيما يخص مواد الكتابة التي استعملها القدماء كورق البردي وأنواع الجلود والورق والكاغد وغيرها فإنها كانت موضوع بعض الدراسات وإن كانت لا تزال تفتقر إلى مزيد من الدقة والتخصص. فإذا كان المخطوط مكتوبا على الورق فأي نوع من الورق؟ عربي أم

[11]- O.Houdas : **Essai sur l'écriture maghrébine,** in Mélanges orientaux, 1886.
ترجمه ونشره عبد المجيد التركي في مجلة Ibla التونسية عام 1960م.

[12]_ هذه الظاهرة يشترك فيها النساخ المسلمون مع أمثالهم النساخ المسيحيين في القرون الوسطى الذين كانوا حريصين على ألا يغيروا، وألا يبدلوا، وألا يقعوا في خطأ يحاسبون عليه يوم القيامة.

أوروبي؟ وإذا كان أوروبيا فما هو مصدره؟ وما عصره؟ وهل يحمل علامة من علامات الورق (Filigranes)[13] ؟

ومما يؤسف له أن يخلط المفهرس لا بين أنواع الورق المستعمل فحسب، بل بينها وبين الجلود والرقوق التي أصبحت بعد عملية الدباغة أكثر شبها بالكاغد. وقد تنبه بعض المهتمين بالتراث العربي وفهرسته من المستشرقين إلى هذا كما صنع H.Derenbourg في فهرسته للمخطوطات العربية بالإسكوريال[14].

ومما جعلني أقف عند هذا العنصر من عناصر الفهرسة والمتعلق بتحويل المادة المستعملة للكتابة[15] هو ما يسمى بالطلوس أو الطروس (Palimpseste)، وهي الرقوق أو الصحف التي محيت وكتب عليها من جديد[16]. وقد قرأت في بحث من الأبحاث أن هذه الظاهرة قد عرفت في الغرب الإسلامي، بحيث لما فتح العرب الأندلس والمغرب وإيطاليا محوا الكتب اللاتينية واليونانية بعد ترجمتها وكتبوا عليها ثانية لأن الرق والبردي غالي الثمن. فلما خرج العرب من الأندلس محا الإفرنج كتب العرب وكتبوا عليها مع أنهم في غنى عن ذلك لوجود الكاغد الذي نشره العرب بأوروبا. وفي القرن الماضي استخرج الأوروبيون بوسائل كيماوية النصوص اليونانية واللاتينية القديمة من الطلوس العربية وبقيت الطلوس الإفرنجية محتفظة بسر الكتب العربية المطلوسة.

فهل اهتم المفهرسون والباحثون والفيلولوجيون والمهتمون بشؤون المخطوطات من العرب بهذه الظاهرة في فهارسهم أو أبحاثهم أو مختبراتهم، إن كانت لهم مختبرات، لاستخراج هذه الطلوس حتى يعلم نهائيا ما هي الكتب التي ضاعت؟ و ما هي الكتب التي بقيت؟ وماذا نقترح لحل هذا المشكل؟ ذاك ما سنعرفه في خاتمة هذا العرض.

---

[13] -Briquet : **Les Filigranes**, Paris, 1907.

[14] ـ اعترف بجهله حتى في التمييز بين أنواع الخطوط المتفرعة عن الخط المغربي.

[15] ـ كانت المواد التي يكتب عليها القدماء من العرب من وحي البيئة في بادئ الأمر، ثم اختلفت باختلاف الزمان والمكان.

[16] ـ عرفت عند الإغريق واللاتين (Palimpsestus (Latin) et Palimpsestos (Grec : ولم تدخل إلى اللغة الفرنسية إلا عام 1823 لما بدأوا يهتمون بفهرسة التراث القديم.

أما العنصر الثالث والأخير فهو المتعلق بتأريخ المخطوطات؛ ألاحظ من خلال قراءتي لعدد من فهارس المخطوطات العربية أن عملية تأريخ المخطوطات لم تكن من أسبقيات المفهرسين، فلم يهتموا بها بقدر ما اهتموا بعنوان المخطوط واسم مؤلفه مثلا.

فإذا كان المخطوط مؤرخا أشاروا إلى تاريخ النسخ من دون أن يبحثوا بحثا كوديكولوجيا هذا التأريخ. ولم يخصصوا واحدا من الكشافات المرفقة بالفهرسة الموضوعة للمخطوطات المؤرخة إلا نادرا. وإذا كان المخطوط غير مؤرخ سكت المفهرسون عنه أو أرخوه بالحدس والتقريب. ويلاحظ في العقود الأخيرة أن المفهرسين بدأوا يهتمون بدراسة كل ما من شأنه أن يساعد على تأريخ المخطوط، كالتجليد والكتابة ومادة الكتابة والتذهيب والتملك (Ex-libris) والوقف والتوقيعات والتصحيحات وسواها. ومما ينبغي إضافته إلى هذه الوسائل أن بعض المعاهد العلمية في أوروبا استعارت بعض التقنيات من علوم الفيزياء في هذا السبيل منها التحليل الكيميائي للمداد ومواد الكتاب والهلوغرافيا، في سبيل مقارنة الخطوط، والبيطاراديوغرافيا Bétaradiographie من أجل التعرف على علامات الكاغد ووسائل أخرى لفك رموز النصوص المطلوسة.

وتأريخ المخطوطات له غايتان أساسيتان، أولهما أنه يعطي المقومات الأساسية لما يسمى بتاريخ النصوص، وثانيهما أنه يساعد على تقدم الدراسات المتعلقة بالخطوط القديمة، وكلنا يعلم أهمية فهارس المخطوطات المؤرخة في جميع اللغات.

إضافة إلى هذه العناصر التي اكتفيت بالحديث عنها في إطار الفهرسة أود أن أذكر شيئا عن الفهرسة والببليوغرافيا والفهرسة والتصنيف.

إذا كان القدماء من العرب قد استعملوا كلمة فهرسة للتعبير عن فهرسة الكتب والببليوغرافيا معا، فإن الغربيين في العصر الحديث قد استخدموا لفظ ببليوغرافيا للتعبير عن الفنين معا قبل تخصيص علم الفهرسة بمصطلح آخر هو الكاتالوكاج (Catalogage). فالعالم البلجيكي شوفان Chauvin الذي وضع فهرسة للمطبوعات العربية استعمل كلمة ببليوغرافيا

للتعبير عن هذه العملية العلمية. وعلى الرغم من استعمال المصطلحين عن فئتين من العلوم سواء عند العرب أو عند الغربيين، فإن علم الفهرسة يختلف عن علم الببليوغرافيا، ولا يمكن لصانع الفهارس أن يكون ببليوغرافيا كما لا يمكن لمكلف بالحسابات أن يكون رياضيا، إلا إذا ألم كلاهما بقواعد هذه العلوم.

فلابد إذن للمفهرس من أن يكون ببليوغرافيا[17]، فتوثيق اسم الكاتب وعنوان المخطوط والبحث في مختلف النسخ وفي أماكن وجودها وهل طبعت أم لا وسواها من التساؤلات ذات الطابع الببليوغرافي تفرض على المفهرس الحديث للمخطوطات أن يلم بقواعد الببليوغرافيا، تاريخها وأنواعها إذا أراد أن يجيب عن الاسئلة العلمية التي تطرحها عليه عملية الفهرسة والتي يقتضيها الوصف التاريخي والكوديكولوجي للمخطوطات. فإذا أراد المفهرس أن يعرف مثلا هل طبع المخطوط المفهرس أم لا، فإن لديه عددا كبيرا من الببليوغرافيات كتبا أو مجلات يجب أن يعرفها ويستشيرها في الوقت المناسب، ويأتي على رأس هذه القوائم الببليوغرافية ببليوغرافيات متعددة للمطبوعات العربية وضعها المستشرقون في القرن التاسع عشر (وهو عصر الببليوغرافيا كما يقولون) مثل شنورير Schnurrer وتسنكير Zenker وشوفان Chauvin وفان ديك Van Deck وسواهم. وتحاول هذه الببليوغرافيات أن تحصي جميع الكتب العربية المطبوعة منذ بداية الطباعة بحروف عربية في أوروبا. أما مجلة المخطوطات العربية التي يشرف عليها الدكتور صلاح الدين المنجد ونشرات معهد المخطوطات العربية والمجامع اللغوية العربية وغيرها فهي من الوسائل الببليوغرافية الأولى للمفهرس.

وإذا نظرنا إلى علاقة التصنيف بالفهرسة لاحظنا أن الذين وضعوا فهارس المخطوطات العربية في أوروبا قد اتبعوا تصنيفا للعلوم في غاية الدقة بدءا بالعلوم الدينية وختما بما اصطلح عليه الأقدمون بعلوم الأوائل.

---

[17]- يلاحظ أن عددا كبيرا من واضعي فهارس المخطوطات العربية يجهلون أو يهملون علم الببليوغرافيا.

وإذا سار عدد من المفهرسين الغربيين للمخطوطات العربية على غرار تصنيف العلوم الإسلامية الذي ورد في فهرس مخطوطات برلين بألمانيا للمستشرق ألورد Ahlward فإن التصنيف الذي اتبعه الغزيري للمخطوطات العربية المحفوظة بالإسكوريال منذ القرن الثامن عشر كان في غاية الدقة بحيث إن المستشرق H.Derenbourg لما عزم على وضع فهرسة جديدة لمخطوطات الإسكوريال مضيفا ما غفل عنه الغزيري، لم يقر فقط التصنيف الذي وضعه المفهرس العربي بل أثنى عليه واحتفظ به كطريقة تصنيفية ومنهج تنسيقي مثالي للعلوم الإسلامية. وعلى الرغم من هذا التقسيم فإن المخطوطات ترتب داخل المكتبة حسب أرقام معينة دون مراعاة لهذا التصنيف، وقد بدأ المحدثون يعدلون عن الطرق العتيقة ويرتبون المخطوطات العربية المصنفة حسب نظام ديوي العشري لتصنيف الكتب وتنسيقها كما صنع الدكتور يوسف خوري لما فهرس المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت[18].

يتضح من خلال ما سبق أن فهرسة المخطوطات العربية ليست بالأمر الهين، بل إنها عملية تقتضي اطلاعا واسعا وتخصصات متنوعة صعبة قلما تجتمع لعالم واحد. فهل وجد من بين المفهرسين، عربا كانوا أو غربيين، من توفرت له هذه العلوم واجتمعت لديه هذه التخصصات؟ وبعض المستشرقين إيمانا منهم بأهمية هذه العملية العلمية، لم يقتحموا هذا الباب بل تركوه لأهله كما صنع أسلافهم في القرنين السابع والثامن عشر. وبعضهم تجشم عناء الفهرسة واقتحمها معترفا بجهله لعدد من أجزاء علومها الأساسية.

اعترف H.Derenbourg واضع فهرس الإسكوريال بجهله لأنواع الخطوط المغربية فاكتفى بالإشارة إلى شرقية الخط أو مغربيته دون تحديد الجهة التي ينتمي إليها هذا الخط.

أما بعض المعاصرين من العرب فإنهم قد وضعوا الفهارس بطريقة ساذجة وتصورات خاصة دون اعتبار الفهرسة علما قائما بنفسه له قواعده، ولا يستطيع أن يقوم به إلا من أوتي شروطا خاصة، أهمها ميله وحبه لعلم المخطوطات، واستعداده الفني والعلمي لممارسته. كل

---

[18] - يوسف ق.خوري: المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت 1984.

يفهرس على هواه وكل يرى طريقته سديدة وإن كانت مضطربة، منهم من قلد المستشرقين من المحدثين، ومنهم من سار على منوال الفهارس العتيقة دون الأخذ بالاعتبار المعطيات العلمية الحديثة ذات الصلة الوثيقة بهذا العلم، فجاءت فهارس مخطوطاتنا العربية على أشكال مختلفة وأساليب متعددة تختلف صورها من بلد إلى بلد ومن خزانة إلى خزانة في البلد الواحد.

ما هي الاقتراحات التي من شأنها أن تساعد عل حل هذا المشكل؟ وما هي السبل التي ينبغي سلوكها للوصول إلى هذه النتيجة المتوخاة ؟

أقترح شيئين، أعتقد أنهما أساسيان في هذا الإطار.

أولهما : العمل على إثارة اهتمام الطلبة الجامعيين لعلم المخطوطات وإدماجه ضمن البرامج الجامعية لاسيما في برامج مدارس علوم المكتبات إذ المستغرب أنه لا توجد في الجامعة وعلى مستوى التخصص الأكاديمي في البلاد العربية دراسات عن المخطوط العربي أو تخصص في علم المخطوطات إلا نادرا.

وفي معاهد المكتبات الحديثة التي عمت العالم العربي اليوم لا يعدو ما يلقنه الطلبة القواعد الأولى لفهرسة المطبوعات لا المخطوطات، وتاريخ الببليوغرافيا وأنواعها وتاريخ الكتاب والببليولوجيا والببليوتكنوميا والمفاهيم الأولى لعلوم المكتبات، دون أي اهتمام بشؤون المخطوطات لما تتطلبه من مختصين ولما تقتضيه من جهد وعناء واستعداد وكفاءة علمية.

ثانيهما : إنشاء معهد للبحث وتاريخ النصوص على مستوى العالم الإسلامي تشرف عليه المنظمة الإسلامسة للتربية والثقافة والعلوم ISESCO أو أي منظمة ذات اهتمامات مناسبة وذلك للقيام بالوظائف التالية:

1) دراسة المخطوطات العربية يختص بها قسم من أقسام هذا المعهد يدعى قسم علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا[19] Codicologie كما يقول الغربيون. والفهرسة جزء من أجزاء

---

[19] ـ مفهوم علم المخطوطات عند المختصين من العرب يتضمن بالإضافة إلى تاريخ المخطوط وفهرسته ووضعيته وغيرها خط هذا المخطوط، ومادة كتابته، بينما الغربيون يجعلون الخط ومادة الكتابة من قبيل علم الخطوط القديمة أو الباليوغرافيا. علم المخطوطات العربي: الكوديكولوجيا + الباليوغرافيا.

الكوديكولوجيا بالإضافة إلى تاريخ المخطوطات والمجموعات، وبحث وضعية المخطوطات ومصادرها، وما آلت إليه والآمر بتأليفها والذي أهديت إليه، إلى دراسة مادته من جلد وورق وغير ذلك[20].

2) إنشاء قسم أو أقسام للاهتمام بمخطوطات اللغات الشرقية والسامية التي رافقت اللغة العربية عبر تاريخها الطويل، كالفارسية والتركية والعبرية والسريانية، ومخطوطات هذه اللغات وغيرها المكتوبة بحروف عربية[21]، فمعظم فهارس المخطوطات العربية القديمة وبعض الحديثة تجمع مخطوطات هذه اللغات للعلاقات الوثيقة والصلات التي كانت تربط بينها في فهرس واحد.

وخلاصة القول هي أن الغاية القصوى من إنشاء هذا المعهد وفي هذا الإطار بالذات، هو خلق خطة موحدة لفهرسة المخطوطات تقتصر على العناصر الأساسية لتعريف المخطوط، دون الاهتمام بالعناصر الأخرى التي يختص بها قسم الكوديكولوجيا. وهدف هذا الأخير من هذه الأعمال هو البحث في تاريخ النصوص الذي طالما أهملناه في عالمنا العربي مع العمليتين معا الفهرسة الموحدة وتاريخ النصوص، والعمليتان معا تمكنان من رسم خطة واحدة لتحقيق النصوص، وهو مشكل علمي كبير طالما أرق ولا يزال يؤرق الكثير من جهابذة الفكر واللغة من علماء العرب وكل المهتمين بالتراث العربي المخطوط.

20- الفهارس المفصلة تعالج هذه المشاكل التي هي من اختصاص علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا.

21- الخط الكرشوني: المخطوطات العربية المكتوبة بالحرف السرياني. ذكر Huisman في كتابه عن المخطوطات العربية في العالم، المخطوطات اليهودية العربية Judéo- Arabe والمخطوطات المكتوبة بالخط الكرشوني.

فَهْرَسَةُ المَخْطُوطِ العَرَبِي*

في بعض البلدان المتوسطية

مكتبة الفاتكان والمكتبة الوطنية الفرنسية ومكتبة الإسكوريال

يعتبر المخطوط جزءا مهما من تراث الأمة العربية، ووثيقة هامة من وثائق وجودها الحضاري. وإن ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية من مخطوطات يعد من أعظم الذخائر الفكرية إذا قورن بما خلفته الحضارات الأخرى في العالم. وقد شاء القدر أن تملك الشعوب غير العربية أكثر مما يملكه العرب من هذا التراث المخطوط. وقد حظيت الدول الأوروبية والمتوسطية منها على الخصوص بحصة وافرة من هذا الموروث الثقافي الذي لا يشك في أنه كان من بين الركائز الأساسية التي قامت عليها نهضة هذه البلدان.

وإذا كانت الفهرسة عاملا من عوامل الحفاظ على أصول التراث المخطوط الذي خضع كما نعلم بحكم تعاقب العصور لألوان من التغيير وأنواع من التحريف، فإن علماء الغرب بعد تجميعه وصيانته قد دعوا إلى فهرسته لتيسير الانتفاع به والاستفادة منه.

كيف بدأت فهرسة المخطوط العربي في الدول المتوسطية التي كانت من السباقين إلى تجميع هذا التراث؟ وما هي العوامل التي دعت إلى هذه العملية العلمية؟ ومن تصدى لفهرسته في مكتبات هذه الدول؟

لما كانت الخزانات المحتوية على المخطوطات العربية كثيرة، وفهارسها متعددة، ارتأينا أن نقتصر على ثلاث منها لأنها كعبة الباحثين في التراث العربي المخطوط، وقبلة المستشرقين المهتمين بفكر الشرق وثقافته، وذلك لغنى رصيدها من المخطوطات الشرقية ما كان لعلماء أوروبا أن يدركوا فكر الشرق وحضارته دون تنظيمها وفهرستها والبحث فيها باعتبارها الوعاء الواسع لهذا الفكر وهذه الحضارة.

والخزانات الثلاث التي وقع الاختيار عليها كانت من المؤسسات الأولى التي حظي رصيدها المخطوط بالتنظيم والفهرسة وهي: خزانة الفاتكان بروما والخزانة الوطنية الفرنسية بباريز وخزانة الإسكوريال بمدريد.

وقبل البحث في الظروف والعوامل التي دعت إلى الاهتمام بالمخطوطات العربية وفهرستها في هذه المكتبات يجدر بنا أن نشير إلى جهود القدماء في هذا المجال، حيث نلاحظ أن الطرق التي استخدموها في الفهرسة قد تركت بعض آثارها في الفهارس الحديثة. ومن غريب المصادفة أن تكون أقدم فهرسة قد وضعت في بلد من البلدان المتوسطية، ويتعلق الأمر بالفهرست البيبليوغرافي الذي وضعه الشاعر اليوناني كاليماخوس (callimacus) في القرن الثالث قبل الميلاد لأهم خزانة في العصر القديم، وهي خزانة الإسكندرية[1]. ويعتقد الأخصائيون أنه أول فهرست منهجي وضع في التاريخ باعتبار الطريقة العلمية التي لجأ إليها "كاليماخوس" في تقسيمه المعرفة تقسيما علميا وتصنيف الكتب حسب هذا التقسيم[2].

أما جهود القدماء من العرب في وضع الفهارس فإن كتب التاريخ والحضارة تحدثنا بأن الفهرسة بدأت مع بداية الخزانة المنظمة في المجتمع الإسلامي. وإذا كان أقدم ما وصلنا منها يرجع إلى القرن السابع الهجري فإننا نعرف أن خزانة بيت الحكمة كانت لها فهارس، وأن المامون العباسي كان يطلبها من حين لآخر.

وفي العصر الحديث فإن فهرسة المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانات الأوربية لم تتم ممارستها في البداية على أيدي المستشرقين الذين اهتموا بدراسة اللغة العربية وتدريسها، وتأليف الكتب في نحوها وصرفها لتلاميذهم في مختلف الدول العربية، بل مارسها المشارقة الذين كانوا يتقنون اللغة العربية بالإضافة إلى اللغات السامية والشرقية واللغات الهندية الأوربية،

1- شذرات من هذا الفهرست محفوظة بالخزانة الوطنية بلندن.

2- عنوان الفهرس: قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها. وكان هذا الفهرس مصنفا تصنيفا دقيقا بحيث اشتمل على 120 لفافة بردية وقسمت لفائف المكتبة إلى ثمانية أقسام: 1) المؤلفون المسرحيون – 2) شعراء الملاحم والأناشيد – 3) المشرعون – 4) الفلاسفة – 5) المؤرخون – 6) الخطباء – 7) أساتذة علم الخطابة – 8) مؤلفون متنوعون.

وكان هؤلاء المشارقة في أغلبهم من الموارنة اللبنانيين الذين سمح لهم اتحاد كنيستهم بالفاتيكان في أواخر القرن السادس عشر (1575م) بالنزوح إلى روما لدراسة اللاهوت، فأصبحوا من العلماء الكبار في الكنيسة الكاثوليكية، عاد بعضهم إلى لبنان وأسسوا فيها المدارس بمساعدة البابوية، واستقر البعض في أوربا يتعاونون مع الفاتيكان في ترجمة العديد من الكتب اللاهوتية الكاثوليكية إلى اللغة العربية، ثم توزع هذه الترجمات بين أتباع النحل الأخرى من نصارى الشرق الأوسط. ولم يقتصر نزوح المشارقة على روما، بل رحلوا إلى فرنسا كذلك حيث بنى لهم هناك "كولبير" colbert وزير الملك الفرنسي لويس الرابع عشر مدرسة لتعليمهم بالمجان[3]، فتخرج فيها لبنانيون وسوريون تركوا آثارهم في الثقافة العربية بهذا البلد. ولما تجمع لدى أوربا منذ القرن السابع عشر ذاك الرصيد الضخم من المخطوطات الشرقية وزخرت خزاناتها بمجموعات من الكتب من إهداء الملوك والوزراء والسفراء والقناصلة والتجار والرحالين، ظهرت الحاجة إلى فهرستها وتنظيمها. فتولى الأمر هؤلاء المشارقة الذين كانوا أول من تصدى لفهرسة التراث العربي المخطوط المكنوز في هذه الخزانات. وهكذا تولى بطرس دياب الحلبي فهرسة مخطوطات الخزانة الملكية الفرنسية (الخزانة الوطنية حاليا) كما تابع بعده نفس المهمة باروت السوري الذي كان مترجما في مكتبة الملك، وبعدهما واصل فهرسة هذه المخطوطات الأب يوسف العسكري الماروني. اشتغل هؤلاء الثلاثة بالمخطوطات العربية في فرنسا قبل أن يشتغل بها عدد من المستشرقين أمثال: رونودو ودربلو ودوسلان وفايدة وصوفان وكيدون Renaudot و d'Herbelot و de Slane و Vajda و Sauvan و Guesdon وسواهم.

وفي إيطاليا كانت أسرة السماعنة المارونية أول من تصدى لفهرسة التراث العربي المخطوط، سواء في مكتبة الفاتكان (Vatican) أو في غيرها من المكتبات. فكان يوسف شمعون واضع أول فهرست لمخطوطات الفاتكان، وتبعه في هذا العمل ابن شقيقه عواد السمعاني الذي فهرس مخطوطات كل من مكتبة الفاتكان والمكتبة الطبية[4] بمدينة فلورنسا (Florence).

---

[3] -J.Gaulmier : « Volney et la pédagogie de l'Arabe » : **BEO**, 1945-46, T.XI, p.11

[4]- فهرست المخطوطات الشرقية بالمكتبات الطبية بلورنسيانا Laurenziana، فلورنسا Florence، 1742.

اشتغل هؤلاء المشارقة بالمخطوطات العربية في إيطاليا قبل أن يشتغل بها جويدي (Guidi) ونالينو (Nallino) وجورجيو ليفي دلا فيدا (Georgio Levi della Vida) وغيرهم.

وفي إسبانيا كان ميخائيل الغزيري أول من فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بدير الإسكوريال قبل أن يهتم بها درنبورغ H.Derenbourg ورونو Renaud و Levi Provençal وسواهم. وإذا كان العامل الديني هو الحافز في البداية إلى الاهتمام بالمخطوطات الشرقية فإن التفتح على الشرق والوقوف على الثقافات الأخرى خارج أوربا المسيحية كضرورة دعت إليها الحركة العقلانية في الفكر الأوربي في عصر التنوير من جهة وفرضتها أهداف أوربا السياسية الاستعمارية من جهة أخرى، جعل العكوف على المخطوطات الشرقية بما فيها العربية أمرا ضروريا لتحقيق هذه الأهداف، فليس إذن من المصادفة في شيء أن يقع صدور الفهارس الأولى للمخطوطات العربية المحفوظة بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا في القرن الثامن عشر الميلادي.

أما في القرن التاسع عشر الذي ظهر فيه أكبر نجوم الاستشراق الذين عملت أوربا على تكوينهم في المدارس المتخصصة في اللغات الشرقية كمدرسة اللغات الشرقية الفرنسية التي أسست على عهد نابليون بونابارت فإن الاشتغال بكتب التراث العربي دعا إلى فهرستها فهرسة علمية قبل عمليتي التحقيق والنشر، إذ أقبل كبار المستشرقين يفهرسون المخطوطات العربية. ومن هذا القبيل ماصنعه دوسلان de Slane بالنسبة للمخطوطات العربية بفرنسا ودرنبورغ Derenbourg بالنسبة للمخطوطات العربية المحفوظة بخزانة الإسكوريال. وإذا كانت فهرسة مخطوطات اللغة العربية تدرج ضمن مخطوطات اللغات الشرقية عامة كالتركية والفارسية والسريانية وغيرها أو تفهرس إلى جانب مخطوطات عربية مكتوبة بحروف لغات أخرى كالعبرية والسريانية وهي التي تسمى بالمخطوطات الكرشونية أو مخطوطات أجنبية بحروف عربية كالخاميادو[5] في إسبانيا، فإن مخطوطاتنا العربية أصبحت تحظى منذ القرن التاسع عشر بفهارس خاصة، ويرجع ذلك في رأيي إلى سببين رئيسيين:

---

[5]ـ الخاميادو: اللغة الإسبانية المكتوبة بحروف عربية بأيدي آخر مسلمي إسبانيا.

أولهما: تكاثر مجموعات المخطوطات العربية من مكتشفة ومن منسوخة إذ على الرغم من ظهور الطباعة بحروف عربية في الغرب والشرق فإن نساخة المخطوطات بقيت مزدهرة حتى بداية القرن الحالي، بينما غدت مخطوطات اللغات الشرقية الأخرى نادرة ولم يعد يتداولها إلا المختصون.

ثانيهما: الاهتمام العلمي بمخطوطات الأمة العربية لتحقيقها والاستعانة بها للوقوف على تاريخ الدول العربية وحضارتها استعدادا للاستيلاء عليها. وكان صدور هذه الفهارس بلغات الغرب كاللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية وسواها، طبع بعضها في كتب مستقلة ونشر البعض الآخر في مجلات استشراقية معروفة لدى المختصين.

لنعرض الآن باختصار لفهارس الخزانات الثلاث التي تمثل أحسن النماذج لمكتبات الدول المتوسطية.

I. المكتبة الفاتكانية

يرقى عهد المكتبة الفاتكانية إلى عصور البابوية الأولى، لكنها لم تدخل في طورها التاريخي إلا حين وضع لها نظامها الخاص في القرن الخامس عشر، خاصة في عهد البابا نيقولا الخامس، فأخذت تزداد وتتسع حتى أناف عدد مخطوطاتها على سبعين ألف مخطوط بين لغات شرقية وغربية، ومعظم المخطوطات الشرقية فيها أتاها من لبنان وسوريا ومن الأديرة المسيحية الموجودة بمختلف الدول الشرقية سواء عن طريق الإهداء أو الاقتناء. ولم يبلغ القرن السابع عشر نهايته حتى تجمعت لدى مكتبة الفاتكان عشرات الآلاف من المخطوطات إلى جانب المطبوعات[6] فنادى البابا أفليمندوس الحادي عشر على أحد الموارنة العلماء وهو يوسف شمعون السمعاني[7] وعينه أمينا على خزانة الفاتكان، فوضع أول فهرست شامل

---

[6]. تمتاز هذه الخزانة بمجموعتها الهامة من الطبعات الاستهلالية Incunables.

[7]. خريج مدرسة الموارنة بروما وتوفي عام 1768. ترجم للبابا عددا من كتب اللغات السامية إلى اللاتينية. كما يتقن، بالإضافة إلى هذه اللغات، اليونانية والفرنسية والإيطالية.

لمخطوطاتها. وإذا سمّى السمعاني فهرسته هذا "بالمكتبة الشرقية"[8] (Bibliotheca Orientalia) فإنه أحصى فيه كتب العرب والسريان والأقباط واليونان واليهود وغيرهم إلى جانب كتب شرقية أخرى. ثم قام بعده ابن شقيقه اسطفان عواد السمعاني بوضع فهرست آخر للمخطوطات الفاتكانية بعنوان: فهرسة المخطوطات بمكتبة الفاتكان الرسولية: Bibliothecae Apostolicae Vaticanae codicum manuscriptorum catalogus[9]. وقد ظهر الفهرست في ثلاثة مجلدات احتوى الجزء الأول منها على المخطوطات الشرقية بما فيها العربية والكرشونية (أي المخطوطات العربية المكتوبة بحروف سريانية)، ومن يقرأ في هذا الفهرست يجد أنه فهرست تحليلي بمعنى أن السمعاني يصف المخطوطات الفاتكانية وصفا وافيا حيث يأخذ كل مخطوط بمفرده ويعطي فكرة عن محتواه ثم يُعدّدُ مواضيعه ويختم بطاقته بالتعريف بالمؤلف.

وبعد هذين العالمين الشرقيين[10] تولى فهرسة مخطوطات الفاتكان ثلة من المستشرقين إيطاليين وألمان وسواهم، نذكر منهم دي هامر de Hammer الذي فهرس ما دخل المكتبة الفاتكانية من المخطوطات الشرقية بعد فهرسة عواد السمعاني وذلك في بحث عنوانه: رسالة في المخطوطات الشرقية في المكتبة الفاتكانية[11]. واهتم بها أخيرا المستشرق الإيطالي الكبير "جورجيو ليفي دلا فيدا" Georgio Levi della Vida الذي وضع فهرس المخطوطات العربية الإسلامية بمكتبة الفاتكان[12] وصف فيه جميع المخطوطات العربية الإسلامية ممهدا لها بمقدمة ضمنها الشروح الضرورية للاستفادة من الكتاب، خاتما فهرسته بكشافات عديدة، منها ما هو بأسماء المؤلفين، ومنها ما هو بعناوين الكتب والرسائل موزعة على أنواع العلوم والفنون.

8- نشر الفهرست ما بين 1719 و 1728 في أربعة مجلدات.

9- نشر بروما عام 1756، وعواد السمعاني هذا هو الذي نقل تاريخ ابن العبري إلى اللاتينية.

10- لم يفهرس هذان العالمان مكتبة الفاتيكان وحدها بل وضعا فهارس مكتبات أخرى بإيطاليا. فقد وضع يوسف السمعاني فهرستا للمخطوطات الشرقية المكنوزة في الخزانة النانية (Naniana) بالبندقية، وفهرس عواد السمعاني المخطوطات الشرقية (العربية التركية والفارسية) المحفوظة في المكتبة المديشية بمدينة فلورنسة.

11- نشره في فهارس المكاتب الإيطالية، المجلد 46 عام 1827.

12- مدينة الفاتيكان عام 1935 ووضع الفهرست الثاني بنفس العنوان عام 1965.

هكذا توالت فهارس خزانة الفاتيكان التي كانت في بدايتها فهارس عامة تحصي مخطوطات جميع اللغات بدون استثناء ثم أصبحت تخص المخطوطات الشرقية بما فيها اللغات السامية بمجلدات خاصة ثم تلتها فهارس تهتم بالمخطوطات العربية بما فيها المخطوطات المسيحية، وأخيرا خصت المخطوطات العربية الخاصة بالمؤلفين المسلمين بفهارس منفردة وهو العمل الذي قام به ليفي دلا فيدا.

II . الخزانة الوطنية الفرنسية

ترقى المكتبة الوطنية الفرنسية بتاريخها إلى عهد الملك فرانسوا الأول François 1er الذي أمر بنقل الخزانة الملكية من مدينة بلوا Blois إلى فانتنبلو Fontainebleau بضواحي باريز خلال النصف الأول من القرن السادس عشر 1544م. وحسب أول قائمة لهذه المكتبة كان عدد المخطوطات الشرقية أربعين مخطوطا لا يتجاوز عدد العربية منها الستة. وفي عهد الملك لويس الرابع عشر ازداد عدد المخطوطات الشرقية بسبب انفتاح هذا الملك على الدول الشرقية وربط العلاقات الطيبة معها. ومعظم هذه المخطوطات كان من شراء البعثات التي كان يرسلها إلى الشرق أو من هدايا العلماء والسفراء والقناصلة والرحالين سواء للملك أو لوزرائه وعلى الأخص منهم ريشليو Richelieu ومازران Mazarin وكولبير Colbert[13].

وبعد الثورة الفرنسية ازداد رصيد الخزانة من المخطوطات التي صودرت من مكتبات الأديرة والكنائس والمعاهد الدينية. وفي القرن التاسع عشر اقتنت الخزانة أكبر عدد من المخطوطات العربية لما كان de Sacy (دوساسي) أمينا على قسم المخطوطات، وليس هذا غريبا إذا علمنا أن هذا الرجل كان زعيم الاستشراق الأوربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتتلمذ عليه أكبر مستشرقي أوربا في ذلك العصر. وإذا كان قد تعاقب على أمانة قسم المخطوطات الشرقية بالمكتبة الأهلية الفرنسية عدد من أبرز مستشرقي فرنسا أمثال

[13] - كانوا يرسلون ما يسمى بالبعثات الأثرية إلى الشرق missions archéologiques، بحثا عن الآثار القديمة بما فيها المخطوطات، وإن عددا كبيرا من مجموعات هؤلاء الوزراء قد انتهى إلى الخزانة الوطنية حاليا.

de Perceval دوبرسوفال عام 1835م و de Sacy و Vajda وآخرون، ووضعوا لها اللوائح والكشافات والفهارس، فإن أول من تصدى لإحصائها وفهرستها منذ القرن السابع عشر مشارقة من سوريا ولبنان[14]. وهكذا وضع أول قائمة للمخطوطات الشرقية بطرس السوري، كما اهتم بها كذلك يوسف العسكري الماروني وباروت السوري. وإذا تأخر طبع ونشر أول فهرست للمخطوطات الشرقية إلى القرن الثامن عشر فإن المعتمد كان تلكم القوائم التي سطرتها أيادي هؤلاء المشارقة.

إن المخطوطات العربية كانت تفهرس ضمن المخطوطات الشرقية، كما رأينا ذلك في خزانة الفاتيكان[15]، ثم أصبحت تخصص لها فهارس مستقلة كما صنع دوسلان de Slane وزوتنبرغ Zotenberg[16] في نهاية القرن التاسع عشر، وفي هذا العصر وضع المستشرق الفرنسي تروبو (G.Troupeau) فهرستا من جزءين، خاصا بالمخطوطات العربية المسيحية[17].

كما بدأ فاجدا Vajda المتوفى قبل سنوات فهرستا تحليليا شاملا للمخطوطات الإسلامية[18]. وتدرس الخزانة الوطنية إمكانية إصدار فهرست خاص بالمصاحف القرآنية التي تملك منها الخزانة عددا كبيرا، كما يأمل المسؤولون في قسم المخطوطات الشرقية أن تخصص

14ـ ليس هذا غريبا إذا علمنا أن أساتذة اللغات الشرقية في الكوليج الفرنسي Collège de France القرن 16 كانوا من الموارنة أمثال جبرائيل الصهيوني وإبراهام الاشبيلي وبطرس ديبي. وكانوا يدرسون بالخصوص اللغتين العربية والسريانية.

15ـ كشاف فاجدا يتضمن مخطوطات عربية كانت ضمن المخطوطات العربية والفارسية والتركية والملايو البولينيزية (Mallayo Polynisien).

16ـ هو الذي وضع فهرست المخطوطات الإثيوبية (الجعزية والأمهرية).

17ـ صدر عام 1972 و 1974.

18ـ واصلت العمل بهذا الفهرست السيدة صوفان (Yvette Sauvan) إلى أن توفيت وحلت محلها السيدة جيدون (Guesdon) المسؤولة عن المخطوطات العربية بقسم المخطوطات بالخزانة الوطنية. وقد تقرر طبع ونشر هذا الفهرست منذ سنة 1970 بعناية المكتبة الوطنية بتعاون مع معهد الأبحاث وتاريخ النصوص (IRHT) التابع للمركز الوطني للبحث العلمي بباريز.

الكتب العربية والفلسفية والفلكية والطبية المكتوبة بحروف عبرية بفهرست مستقل كما هو الشأن بالنسبة للمخطوطات العربية المسيحية.

III. خزانة الإسكوريال

هذه الخزانة جزء من بناء كبير أقامه ملك إسبانيا فيليب الثاني في ضواحي مدريد تخليدا لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كانتان St Quentin في أواسط القرن 16م وتنويها بالقديس لورنزو St Loenzo الذي استمد عونه في هذه المعركة، لهذا كان اسمها الرسمي: "المكتبة الملكية لدير القديس لورنزو بالإسكوريال".

تضم هذه الخزانة مجموعات كبيرة من المخطوطات في مختلف اللغات السامية، وقد ضم إليها مؤسسها الملك فيليب الثاني Philippe II ما بقي من مخطوطات المدن الإسلامية كغرناطة وقرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وغيرها. كما ضمت إليها على عهد فيليب الثالث خزانة السلطان السعدي مولاي زيدان، فبلغ عدد مخطوطاتها العربية حوالي خمسة آلاف مخطوط[19].

وخزانة السعديين هذه هي التي اختطفها القراصنة الإسبان ووضعوها بين يدي الملك الذي أمر بوضعها بقصر الإسكوريال، وقد أدى هذا الاختطاف إلى خلق مشكل دبلوماسي بين ست دول[20] لم يكن حله بالشيء اليسير.

وعلى الرغم من غنى هذه الخزانة وأهمية رصيدها بالنسبة لتاريخ إسبانيا فإن المسؤولين كانوا بإيعاز من الفاتيكان يخفون هذا التراث عن نظر الباحثين والمطلعين، كأنما كانوا يخشون أن يبث روح التفكير الإسلامي في تفكير إسبانيا النصرانية بعد أن بذلت كل جهد ووسيلة لقتل روح الاطلاع على الفكر الإسلامي. وقد كان الكتاب المسيحيون أنفسهم يعرضون عن هذه المصادر التي تتحدث عن تاريخ إسبانيا وحضارتها أيام الدولة الإسلامية

[19]- يعتقد عبد الله عنان أن عدد المخطوطات بلغ عشرة آلاف. انظر البحث الذي نشرناه بعنوان: "خزانة مراكشية بالإسكوريال": مجلة كلية آداب الرباط، العدد 9 سنة 1982.

[20]- المغرب وإسبانيا وفرنسا والبرتغال والأقاليم المتحدة (هولندة) والدولة العثمانية.

ويقتصرون على المصادر القومية النصرانية، وإخفاء هذه المخطوطات عن نظر الباحثين هو الذي جعلها تبقى دون فهرسة مدة تزيد على قرنين من الزمان. ولما أودت الصاعقة التي سقطت على الإسكوريال بالآلاف من المخطوطات العربية اضطرت إسبانيا بعد مرور قرن من الزمان على هذا الحريق إلى فهرسة ما بقي من مخطوطات، فعهدت بذلك إلى شرقي ماروني كما صنعت الفاتيكان وباريز من قبل، لتنظيمها وتصنيفها فكان ميخائيل الغزيري واضع أول فهرست علمي كبير للمجموعة العربية بالإسكوريال. وقد ظهر هذا الفهرست في جزئين مع مقدمة باللاتينية عن قيمة المخطوطات العربية وعنوانه: **المكتبة العربية الإسبانية بالإسكوريال**[21]. واعتبارا لأهمية هذا الفهرست فإنه قد تمت ترجمته إلى اللغة العربية في عهد السلطان المولى سليمان العلوي باقتراح الأديب المغربي محمد بن عبد السلام السلوي وزير السلطان المذكور. وتحتفظ الخزانة الحسنية بالرباط بالنسخة الوحيدة لهذه الترجمة[22].

وعلى الرغم من تعاقب ثلة من كبار المستشرقين أمثال درنبورغ[23] Derenbourg وليفي بروفنسال Lévi-Provençal ورونو Renauld وسواهم على إعادة فهرست الإسكوريال وإصدار القوائم في الصحف الأوروبية وبلغات مختلفة فإنه قد بقي لفهرست الغزيري قيمته، هذا الفهرست الذي أثر مباشرة بعد ظهوره في مؤلفات العلماء من المستشرقين أمثال يوسف كوندي[24] ودوزي Dozy [25] وظل أكثر من قرن من الزمان مرجعا فريدا لهذه المجموعة العربية.

هذه فهارس خزانات بعض الدول المتوسطية اخترناها كنماذج لفهرسة المخطوط العربي في الخزانات الأوروبية. وطبيعة مثل هذا الموضوع تفرض على المتطرق إليه الدخول في تفاصيل تقنية ربما همت الأخصائيين بعلوم المكتبات أكثر من غيرهم من علماء الفيلولوجيا المهتمين بنشر التراث المخطوط. لذلك ارتأينا أن نتلافاها دفعا للملل ووقوفا عند القواعد

---

21 -Bibliotheca arabico-hispana escuriolensis, Brill, Leiden 1760/1770.

22- محفوظة تحت رقم 6972.

23 -Les manuscrits arabes de l'Escurial, 1884.

24- كوندي، تاريخ دولة العرب في إسبانيا، 1810.

25- تاريخ المسلمين في إسبانيا، في أربعة أجزاء، 1861.

العامة والواضحة لفهرسة المخطوطات. وعلى الرغم مما تفرضه هذه العملية على المختص بها وممارسها من عناء ومشقة، فإن الفهرسة قد لعبت دورا كبيرا في الحفاظ على التراث المخطوط وصيانته، وبالتالي في الكشف عنه، ولولاها لما استطاع العلماء مهما كان لهم من إمكانات مادية ومعنوية أن يقفوا على كثير مما هو مكنوز من ملايين المخطوطات في بقاع المعمورة. فهي الوسيلة الوحيدة والمثلى لتذليل الصعاب، وتيسير السبل للعلم به والاشتغال به. يقول حاجي خليفة رحمه الله:

"العلوم والكتب كثيرة، والأعمار عزيزة قصيرة، والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر، وإنما المطلوب ضبط معاقدها والشعور بمقاصدها"[26].

[26]- مقدمة كشف الظنون.

الفهرسة وعلم المخطوطات

على الرغم من المحاولات العديدة التي عملت على تقنين قواعد فهرسة المخطوطات ورسم مناهجها، فإن الصورة النهائية لهذه العملية لم تتحدد حتى الآن في أذهان الممارسين لها في جميع الجهات. ولم تكن المشكلة وليدة اليوم، بل هي قديمة قدم الفهرسة ذاتها. وإذا استعرض الباحث في هذا المجال الفهارس التي عملت على توصيف المخطوطات بدءا بما بقي من شذرات فهرس الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus)[1] لمخطوطات مكتبة الإسكندرية مرورا بما وضعه الغربيون من فهارس لمخطوطاتهم[2] إلى الفهارس الحديثة التي وضعت للتراث العربي المخطوط، فإنه يلاحظ خلوها من أية أسس موحدة، وبالتالي فإنها تختلف اختلافا بينا في المنهج المتبع في أساليب وصف المخطوطات. لم يقتصر الأمر إذن على التراث العربي وحده، بل يشمل المخطوطات في جميع اللغات وفي مختلف العصور والأزمان.

فهل يرجع السبب في ذلك إلى عدم تحديد الفهرسة تحديدا علميا من شأنه أن يوحد هذه العملية في جميع الجهات وفي مختلف اللغات؟ تكاد كل التحديدات تتفق على أن الفهرسة تهدف إلى الضبط الببليوغرافي للمخطوطات وتوثيق وجودها والتعريف بها للمهتمين من القراء

---

1. كاليماخوس: شاعر يوناني في القرن الثالث قبل الميلاد عينه البطالسة على رأس خزانة الإسكندرية. وقد وضع لها فهرسا مفصلا بعنوان **قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها**. يعتقد الأخصائيون أنه أول فهرس منهجي (Pinakes) وضع في التاريخ باعتبار الطريقة العلمية التي لجأ إليها كاليماخوس في تقسيمه للمعرفة تقسيما علمياء وتصنيف الكتب حسب هذا التقسيم. واعتبره البعض نوعا من الفهارس الموحدة وضعه كاليماخوس لجميع خزائن الإسكندرية. والحقيقة أن هذا الفهرس يمكن اعتباره تاريخا للأدب اليوناني باعتبار التعاليق التي خصه بها أريستوفانيس البيزنطي أحد أمناء مكتبة الإسكندرية بعد كاليماخوس. وقد احتفظ بشذرات من هذا الفهرس بخزائن المتحف البريطاني بلندن الخزانة الوطنية حاليا.

2. قد تجدر الإشارة إلى أن أول من اهتم بفهرسة الأرصدة العربية المحفوظة في الخزانات الأوروبية هم العرب المشارقة. كان بطرس دياب الحلبي وباروث السوري ويوسف العسكري أول من فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية الفرنسية بباريز. كما كانت أسرة السماعنة المارونية مثل يوسف شمعون السمعاني وشقيقه عواد أول من تصدى لفهرسة التراث العربي في مكتبات إيطاليا. وكذلك كان الأمر في إسبانيا: فإن ميخائيل الغزيري اللبناني كان وضع أول فهرسة للمخطوطات العربية بخزانة الإسكوريال.

والباحثين. ولكن ما حدود هذا التعريف؟ وما مواصفاته؟ وما البيانات المختلفة والضرورية التي يجب أن نقف عندها ولا نتجاوزها في توصيفنا للمخطوطة؟ وما الطرق الكيفية التي تُمَكِّنُ المفهرسَ من أن يعالج بها مخطوطته في عملية الفهرسة؟ أعتقد أن هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا حاولنا أن نحدد الفهرسة تحديدا كوديكولوجيا، أي أن نبرز الحدود التي تفصل بين خصائص الفهرسة ومهام علم المخطوطات.

اختلف علماء الغرب في تحديد الفهرسة بالنسبة لعلم المخطوطات أو الكوديكولوجيا. فمنهم من جعلها عنصرا من عناصر هذا العلم[3]، ومنهم من اعتبرها فنا قائما بذاته يتداخل ويتكامل مع علم المخطوطات. والحقيقة أن كثيرا من العناصر اللازمة لتوصيف المخطوط قد يشترك في الاهتمام بها كل من الكوديكولوجي والمفهرس، يعمل كلاهما على التعريف بالمخطوط أو دراسته باعتباره قطعة مادية[4] . ومن بين هذه العناصر قضية مصدر المخطوط التي يتكلف المفهرس بالبحث فيها كأن يقول مثلا: "جاء هذا الكتاب من خزانة كذا أو كان محفوظا في مسجد أو زاوية معينة" أو "جاء به وجيه من مجموعة وجيه آخر" على غرار ما نجد في مختلف الفهارس[5]. فهذه ليست مهمة المفهرس بقدر ما هي مهمة الكوديكولوجي الذي يدخل في اختصاصه البحث عن مصادر المخطوط ورحلاته بين الخزائن والمكتبات عبر العصور، وذلك ليدرس مجالات أخرى كتاريخ الخزانات وتاريخ المخطوطات. وهي كما نعلم من أخص عناصر علم المخطوطات الحديث.

وقد أوصى رمضان ششن التركي في أحد أبحاثه بإعطاء لمحة عن تاريخ المكتبات التي مر منها المخطوط أثناء فهرسته، وهو - كما نلاحظ- تجاوز صريح لمجال الكوديكولوجي من طرف المفهرس[6] .

---

[3] -Alphonse Dain, **Les Manuscrits.**

[4]- طريقة الكوديكولوجي تشبه طريقة العالم الأثري الذي يحاول إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة. لهذا اقترح بعض علماء الفيلولوجيا في فرنسا وفي بلجيكا عبارة " **أثرية المخطوط**" (L'Archéologie du manuscrit) للتعبير عن علم المخطوطات.

[5]- ينظر "فهرس" المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة الوطنية بباريز.

[6]- من الأمثلة على تتبع مصادر المخطوطات والبحث في رحلاتها وتاريخها تلكم الأعمال التي خص بها العالم المغربي محمد المنوني النسخة التي بقيت من مصحف عثمان رضي الله عنه، حيث تتبعها منذ أن دخلت المغرب في القرون الإسلامية الأولى وانتقلت في بيوت الملوك والسلاطين إلى أن ضاعت في البحر في القرن الثامن الهجري على العهد المريني. وهي – حسب المختصين- آخر نسخة من نسخ القرآن التي نسخها هذا الخليفة الراشدي.

وقد يعمل الرجلان على تأريخ المخطوط غير المؤرخ. فالمفهرس يؤرخه بالتقريب، اعتمادا على الحدس والتخمين والتجربة الشخصية في مجال الفهرسة. ولا ينكر أحد الجهود التي بذلها علماؤنا الأجلاء في هذا المجال[7]. غير أنه قد يصيب كما أنه قد يخطئ. ولا مجال هنا للتعرض للأخطاء التي وقع فيها كثير من المفهرسين في هذا الميدان. أما عالم المخطوطات، فإنه، بالإضافة إلى كفاءته وتجربته الفردية، يستعمل لتأريخ المخطوط غير المؤرخ مجموعة من الأدوات التقنية والعلمية استعيرت من النظرية الفيزيائية والكيماوية أتاحتها البحوث العلمية الحديثة[8].

أما إذا كان المخطوط مؤرخا، فالمفهرس يحتفظ بالتاريخ المذكور في الكولوفون (Colophon) أو التخيمة؛ ولكن عالم المخطوطات يبحثه بحثا كوديكولوجيا ليتأكد من صحته. فقد يدرس الورق ليتحقق من عمر المخطوط، ولم يكن دائما قدم الورق دليلا على قدم المخطوط في الزمن. وقصة ابن البواب الذي أكمل الجزء الثلاثين من قرآن ابن مقلة في ورق شبيه بورق ابن مقلة أكبر دليل على ذلك[9]. ويعلم المختصون كم هي كثيرة تلكم المخطوطات التي يحتفظ الناسخ في نسخته بتاريخ النسخة المنسوخ منها. وقد يقصد الناسخ إلى ذلك قصدا، وقد يكون منه سهوا. وللتأكد من تاريخ المخطوط أهميتان أساسيتان للفيلولوجيين ولعلماء المخطوطات: أولهما تعطي المقومات الأساسية لتاريخ النصوص، وهو الأساس لما

7_ التملكات والسماعات والإجازات لها أهمية بالغة لمن يؤرخون للمخطوط العربي غير المؤرخ. وهي من الوسائل التي يعتمدها معظم العاملين في مجال الفهرسة. فإنها تساعد على تحديد تاريخ المخطوط في حالة عدم وجوده، وتكشف عن قيمته ومدى اهتمام الناس به في فترات معينة من التاريخ.

8_ يعمل الكوديكولوجي في مختبر للاستفادة من النظريات الفيزيائية والكيماوية كالتحليل الكيميائي للمداد والأوعية والهولوغرافيا (Holographie) للمقارنة بين الخطوط والبتارديوغرافيا (Bétaradiographie) لمعرفة علامات الكاغد (Filigranes) ، خصوصا إذا كان الكاغد أوروبيا؛ لأن الكاغد العربي لا يحمل هذه العلامات. والمعهد الوحيد في العالم الذي تطبق فيه هذه الأشياء هو معهد البحث وتاريخ النصوص (I.R.H.T) التابع للمركز الوطني للبحث العلمي في باريز. يتكون هذا المعهد من شعب مختلفة، وهي الشعبة الإغريقية والشعبة اللاتينية والشعبة العبرية والشعبة العربية. بالإضافة إلى هذه الأقسام، هناك قسم الكوديكولوجيا. ينشر المعهد مجلة "تاريخ النصوص"، وهي الدورية الدولية الوحيدة المتخصصة في تاريخ النصوص.

9_ انظر للمستشرق الدنمركي: يوهنس بدرسن (Johans Pedersen) ، **الكتاب العربي (The Arabic Book)**، الترجمة العربية حيدر غيبة، ص.113. في الثلاثينيات عرض في مكتبة القاهرة الكبرى ما يفترض أنه مخطوطة أصلية لابن مقلة. وقد تبين فيما بعد أنها كانت من أعمال خطاط حديث.

نسميه نحن العرب بالتحقيق العلمي؛ وثانيهما تساعد على تقدم الدراسات المتعلقة بالباليوغرافيا أو علم الخطوط القديمة[10].

ومن البيانات التي يشترك فيها المفهرس والكوديكولوجي وصف نوع الورق أو الجلد أو الطرس الذي كان المادة التي تم نسخ المخطوط عليها. ويقضي بعض المفهرسين وقتا طويلا في وصف المادة التي هي وعاء المخطوط باحثا عن نوعيتها ومصدرها، كأن يقول إذا كان المخطوط مكتوبا على الورق: هو ورق عربي، أو أوروبي إذا كان يحمل علامة (Filigrane)[11]؛ وإذا كان مكتوبا على الرق، يقول: هو رق غزال أو جلد أو غير ذلك. أما إذا كانت المادة المستعملة للكتابة طرسا[12] (Palimpseste)، وهو الجلد الذي يكتب عليه ثم يمحى ويكتب عليه من جديد- وهذه الظاهرة عرفتها النساخة العربية في فترات تاريخية مختلفة -، فإن المفهرس يكتفي بكلمة "رق" أو "جلد" لنعت مادة الكتابة، لأنه لا يملك من الإمكانات العلمية ما يؤهله لتمييزه من الجلد الخام. إن الإسهاب في وصف مادة الكتابة من ورق وجلد وطرس هو من مهام عالم المخطوطات الذي يبحث فيها لتحقيق غايات أخرى يهدف إليها من خلال دراسته للمخطوط دراسة كوديكولوجية.

---

[10]- لفظ باليوغرافيا (Paléographie) من وضع العالم والراهب البندكتي (Bénédictin) الفرنسي مونفكون (Montfaucon) (1741م). استعمله لأول مرة في اللغة الفرنسية بهذا الشكل في إحدى رسائله المؤرخة بتاريخ 14 دجنبر 1708. درس هذا الراهب اللغة الإغريقية واللغات الشرقية، وله كتاب في المنهج بعنوان علم **الخطوط الإغريقية القديمة** **(paleographia graeca)**.

ويجب الإشارة إلى أن علم المخطوطات كان يعتبر إلى وقت قريب جزءا من الباليوغرافيا أو علم الخطوط القديمة. وقد كان العلماء الألمان يقولون " الباليوغرافيا التطبيقية" أو "التاريخية" (Paläographie) للتعبير عن علم المخطوطات قبل أن يستعملوا لفظ هاند شغيفتن كونده (Handschriftenkunde)، واحتفظوا بلفظ "باليوغرافيا" لعلم الخطوط القديمة.

[11]- يظهر هذا جليا في بعض الفهارس التي وضعها المستشرقون للمخطوطات العربية المحفوظة في الخزانات الأوروبية. فإنهم يصفون العلامة ويحددون معالمها، كأن يقال مثلا: علامة على شكل رأس ثور أو شكل هلال. انظر فهرس باريز.

[12]- الطرس: ج طروس، وهي رقاق. وقد جاء ذكرها هنا وهناك في النصوص الأدبية. أخبرنا ابن النديم في "الفهرست" بأن سلطات بغداد اضطرت إلى استخدام الرقاق المستعملة لسنوات كثيرة، لأن المكاتب سرقت ونهبت. ولما أصبح الكاغد يصنع في بغداد على عهد الرشيد، أمر البرمكي الكتاب ألا يكتبوا الرسائل الرسمية إلا على الورق، لأن الجلود تمحى ويكتب فيها من جديد. (انظر: بدرسن (Pedersen)، **الكتاب العربي**، الترجمة العربية. ص.81). ويقال كذلك "طلس": ج أطلاس، وهي الصحيفة الممحوة، كما يقال له: رق مبشور.

فالبحث في نوع الورق[13] وفي مصدره وفي أماكن صنعه يهدف منه عالم المخطوطات إلى إبراز مظاهر التطور التي عرفتها هذه المادة عبر التاريخ منذ أن كان مادة عربية تصدر إلى أوربا حتى صار مادة أوروبية تصدر إلى البلاد العربية والإسلامية[14]. ويهدف من البحث في نوع الجلد الذي يمكن أن يكون خاما أو مدبوغا أو مُصَنَّعا أو رَقًا (Parchemin) أو طرسا (Palimpseste) إلى رصد التطور الذي عرفته كذلك هذه الأداة من جهة، ثم إلى التنافس الذي عرفته المادتان معا - الورق والجلد[15]- باعتبارهما أداتين أساسيتين للكتابة العربية من جهة أخرى.

وقد دأبت بعض فهارس المستشرقين على الإسهاب في وصف مادة الكتابة وصفا يكاد يخترق به مجال عالم المخطوطات. وقد يلاحظ هذا بالخصوص في توصيف الجلد الذي كان أداة للتجليد أو التسفير.

إن بعض الفهارس وكذلك بعض البطاقات التي اقترحها مكتبيُون وعلماء لفهرسة المخطوط العربي تلح على الإشارة إلى مكان نسخ المخطوط مع ذكر اسم الناسخ إن ذكرا في التخيمة أو الكولوفون. وذكر الناسخ أساسي في التعريف بالمخطوط. وقد تحدد قيمة الكتاب بحسب ناسخه. فالمخطوطة نسخة أصلية إذا كانت بخط مؤلفها، وهي مهمة إذا كانت بخط

---

[13] - في بعض النصوص القديمة كلمة "ورق" لا تعني الكاغد (وهي كلمة صينية) بمعناه الحديث (Papier) بل يقصد به أحيانا ورق البردي المصري (papyrus). لهذا وجب الاحتياط وإمعان النظر عند قراءة النصوص القديمة المتعلقة بالورق.

[14] - كان الكاغد العربي يصدر إلى أوربا قبل أن تنشأ فيها مصانع لصنعه. وأكبر دليل على ذلك احتفاظ اللغات الأوروبية بكلمة "رزمة" العربية التي هي خمسة كفوف؛ والكف يضم خمسا وعشرين صحيفة. يقال في اللغتين الإيطالية والإسبانية Resma و"رام" (Rame) في الفرنسية و"رايز" (في الأصل رز) في الألمانية، و"ريز" في الدنماركية، و"ريم" طبعا في الإنجليزية. (انظر: بدرسن، **الكتاب العربي**، الترجمة العربية، ص.92). وأصبح الكاغد الأوربي يستورد إلى الدول العربية بدءا من القرن الثالث عشر الميلادي، خاصة من مدينة البندقية الإيطالية التي كانت مشهورة بمصانع الورق. وكان الورق المصنوع فيها يحمل علامة (Filigrane) غالبا ما تكون رمزا من رموز المسيحية. ولكن الورق الذي يصدر للبلاد الإسلامية يحمل علامة ترمز إلى رمز من رموز الإسلام كالهلال وغيره. أما الطروس أو الطلوس، فهي ظاهرة قد عرفت في الغرب الإسلامي. عندما فتح العرب الأندلس وصقلية، محوا الكتب اللاتينية واليونانية بعد ترجمتها وكتبوا عليها ثانية، ولما خرج العرب من الأندلس، محا الإفرنج كتب العرب وكتبوا عليها، مع أنهم في غنى عن ذلك لوجود الكاغد الذي نشره العرب في أوروبا. وفي القرن الماضي، استخرج الأوروبيون بوسائل كيماوية النصوص الغربية القديمة من الطروس العربية وبقيت الطلوس الإفرنجية محتفظة بسر الكتب العربية المطلوسة.

[15] - هناك نماذج من المخطوطات كتبت على الجلد والورق معا. إن هذا التركيب المزدوج يمثل التزامن الذي عرفته المادتان معا باعتبارهما وعاء للكتابة العربية، كما يرمز إلى الانتقال التدريجي من الجلد إلى الورق. والمثال على ذلك: **المعجم اللاتيني-العربي** المحفوظ بخزانة جامعة ليدن بهولندة تحت رقم OR 231 صفحات الوقاية من الرق وباقي صفحات المخطوط من الورق.

أحد العلماء المشهورين أو الخطاطين المعروفين. وإذا كان من مهام المفهرس الاكتفاء بذكر اسم الناسخ، فإن مهمة عالم المخطوطات استغلال وجود هذا الاسم لتحديد نوع النسخة - أصلية كانت أو عادية -، ولإبراز رسم الخط الذي كتبت به في محاولة لدراسة تطور نوع هذا الخط[16]. كما يساعد البحث في هذا الموضوع على دراسة مسألة النساخة والنساخ بوجه عام في التراث العربي، وهي قضية من قضايا علم المخطوطات التي لم تحظ بعناية الباحثين حتى اليوم. وكم هي كثيرة المشاكل التي شوهت تشويها كبيرا نصوص هذا التراث بسبب أيدي النساخ الذين يجب تخصيصهم بكشافات[17] وأدلة ومونوغرافيات تساعد على القيام بالبحث في حيواتهم وسلوكهم ثم إخضاعهم لعملية الجرح والتعديل التي خضع لها رواة الحديث وخضع لها حتى الرواة من علماء اللغة والأدب. وقد يسفر مثل هذا البحث عن نتائج إيجابية تستفيد منها الكثيرَ نصوصُ التراث العربي.

أما مكان نسخ المخطوط الذي نجده في كثير من الفهارس، فهو ليس مهما للمفهرس بقدر ما هو أساسي للباحث في علم المخطوطات. إن الإشارة إلى مراكز النسخ في خواتم المخطوطات قد تؤدي خدمة كبرى للكوديكولوجي إذ تساعده على استجلاء الكثير من الغوامض وعلى الإجابة عن كثير من الأسئلة العلمية والتقنية المتعلقة بالمخطوط والتي لا تزال حتى اليوم تحير الباحثين في هذا المجال. وأقتصر هنا على قضية الكراس أو الكراسة في التراث العربي المخطوط. يبدو - حسب الكثير من المخطوطات - أن الكراسة لا تعدو عشر ورقات، وتكون الإشارة إليها بحرف الكاف وقد تكون الإشارة بالكلمة بكاملها[18]. وقد أكد

---

[16]- يحاول بعض المفهرسين التمييز بين المداد والحبر الذي نسخ به المخطوط، وهو كذلك تطاول على مهمة الكوديكولوجي الذي يحلل المداد أو الحبر في المختبر محاطا بالآلات والتجهيزات اللازمة لهذا التحليل بهدف الوصول إلى المواد التي تتركب منها هذه المادة وليتوصل إلى الأسباب التي دعت إلى انطماس المداد أو إلى بقائه.

[17]- هذا النوع من الكشافات قد يؤدي خدمة جليلة للمهتمين بالتوثيق والتحقيق العلمي. كما يجب علينا في عالمنا العربي أن نضع مونغرافيات للنساخ المشهورين مثل ابن مقلة وابن البواب والمستعصمي وسواهم من ألوف النساخ الذين عرفتهم البلدان الإسلامية في مختلف العصور.

[18]- وقد يكون الترقيم بالكراريس بالأرقام الهندية، وقد يكون كتابة كأن يقول: سابع، ثامن أو سابعه، ثامنه مع الضمير الذي يعود على الكراسة.

البحث في هذا المجال أن الكراسة[19] قد تكون إحدى عشرة ورقة، وقد تكون ثمانية[20]، وقد تكون غير ذلك[21].

فهل يعني هذا أن عدد أوراق الكراسة يختلف باختلاف مراكز التنسيخ أو أن هذا الاختلاف يرجع في أصله إلى أسباب أخرى مجهولة لن يكشف عنها إلا البحث الكوديكولوجي للمجموعات الخطية المحفوظة في مختلف الخزانات الدولية، بدءا بوضع قوائم خاصة بالمخطوطات التي حظيت بذكر مركز النسخ ثم ترتيبها زمانيا ومكانيا؟

ومن البيانات التي تدخل في حقل الوصف المادي للمخطوط بيان نوع الخط الذي كتبت به النسخة المفهرسة. يكتفي المفهرس بأن الخط شرقي أو مغربي من دون أن يحدد نوعيته الشرقية أو المغربية[22]. وقد توحي المخطوطة المفهرسة بأنها كتبت بخطوط مختلفة، فيشير المفهرس في بيانه إلى هذا الاختلاف من دون بذل أي محاولة لمعرفة سبب ذلك، مكتفيا بقوله إنها نسخت بأقلام مختلفة. إن عالم المخطوطات يستطيع أن يثبت أنه ليس من الضرورة أن تكون المخطوطة قد نسخها نساخ مختلفون، بل هي من خط ناسخ واحد نسخها في حالات نفسية مختلفة أو في فترات زمنية متباعدة تغير معها خطه. وقد يستخلص هذا من دراسة مخطوطية معمقة لكل أثر من آثار المؤلف. ولن يتأتى هذا البحث للمفهرس العاجل المحاط بآلاف النسخ التي تنتظر التعريف بها والفهرسة[23].

---

[19]- لم يوجد حتى الآن تعريف نهائي متفق عليه لكلمة كراسة التي استعملت في العربية منذ بداية حركة التأليف والتي اعتبرها بعض القدماء كتابا، واعتبرها البعض الآخر كتيبا. وقد تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من مخطوطاتها العربية المحفوظة في الخزانات الأوروبية كخزانة برلين بألمانيا قد أدى ترميمها إلى قص الأوراق، مما أدى في غالب الأحيان إلى تقزيم أو فقدان "كاف" الكراسة أو الكلمة نفسها، لأنها لم تعد مهمة بعدما عوضت بنوع آخر من الترقيم.

[20]- سحر البلاغة وسر البراعة، للثعالبي المحفوظ بمكتبة توبنجن (Tübingen) بألمانيا بخط مغربي نسخ عام 582هـ كراسته ثمان ورقات. وهو مرقم ترقيما هنديا.

[21]- عثرت في أبحاثي الكوديكولوجية في ألمانيا عن مجموعة من المخطوطات القديمة المرقمة حسب الكراريس، أن الكراسة لا تتجاوز فيها ثمان ورقات كما كان عددها إحدى عشرة ورقة في مخطوطات أخرى. وقد أشار بدرسن (في كتابه: **الكتاب العربي**، ص. 92 من الترجمة العربية) إلى أن الكراسة ثمان صفائح مطوية. وقد اعتبر أحد المحدثين وهو حسن حسني عبد الوهاب الكراسة عبارة عن كتيب حين قال في شأن كتاب "**المختار من شعر شعراء الأندلس**" لابن الصيرفي 542هـ: "يظهر أن أصل هذا الكتاب يخرج في ستة كراريس، أي نحو مائتي صحيفة. والصحيفة هي الورقة" (انظر مقدمة الكتاب بقلم محققه هلال ناجي، ص. 11).

[22]- الخط الشرقي أنواع والخط المغربي كذلك أنواع: منه الأندلسي والتونسي والفاسي والبدوي وما إلى ذلك.

[23]- أثبت علماء المخطوطات أن النساخ يملكون أكثر من خط واحد بدليل أنهم يكتبون الشروح والهوامش بخط مغاير لخط النص، وأنهم يميلون في بعض الأحيان إلى تقليد خط النسخة التي ينقلون منها أو ليكون خطهم قريبا من خط النسخة الأم.=

وعلى الرغم من هذه الأكداس من المخطوطات، فإن هذا المفهرس العابر قد يتوسع أحيانا في التفصيل؛ فيحاول المقارنة أو المقابلة بين نسخ أخرى بالخزانة المفهرسة ويتجاوزها تارة أخرى إلى مقابلة نسخته بما تيسر له ووقف عليه من نسخ المخطوط المحفوظة في مكتبات أخرى[24]، مستعينا في عمله هذا بالأدوات البيبليوغرافية من كتب تراجم وأثبات وقوائم وفهارس مثل كتاب **تاريخ الأدب العربي** بروكلمان[25] (Brockelman). وقد تدعو البيانات التوثيقية المفهرس إلى ما يسمى بالبيانات التلخيصية يعرف خلالها بموضوع الكتاب وأفكاره وأبوابه وفصوله، فيتجاوز الملخص أحيانا مرحلة التحليل الموجز للكتاب إلى مرحلة النقد وإبداء الرأي، فيصبح الفهرس بيليوغرافيا نقدية. بل ربما تجاوز المفهرس كل هذه المراحل ليقوم بتاريخ للنص المفهرس، مقتحما بذلك - دون أن يشعر - فضاء المختص في تاريخ النصوص أو مجال الكوديكولوجي الذي يبحث في مختلف نسخ المخطوط للمقارنة بينها، ولدراستها دراسة مخطوطية علمية يستفيد من نتائجها من نسميه بالمحقق.

رأينا - في ما سبق - بعض العناصر التي تعتبر - في رأي العلماء - أساسية في عملية ما اصطلح عليه بالفهرسة، وأبرزنا العلاقة التي تربط بين المفهرس والكوديكولوجي في معالجة كل منهما لهذه العناصر. فهل نكتفي في فهرسة المخطوط بهذا الوصف المادي السريع الذي لا يشفي غليل الباحث المدقق أو نرفع المخطوط للمختبر الذي كثيرا ما كانت نتائجه ونتائج الفهرسة العادية على طرفي نقيض؟

= وقد ثبت في التراث الأوروبي المخطوط أن كثيرا من النصوص الدينية المقدسة المنسوخة في القرن 12 و13م تذكرنا من حيث الخط بمخطوطات القرن العاشر الميلادي (انظر ألفونش دان (Dain)، **كتاب المخطوطات**، ص. 31 (بالفرنسية). ومما يبرز مهارة النساخ هو قدرتهم على تعويض ورقة أو جزء من أجزاء مخطوط ضاع مع الزمن بخط الأوراق أو الأجزاء الأخرى نفسه، ولا أدل على ذلك من قصة ابن البواب الذي كلفه بهاء الدولة حينما كان على رأس خزانته بشيراز بكتابة الجزء الذي ضاع من القرآن الذي نسخه ابن مقلة في ثلاثين جزءا، فكتبه وقدمه للأمير مع باقي الأجزاء، ففحصها بدقة دون أن يكتشف النسخة المكتوبة حديثا، فاحتفظ بها جميعا على أنها من أعمال ابن مقلة (انظر: ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**؛ وبدرسن، **الكتاب العربي**، ص.113 من الترجمة العربية).

[24] - بعضهم - وهم كثر - يشير إلى طبعات الكتاب إذا كان قد طبع، معتبرا الطبعة نسخة أخرى يستأنس بها في المقابلة أو المقارنة.

[25] - كثير من الفهارس تشير إلى وجود الكتاب أو عدم وجوده في كتاب بروكلمان (GAL). ولم تعد الإشارة إلى هذا الكتاب ضرورية، ما دامت الكتب التي يحصيها لا تتجاوز العشرين ألف كتاب في حين يقدر تراثنا المخطوط بالملايين. من المستحب أن يستشار الكتاب لا من طرف المفهرس، بل من طرف عالم النصوص الذي يكون بحاجة إلى النسخ المتعددة للمخطوط الواحد. وقد أصبح الكتاب اليوم متجاوزا بحيث ترجع آخر طبعاته إلى بداية الأربعينيّات وقد صدرت منذ ذلك الوقت مئات الفهارس فهرست فيها آلاف المخطوطات العربية المكتشفة.

إذن هل هناك طريقة علمية وخطة عملية يهتدي بها المفهرس في إطار علاقة الفهرسة بفضاء علم المخطوطات إلى النزوع إلى المعالجة الكيفية لعناصر الفهرسة وتعميق البحث فيها؟. إن علم المخطوطات لا يقبل البيانات السطحية اليسيرة المكدسة في فهارس المخطوطات موجزة كانت أو مفصلة؛ إنه لا يستسيغ الأحكام المبنية على الحدس والتخمين في حين يمكن إثباتها بوسائل علمية حديثة. إن التداخل بين العلمين والتكامل الذي أصبح ضربة لازب بينهما يدعوان إلى القيام بعمل مشترك قمين بالكتاب المخطوط، وذلك في معهد علمي على غرار معهد البحث وتاريخ النصوص الذي استحدث في باريز منذ الثلاثين من هذا القرن. هناك يمكن لعلم المخطوطات أن يتعامل مع الفهرسة التقليدية تعامل القاضي مع المحجور عليه حتى يتبين رشده[26]. ورشد الفهرسة هو أن يؤكدها علم المخطوطات في بياناتها التاريخية والانتساخية والمادية وما إلى ذلك من معلومات قمينة بتمييز مخطوطة عن أخرى. وإذا ما تم هذا في إطار المعهد المقترح استحداثه وبآلات ووسائل علمية حديثة، انعدم السؤال الخالد المتعلق بقضية الاختصار والتفصيل؛ ولم تعد تطرح هذه المسألة في الفهرسة، بقدرما تطرح الطرق الكيفية التي يعالج بها كل من المفهرس والكوديكولوجي مخطوطة معينة.

26- مدخل إلى الكوديكولوجيا، الترجمة العربية، "المقدمة"، ص. 79، مرقون بكلية الآداب بالرباط.

ظاهرة وقف الكتب

في تاريخ الخزانة المغربية

الحديث عن ظاهرة وقف الكتب في الخزانة المغربية يدعو بالضرورة إلى الحديث عن هذه الظاهرة في المشرق لأن ظهورها كان هناك ولأن الخلاف بين الفقهاء في جوازها أو منعها قد تم في تلك الربوع ثم إن الوقفيات المغربية لا تختلف كثير الاختلاف عن أخواتها في المشرق.

إن الباحث في هذا الموضوع يجب أن يكون فقيها متضلعا في الفقه، وقانونيا محيطا بمبادئ القانون، وإن كنت أفتقر إلى المؤهلات الفقهية والقانونية لمعالجته فإن شفيعي في ذلك هو اهتمامي بالكتب والمكتبات، وغايتي القصوى هي إثارة المشكلة ووضعها بين أيدي الباحثين الذين يملكون من المؤهلات ما يمكنهم من تناول هذا الموضوع وإعطائه ما يستحق من العناية وما يستوجب من البحث.

فباستثناء إشارات موجزة إلى هذه الظاهرة نجدها في كتب الفقه وباستثناء ما قاله عنها المرحوم يوسف العش في أطروحته الجامعية[1] فإن الموضوع يبقى بحاجة إلى دراسة، وربما إلى دراسات لسد ثغرة من أهم الثغرات في دراسة تراثنا العربي.

سأحاول إذاً في هذا البحث أن أتحدث بإيجاز عن بداية هذه الظاهرة في المشرق وفي المغرب، ثم أخلص إلى دراسة وثيقة وقف أنفذ من خلالها إلى إلقاء بعض الضوء على بناء الوقفية المغربية، وأختم الحديث بالتساؤل عما يمكن أن تؤدي إليه دراسة هذه الوقفيات من خدمة لعلم من أهم علوم المكتبات هو تاريخ الكتاب المخطوط (Histoire du livre manuscrit).

---

[1] - انظر: يوسف العش: 1967 Les bibliothèques arabes, Damas, وانظر كذلك لطروحتنا الجامعية: **Histoire des bibliothèques au Maroc.** Publiée par la Faculté des Lettres de Rabat 1992.

من القضايا التي أثارت جدلا كبيرا بين فقهاء المسلمين في العصور الإسلامية الأولى قضيةُ الوقف، والسببُ في ذلك يرجع إلى عدم ورودها في القرآن الكريم، وبالتالي إلى وجودها ظاهرةً مجردة في السنة النبوية، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، اقتصر في تعريفه للوقف على ذكر حقيقته فقط وترك التفصيلات والتأويلات للفقهاء، فأدى ذلك إلى اختلافهم في مشروعية الوقف. فمنهم من أجازه، ومنهم من لم يقل بجوازه، ومنهم من قبله في حالات ورفضه في أخرى. وكانت الكتبُ من بين أنواع الموقوفات التي احتدم حولها الصراع بين العلماء، لأن وقفها لم يثبت إلا بالعرف كما سنرى فيما بعد.

كان الفقهاء والعلماء حتى القرن الهجري الثاني ينسخون أو يستنسخون المصاحف ويضعونها في المساجد تقربا إلى الله، اقتداء بما صنعه الخليفة الراشدي عثمانُ رضي الله عنه حين نسخ أربعة مصاحف أو ستة ووزعها على الأمصار كما هو معروف. يروى في كتب التاريخ أن أبا عمرو الشيباني[2] نسخ ثمانين مصحفا، ووضعها في مساجد الكوفة، وروى السيوطي[3] أن المفضل الضبي كان عالما بالنحو والشعر والغريب وأيام الناس وكان يكتب المصاحف ويضعها في المساجد تكفيرا لما كتبه بيده من أهاجي الناس. فهذان العالمان الجليلان وغيرهما من الفقهاء وضعوا المصاحف في المساجد ابتغاء مرضاة الله دون التعبير عن عملهم هذا بالألفاظ الدالة على ظاهرة الوقف. فلما بدأت حركة التأليف في القرن نفسه وظهرت تآليف في التفسير والفقه والأدب واللغة وغيرها، وارتأى بعض العلماء وضع هذه الكتب في المساجد على غرار المصاحف ليستفيد منها الطلبة منعهم علماء آخرون، معتمدين في موقفهم المعارض هذا على عدم وجود هذه الظاهرة في الكتاب والسنة، بل أصبح وقفُ القرآن نفسه موضوع نقاش بين هؤلاء الفقهاء مما جعل بعضهم يرفضه كما صنع ابن همام الحنفي مثلا[4].

ولما أجاز جمهور الفقهاء ظاهرة الوقف حددوها بالأشياء التي لها صفة الدوام كالأراضي والبنايات وما شابه ذلك، ولم يجيزوا وقف ما يفتقر إلى هذه الصفة كالكتب لأنها

---

[2]- الفهرست لابن النديم: 68، وفيات الأعيان لابن خلكان 1:65.
[3]- السيوطي: بغية الوعاة (ط 1909م): 396.
[4]- فتح القدير، 5: 50.

تبلى وتندثر. وبعد نقاش طويل أجازوا وقف المصاحف اقتداء بالخليفة الراشدي عثمان وبالمسلمين من بعده، ولم يرد هذا الجواز بالنص، بل إنه قد ورد بالعرف، والثابتُ بالعرف كالثابت بالنص، وهذا العرف يعززه قوله عليه الصلاة والسلام: ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن.

وبعد عملية جواز وقف المصاحف انتقل النقاش إلى وقف باقي أنواع الكتب، فمنهم من رفض وقفها مطلقا كمحمد بن سلامة الحنفي، ومنهم من أجازه عموما استدلالا بالحديث الشريف الذي اعتمده الفقهاء في جواز ظاهرة الوقف: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

واعتمادا على هذا الحديث وتطبيقا لمبدأ العرف أجازت هذه الفئة من الفقهاء وقف الكتب، ولكن أي نوع من الكتب، يقول أحد الحنفيين نصير بن يحيى (ت 268هـ): "يجري على الكتب ما يجري على المصاحف، لأنها تدعو إلى الدين، وتساعد على فهمه". ويستفاد من موقف هذا الفقيه الحنفي أن الكتب التي أجاز وقفها هي كتبُ الدين المرتبطة بالقرآن الكريم ككتب التفسير، وكتب الحديث، وكتب الفقه، وغيرها، أما كتب العلوم الأخرى كالفلسفة، والرياضيات، والفلك، أو كتب علوم الأوائل عموما، كما كان القدماء يقولون، فإنها مستثناة من الوقف، وقد عبر عن هذا الرأي صراحة عدد آخر من الفقهاء، بل أفتى بعضهم بإحراق هذه الكتب فضلا عن وقفها[5].

وبالإضافة إلى كتب الأوائل نص الفقهاء على أن كتب التوراة والأناجيل لا توقف، لأن وقفها يتنافى مع الغاية المثلى التي ترمي إليها هذه الظاهرة الدينية وبالتالي لأنها مبدلة ومنسوخة[6].

---

[5]- ابن أبي عامر حاجب المؤيد بالله الأندلسي لحرق كتب الأوائل باستثناء كتب الطب والرياضيات التي يحتاجها المسلمون، ولا تدخل بطبيعتها في علوم الشرع. أما الماوردي فيعد الفلك والفلسفة علمين محرمين، لأنهما يتعارضان مع المبادئ القرآنية.

[6]- اكتفى بعضهم بأنها مبدلة ولا يقول منسوخة، لأن تلاوة المنسوخ من كتب الله وآياته ليس بمعصية، فإن في القرآن منسوخا يتلى ويكتب كغير المنسوخ. وعلى الرغم من موقف الفقهاء من وقف كتب هذه الديانات فإن الخزانات العربية في المشرق الإسلامي ومغربه ملأى بهذه الكتب. كان الخلفاء يقبلون هذه الكتب هدايا، ويضعونها في خزائنهم. وقد أهدى المستشرق الهولندي إربانيوس Erpénius إنجيلا بالعربية للخليفة السعدي زيدان الذي قبله ووضعه في خزانته التي آلت كما نعلم إلى الإسكوريال بإسبانيا:

انظر: de Castries : SIHM,série, Pays-Bas.III.,p.359

وانظر كذلك Deverdun, **Marrakech des Origines à 1912**, t.1,p.435.

امتد الخلاف حول هذه الظاهرة نحو قرنين من الزمان قبل أن يقبل جمهور الفقهاء بوقف الكتب عموما، ومع ذلك لا يتوانى هؤلاء الفقهاء في أن يشيروا في كتبهم الفقهية إشارات قد توحي دائما بالاضطراب والتشكك وعدم الاطمئنان، فأحدُ المتأخرين من المالكية وهو الدسوقي المتوفى عام 1230هـ يقول في الجزء الرابع من حاشيته على الشرح الكبير للخرشي: "والكتب يصح وقفها على المذهب فهي مما فيه الخلاف، وذلك عندنا جارٍ في كل منقول، وإن كان المعتمد الصحة"[7].

أما في المغرب فإن الخلاف بين الفقهاء لم يقم حول ظاهرة وقف الكتب لأنها أصبحت من المسلمات، بل كان الخلاف قائما حول وضعية الكتب الموقوفة نفسها، الشيء الذي أدى إلى صدور فتاوى متعلقة بهذه الظاهرة، وجمعها في كتب النوازل كالتي يضمها الجزء السابع من كتاب المعيار المعرب للونشريسي.

ولئن كنت أريد أن أتحدث عن بداية هذه الظاهرة في المغرب، فإنني لا أستطيع ذلك، لأن مصادر تراثنا المغربي لا تفصح عن ذلك كل الإفصاح. يقول الأنصاري في حديثه عن خزائن الكتب بمدينة سبتة "وكان منها [الخزانات] في زمننا [القرن الثامن الهجري] سبع عشرة خزانة، تسعٌ بدور الفقهاء والصدور كبني القاضي الحضرمي، وبني أبي حجة، وأشباههم، وثمانٍ موقفة على طلاب العلم، أقدمُها الخزانة الشهيرة ذات الأصول العتيقة والمؤلفات الغريبة: خزانة الشيخ أبي الحسن الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم نفعه الله بها"[8]. فمعنى الوقف في هذه الفقرة غير واضح لأنه يمكن أن يفهم منه أن هذه الخزائن الموقوفة على طلاب العلم هي خزائن يرتادها عامة الناس، وإن فرضنا أن الوقف هنا جاء بمعناه الفقهي فأقدمُ خزانة تكون قد وقفت حسب هذا النص، تعود إلى العهد الموحدي الذي هو عصر أبي الحسن الشاري الغافقي (571-649 هـ).

[7]- حاشية الشرح الكبير، 77:4.

[8]- الأنصاري: اختصار الأخبار، ص.145، في : Hespéris, t.XII.1931.

وهناك نص آخر في القرطاس لابن أبي زرع عن القرويين يمكن أن يستفاد منه أن هذه الظاهرة كانت معروفة في المغرب منذ العهد المرابطي[9].

أما الكتب الموقوفة التي لا تزال مصونة بخزانتنا المغربية فإن أقدمها يرجع إلى العهد الموحدي: مثل كتاب **الإنجاد** لابن أصبغ وكتاب **التمهيد** لابن عبد البر اللذين وقفهما الخليفة الموحدي عمر المرتضى في القرن السابع الهجري على خزانة مدرسة القصبة بمراكش. والمخطوطان معا من محفوظات خزانة ابن يوسف بمراكش.

والمرجح عندنا أن وقف الكتب قديم في المغرب، فقد ثبت أن خلفاء بني أمية بالأندلس، وعلى الأخص منهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر صاحب الخزانة المشهورة كانوا يرسلون مجموعات من الكتب لإغناء خزانة القرويين ونشر العلم بحاضرة فاس، والطابعُ العام الذي كانت تتسم به هذه المكتبة يحملنا على الاعتقاد بأن الكتب المهداة من طرف الخليفتين كانت في إطار الوقف. ولهذا يحتمل أن يكون وقف الكتب في المغرب أقدم مما يظن[10].

بعد هذا المدخل التاريخي الوجيز عن ظهور هذه الظاهرة في المشرق، وبالتالي في المغرب، أنتقل إلى الحديث بشيء من التفصيل عن تطور وقف الكتب وبناء الوقفيات في الخزانات المغربية انطلاقا من وقفية مغربية تم اختيارها لأنها تمكننا من إبراز جميع جوانب هذه الظاهرة في المغرب. ووقفيتنا المختارة هي وقفية ابن خلدون التي بثها في الجزء الخامس من كتاب العبر الذي حبسه على خزانة القرويين في نهاية القرن الهجري الثامن. ولم يبق من هذه النسخة الموقوفة إلا الجزآن الثالث والخامس الذي يحمل نص الوقفية. وقد بقيت النسخة كاملة بالخزانة المذكورة حتى القرن الحادي عشر الهجري حيث يذكرها أحمد المقري في نفح الطيب بقوله: "ورأيته بفاس وعليه خطه في ثماني مجلدات كبار جدا وقد عرف في آخره بنفسه

---

[9] - ابن أبي زرع: **القرطاس**، ص.43.

[10] - يوجد بخزانة القرويين: **شرح الفصوص في صناعة الطب** للفارابي، نسخ للناصر الأموي بقرطبة بالأندلس. ونسخ المختصر لأبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري لخزانة الخليفة الأموي الحكم المستنصر. انظر: عبد الهادي التازي: جامع القرويين، 1:124.

وأطال"[11]. وربما بقي الكتاب كاملا بهذه الخزانة حتى القرن التاسع عشر الميلادي بحيث يستفاد من بحث العالم السويدي "دي همصو" (di Hemso) الذي كان قنصلا لبلاده بطنجة في بدء القرن الماضي [12] أن هناك نسخة كاملة من كتاب العبر لابن خلدون عليها خطه[13]. ولما وضع العالمان "ألفرد بيل" (Alfred Bel) والشيخ عبد الحي الكتاني أول فهرست لخزانة القرويين عام 1918 لم يذكرا فيه إلا الجزأين الثالث والخامس. فيحتمل إذاً أن تكون الأجزاء الأخرى قد ضاعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ونسخة العبر الموقوفة هذه على خزانة القرويين نسخها مصري يدعى عبد الله بن حسن ولد الفاخوري. وهذه النسبة معروفة في مصر حسب المستشرق ليفي بروفنسال[14].

أما نص الوقفية فقد كتبه العدلان المذكور اسمهما في آخره من إملاء ابن خلدون نفسه. وفي أسفل الورقة شهادة ابن خلدون وتصحيحه للوقف بخط يمينه. وكتب في أعلى الورقة عبارة الشيخ عبد الحي الكتاني التالية: طالع فيه مستعيره محمد عبد الحي الكتاني عافاه مولاه.

وقد تم اختيارنا لهذه الوقفية لأنها من أقدم الوقفيات المغربية ومن أكثرها استيفاء لأركان وشروط الوقف.

---

[11]- احمد المقري: نفح الطيب، 191:6 (ط.دار صادر). نسخة العبر تتكون من سبعة أجزاء، أما الجزء الثامن المذكور في نص المقري فهو الذي خص به ابن خلدون نفسه، والمسمى رحلة ابن خلدون شرقا وغربا، وقد حقق منذ بداية الخمسينات بعناية المرحوم محمد بن تاويت الطنجي.

[12]- كان دي همصو di Hemso من أكبر علماء السويد، يتقن عددا من اللغات، منها الفرنسية والأنكليزية والإيطالية، كما كان عضوا في عدد من الأكاديميات من بينها الأكاديمية الفرنسية (Inscriptions et Belles Lettres) وكانت له خزانة كتب مهمة تضم أربعة آلاف كتاب مطبوع (4000) وثلاثمائة (300) مخطوط، من بينها خمسون مخطوطا عربيا.

[13]- انظر: Di Hemso, **Account of the great historical work of the Africa, philosopher Ibn Khaldun,** 1833, p.5.

[14]- ليفي بروفنسال: الصحيفة الأسيوية (Journal asiatique) 1923، حسب الجزأين الباقيين فإن النسخة التي حبسها ابن خلدون على القرويين توافق النسخة التي طبعت بمطبعة بولاق عام 1868م. وهي منسوخة عن الأصل لأنه جاء في الورقة الأخيرة ما نصه: "من الأصل المعتمد لمؤلفه".

نص وقفية ابن خلدون*

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

وَقَفَ وحَبَّسَ وسَبَّلَ وأَبَّدَ وحَرَّمَ وتَصَدَّقَ سيدنا ومولانا العبدُ الفقير إلى الله تعالى الشيخُ الإمامُ العالم العلامة الحافظ المحقق أوحدُ عصره وفريدُ دهره قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن خلدون الحضرمي المالكي، أمتع الله المسلمين بحياته، ونفعهم بعلومه وبركاته، وهو مؤلفُ هذا الكتاب، جميعَ هذا الكتاب المسمّى بكتابِ العبر في أخبارِ العرب والعجم والبربر المشتَمِلِ على سبعة أسفار هذا أحدُها وقفا مرعيا وحُبُسا مَرْضيا على طلبة العلمِ الشريف بمدينة فاس المَحروسة قاعدة بلادِ المغرب الأقصى، ينتفعون بذلك قراءةً ومطالعةً ونسْخا، وجعل مَقرَّه بخزانة الكتَب التي بجامع القرويين من فاس المحروسة بحيث لا يخرج حَرَمَها إلا لثقة أمين، برَهْنٍ وثيق لحفظ صحته، وأن لا يمكثَ عند مستَعيره أكثرَ من شهرين وهي المدة التي تَسع لنسخ الكتاب المستَعار أو مطالعته ثم يُعاد إلى مَوضعه، وجعلَ النظر في ذلك لمن له النظرُ على خزانة الكتَب المذكورة. وقفَ لله على الوجه المذكور لوجه الله الكريم وطلب لثوابه الجسيم يوم يَجزي الله المتصدقين، ولا يُضيع أجر المحسنين، وأشهدَ عليه بذلك في اليوم المبارك الحادي والعشرين لشهرِ صفر المبارك عام تسعة وتسعين وسبعمائة حسبنا الله ونعم الوكيل.

* اسم الناسخ لهذه الوقفية: عبد الله بن حسن ولد الفاخوري. والخط المكتوب به من طرف ابن خلدون خط مغربي يظهر لأول وهلة.
وقد تفضل المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (Levi-Provençal) فنقل نص هذه الوقفية إلى اللغة الفرنسية: انظر مجلة الصحيفة الأسيوية (Journal asiatique) 1923.

أشهدني سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى قاضي القضاء ولي الدين الواقف المسمى فيه أمامه لله تعالى على نيته الكريمة بما نسب إليه فيه وتشهدت عليه به في تاريخه، وكتب أحمد بن علي بن إسماعيل المالكي

أشهدني سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة قاضي القضاة بما نسب إليه أعلاه، أمتع الله تعالى به وتشهدت عليه بذلك، وكتبه محمد بن محمد بن أحمد بن أبي القاسم

الحمد لله، المنسوب إليّ صحيح

وكتب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

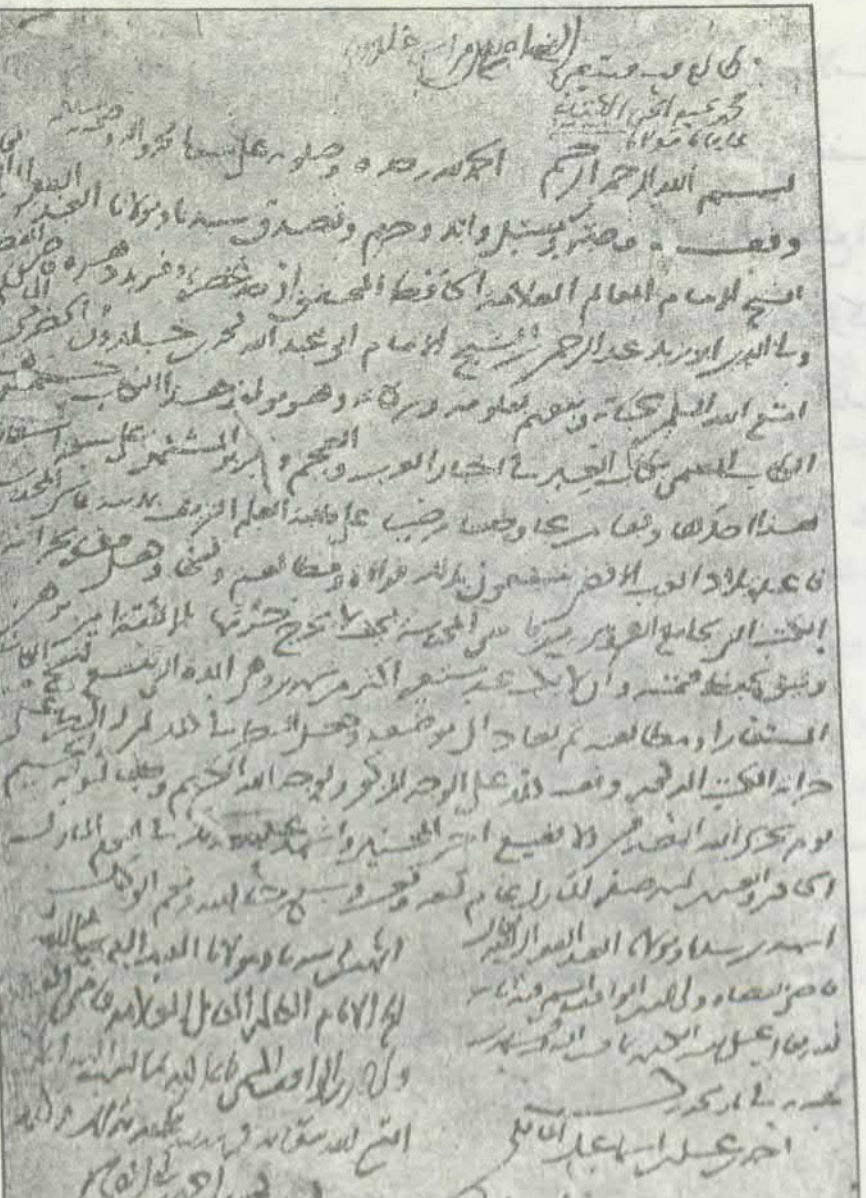

صورة نص الوقفية من الجزء الخامس من كتاب العبر

البسملة والتصلية

شرح عناصر الوقفية

- وقف وحبس وسبل وأبد وحرم وتصدق

استخدم ابن خلدون ستة أفعال مترادفة كلها تدل على معنى الوقف، وأعتقدُ أن السبب في هذا التعدد هو الخلاف بين الفقهاء في صيغة الوقف. فالجمهور يرى أن الوقف يتحقق بلفظ "وقف"، واختلفوا في صحته بالألفاظ الأخرى كحبس وسبل وغيرهما، منهم من أجازه ومنهم من منعه. ويعتقد بعض المحدثين أن الوقف يتم بكل لفظ يدل عليه حتّى باللغة الأجنبية، لأن الألفاظ وسيلة للتعبير، وليست غاية في نفسها[15]. ولهذا بدأ ابن خلدون وقفيته باستعمال فعل الوقف الثلاثي الذي قبله جمهور الفقهاء للتعبير عن صيغة الوقف. ولم يستعمل "أوقف" الرباعي لأنه لغة رديئة باتفاق معاجم العربية[16]. كما أنه لم يستعمل "وقّف" بالتشديد لأنه غير وارد في الاستعمال المجازي لهذا الفعل[17].

ثم قال و"حبّس" بتشديد الباء وهو الصحيح عند علماء اللغة ولم يستعمل "أحبس" مع أنه صحيح كذلك، غير أن استعماله نادر كما أنه لم يستخدم "حبس" الثلاثي، لأن استعماله رديء حسب علماء اللغة: يقول الزبيدي في تاج العروس: "الفصيح أحبس وحبَّس، وحبسه مخففا لغة رديئة"[18].

[15]- محمد جواد مغنية: **الفقه على المذاهب الخمسة**، ط 1977، ص.590.

[16]- يلاحظ أن عددا كبيرا من الوقفيات التي وقفت، تستعمل "أوقف" الرباعي، كما يلاحظ أن بعض كتب التراث كنفح الطيب للمقري تستعمله في شكله الرباعي.

[17]- لاحظت "وقّف" بالتشديد في كتابات المستشرقين: استعمله ليفي بروفنسال في "اختصار الأخبار" للأنصاري الذي حققه كما استعمله دوزي Dozy في ملحقه على المعاجم العربية (مادة وقف). وأعتقد أن استعمال وقف بالتشديد هو استعمال عامي، وربما لهذا السبب استعمله المستشرقون.

[18]- **تاج العروس**: مادة حبس.

والسبب في استعمال ابن خلدون للفظ التحبيس يرجع في رأيي إلى أن الكلمة حديثية: قال عليه الصلاة والسلام لابن الخطاب رضي الله عنه لما سأله عما يصنع بالأرض التي أخذها بعد خيبر: "حبس الأصل وسبل الثمرة" ومصطلح التحبيس هو المستعمل في كتب الفقه المالكي، وابن خلدون مالكي المذهب: وأعتقد أن السبب في استعمال كلمة التحبيس عند المالكية يرجع إلى أن علماء هذا المذهب يقولون بالوقف المؤقت بمعنى أن الشيء الموقوف محبوس صاحبه عن التمتع به لمدة معينة مع احتفاظه بملكية الشيء الموقوف فهو تحبيس فقط، أما إذا كان الموقوف مؤبدا فتخرج الملكية عن الواقف، ويسمى وقفا وليس تحبيسا، ولهذا نلاحظ أن كلمة التحبيس هي المستعملة في الدول الإسلامية التي ساد فيها المذهب المالكي كالغرب الإسلامي وإفريقية.

كما نلاحظ كذلك أن الكلمة دخلت اللغة الفرنسية[19] وأخذت مكانها في المعاجم[20] والسبب في اعتقادي يرجع إلى أن الفرنسيين لما تمت لهم السيادة على الدول العربية في شمال إفريقية، وجدوهم يستعملون كلمة التحبيس فاستعملوها في مؤلفاتهم[21].

ثم قال: "وسبل"

والتسبيل هو التصدق في سبيل الله، ولقد حرص ابن خلدون على استعمالها مرادفاً آخر للوقف، لأنها كلمة قرآنية اعتمدها بعض الفقهاء في جواز الوقف عموما، وحديثية لقوله عليه الصلاة والسلام: "حبس الأصل وسبل الثمرة".

---

[19] - حبس = Hobous, Habous
الموقوف عليه = Habousant
الموقوف = Habousé

[20] - انظر: - La Grande Encyclopédie : art.Habous
- Grand Larousse Encyclopédique
- Nouveau Larousse illustré.

[21] - أمثال: Millot ; Mercier ; Clairer وغيرهم. ونلاحظ أن الانكليز الذين تمت لهم السيادة على الشرق قد استعملوا كلمة "وقف" المستعملة في كتب الفقه والقانون عند المشارقة. ودخلت هي بدورها معاجم اللغة الأنكليزية حيث نجدها مثلا في المعجم الكبير: Encyclopédia Britanica

ثم قال: وأبد.

والتأبيد هو التخليد[22] والدوام والاستمرار، واتفق جمهور الفقهاء على اشتراطه في صيغة الوقف، إلا المالكية فإنهم أجازوا أن يكون الوقف مؤبدا ومؤقتا[23]. يقول الخرشي: "ولا يشترط في صحة الوقف التأبيد"، وأعتقد أن استعمال ابن خلدون لفعل التأبيد هو تأكيد لتخليد هذا الوقف ودوامه وألا تراجع فيه كما هو جائز في المذهب الحنفي.

أما التحريم فإنه يمنع الواقف من التمتع بالشيء الموقوف كما يمنع الشيء الموقوف من البيع والهبة والإرث وغيرها. واستعمال فعل "التحريم" في وقفيات الكتب نادر جدا، ويحرص ابن خلدون على استعماله زيادة في تأكيد عدم التراجع عن الشيء الموقوف.

وختم ابن خلدون هذه السلسلة من أفعال الوقف بالتصدق لأن الوقف قبل كل شيء هو نوع من أنواع الصدقات حث الشارع على فعلها تقربا إلى الله سبحانه.

وابن خلدون يعلم أكثر من غيره ما جاء في مغازي الواقدي عن الحوار الذي دار بين المهاجرين والأنصار حول أول صدقة موقوفة في الإسلام، فقال المهاجرون: صدقة ابن الخطاب رضي الله عنه، وقال الأنصار: صدقة النبي (ص)[24]. والمقصود بالصدقة الوقف استدلالاً بقوله عليه الصلاة والسلام من الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم: "صدقة جارية".

يبدو أن استعمال هذه المترادفات للتعبير عن الوقف من طرف ابن خلدون يدل على تأكيده على استمرارية ودوام ما وقفه من جهة، وعلى حرصه على إرضاء جميع الاتجاهات الفقهية من جهة أخرى[25]. وتكاد تنفرد وقفية ابن خلدون باستعمال هذا العدد من المترادفات في ما اطلعنا عليه، وأغلبُ الوقفيات سواء في المغرب أو في المشرق لا تستعمل أكثر من فعلي الوقف والتحبيس للتعبير عن صيغة الوقف.

22- قد نجد في بعض الوقفيات المغربية عوض عبارة "وقف مؤبد" عبارة "وقف مخلد" كما جاء في وقفية الأمير أبي عبد الله الوطاسي المثبتة في نسخة من صحيح البخاري وقفها على خزانة القرويين.

23- إذا أطلق الواقف صيغة الوقف فإنه يحمل على التأبيد لأنه الأصل في الوقف.

24- إن أول صدقة موقوفة أراضي مخيريق التي أوصى بها إلى النبي (ص) فوقفها النبي (ص).

25- ابن خلدون المالكي يعيش في مصر حيث ملتقى المذاهب الفقهية كلها.

وبعد ذكر الصيغة التي هي الركن الأساسي في الوقف[26]، انتقل ابن خلدون إلى ذكر الركن الثاني وهو اسم الواقف، ولا يصح الوقف دون ذكره، وذلك بقوله "سيّدنا ومولانا العبدُ الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العلامة، الحافظ المحقق، أوحد عصره، وفريد دهره، قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون. . . . . وبركاته". ثم قال "وهو مؤلف هذا الكتاب المسمى بكتاب العبر في أخبار العرب والعجم والبربر المشتمل على سبعة أسفار هذا أحدها وقفا مرعيا وحبسا مرضيا . ".

بهذه الجملة يذكر ابن خلدون الركن الثالث من أركان الوقف وهو ذكر الشيء الموقوف، والشيء الموقوف هنا هو كتاب العبر في التاريخ.

أما الركن الرابع وهو الجهة الموقوف عليها فجاء في قوله: "وجعل مقره بخزانة الكتب التي بجامع القرويين من فاس المحروسة".

فهذه الأركان الأربعة ضرورية في كل وقف وتكفي وحدها لجواز وقف الكتب كما ينص على ذلك الخرشي في شرح مختصر خليل والدسوقي في حاشيته على هذا الشرح[27]، وكل الوقفيات المغربية التي وقفت عليها تشتمل على الصيغة والواقف والكتاب أو الكتب الموقوفة وأخيرا الجهة الموقوف عليها. ففيما يخص هذا الركن الأخير استخلصتُ من استقرائي لعدد من الوقفيات ولرصيد من كتب التراث العربي بالمغرب، أن المغاربة ملوكا وعامة قد دأبوا على وقف الكتب على المؤسسات ذات الصبغة العمومية كالمساجد، والزوايا، والمدارس العتيقة، وخزانات المساجد الجامعة وغيرها. وأقتصر على الأمثلة القليلة التالية: نسخ الخليفة الموحدي عمرُ المرتضي قرآنــا في عشرة أجزاء ووقفه على خزانة مسجد ابن يوسف بمراكش[28]. وبنى أبو الحسن المريني عددا من المدارس في مختلف بلاد المغرب وحبس عليها كتبا، ينص على ذلك

26- اركان الوقف اربعة: الصيغة، الواقف، الموقوف، الجهة الموقوف عليها.

27- الدسوقي: الحاشية، 5:4.

28- حتى بداية الاستقلال (1956م) لم يبق فيما أعلم من هذا القرآن إلا الأجزاء الرابع والتاسع والعاشر. ووقفت بالمصادفة على الجزء السابع من هذا القرآن معروضا بخزانة المتحف البريطاني بلندن. (انظر ما كتبه الأستاذ المنوني عن هذا القرآن بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1968 م). وقد عثر أخيرا على جزء آخر في أوربا ولعله الجزء السادس.

ابن مرزوق في كتاب (المسند الصحيح): "هذا ما حبس في جُلّها (المدارس) من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة فلا جرم إن كثر بسبب ذلك العلم وعدد أهله وثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته بلغه الله بذلك[29]. وحبس أبو عنان المريني مجموعة من الكتب اختارها من خزانته الخاصة على المدرسة التي بناها بفاس ولا تزال الوقفية التي زخرفت على باب هذه المؤسسة ماثلة إلى اليوم. أما ما وقفه الملوك السعديون والعلويون ووزراؤهم وعلماؤهم من كتب على مختلف الخزانات المغربية فكثير، وأكبر عملية وقفية في هذا الإطار تلكم التي قام بها السلطان عبد الله العلوي حينما وزع خزانة جده المولى إسماعيل التي كانت تضم إثني عشر ألف كتاب على خزانات المغرب. ولا يزال بعض كتبها مصونا بخزانة جامع القرويين. ولم يقتصر المغاربة على اختلاف طبقاتهم في اختيار الجهات الموقوف عليها على المؤسسات المغربية بل امتد تحبيسهم الكتب في سبيل الله إلى جهة الشرق. يقول المقري في نفح الطيب: "كان السلطان أبو الحسن المريني كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال وأوقف عليها أوقافا جليلة. . .وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربعته في غاية الصنعة"[30]. وقد أورد ابن الوردي الوقفية بكاملها في الجزء الثاني من تاريخه[31].

ويرى الشيخ محمد عبد الحي الكتاني في كتابه المخطوط "المكتبات الإسلامية"[32]، أن السلطان العلوي المولى عبد الله بن إسماعيل وقف ثلاثة وعشرين مصحفا على المسجد النبوي بالمدينة المنورة، يوجد من بينها المصحفُ الذي نسخه عقبة بن نافع من مصحف عثمان ابن عفان رضي الله عنهما[33].

---

[29] - ابن مرزوق: **المسند الصحيح**، ص35 في Hespéris (1925). حبس أبو الحسن نسخة من كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الذي حققه محمد حجي أخيرا، على خزانة مدرسة عدوة الأندلس عام 728هـ. ولا يزال هذا المخطوط الذي نسخ على رق الغزال محفوظا بخزانة القرويين بفاس.

[30] - المقري: **نفح الطيب**، 4: 399.

[31] - ابن الوردي: **التاريخ**، 2- ص384.

[32] - عبد الحي الكتاني: **المكتبات الإسلامية** – مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3002، ص.23.

[33] - حبس الخليفة المريني أبو يعقوب يوسف مصحفا على مكة المكرمة عام 703هـ.

وبالإضافة إلى المؤسسات العلمية سواء في المغرب أو في المشرق فإن المغاربة قد حبّسوا الكتب على الأسر والعلماء. بعد وفاة العالم الكبير محمد بن عبد السلام الفاسي عام 1214 هـ، اشترى السلطان المولى سليمان العلوي خزانته وحبسها على أولاده. وجاء في الوقفية المثبتة على الورقة الأولى من كتاب تفسير الجلالين بتصحيح السلطان أن الخزانة تنتقل إلى أحباس خزانة القرويين بعد انقراض جميع أفراد أسرة هذا العالم. وهذا اللون من الوقف يطلق عليه الفقهاء الوقف المعقب[34].

بعد استيفاء الأركان الأربعة في الوقفية انتقل ابن خلدون إلى وضع الشروط التي شترطها الواقف، والتي يجب أن تطبق تطبيقا كاملا، ولا يجوز مخالفتها إلا لضرورة، أو لحاجة لأنها ترجمان إرادته وقصده. يقول الفقهاء: "شرط الواقف كنص الشارع[35] "بمعنى أن ألفاظ الواقف كألفاظ الشارع في وجوب الاتباع دون تغيير ولا تأويل. يقول ابن خلدون: "وقفا مرعيا وحبسا مرضيا على طلبة العلم الشريف بمدينة فاس المحروسة".

يستفاد من هذه العبارة أن الواقف فسح المجال لكل الطلبة الموجودين بفاس لا لطلبة جامع القرويين فقط لأنه يعلم أن للفقهاء آراء متباينة في هذه القضية، فلو خص بتحبيسه طلبة القرويين لما أمكن غيرهم من طلاب المؤسسات العلمية الأخرى بفاس القراءةُ والاستفادة من الكتاب المحبس، يقول ابن عابدين: إذا وقف مصحف على مسجد معين، لا جامع، فلا يقرأ فيه إلا سكان الحي، وإذا وقفت كتب على مدرسة فلا يقرأ فيها إلا طلبة المدرسة[36]. فإن كان ابن خلدون قد وقف كتاب العبر على مؤسسة معينة هي خزانة القرويين فإنه تلافيا لتأويلات الفقهاء، قد سمح لكل طلبة فاس بل حتى الطلبة الذين يفدون على فاس قاعدة بلاد المغرب الأقصى كما يقول أن ينتفعوا به. وتخصيصُ ابن خلدون طلبة العلم بتحبيسه قد يستفاد منه منع المتفقهين ودعاة العلم من الاستفادة من الكتاب. وقد يكون لفظ "طلبة العلم" شاملا

---

[34]- العابد الفاسي: الخزانة العلمية، ص.57.
[35]- اختلف الفقهاء في هذه العبارة، يقول الحنابلة شرط الواقف كنصّ الشارع في الفهم والدلالة لا في وجوب العمل به وأتباعه.
[36]- الحاشية، 387:3.

لكل القراء، وذلك ما يرجحه ما ذكره بشأن الإعارة. وهذه الظاهرة معروفة في الوقفيات الشرقية، فلو قال: وقفا مؤبدا على جميع المسلمين كما يصنع بعض الواقفين، دفعاً لكل التباس وتأويل، لأمكن لكل الناس قراءة الكتاب بما في ذلك المتفقهون ودعاة العلم. والملاحظ أن مثل هذه العبارة التي تخص جميع المسلمين تكون غالبا في المصاحف الموقوفة. أما عبارة طلبة العلم فتخص في الغالب الأعم خزانات المدارس أو الزوايا أو المساجد الجامعة كالقرويين بفاس، وابن يوسف بمراكش.

ثم قال: "ينتفعون بذلك قراءةً ومطالعةً ونسخا".

يسمح ابن خلدون بقراءة الكتاب ومطالعته ونسخه، فلو قال ينتفعون بذلك قراءة ومطالعة، وسكت عن النسخ لما وجب أن ينسخ الكتاب. جاء في المعيار للونشريسي أن الفقيه أحمد القباب سئل عن وقفية اشترط فيها الواقف أن يقرأ كتابه ويطالع فقط ولم يذكر النسخ فهل يجوز نسخه. قال: إذا لم تذكر الوقفية النسخ فلا ينسخ الكتاب. .ثم أضاف: إن القاضي ابن رشد الجد ألقي عليه نفس السؤال فكان الجواب ما قلت[37].

وعلى الرغم من موقف العالمين المالكيين الجليلين فإن جمهور الفقهاء يرى إمكانية نسخ المخطوطات الموقوفة[38].

ويستمر ابن خلدون في وضع شروطه قائلا: "...ولا يخرج حرمها إلا لثقة أمين، برهن وثيق يحفظ صحته وألا يمكث عند مستعيره أكثر من شهرين وهي المدة التي تتسع لنسخ الكتاب المستعار أو مطالعته ثم يعاد إلى موضعه".

العادة في الكتب الموقوفة أنها لا تخرج من الجهة الموقوف عليها ولا تعار، وعدد كبير من الوقفيات تشتمل ضمن شروطها على عبارة منع الخروج والإعارة، زيادة في التأكيد[39]، وذلك

37- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 37:7.

38- يمكننا أن نتساءل عن الأسباب التي تدعو الواقفين إلى عدم السماح بالنسخ، الشيء الذي يبعدنا قليلا عن الموضوع. انظر ابن حجر: **لسان الميزان**، 163:1.

39- يأتي التعبير عن منع الخروج بصيغ أخرى، كما جاء في وقفية الجامع الكبير للسيوطي الذي حبسه المنصور الذهبي على خزانة القرويين: قال: "لا يقرأ إلا في قاعة المطالعة بالخزانة المذكورة..".

من أجل الحفاظ عليها ليستفيد الناس منها عوض استغلالها من طرف إنسان واحد وهو ما يسمى بغلول الكتب (bibliotaphie)، وكم عانت المكتبة العربية عموما من هذه الآفة التي بددت الكثير من مصادر تراثنا، فالقدماء كانوا دائما يتمثلون بقول الشاعر:

لا تعيرنَّ مــا حييتَ كتابـاً واجعل الصمت إن سئلت جوابا

كم صديــق أعرتـه من كتاب أفسـد الـود إن طلبت الكتـابـا

وعلى الرغم من العواقب التي تتسبب فيها هذه الآفة فإن بعض الواقفين من العلماء، رغبةً في نشرٍ العلم، يسمحون بإعارة كتبهم التي وقفوها كما صنع ابن خلدون في وقفيته هذه، ولكنه حفاظاً على صحة الكتاب، اشترط شروطا لذلك:

1- يعار الكتاب لثقة أمين، ويقصد عالما معروفا بصدقه وأمانته.

2- على الرغم من الصفات الحميدة التي يجب أن يتحلى بها هذا العالم المستعير للكتاب فلابد له من وضع رهن بالخزانة (كتاب أو مال يكون له قيمة الكتاب الموقوف[40]).

3- لا ينبغي أن تتجاوز مدة إعارته شهرين، وهي المدة التي يرى ابن خلدون أنها تكفي لنسخه أو مطالعته.

هذه هي الشروط التي تتوفر عليها وقفية ابن خلدون، أما الوقفيات المغربية الأخرى فهي بدورها تتضمن الشروط نفسها، أو تختلف عنها قليلا. فبعض الواقفين مثلا يسمح بإعارة الكتاب، ويشترط على المستعير أن يقرأ آيات قرآنية معينة ترحماً عليه وعلى والديه، وربما على المسلمين جميعا. واحترامُ شروط الواقف واجب باتفاق الفقهاء ولم تتميز الوقفية العربية وحدها بهذه الظاهرة بل كان الواقفون في أوربا[41] سواء في العصر الوسيط أو في العصر الحديث يشترطون شروطا، وتطبق بالحرف مع وجود بعض الخلاف، فالوقفية العربية شرقية كانت أم

40- قد يحدث أن الواقفين الذين يشترطون الرهن في مقابل الإعارة يخصون به الأغنياء فقط ويستثنون الفقراء الثقات. وقد يسمح الواقفون بخروج الكتاب الموقوف بدون رهن كما صنع السلطان العلوي المولى عبد الحفيظ في وقفياته.

41- ليس عندهم وقف ولكن عندهم الهبة (ex-dono) إذا تمت العملية في حياة الواقف أو الوصية (legs) إذا كانت بعد وفاته.

مغربية تشتمل على شروط الواقف، وتكتب على ورقة من أوراق المخطوط[42]، أما الهبة أو الوصية عند الأوروبيين إذا كانت مخطوطا لاتينيا واحدا فلا تضم أبداً شروطاً بل تقتصر على ذكر الجهة المهداة إليها[43]. أما إذا كانت الهبة مجموعة من الكتب فإنها تأخذ طابعا قانونيا، ويكتب عقدٌ يضم شروط الواهب أو الموصي[44]. وهذه الطريقة الوسيطية لا تزال تطبق اليوم في الخزائن الأوربية بحيث تحترم شروط الواهب. فالكاتب الفرنسي أنتول فرانس Anatole France وهو من بين عدد كبير من العلماء الذين وهبوا مكتباتهم إلى المؤسسات العلمية الفرنسية - قد أهدى خزانته الخاصة إلى المكتبة الوطنية بباريز، واشترط ألا توزع، وألا تخضع للترقيم العام الداخلي لهذه المكتبة، وتبقى مجموعة وترقم ترقيما خاصاً. وبالفعل قبل شرطه ودخلت الكتب الخزانة المذكورة وأصبحت تشكل مجموعة خاصة بذاتها، يقال لها مجموعة أنتول فرانس (Fonds Anatole France) كما يقال مجموعة باريس (Fonds Barrès) وغيرها.

ثم قال [ابن خلدون]: "وجعل النظر في ذلك لمن له النظر على خزانة الكتب المذكورة".

بهذه العبارة تتعرض الوقفية لقضية التسليم وهو ما يسمى عند الفقهاء بالقبض[45] وهو بالإضافة إلى الحوز أو الحيازة ضروري لتمام الوقف ولزومه عند المالكية[46]. فتسليم كتاب العبر قد تم بالنيابة، لأن ابن خلدون كان مستقرا بالقاهرة حيث يتضح ذلك في مقدمة كتابه "المقدمة" حين قال: "أتحفت بهذه النسخة خزانة مولانا السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني... وبعثته إلى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم وكرسي سلطانهم..."[47].

42- بعض الوقفيات لا تحمل شروطا.

43- المخطوطات التي أهديت إلى خزانة جامعة الصوربون تحتوي بالإضافة إلى أركان الوقف على ثمن الكتاب، (أنظر: **Histoire Générale de Paris,** Collection des documents : Léopold Delisle, 3 vol.1868)

44- هذه الظاهرة معروفة في الشرق بحيث يسجل الوقف عند قاضي البلد، ويكتب عقد يضم جميع الشروط.

45- القبض هو أن يتخلى الواقف عن الشيء الموقوف.

46- أغلب الوقفيات المغربية تشتمل على العبارة التالية: "وبسط (الواقف) يد قيم الخزانة على حوزه فحازه" وهي عبارة تدل على القبض والحيازة.

47- ابن خلدون: مقدمة كتابه "المقدمة".

والتسليم بالنيابة معروف في تاريخ الخزانات المغربية بحيث كان الخلفاء والملوك وهم أكثر الناس وقفا للكتب ينيبون عنهم الوزراء والقضاة أو الأدباء والفقهاء ورجال الحاشية لتسليم الوقف. فالسلطان محمد بن عبد الله وقف مجموعة من الكتب على المسجد الكبير بطنجة، وأناب عنه في ذلك القاضي آيت التايدي والناظر مفرج[48]، وأناب عنه الفقيه العلامة سيدي عبد العزيز بن حمزة لتسليم كتاب شرح الحطاب في ثمانية أجزاء على خزانة ضريح أبي العباس السبتي، كما جاء في وقفية هذا الكتاب[49]. وكذلك فعل السلطان المولى سليمان العلوي حين أناب عنه الفقيه الحبيب بن عبد الهادي السجلماسي في تسليم كتاب نسيم الرياض الذي وقفه على خزانة مسجد الرصيف بفاس[50].

أما فيما يخص صفة المتولي الذي تم له تسليم كتاب العبر بالنيابة فيستفاد من عبارة الوقفية أنه القيم، لأن المصادر تحدثنا بأن أبا عنان لما أقام بناية هذه الخزانة عام 750 هـ عين على رأسها قيما لرعايتها دون الإفصاح عن اسمه أو هويته. قال الجزنائي: "وعين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها"[51].

وقد جرت العادة في تاريخ الخزانات المغربية أن الكتب الموقوفة على المؤسسات العلمية تسلم للقيم مباشرة، بخلاف المصاحف وبعض الكتب الدينية التي توقف على المساجد، فإنها تسلم لناظر الأحباس. أما الملوك فيسلمون الكتب الموقوفة للقيمين وللقضاة لأنهم كانوا يكلفونهم في نفس الوقت بالسهر على العناية بالخزانات ومراقبة المسؤولين عنها كالنظار والأمناء. فالسلطان المولى عبد الرحمن العلوي كلف القاضي عبد الهادي بن عبد الله التهامي العلوي بمساعدة قيم خزانة القرويين. وكذلك فعل السلطان الحسن الأول (ت 1894م) حينما أرسل

48- Maillard : « Bibliothèque de la Grande Mosquée de Tanger » In **R.M.M.**, t.2, p.335, Année 1918.

49- الخزانة الصبيحية بسلا: المخطوط رقم 23.

50- العابد الفاسي: الخزانة العلمية، ص.65.

51- الجزنائي: جني زهرة الآس، ص.76.

ظهيرين إلى قاضييْ فاس محمد العلوي المدغري وحميد بناني يحثهما فيهما على مساندة القيم والناظر في إصلاح خزانة القرويين[52].

ثم تقول وقفية ابن خلدون: "وقف على الوجه المذكور لوجه الله الكريم وطلب لثوابه الجسيم يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين".

هنا يشير ابن خلدون إلى الغاية التي من أجلها وقف هذا الكتاب وهي ابتغاء مرضاة الله، ورجاء ثوابه الكبير. وهذه هي الغاية القصوى التي يهدف إليها كل واقف. ويختم ابن خلدون وقفيته بعبارة الإشهاد وتصحيح الوقف على غرار الوقفيات المغربية، فقال: "وأشهد عليه ذلك" بمعنى أنه كان حاضرا وشاهدا على ما كتب.

والإشهاد في الوقف هو إشهاد عادي بسيط أو إشهاد رسمي بحضور عدلين. فالإشهاد الأول هو أن يشهد إنسان أن كتاباً أو مجموعة من الكتب وقفها صاحبها بحضوره على مؤسسة معينة، وعدد الأشهاد غير محصور ابتداء من شاهد واحد إلى أربعة أو خمسة شهود، ويمكن للواقف أن يستغني عن الإشهاد، والكتب التي يشهد على وقفها تكون في الغالب الأعم من الكتب المهمة والنادرة، كما ينبغي أن يختار الشهود من الفقهاء والعلماء أو من علية القوم.

أما الإشهاد الرسمي فيتم بحضور عدلين لإثبات أصالة الوقف ومشروعيته، كما جاء في وقفية ابن خلدون هذه، حيث يشهد عدلان هما: أحمد بن علي بن إسماعيل المالكي ومحمد بن محمد بن أحمد بن أبي القاسم. وقد وردت وقفيات بإشهاد عدل واحد[53].

وقد وردت وقفيات أخرى بدون إشهاد عدلي قط فكانت عبارةً عن وقف استرعائي، بمعنى أن الإشهاد قد تم عند قاضي البلد، ويقتصر في الوقفية المكتوبة في الكتاب الموقوف على ذكر الأركان الأساسية في الوقف، وغالباً ما يحصل هذا بالنسبة للكتب التي

---

[52]- العابد الفاسي: **الخزانة العلمية**، ص. 71: الخليفة أحمد المنصور الذهبي السعدي يسلم القاضي نسخة من الجامع الكبير للسيوطي في ستة أجزاء حبسها على خزانة جامع القرويين.

[53]- حبس الوزير المريني الطريفي كتاب **المنتقى**، على المسجد الجديد بفاس، وتشتمل الوقفية على إشهاد عدل واحد...والمخطوط محفوظ بخزانة القرويين تحت رقم 172.

يقفها الملوك، فيكلفون القضاة بهذا العمل. أما ابن خلدون فقد حرص على إعطاء وقفه أكثر ما يمكن من الإثبات والمشروعية، وذلك بإحضار عدلين. ويذيل شهادتهما بشهادته الخاصة لتصحيح ما كتب وإثباته، فسطرت يمينه على أسفل الورقة ما نصه :"المنسوب إليَّ صحيح، وكتب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون" .

ويلاحظ على إشهاد ابن خلدون لتصحيح الوقف شيئان:

1. لم يقل ابن خلدون: أشهد للتعبير عن الشهادة، بل اقتصر على عبارة تدل على الإشهاد كقوله المنسوب إليَّ صحيح، وهذا جائزٌ عند المالكية[54]، فهم لا يشترطون لأداء الشهادة لفظا معيناً، فيكفي فيها كل صيغة تدل على علم الشاهد بها كما فعل ابن خلدون، أما باقي المذاهب فإنها لا تجيز غير لفظ: أشهد للتعبير عن الشهادة.

2. يضع ابن خلدون توقيعه لتصحيح الوقف على أسفل ورقة الوقفية، اقتداء بالخلفاء المرينيين الذين أهدى إليهم الكتاب، والذين اعتادوا أن يذيلوا وقفياتهم بتوقيعاتهم الخاصة لإثبات الوقف[55] .

وظاهرة التوقيع على أسفل الوقفية شائع عند المغاربة عموما[56]، باستثناء الخلفاء السعديين، فإنهم كانوا يضعون تصحيحاتهم على أعلى الورقة. حيث لا تزال بعض الكتب التي وقفوها على الخزانات المغربية شاهدة على ذلك[57] .

وبالإشهاد تنتهي وقفية ابن خلدون كما هو الشأن بالنسبة للوقفية العربية عموما، أما حجم هذه الوقفية فكان حسب هوى هذا العالم الجليل، وحسب ما أراد أن تشتمل عليه من

---

54. ابن فرحون: تبصرة الحكام، 2:43.

55. ظاهرة توقيع الخلفاء على وقفيات الكتب معروفة في الشرق: نسخة من كتاب **الوافي بالوفيات** للصفدي، محفوظة بإحدى خزانات اصطنبول، كان قد وقفها الخليفة العثماني سليمان القانوني، ووضع تصحيح الوقف عليها بيده: انظر : يوسف العش: **Les Bibliothèques arabes**, p.310.

56. الخليفة الموحدي عمر المرتضى يضع توقيعه على أسفل الوقفية المثبتة في الجزء الأول والرابع من القرآن الذي خطه بيمينه، وحبسه على خزانة مسجد ابن يوسف بمراكش.

57. تحتضن خزانة القرويين نسخة من **الجامع الكبير**، للسيوطي في ستة أجزاء حبسها المنصور الذهبي السعدي، وفي أعلى الورقة تصحيح المنصور للوقف بخط يمينه. وفي أسفل الوقفية كتب: وبحضور شاهدين سلم الكتاب للقاضي ليضعه بالخزانة، ثم توقيع العدلين.

شروط وغيرها. ولم يكن أبداً طول الوقفيات أو قصرها مقياسا لأهمية الكتاب الموقوف أو لعدم أهميته، فكم من كتاب مهم اقتصر واقفه على وقفية صغيرة، وكم من كتاب لم يكن ذا قيمة كبيرة أطال واقفه في الوقفية المثبتة عليه.

* * *

ولنختم الآن هذا العرض بالحديث عما يمكن أن تؤدي إليه دراسة الوقفيات من خدمة لتاريخ الكتاب، وبالتالي لما يسمى بالتحقيق العلمي الحديث.

دراسة الوقفيات من الجوانب التي تفيدنا في تاريخ الكتاب تقتضي بداءة الوقوف على هذه الوقفيات، وحصر المخطوطات التي تحملها في كشاف بليوغرافي. ومثل هذا الكشاف وغيره ككشاف المخطوطات المؤرخة من العمليات المكتبية التي تفتقر إليها الخزانات العربية عموما. وبعد القيام بهذا العمل الببليوتيكونومي الأساسي يمكن للكوديكولوجي أو المختص في علم المخطوطات، والفيلولوجي الباحث في توثيق النصوص ونشرها الاعتماد على وثائق الوقفيات لإثبات تاريخ النصوص المؤرخة، وتحديد تاريخ غير المؤرخة منها.

وتبحث الوقفيات في هذا الإطار من جانبين: الجانب التاريخي، والجانب الباليوغرافي أو الخطي، إن صح التعبير. ففيما يخص الجانب التاريخي فإن الخزانات العربية عموما والمغربية خصوصا تشتمل على رصيد هام من المخطوطات غير المؤرخة، وأخرى مجهولة المؤلف، أو العنوان، أو مجهولة المؤلف والعنوان معا. ففي كلتا الحالتين واعتمادا على المخطوطات الحاملة لوثائق الوقف فإنه يمكن تأريخ نسبة كبيرة من هذه المخطوطات وتعريفها. ومما يساعد الكوديكولوجيين أو المهتمين بعلم المخطوطات في دراستهم المخطوطية هذه، هو وجود هذه الوثائق الوقفية على ظهر الأوراق الأولى من المخطوطات، وأحيانا في وسطها، الشيء الذي تفتقر إليه المخطوطات اللاتينية الوسيطية، كما توجد هذه الوقفيات في بعض أجزاء المخطوط أو في جميع أجزائه: فوقفية القرآن الذي حبسه الخليفة الموحدي المرتضى توجد على الأجزاء

العشرة[58]. ووقفيةُ الأمير أبي عبد الله الوطاسي توجد في الجزء السابع من نسخة البخاري الأربعينية التي حبسها على القرويين، أما وقفية ابن خلدون موضوع هذه الدراسة فوجدت في الجزء الخامس من كتاب العبر. والغالب على الظن أن أجزاء أخرى من الكتابين السابقين كانت حاملة لوثيقتي الوقف المذكورتين. فمن مزايا تعدد نسخ وثائق الوقفيات في أجزاء المخطوطات أنها تبقى مع ما بقي مصونا من أجزاء مخطوط معين.

فالوقوف على اسم الواقف أو الخزانة الموقوف عليها يساعد في الغالب الأعم على تحديد تقريبي للزمن وربما للمكان الذي نسخ فيه المخطوط المجهول التاريخ أو النسب كما يمكن الوقوفُ على هذه الوقفيات من تصحيح تاريخ مخطوط معين. فكم من مخطوط مؤرخ اطمأن إليه محققه، فثبت بعد دراسة المخطوط دراسة كوديكولوجية أنه نسخ في زمن تفصله قرون من التاريخ المثبت عليه. فلا يكفي أن نؤرخ للنساخة وحياة النساخ، بل يجب البحث في سلوكهم وأمزجتهم، بل ربما أخضعناهم لنظرية الجرح والتعديل، التي طبقت على رواة الحديث واللغة، حتى نقبل أو نرفض لا التواريخ فقط بل حتى شكل النصوص التي نسخوها.

أما الجانب الباليوغرافي أو الخطي فيمكّن الباحث في المخطوطات أن يحل رموز كتابة طالما ظل صاحبها مجهولا، بمعنى أن مؤلف مخطوط مجهول المؤلف يكتشف من خلال مقابلة خط وقفية له عليها اسمه بكتابة هذا المخطوط. وتسمى هذه العملية الهولوغرافيا Holographie. على أية حال فغاية كل من الكوديكولوجيين أو المختصين في علم المخطوطات، والباليوغرافيين أو المختصين في علم الخطوط القديمة من دراستهم لهذه الوقفيات في إطار تاريخ الكتاب هي خدمة ما يسمى بتاريخ النصوص الذي يكوّن المرحلة الأولى والأساسية لما نسميه اليوم بالتحقيق العلمي. فهل خضعت مخطوطاتنا العربية المحققة إلى عملية تاريخ النصوص كما خضعت لها المخطوطات الغربية، على الرغم من الفوارق الموجودة بين التراثين العربي

---

[58] ـ لم يبق إلا وقفيتا الجزء الأول والرابع: اثبت Deverdum في كتابه **Marrakech des origines à 1912** أن الوقفية الموجودة على ظهر الورقة الأولى من الجزء الأول هي وحدها من خط الخليفة والأخريات المثبتة في باقي الأجزاء من خط كاتب للخليفة.

والإغريقي- اللاتيني؟ ما أظن ذلك. ولقد آن الأوان لإنشاء معهد للبحث وتاريخ النصوص على مستوى العالم العربي تستغل فيه جميع المعطيات المخطوطية كالوقفيات والتملكات في سبيل دراسة تاريخ المخطوطات، وبالتالي تاريخ النصوص. ولا يحق لنا أن نمارس التحقيق العلمي دون ممارسة الكوديكولوجيا وتاريخ النصوص مسبقاً.

وظيفة القيِّم

في تاريخ الخزانة المغربية

إذا كانت كلمة "خزانة" أو "مكتبة" كلمة قديمة فإن المؤسسة التي أطلقت عليها أقدم منها بكثير. وتاريخها الذي هو تاريخ مجموعات الكتب الموضوعة للعلماء شديد الاتصال والقرابة بتاريخ التراث والحضارة. واليوم الذي تمكن فيه الناس، بفضل الكتابة، من أن يحافظوا على إنتاج الأدباء والعلماء كان يوم بداية لجمع المخطوطات، وبتوالي الأحقاب وتعاقب العصور تألفت من هذه المخطوطات مجموعات خطيرة يرجع الفضل في ادخارها إلى أرباب البحث والتنقيب عن الأمم الماضية. وهؤلاء العلماء الذين حفظوا لنا هذا التراث الإنساني واعتنوا به والتقطوه من الأديرة والمساجد والمدارس والزوايا والقصور هم الذين سميناهم الأمناء أو القيمين أو غير ذلك من الأسماء. إن مجموعة العمليات المكتبية التي يطلق عليها اليوم الببليوتيكونوميا (Bibliothéconomie) في علم المكتبات الحديث، وتتلخص في التسيير والتنظيم والفهرسة والتصنيف وما إليها، كانت تسند إلى هؤلاء القيمين يمارسونها بأنفسهم أو يتولون الإشراف على من يقوم بها في الخزانات العتيقة. واليوم وقد تشعبت المعارف وتداخلت العلوم وتعددت التخصصات وكثرت المؤلفات فإن الخزانات قد تضخمت وأعمالها العلمية قد تشعبت وأدى هذا التشعب إلى ظهور قيمين جمعوا بين الثقافتين العلمية والتقنية تمكنوا بفضلها من التحكم في محتوياتها الغنية وجعلوها تلعب الدور المنوط بها في تقدم مسيرة البحث العلمي الحديث.

فاعتبارا لما تكتسيه اليوم هذه الوظيفة من أهمية، ونظرا لما يقوم به القيم في الخزانة من عمليات علمية وتقنية وتوجيهية ارتأينا أن نبحث في هذه الوظيفة عند القيمين المغاربة الذين تحملوا هذه المسؤولية العلمية الشريفة على مر العصور.

فما معنى كلمة قيّم؟ ومن أي فئة من الناس كان يتم اختياره؟ وما هي الوظائف التي كان يقوم بها في خزاناتنا المغربية التي يشهد التاريخ أنها كانت ولا تزال تزخر بنوادر الكتب ونفائس المخطوطات؟

القيّم لغة هو السيد؛ وقيّم القوم: الذي يقومهم ويسوس أمرهم[1]، ولم تطلق على المشرف على الخزانة إلا في القرون الأخيرة[2]. ومن المصادر الأولى التي نجد فيها الكلمة بهذا المعنى "جني زهرة الآس" للجزنائي في القرن الهجري الثامن[3]. أما القدماء فكانوا يلقبون القيّم بعدد من الألقاب أولها "صاحب المصاحف" الذي أطلق على أول قيّم تفصح عنه مصادر التراث العربي. يقول السمعاني في كتاب **الأنساب**[4] : كان سعد صاحب المصاحف بخزانة الوليد بن عبد الملك الأموي (96 هـ) والمصاحف آنذاك كانت تعني الكتب المجلدة قبل أن تختص بالقرآن الكريم[5].

وبعدما أصبحت كلمة "مصحف" علما على الكتاب المقدس أصبح القيم يلقب بـ"صاحب الخزانة" عوض "صاحب المصاحف". ومن العلماء الأوائل الذين نعتوا بهذا اللقب سهل بن هارون الذي تولى الإشراف على خزانة بيت الحكمة في بغداد على عهد المامون العباسي. وبعد ذلك العصر نجد المصادر التي تشير عرضا إلى دور الكتب في القديم سواء في الشرق العربي أو في الغرب الإسلامي تسمي القيم بأسماء مختلفة:

فمنها "الخازن"، وهي تسمية أطلقت على قيم الخزانة التي أنشأها سابور بن أردشير في بغداد في أواخر القرن الرابع الهجري 383 هـ[6]. ومنها "الوكيل" وقد أطلقت على قيم خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد في القرن السابع الهجري. كما أطلقت هذه التسمية على قيم

---

1 - انظر **لسان العرب**، لابن منظور.

2 - حتى زمن ابن منظور لم تكن كلمة "قيم" تعني أمين الخزانة، ولم توجد بهذا المعنى في معجمه "لسان العرب".

3 - الجزنائي: **جني زهرة الآس**، المطبعة الملكية، الرباط 1967، ص.76.

4 -Eche Youssef, **Les Bibliothèques arabes**, p.18 : Damas, 1967.

5 - هناك نص في كتاب "القصد" لابن عبد البر جاءت فيه كلمة "مصاحف" بمعنى كتب، ويتعلق الأمر بفتح طليطلة وعثور الفاتحين على مصاحف حملت إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك: انظر "**القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم**" لابن عبد البر يوسف، القاهرة، ط. 1350 هـ، ص. 34.

6 - زارها أبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري وتحدث عنها كثيرا.
انظر ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج17، ص.267-268.

إحدى خزائن فاس في القرن التاسع الهجري حسب ما جاء في **الرسالة المجازة** لعلي الغماري[7].

وقد لقب القيم كذلك بـ"المشرف" على الخزانة وبـ"الأمين" عليها كما استعملت عبارات أخرى للتعبير عن هذه الوظيفة كقولهم: "ولاه أمر خزانته" أو ألزمه خدمة خزانة الكتب كما قيل عن علي الشابشتي حين جعله العزيز بالله الفاطمي على رأس خزانته بالقاهرة، وعن ابن الصقر لما كلفه الخليفة الموحدي عبد المومن بالخزانة الملكية الموحدية بمراكش. وقد جرت العادة أن تسند الخزانة إلى قيم واحد يقوم بشؤونها، ويمكن أن تسند إلى قيمين أو ثلاثة إذا دعا حجم الخزانة وضخامة محتوياتها إلى ذلك. يقول لومبريير Lemprières في **رحلاته**[8] (Voyages): كانت خزانة السلطان العلوي المولى محمد بن عبد الله تزخر بآلاف المخطوطات مما دعا السلطان إلى تعيين قيم آخر لمساعدة المشرف الأعلى. وتروي المصادر أن خزانة المدرسة المستنصرية قد أسندت إلى أشخاص ثلاثة: الوكيل وهو المشرف الأعلى، والخازن مساعده والمناول[9].

أما الفئة التي كان يختار منها القيم للإشراف على الخزانة العلمية فهي فئة العلماء المبرزين المتضلعين في العلم واللغة والأدب. وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة عند القدماء. فالقيمون الذين تولوا الإشراف على أكبر خزانة في العصر القديم خزانة البطالسة بالأسكندرية كانوا من العلماء الأجلاء ومن أرباب اللغة والأدب والفلسفة: نذكر منهم ديمتريوس Démétrios الذي وضع النواة لهذه الخزانة العظيمة والذي يعده جورج سارتون صاحب **تاريخ العلم** أول قيم في العالم[10]. كما نشير إلى الشاعر الكبير كاليماخوس Callimacus الذي ولاه البطالسة أمر هذه الخزانة في القرن الثالث قبل الميلاد واستمر على رأسها عشرين سنة (260-240 ق م). إن هذا القيم هو الذي وضع فهرسها المشهور: "**قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها**"[11] وهو فهرس لو بقي كاملا لكان أشبه شيء "بالفهرست" لابن النديم، هذا الكاتب الذي يعتقد بعض الباحثين في الغرب أنه كان أمينا على خزانة بيت الحكمة العباسي

7- علي الغماري : **الرسالة المجازة في معرفة الإجازة** : رسالة المغرب، عدد 11، ص.42-43، عام 1943.

8 -Lemprières P., **Voyages**, p. 202, 1790.

9- معروف ناجي : **تاريخ علماء المستنصرية**، ط. 1959، ص. 274.

10- جورج سارتون : **تاريخ العلم**، ج 4، ص. 259. من الترجمة العربية.

11- المصدر السابق، ص. 272-373.

وأن كتابه هذا لم يكن إلا فهرساً شاملا وموسعا لهذه الخزانة[12]. وعند أسلافنا العرب كان منصب أمين المكتبة يشغله أناس في المراتب العليا علما وفضلا وأدبا. فإن لم يثبت تاريخيا أن ابن النديم قد تحمل بالفعل مسؤولية بيت الحكمة، هذه المؤسسة العلمية التي سكت عنها التاريخ في القرن الهجري الرابع فإن المصادر تزودنا بأسماء عدد من العلماء من كبار حملة القلم الذائعي الصيت في ميادين التأليف والمعرفة قد تولوا هذا المنصب: يحدثنا ابن الأبار في **التكملة** أن تليد الخصى كان خادم الحكم الثاني المستنصر بقرطبة وكان صاحب خزانته العلمية[13]. وتحدثنا النصوص التاريخية أن مسكويه العالم المشهور كان قيما على خزانة عضد الدولة ثم على خزانة ابن العميد، وأن أبا حيان التوحيدي كان قيما على خزانة ابن عباد، والاسفراييني شغل منصب أول خازن لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد[14]، وعلي الشابشتي ولاه العزيز بالله الفاطمي أمر خزانة كتبه[15]، والشريف المرتضى كان وكيلا لمكتبة سابور بن أردشير وزير البويهيين، وهلال الصابي كان مشرفا على دار العلم ببغداد[16]. ومن العلماء الأعلام الذين شغلوا منصب الخازن بمكتبة المدرسة المستنصرية الكاتب والمؤرخ والفيلسوف ابن الفوطي[17] (724 هـ) ثم المؤرخ واللغوي والمفسر والفقيه علي بن أنجب ابن الساعي البغدادي الملقب بالخازن[18]. أما فيما يخص المغرب فإن المصادر لا تشير إلى هذه المؤسسات العلمية إلا عرضا كما قلنا فضلا عن أن تحدثنا عن الأنظمة البيليوتيكونومية (bibliothéconomique) التي كانت تخضع لها الخزانة، مع ذلك فإنها تجود عنا من حين لآخر بأسماء بعض الذين تحملوا هذه المسؤولية العلمية. وبعد استقرائنا لهذه الأخبار النادرة المتعلقة بهذه الوظيفة نستخلص أن المغاربة لم يخرجوا عن الطريقة المشرقية في اختيار العلماء وتكليفهم بمهام خزاناتهم، بل إن حبهم للعلم

---

[12]- ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، ط. 1970، ص.163.

[13]- لقد ثبت أن الحكم هذا قد أسند هذه المهمة إلى أخيه الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر، ومن هنا نستخلص أن هذه الوظيفة كانت تسند إلى الأمراء أنفسهم في الغرب الإسلامي.
انظر المقري: **نفح الطيب**، ج1، ص. 184. وابن خلدون: **تاريخ**، ج 4، ص.147.

[14]- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج 17، القاهرة، 1936، ص.237.

[15]- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج3، القاهرة 1984، ص.8.

[16]- **شرح سقط الزند** للمعرّي. انظر كذلك **المكتبات الإسلامية** لماهر حمادة، ص. 153.

[17]- معروف ناجي: **تاريخ المستنصرية**، ص. 296-297.

[18]- المصدر السابق: ص. 280.

وللعلماء وتقديسهم لكل ما هو مكتوب جعلهم يسندون هذه المهمة إلى العلماء الأعلام بل أسندوها كذلك إلى فحول القضاة والوزراء والأمراء.

تحدثنا النصوص التاريخية أن المكتبات العامة المغربية الملحقة بالمساجد في الغالب الأعم كانت تسند القوامة على الواحدة منها عادة إلى عالم من علماء العصر المبرزين للقيام بشؤونها. فلما انتهى العمل من بناء خزانة مسجد القرويين في أواسط القرن الثامن الهجري يخبرنا الجزنائي أن أبا عنان المريني قد عين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وأجرى له على ذلك جراية[19]. ولم ينحصر اهتمام هذا الخليفة عند الخزانة الكبرى المخصصة لرجال العلم بل أنشأ خزانة أخرى داخل الجامع وخصّصها لقراء القرآن والحديث وعين لها قيما للاهتمام بها. يقول الجزنائي في زهرة الآس: "وأما خزانة المصاحف التي جعلها مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله في قبلة صدر هذا الجامع فإنه أعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجميلة السنية... وعين لها من ينفرد بإخراجها من هذه الخزانة وإبرازها، وردها لصيانتها في موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجات الناس إليها"[20].

ولما أعيد بناء هذه الخزانة وأضيف لها جناح جديد على عهد السعديين في أواخر القرن العاشر الهجري ارتأى الخليفة المنصور الذهبي أن يعين على رأسها أحد العلماء من أبناء أبي المحاسن يوسف الفاسي غير أن هذا العالم المقترح، حسب ما جاء في مرآة المحاسن، قد اعتذر للخليفة تباعدا منه عن الحكام[21].

---

[19]- الجزنائي: جني زهرة الآس، الرباط 1967، ص.76.

[20]- نفس المصدر.

[21]- العربي الفاسي: مرآة المحاسن، فاس، 1905، ص.30.

ومن بين العلماء المبرزين الذين تولوا الإشراف على هذه الخزانة عبر العصور محمد الطيب بن عبد السلام القادري وأبو الحسن علال بن جلون ومحمد بن التهامي الوزاني وأبو العباس البوعزاوي الذي كان آية في فن الكتب والمكتبات[22].

ومن العلماء الكبار الذين عينوا قيمين على خزانات المساجد أبو عبد الله محمد بن قاسم السجلماسي شارح العمل الفاسي الذي أسند له السلطان العلوي المولى محمد بن عبد الله خزانة المسجد الأعظم بالرباط[23]. أما خزانات الزوايا وخزانات المدارس العتيقة التي كانت مأوى للطلبة الآفاقيين فإن شيخ الزاوية يكلف أحد شيوخ المدرسة في الغالب الأعم بمهمة الإشراف على الخزانة. يقول الناصري في المزايا عن خزانة زاوية تامكروت: "والذي أدركنا عليه من هو أهل للولاية بالزاوية ينظر الأصلح الأقوى الأعلم فيفوض له الأمر في الكتب"[24]. وبالنسبة للزاوية الحمزية يختار القيم من سلالة شيخ الزاوية، ولا تزال هذه العادة قائمة إلى الآن.

وكما كان الخلفاء والملوك المغاربة يختارون كبار العلماء لتكليفهم بمهمة القيمين على الخزانات عامة كانت أو ملكية فإنهم كانوا يكلفون القضاة كذلك بهذه المهمة، وكلنا يعلم أهمية وظيفة القاضي في العصور السابقة. فالخليفة يوسف بن عبد المومن الموحدي اختار لتسيير خزانته الملكية وضبطها القاضي أبا العباس أحمد بن الصقر[25] الأنصاري. يقول عنه بن عبد الملك في الذيل والتكملة: " ولما صار الأمر إلى يوسف بن عبد المومن ألزمه خدمة الخزانة العالية وكانت عندهم من الخطط الجليلة التي لا يعين لتوليتها إلا علية أهل العلم وأكابرهم، واستمر على رأس الخزانة على عهد يعقوب المنصور الموحدي"[26].

22ـ محمد العابد الفاسي: **فهرست خزانة القرويين**، ج 1 ، ط 1979، ص.25.
انظر كذلك العابد الفاسي: **الخزانة العلمية بالمغرب**، ص.67-68.

23ـ أبو جندار محمد: **مقدمة الفتح**، الرباط، 1926. ص.149.

24ـ ابن عبد السلام الناصري : **المزايا**، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 4297، ص.47.

25ـ كان قاضيا بغرناطة وإشبيلية ومراكش.

26ـ ابن عبد الملك : **الذيل والتكملة**، جزء الأحمدين. وانظر كذلك الإعلام للمراكشي الجزء الثاني، الرباط 1974، ص. 76.

ومن القضاة الذين تحملوا هذه المسؤولية في المغرب على عهد الدولة العلوية أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن السيد العلوي الذي أسند له السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي خزانته العامرة[27].

ومما نلاحظه عند الملوك المغاربة أنهم يأمرون القضاة بمراقبة الخزانات المسندة إلى العلماء أو بالإشراف على تنظيمها. فالسلطان العلوي المولى عبد الرحمن بن هشام طلب من القاضي عبد الهادي بن عبد الله التهامي العلوي القيام بمراقبة خزانة القرويين. ولما عزم السلطان المولى الحسن الأول على إدخال إصلاح على هذه الخزانة أرسل ظهيرين إلى قاضيي فاس آنذاك محمد العلوي المدغري وحميد بناني يحثهم على مساعدة القيم والناظر في إصلاح الخزانة وإعادة تنظيمها[28].

ولم يقف الملوك المغاربة لتسليم مأموريات الخزانات عند القضاة بل تجاوزوهم إلى الوزراء وعينوهم قيمين على مكتباتهم الخاصة. ومن بين الوزراء الذين أسندت لهم هذه المهمة أبو الحسن علي بن أبي جامع وزير الخليفة العادل الموحدي، ويتضح من نص ابن عبد الملك في الذيل والتكملة المتعلق بهذا الشأن أنه لما انتهبت الخزانة الملكية الموحدية في جملة ما نهب بعد الحرب التي دارت بين الأمراء الموحدين فيما بينهم خرج من قبل العادل أمر بتكليف علي الوزير المذكور فظن الحاجب أن الخلفية يقصد عليا ابن القطان العالم الكبير وأحد مفاخر المغرب في العصر الموحدي؛ يقول ابن عبد الملك: ولما صار ذلك كله إلى ابن القطان وحازه وحسنت حاله به وسُرّ بما منح منه رفع إلى العادل شاكرا له هذا الإنعام الجزيل، فأنكر العادل ما صدر عن ابن القطان من ذلك، ولم يعرف سببه فسأل وزيره عنه فقال: إنه لما خرج الأمر بنظر علي في ترتيب الكتب لم يخالجه شك في أن المراد بعلي ابن القطان لأنه كان الناظر فيها في المدة المتقدمة[29]. ومن بين القيمين الوزراء احمد بن الحسن اليحمدي 1124هـ وزير السلطان المولى إسماعيل العلوي. تحدثنا المصادر المعاصرة له أن الخزانة الإسماعيلية كانت من الضخامة

27- عبد الحي الكتاني: **فهرس الفهارس**، ج2، ص. 381.
28- العابد الفاسي: **الخزانة العلمية بالمغرب**، ص.71-72.
29- المصدر السابق، ص.68.

والأهمية الشيء الذي دعا السلطان إلى أن يختار لها أحد كبار عصره من العلماء الوزراء للقيام بشؤونها. يقول عنه مصباح الزرويلي في كتابه: **سني المهدي إلى مفاخر الوزير اليحمدي**: "ولأمر ما خصه مولانا المنصور بالله بأنعم لم يشاركه فيها سواه واختاره دون سائر البرايا لرتب جليلة ومزايا وقلده مفاتيح الخزانة المولوية التي حوت من التصانيف وجمعت من أنواع الدفاتر وأسماء التآليف ما لم تحوه خزانة بغداد. وجعله الأمين عليها بعد أن مدت أعناق قوم شتى إليها علما منه أيده الله أنه ليس في البساط المولوي من يضاهيه ولا فيه من يقاربه أو يدانيه في علمه وحزمه وصيانته وعزمه وثقته فنسخ اسم ما فيها في صحيفة صدره وارتسمت علومها في مرآة فكره"[30].

وجاء في **أنس السمير في نوادر الفرزدق وجرير** لنفس المؤلف المذكور: التقيت مع لسان الدولة الوزير الرئيس أحمد بن الحسن اليحمدي سنة 1124هـ بدار الخلافة وكان هو قيم الخزانة المولوية المحتوية على ما لايحصى من كتب الأدب وغيرها[31].

ومن الملاحظ أن ظاهرة إسناد الخزانة إلى الوزراء لا تزال تقليدا قائما في المغرب إلى اليوم، فالوزير محمد العربي الخطابي قد أعفي من مهمة الوزارة ليعين على رأس الخزانة الحسنية في نهاية السبعينات من القرن العشرين.

هذه نماذج من الفئات التي كانت تسند إليها وظيفة الإشراف على الخزانة، فما هي إذن هذه الوظيفة المكتبية التي كان يقوم بها القيمون؟

إن اهتمامنا بتاريخ الخزانة المغربية وجولاتنا العلمية فيها وقراءاتنا في محتوياتها أظهرت لنا أن القيم كان يقوم بأكثر من وظيفة. ولئن كانت مهمة القيم اليوم تنحصر في اختصاص معين لا تتعداه إلى غيره وأن كل مكتبة تحتاج إلى قيمين للقيام بشؤونها فإن الخزانة القديمة كان يتولى أمرها أمين واحد يمارس بنفسه جميع العمليات المكتبية الأساسية التي يجمعها القدماء في كلمة "ضبط" وتعني التنظيم الشامل لمحتويات الخزانة بما في ذلك مهمة المناول التي لا يقوم بها اليوم إلا مساعدون

30- مصباح الزرويلي: **سني المهتدي إلى مفاخر الوزير اليحمدي**، ص. 11، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 521.
31- العابد الفاسي: **الخزانة العلمية**، ص. 68.

ذوو ثقافة بسيطة. فصاحب زهرة الآس يقول عن أمين خزانة القرويين: وعين لها أبو عنان قيما لضبطها ومناولة ما فيها[32]. ويقول صاحب الرسالة المجازة: كان الوكيل يعطي الكتب للطلبة[33].

وبتضمن الضبط ترتيب الخزانة وتصنيفها موضوعيا. فصاحب الدرر المرصعة يحدثنا أن أبا العباس ابن ناصر رتب محتويات الزاوية حسب العلوم وجعل لكل نوع علامة تميزه عن غيره[34].

وتتميما لهذه العملية التصنيفية والترتيب الموضوعي كان القيمون يقومون بوضع فهارس مصنفة تعكس التصنيف المطبق في الخزانة. فقد وضع أبو العباس ابن ناصر فهرستا لخزانة تمكروت مرتبا ترتيبا موضوعيا. فحسب النسختين المحفوظتين في كل من الخزانة العامة (رقم 5657) والخزانة الحسنية (رقم975) فإن هذا الفهرس يضم ألفي مخطوط مع عدد من المجاميع. وعلى هذا الشكل وضع شيخ الزاوية الحمزية فهرستا لخزانة هذه الزاوية وتوجد منه نسخة محفوظة بالخزانة الوطنية بباريز تحت رقم 4725[35]. وترتيب الكتب وتصنيفها وفهرستها لم يكن العمل الوحيد الذي يقوم به القيمون في هذا الإطار بل كانوا يرتبون الوثائق كذلك. إن الخزانات القديمة لم تكن لتقتصر على حفظ المخطوطات وحدها بل كانت تتجاوزها إلى حفظ الوثائق وترتيبها ضمن هذه المخطوطات. فحتى القرن العشرين كان من العسير على الباحثين والمكتبيين أن يميزوا بين المخطوطات وبين الملفات المحتوية على الوثائق. وكان القيمون إلى جانب أعمالهم المكتبية وثائقيين يرتبون الوثائق حسب العصور والموضوعات.

ويقوم القيم كذلك بعملية اقتناء الكتب التي يرى أنها ضرورية للمؤسسة العلمية التي يرأسها والتي من شأنها أن تلبي رغبات الرواد. إن عددا من شيوخ الزوايا كانوا يغتنمون فرص وجودهم في البلدان العربية الإسلامية التي يقطعونها في طريقهم إلى الحج فيشترون من الكتب ما هو متوقع أن يطلبه الطلبة الذين يرحلون إلى الزوايا من أجل العلم وتسمى هذه العملية عند

---

[32]. الجزنائي: جني زهرة الآس، ص.76.

[33]. علي الغماري: الرسالة المجازة، ميكروفيلم المكتبة العامة، رقم 1343.

[34]. محمد المكي الناصري: الدرر المرصعة، ص.55، مخطوط الخزانة العامة، ك 265.

[35]. نسب خطأ هذا الفهرست إلى خزانة القرويين قبل أن يثبت أنه فهرست الخزانة العياشية وهو محفوظ اليوم بقسم المخطوطات بالخزانة الوطنية بباريز تحت الرقم المذكور.

العاملين في مجال المكتبات في وقتنا هذا بنظرية العمل المصدري القصوى.. يحدثنا الناصري في المزايا أن الشيخ أبا العباس ابن ناصر اشترى لخزانة الزاوية كتبا بالأحمال من المشرق والمغرب، ولما عثر بمصر على كتب سيحتاجها طلبة الزاوية استسلف آلافا من المثاقيل واشتراها كلها كتبا[36]. ومن وظائف القيم التربية والتعليم: فبالإضافة إلى عمله المكتبي كان القيم يقوم في بعض الحالات بمهمة التدريس. ونلاحظ هذه الظاهرة بصفة خاصة عند القيمين على خزانات الزوايا والمدارس العتيقة. ووظيفة الأستاذية هذه تمكن القيمين من توجيه الطلبة وإرشادهم إلى المصادر الأساسية المتعلقة بالمواد المدروسة...

وبالإضافة إلى هذا كان القيمون يصححون الكتب ويقيدون الفوائد بهوامشها، فنسبة كبيرة من مخطوطاتنا بالمغرب ملأى بالفوائد و التصحيحات والزيادات التي سطرتها أيادي هؤلاء العلماء الذين تحملوا مسؤوليتها..

ولم يكن القيمون ليكتفوا بهذه التصحيحات أو بهذه الإضافات بل كانوا ينسخون المخطوطات بأيديهم أو يشرفون على نسخها. تحدثنا المصادر أن ابن الصقر خازن المكتبة الملكية الموحدية كان وراقا في فاس ولما أسندت له مهمة الخزانة بمراكش تابع عملية نسخ المخطوطات بها. ويقول صاحب الديباج[37]: "كتب ابن الصقر من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى كثرة" ويقول صاحب الدرر المرصعة: "إن أبا عبد الله بن ناصر شيخ تمكروت قد نسخ بنفسه كتاب القاموس للفيروزآبادي والأمالي للقالي وبعض أبواب كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه"[38]. وظاهرة النسخ هذه تكاد تكون عامة عند جميع أمناء خزانات الزوايا.

ومما يتميز به القيمون المغاربة في هذا الإطار ما كان يسمى بعملية النسخ الجماعي، فالمعروف أن هذه الظاهرة تكاد تختفي عند القيمين والناسخين عموما في المشرق العربي. وكانت معروفة عند قدماء اليونان وعند الغربيين في نهاية العصر الوسيط ويطلقون عليها كلمة

36- محمد بن عبد السلام الناصري: المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا، ص.46. مخطوط الخزانة الحسنية رقم 4297.
37- ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص.211-212.
38- الناصري: الدرر المرصعة، ص.57 من المخطوط.

Pecia، وهي عبارة عن نسخ مخطوط على أيدي جماعة من النساخ بمشاركة القيم أو بإشرافه. والهدف منها هو تهيئ مخطوط جيّد قليل الأخطاء وفي أقرب وقت. والخزانة المغربية ملأى بالمخطوطات التي خضعت إلى عملية التنسيخ الجماعي هذه.

ومن وظائف القيم القيام بعمليات الإعارة سواء بالنسبة لرواد المكتبة أو بالنسبة للخزانات الأخرى. فإعارة الكتب للباحثين ظاهرة تكاد تكون عامة في القديم ليس فقط بالنسبة للمكتبة الملكية والمكتبات العمومية بل حتى بالنسبة للمكتبات الخاصة التي كان أصحابها، وهم عادة من العلماء، لا يبخلون بإعارة كتبهم لذويهم ولتلامذتهم ولأصدقائهم من الباحثين. كان القيم على خزانة الزاوية العياشية مثلا يعير الكتاب ويسجل اسم المؤلف والمستعير، ويكاتب هذا الأخير إن اقتضى الحال لمطالبته بإرجاع الكتاب، وتحتوي ملفات هذه الخزانة على أمثلة من هذه الظاهرة.

ويحدثنا الناصري في المزايا عن قيم الخزانة الناصرية فيقول: ويدخل للخزانة حتى يأخذ ما فيه كفاية الطلبة ويعطي كلا من المتعلمين بالزمام ما يحتاجه، وعلى رأس كل سنة في آخر رمضان يحضر الزمام[39] إلخ. . . ونفس الطريقة كان يطبقها قيم خزانة القرويين وغيرها من المكتبات لأن الناصري يختم هذه الفقرة من كتاب المزايا بقوله: "وقع هذا كذلك بخزانة القرويين"[40].

أما عملية التبادل والإعارة فيما بين المكتبات وهي من العمليات المهمة والضرورية في المكتبات المعاصرة فتكاد تكون عامّة في المكتبات العتيقة. فمكتبات الزوايا تتبادل الكتب فيما بينها من جهة كما تتبادل المخطوطات مع الخزانة الملكية وغيرها من جهة أخرى، والهدف من هذا التبادل أو هذه الإستعارة هو استنساخ المخطوط والاحتفاظ به ضمن محتويات الخزانة التي استعارته. . . والعادة أن القيم هو الذي يتولى هذه العمليات وما تدعو إليه من مراسلات واستنساخ وغيرها. يحدثنا ابن زيدان في "النهضة العلمية" أن أبا بكر بن علي الناصري قيم

[39]- الناصري: المزايا، ص. 46 من المخطوط الخزانة الحسنية.
[40]- نفس المصدر، ص.48.

خزانة تمكروت قد كتب للسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام ليرد كتاب حاشية الطيبي على الكشاف للزمخشري فأجاب السلطان: "لا تزال النسخة عند الناسخ لأن خطها شرقي مغلق"[41]. ويحتوي نفس مصدر ابن زيدان على مراسلة أخرى مفادها أن شيخ الزاوية الناصرية وقيم خزانتها يوسف الناصري يطلب من السلطان المولى محمد بن عبد الله العلوي أن يعيره كتاب "البيان والتحصيل" لابن رشد من أجل الاستنساخ، فأجابه السلطان قائلا. "إننا بصدد نسخ الكتاب وسنرسله مباشرة بعد نسخه"[42].

ومن وظائف القيم أنه يتحوز الكتب المهداة والموصى بها للخزانة، وكلنا يعرف أن الإهداء والوصايا عنصران أساسيان في تكوين الخزانات المغربية قديما. فمن عادة شيوخ الزوايا أن يوصوا بكتبهم لخزاناتها، كما كان العلماء والملوك يهدون المخطوطات المهمة والنادرة لمختلف المكتبات. يحدثنا الشيخ عبد الحي الكتاني في رسالته: **المكتبات الإسلامية** أن العلامة عبد الرحمن المكناسي قد أهدى للشيخ ابن ناصر قيم الخزانة نسخة قديمة مهمة من **صحيح البخاري**، كذلك فعل اليوسي فإنه قد أهدى كتبا لنفس الزاوية[43]. أما هدايا الملوك للخزانات وعلى الأخص منها خزانات الزوايا فأكثر من أن تحصى.

ويتحوز القيم كذلك الكتب الموقوفة على الخزانة، فبعد استقرائنا لعدد من الوقفيات المبثوثة على الأوراق الأولى من المخطوطات الموقوفة أمكننا أن نستخلص أن القيم يتحوز الكتب المحبسة من القاضي ومن الناظر ومن عامة الناس. فتلك التي يتحوزها من القاضي أو الناظر أو منهما معا تكون في الغالب الأعم محبسة على الخزانة من طرف السلطان أو الوزير أو من شخصية بارزة من شخصيات البلد، أما باقي الكتب المحبسة فيتحوزها القيم من الناس العاديين الذين يحبسون المخطوطات أو المصاحف طمعا في رضى الله تعالى، وهذا التحوز يتم بحضور عدلين وبعض الشهود من الأعيان. وقد تذكر الوقفية اسم القيم الذي تحوز الوقف وتكتفي أحيانا أخرى

41- عبد الرحمن ابن زيدان: **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 11772.

42- نفس المصدر.

43- عبد الحي الكتاني: المكتبات الإسلامية، مخطوط الخزانة العامة، رقم : 3002

بذكر لفظ "القيم" دون ذكر الاسم. هذه بعض الوظائف التي كان يقوم بها القيمون المغاربة أيام ازدهار خزانات الكتب بالمغرب. وفي العصور المتأخرة أفل نجم هذه المؤسسات العلمية تبعا للانهيار الثقافي وتخلف مناهج التعليم حيث أصبح الطلاب يكتفون بما لقفوه من أفواه الشيوخ وما استظهروه من منظومات في فنون شتى دون أن يحسوا بالحاجة إلى ارتياد الخزانة لتأكيد ما لقفوه ولاستكمال ما تلقوه من معلومات، فتخلفت من أجل ذلك المكتبات وأصبح دور القيمين يقتصر على المحافظة على الكتب بعدما كان دورهم أن يجعلوا الخزانة تتحول إلى مصدر إشعاع للمعرفة، بل انعدم عند بعضهم الضمير المهني وساءت معاملتهم لتلك البقية الباقية من القارئين بعدما كانوا يستعملون أرقى أساليب المعاملات لجذب هؤلاء الناس إلى القراءة والبحث وتحبيبهم فيها[44].

أما اليوم وقد تعددت المعارف وتضخمت المكتبات فلم يعد بإمكان قيم واحد أن يقوم بجميع العمليات المكتبية كما كان الشأن بالنسبة لأمين الخزانة القديم، فالخزانات اليوم تحتاج إلى عدد من القيمين ذوي اختصاصات مختلفة لتسييرها والقيام بشؤونها. فإلى جانب المشرف الأعلى أو المدير يعمل القيمون من مصنفين ومفهرسين ومختصين بالدوريات، وعاملين في قسم المطبوعات، ومتخصصين في مكتبات الأطفال إلى بالبيوغرافيين مهتمين بالمخطوطات ومسؤولين عن قسم المصادر ومرشدين للباحثين وفنيين مختصين في التصوير ومكلفين بالاقتناء والتبادل إلى غيرها من الاختصاصات.

ومما يؤسف له أن بعض الخزانات الكبرى لا تزال تسند أمانتها إلى شخصيات علمية أو سياسية عسى أن تضفي على هذه المؤسسات الثقافية رداء من الهيبة والكرامة غير أن قيم اليوم ليس هو السياسي المحنك أو الفقيه المتبحر أو المؤرخ المتعمق بل إنه ذلك الرجل الذي أضاف إلى ثقافته العلمية ثقافة مكتبية. فالجمع بين هاتين الثقافتين هو وحده الكفيل بخلق قيم حديث يكون في مستوى الباحثين المحدثين.

44- أصبح أمين المكتبة في أذهان الناس مرتبطا بالكسل والتراخي والانزواء. وأصبحت خزانات المدارس العتيقة تسند مفاتيحها إلى أحد الطلبة القاطنين.

التعقيبة في المخطوط العربي

إن دراسة المخطوط العربي دراسة مخطوطية كوديكولوجية لا تزال في بداياتها الأولى، على الرغم من المجهودات التي يقوم بها بعض الأفراد والجماعات في مختلف المراكز العلمية الأوربية. فإذا كان القدماء يشيرون عرضا في تصانيفهم ومصادرهم إلى بعض عناصر علم المخطوطات العربي، فإن المحدثين لم يستطيعوا حتى الآن ملء هذا الفراغ إذ لم يدرسوا المخطوط العربي باعتباره قطعة مادية تمكن الباحثين في مجال الفيلولوجيا من الكشف عن عدد من القضايا الفكرية والحضارية والتاريخية والاقتصادية قد لا يمكن اكتشافها أو استنباطها إذ اقتصر البحث على تناول متون هذه المخطوطات دون أوعيتها المتكونة من أسفار الورق وغيره. أما المخطوط الغربي فقد خطا خطوات كبيرة في هذا المجال مما جعل الاقتداء بعلماء الغرب والاستفادة من تجاربهم في علم المخطوطات ضربة لازب بالنسبة للباحثين من العرب والمستشرقين المهتمين بهذا العلم على قلتهم. ومن موضوعات هذا العلم التي لم تدرس حتى الآن دراسة مخطوطية بل ما زالت حقلا بكرا في التراث العربي، قضية وقف الكتب[1] ودوره في تأريخ المخطوط غير المؤرخ، ومسألة الرموز والاختصارات[2] في المصنفات القديمة وعلى الأخص منها كتب الحديث، ومسألة الكراس أو الكراسة[3] وتقنية التعقيبة التي هي موضوع هذا البحث.

التعقيبة[4] عبارة عن نوع من الترقيم استعمله القدماء لترتيب المؤلفات من جهة، ولمساعدة المختصين في صناعة المخطوط، كالمرقِّمين والمسفرين وسواهم في ترتيب ملازم

1ـ انظر بحثنا عن ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية بمجلة **مجمع اللغة العربية** بدمشق، العدد 63، سنة 1988.

2ـ على الرغم مما قام به القدماء، أمثال العراقي والنووي وعياض وابن الصلاح وابن جماعة والعلموي والخطيب البغدادي صاحب كتاب **الجامع لأخلاق الراوي والسامع** الذي لم يصل إلينا، فإن هذه المسألة لا تزال بحاجة إلى معالجة المحدثين لها معالجة مخطوطية.

3ـ الكراسة في معظم المخطوطات هي عشر ورقات وقد تكون ثمانيّ كما قد تكون إحدى عشرة ورقة فهل يرجع هذا الاختلاف إلى تعدد مراكز النساخة أو إلى أسباب أخرى لم يتم الكشف عنها حتى الآن؟

4ـ يقال لها الرقاص أو الوصلة في الجامعات المغربية العتيقة كالقرويين وابن يوسف ويقال لها كذلك الرابطة..

المخطوط من جهة أخرى. ولم يكن المخطوط العربي ليختص وحده بهذه الخاصية بل إننا نجدها في معظم مخطوطات اللغات الأخرى من سامية وهندية - أوربية قديمة أو وسيطية، فمتى ظهرت التعقيبة كلون من ألوان الترقيم في المخطوط بوجه عام؟ ومن كان أسبق إلى الاهتداء إلى استعمالها في المخطوطات؟ وهل كان هناك تأثير وتأثر بين مجموعات النساخ في مختلف البقاع والعصور فيما يخص استعمال هذه التقنية؟

يبدو من خلال الأبحاث الكوديكولوجية الخاصة بهذه الظاهرة[5] أن التعقيبة كانت معروفة في اللغات السامية وفي بعض اللغات الهندية الأوربية في العصر القديم واختفت في القرون المسيحية الأولى وطوال العصر الوسيط لتعود إلى الظهور خلال النهضة الأوربية الأولى في القرن الثاني عشر الميلادي، ثم إلى الانتشار في مختلف اللغات الغربية قبيل عصر النهضة الحديثة. وفي اللوحات[6] الطينية المكتشفة في مكتبة آشور بانبال في مدينة نينوي القديمة بالعراق والتي ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد، اعتاد النساخ أن يعيدوا كتابة آخر سطر[7] من اللوحة السابقة في اللوحة التي تليها وذلك ليتمكن القارئ من قراءة متابعة، ولم تكن هذه الظاهرة لتقتصر على اللوحات المنسوخة في عهد آشور بانبال فقط[8] بل تم العثور على لوحات أخرى في نفس المكتبة نسخت في عهود سابقة تحمل هذا اللون من التعقيبة. وتؤكد مكتشفات أوغريت[9] استعمال هذه الظاهرة في اللغات السامية الأخرى حيث إن اللغة الأوكارينية تستعمل نوعاً من

[5]- خاصة البحث الذي قام به الأستاذ "فيزان" حول التعقيبة في موضوع: "بعض الملاحظات حول ظاهرة التعقيبة" (بالفرنسية).

[6]- معظم هذه اللوحات محفوظ بمكتبة المتحف البريطاني بلندن. إن الملك الذي جلس على عرش آشور بين 668 و626 ق م قد جمع في قصره مكتبة كانت تضم وثائق جد مهمة تتعلق بملكه وملك من سبقه من الملوك كما كانت تضم نسخا من أهم النصوص المتعلقة بآداب البابليين القديمة.

[7]- أطلق كل من الألمان والانجليز على هذا اللون من التعقيبة كلمتي Frangzeil و Catchline ولم يقتصر الأشوريون على استعمال التعقيبة في ترقيم اللوحات واللفائق فقط بل استعملوا الترقيم بالأرقام كذلك.

[8]- ربما استعمل الحثيون هذه الظاهرة قبل الأشوريين. فقد تبين بعد اكتشاف المكتبة الرسمية الحثية بعاصمتهم (حتوساس Hattusas) أنه إذا كان النص في أحد الرقم (كتب أو لوحات) يكتمل في رقم آخر فإن الرقم في هذه الحالة كانت ترقم، وكان النص في كل رقم آخر يبدأ بالجملة الأخيرة الواردة في الرقم السابق. انظر "تاريخ الكتاب" تأليف: د ألكسندر ستيبتشفيتش ترجمة محمد الأرناؤوط: القسم الأول، ص.24، عالم المعرفة 1993.

[9]- نسبة إلى (أوغريت) وهي أطلال مدينة اكتشفت في رأس الشمرة بالجنوب الغربي لمدينة حلب بسوريا عام 1930. يبدو أنها كانت مزدهرة في الألف الثاني ق م. والمكتشفات عبارة عن لوحات طينية مكتوبة بالكتابة المسمارية باستثناء بعض الوثائق القليلة. ومعظم نصوصها مكتوب في لغة سامية يعتقد البعض أنها إحدى اللهجات الكنعانية القديمة بينما يعتبرها البعض الآخر لغة سامية غربية إلى جانب الكنعانية والآرامية.

التعقيبة لا يختلف كثيرا عن تلكم التي يستعملها أهل بابل وآشور. ومما يدل على انتشار استعمال هذه التقنية في مخطوطات اللغات القديمة تلكم الوثائق التي اكتشفت في هيكل "بعل" بمدينة نفر[10] بالعراق حيث ظهرت عليها تعقيبات على غرار التعقيبات السالفة الذكر.

وقد لاحظ المختصون في علم المخطوطات الإغريقي أن النساخ اليونانيين في العصر القديم استعملوا تقنية مشابهة لتقنية الآشوريين لترتيب لفافات البردية الواحدة[11]. إن المتتبع لهذه الظاهرة في المخطوطات القديمة يلاحظ أن استعمالها ينتهي بانتهاء العصر القديم[12] حيث إنها تختفي في العصر الوسيط ولم تعد إلى الظهور في مخطوطات الغرب إلا في القرون القليلة التي سبقت عصر النهضة الحديثة[13]. يلاحظ المختصون في الكوديكولوجيا الإغريقية مثلا أن المخطوطات اليونانية الوسيطية كانت مرقمة ولم تعد إلى نظام التعقيبة إلا في عصر النهضة، باستثناء الحالات الشاذة التي ترجع إلى ما قبل هذا العصر بقليل، ويؤكد المختصون أن العودة إلى هذا النظام كان نتيجة الاحتكاك الذي تم بين اليونان والثقافة اللاتينية بحيث كان النساخ اللاتينيون، في بداية العصر الوسيط، يرقمون الملازم لترتيب المخطوطات برقم في ظهر آخر ورقة الملزمة أو في وجه أول ورقة منها. وفي أواسط هذا العصر أصبح يلاحظ في المخطوطات اللاتينية استعمال الحروف محل الأرقام ويسمى هذا الاستعمال بوضع العلامة. وبعد القرن العاشر الميلادي حيث بدأت أوربا تستيقظ من سباتها وتحتك بمختلف الحضارات والثقافات كالثقافة العربية مثلا، أصبح يلاحظ في مخطوطاتها استعمال التعقيبة وهي كتابة كلمة أو كلمتين من الملزمة التالية على ظهر آخر ورقة من الملزمة السابقة. فما هو إذن السبب الذي دفع النساخ اللاتينيين إلى الانتقال من الترقيم بالأرقام ثم بالحروف إلى الترقيم بالتعقيبة؟ هل كان ذلك بمحض المصادفة أم حدث تأثر وتأثير بين هذه الشعوب ذات اللغة اللاتينية أو اللغات المتفرعة

---

[10] - نفر هي مدينة نيبور (Nippour) عاصمة السومريين الدينية في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد، وكتابة اللوحات المكتشفة كتابة مسمارية.

[11] - اكتشفت بعض البرديات تحمل قسما من إلياذة هوميروس فيها شيئ يشبه التعقيبة.

[12] - استمر استعمال التعقيبة عند البابليين والفرس إلى نهاية الألف الأول قبل الميلاد، ومع بداية العصر الوسيط يلاحظ فقط استعمال العلامة وهي الترقيم بالحروف لترتيب الملازم.

[13] - انظر فيزان (Vezin) : بعض الملاحظات حول ظاهرة التعقيبة.

عنها وبين أجناس أخرى كانت تستعمل هذه التقنية؟ إن الكوديكولوجيين الغربيين لم يدركوا العوامل التي دعت إلى التحول من نظام الترقيم والعلامة إلى نظام التعقيبة، على كل حال فإن الشعوب الغربية قد أصبحت تستعمل هذه التقنية في مخطوطاتها في القرون الأخيرة من العصر الوسيط على غرار الشعوب السامية، فإذا تم هذا عن طريق المصادفة فإنه يعتبر شيئا ممكنا عند علماء الانتروبولوجيا الذين يعتبرون أن تشابه التقنيات لا يعني بالضرورة وجود علاقة بين المجموعات التي اهتدت إلى استعمالها، فالطباعة بحروف متحركة[14] مثلا هي تقنية قد ظهرت عند شعبين مختلفين هما الصين وكوريا من جهة وأوربا من جهة ثانية، ولم يعثر الباحثون على أية دلائل تثبت وجود علاقة ما بين هذه الشعوب التي اهتدت بمحض المصادفة إلى هذه الظاهرة.

أما إذا كان اهتداء هذه الشعوب إلى استعمال هذه التقنية في المخطوطات الغربية ناتجا عن التأثر والتأثير، فما هي أقدم المخطوطات التي تحمل التعقيبة في مختلف اللغات الأوربية في آخر العصر الوسيط؟ بعبارة أخرى ما هي اللغة التي سبقت إلى استعمال هذه التقنية ثم تكون قد أثرت في اللغات الأخرى؟ يجمع الباحثون على أن استعمال نظام التعقيبة في العالم اللاتيني بدأ منذ القرن الحادي عشر الميلادي - وما كان قبل ذلك يعتبر شاذا- وكاد يكون عاما في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر حيث ظهرت الجامعة لأول مرة في البلاد الغربية، يقول دستري[15]: إن التعقيبة ظهرت مع بداية جامعة باريز خصوصا فيما كان يسمى بالمخطوطات الجامعية[16]. وتثبت الأبحاث الكوديكولوجية الأخيرة أن أولى الدول الغربية التي استعملت مبكرا التعقيبة في ترتيب المخطوطات هي إسبانيا وإيطاليا، ومنهما انتقلت هذه

[14]- في المكتبة الوطنية الفرنسية بباريز اكتشف في السبعينات من هذا القرن كتاب مطبوع في مطبعة القصر الملكي بكوريا بطريقة حديثة عام 1379م. وقد صنف خطأ مع المخطوطات وربما يرجع السبب في ذلك إلى شدة التشابه الموجود بين المخطوطات والمطبوعات الاستهلالية (Incunables).

[15]- انظر أ. دستري: **التنسيخ الجماعي في المخطوطات الجامعية في القرن الثالث والرابع عشر الميلادي**، باريز، 1935.
Destrez : **La Pecia dans les manuscrits universitaires dans les XIII et XIV siècles, Paris, 1935.**

[16]- المخطوطات الجامعية هي تلكم المؤلفات التي تحتوي على إحدى المواد الأربعة الأساسية المدرسة في جامعة باريز أنذاك وهي الفنون الحرة، اللاهوت، القانون والطب.

التقنية إلى باقي اللغات الغربية[17]. يلاحظ في فرنسا أن أقدم المخطوطات الفرنسية التي استعمل فيها نظام التعقيبة تلكم التي نسخت في الجنوب الغربي الذي عرف نشاطا ثقافيا كبيرا واتصالا علميا مهما مع مملكات الإسبان المسيحية في القرن الحادي عشر الميلادي، ومن المحتمل أن يكون قد تمخض هذا التلاحم بين الجانبين عن تأثر الفرنسيين بطرق النساخة الإسبانية، ولا شك أن هذه الطرق تحمل من بين ما تحمل نظام التعقيبة في المخطوطات في فترة مبكرة. هل أثر أحدهما في الآخر أم أخذ الطرفان معا من منبع ومصدر واحد[18]؟. احتمال ظاهرة التأثير والتأثر احتمال غير مستبعد ولكن ليس هناك ما يثبت وجود علاقة ثقافية ما بينهما بخصوص الموضوع الذي يهمنا على الرغم من كون اللغة الإسبانية واللغة الإيطالية لغتين لاتينيتين. يحتمل إذن أن يكون البلدان قد نهلا من مصدر واحد، فما هو المصدر الذي من المحتمل أن يكون قد أثر في البلدين معا من حيث طرق نساخة المخطوطات؟

إن نظام التعقيبة الذي اختفى في مخطوطات اللغات الغربية في القرون الأولى من العصر الوسيط قد ظل معمولا به في بعض اللغات السامية وعلى الأخص منها اللغة العربية، وإذا بحثنا في العلاقات بين كل من إسبانيا وإيطاليا وبين إحدى الشعوب السامية في هذه الفترات نجد أن للدولتين الأوربيتين معا علاقات اجتماعية وثقافية مع العرب منذ أواخر القرن الأول الهجري بالنسبة لإسبانيا ومنذ القرن الهجري الثاني بالنسبة لإيطاليا خاصة صقلية، إنه لا يخفى على أحد ذلكم التلاحم والتمازج اللذان سادا هذه الشعوب عدة قرون، وذلكم النشاط الثقافي الكبير الذي اتسم به العقل العربي في كل من صقلية ومدن إسبانيا المسلمة، خاصة في ميدان الترجمة التي لعبت دورا أساسيا وفعالا في تطوير الحضارة الغربية، ومن المحتمل جدا إذن أن تكون طرق نساخة المخطوطات العربية بما في ذلك نظام التعقيبة قد دخلت ميدان النساخة في البلدين المذكورين باعتبار العلاقات المتينة التي كانت تربط بينهما وبين العرب.

17_ يثبت أحد الفيلولوجيين المحدثين بيشوف (Bischoff) أن استعمال التعقيبة انتقل إلى ألمانيا عن طريق إيطاليا في القرن الثاني عشر.

18_ بعض المخطوطات اللاتينية المنسوخة في إسبانيا في القرن العاشر والمحفوظة في الخزانة الوطنية بباريز بقسم المخطوطات الغربية تؤكد أن التعقيبة كانت مستعملة في إسبانيا منذ القرن العاشر.

انطلاقا من اعتقادنا بصحة هذا الاحتمال انبرينا للبحث في استعمال هذه التقنية في النساخة العربية وذلك بدراسة أقدم ما بقي من مخطوطاتنا المحفوظة في مختلف الخزانات العالمية. يعتقد المختصون في هذا المجال أن التعقيبة لم تظهر في المخطوط العربي إلا بعد القرن الرابع الهجري وأن النساخ العرب المسلمين لم يستعملوا أية وسائل أخرى لترقيم المخطوط[19]. فكيف يقبل عاقل هذا الرأي؟ أيعقل أن ينسخ مخطوط بدون اللجوء إلى وسيلة من الوسائل لترتيب أوراقه تيسيرا على قارئه أو دارسه؟ إن البحث عن المخطوطات القديمة ودراستها دراسة كوديكولوجية حديثة لمن شأنه أن يثبت عكس ما قاله بعض المختصين في شأن التعقيبة وترقيم المخطوطات بوجه عام. وقبل القيام بهذا العمل العلمي الذي يفتقر حتى الآن إلى وسائل مادية وكفاءات بشرية في العالم العربي، نكتفي بالإشارة إلى مجموعة من المخطوطات القديمة ظهرت فيها التعقيبة قبل القرن الخامس بكثير. وقد فحصنا بعضها وثبت لدينا حسب تجربتنا المتواضعة أن التعقيبة أصيلة في المخطوط ولم تكن من إضافة ناسخ آخر كما قد يكون محتملا بالنسبة لمخطوطات أخرى.

لقد وصل إلى علمنا أن الخزانة الظاهرية بدمشق تحتفظ بنسخة من ديوان الفرزدق بها تعقيبة وقد نسخت عام 331 هـ أي في القرن الرابع الهجري، وتضم الخزانة الوطنية الفرنسية بباريز نسخة من كتاب المدخل الكبير في علم أحكام التجوم لأبي معشر البلخي نسخها على المطرز عام 325 هـ وقد استعمل نظام التعقيبة لترتيب الكتاب[20]. وتحتفظ خزانة جستر بيتي (دبلن، إيرلندة) بمخطوط بخط ابن البواب يحمل تعقيبة، وقد نسخه عام 391 للهجرة[21]. إذا كانت هذه النماذج ترجع كلها إلى القرن الرابع الهجري فإن بعض ما بقي من مخطوطات القرن

---

[19] - يقول الحلوجي: "ولم تكن أوراق المخطوط العربي في أول عهدها تخضع لأي نوع من الترقيم..." إلى أن قال: "ويبدو أن تلك التعقيبات لم تظهر إلا بعد القرن الرابع الهجري لأننا لا نجد لها أثرا في أي مخطوط من مخطوطات القرنين الثالث والرابع التي تحت أيدينا بما في ذلك المصاحف، ومن يدري؟ فلعل المستقبل يأتينا بجديد في هذا الموضوع" انظر : **المخطوط العربي**، ص 167، الطبعة الثانية.

[20] - محفوظ بقسم المخطوطات الشرقية بالخزانة الوطنية الفرنسية بباريز تحت رقم 5902 Fol IV .

[21] - انظر فهرست هذه الخزانة الذي وضعه المستشرق الأنجليزي أربري.
ARBERRY (A); The chester Beatty library, Dublin, 1955-64.

الثالث يحمل التعقيبة كذلك، ككتاب تاريخ ملوك العرب لعبد المالك الأصمعي الذي نسخه ابن السكيت بخط يمينه في العاشر من شهر شوال عام 243هـ[22]، وقد بدا لنا بعد الفحص الشديد أن اليد التي نسخت الكتاب هي التي وضعت التعقيبة بحيث يلاحظ تشابه تام بين الحروف. وقد يدل هذا على استعمال هذا النظام منذ البدايات الأولى للتأليف العربي، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا ينبغي اعتبار هذه التقنية ظاهرة عامة في المخطوط العربي بحيث إن مجموعات أخرى من مخطوطات القرنين الثالث والرابع لا تحتوي على تعقيبة[23]، وقد يرجع السبب في ذلك إلى عدم استعمالها في جميع مراكز التنسيخ الشرقية أو لأنها ضاعت أثناء ترميم المخطوطات وتسفيرها في فترات متعاقبة من التاريخ حيث كان مقص المسفر لا يعرف إلى الرحمة من سبيل. ولا يعتبر هذا غريبا إذا تتبعنا دراسة هذه التقنية في المخطوطات العربية التي نسخت بعد القرن الخامس الهجري.

إن الوقوف على مجموعات خطية ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين يؤكد ما قلناه بالنسبة لمخطوطات الفترات السابقة. بعضها يحمل تعقيبة بدون ترقيم، وبعض آخر يحمل التعقيبة في بعض الأوراق أو في جزء من أجزاء المخطوط، وصنف ثالث يستعمل التعقيبة حسب الكراريس بحيث لا تظهر التعقيبة إلا بعد إحصاء عشر ورقات، وقد تظهر أحيانا فقط في ثلاث أو أربع ورقات في المخطوط كله، وقد لا نجد لها أثرا في كثير من مخطوطات هذا العهد. وقد تكون عبارة عن حرف أو كلمة أو كلمتين أو عبارة، وقد تكون حرفا في الجزء الأول من المخطوط وكلمة في الجزء الآخر. ومن حيث شكل كتابتها فإنها تكون على العموم أفقية أو مائلة في أسفل الجهة اليسرى من الورقة أو في وسطها، وقد تجيء أحيانا عمودية[24] كما جاء في

22- محفوظة بالخزانة الوطنية تحت رقم 6726 Fol 2V يظهر لأول وهلة أن التعقيبة من نفس مداد وخط المخطوط.

23- انظر كوركيس عواد: أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى سنة 500هـ، العراق 1982. وقد أحصى فيه المؤلف 717 مخطوطا، غير أنه لم يقف على كل ما بقي من مخطوطات هذه الفترة كغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام المحفوظ بخزانة جامعة ليدن بهولندة والذي نسخ حسب الكولوفون (Colophon) في شهر ذي القعدة من عام 252 هـ الموافق لشهر دجنبر عام 866 م. وهو بهذا التاريخ يعتبر أقدم مخطوط مكتوب على الورق معروف حتى الآن، ولا يحمل تعقيبة.

24- أخبرني بعض العبرانيين العاملين بالمركز الوطني للبحث العلمي بباريز أن التعقيبات العمودية قد ظهرت في المخطوط العبري منذ القرن الرابع عشر الميلادي، خاصة عند النساخ الاشكيناز.

كتاب شرح الألفات لأبي بشار الأنباري وكتاب شرح منازل السائرين للكاشاني المحفوظ كلاهما بمكتبة برلين الوطنية بألمانيا[25].

إن الملاحظات التي نبديها بالنسبة لمخطوطات الفترة السالفة الذكر قد نعثر عليها في مخطوطات العصور الإسلامية المتأخرة. فما هي إذن الأسباب التي يمكن أن تكون وراء هذه الاستعمالات المختلفة لهذا العنصر الصغير من عناصر صناعة المخطوط في المخطوطات العربية منذ بداية التأليف إلى عصر الطباعة؟[26]. إن المخطوطات التي ينعدم فيها الترقيم سواء بالتعقيبة أو بالأرقام أو بالعلامة أو تلكم التي ترقم بواسطة التعقيبة ولم يبق منها إلا الحرف الأول من الكلمة، هي مخطوطات أعيد تجليدها وترميمها عبر القرون في غالب الظن، فلا يمكن أن ينسخ مخطوط ويجلد دون أن يلتجئ الناسخ أو الصانع إلى نوع من أنواع الترقيم المذكورة ليمكن تتبع قراءة الكتاب، كما لا يعقل أن تظهر التعقيبة كاملة في بعض الأوراق ولا يظهر منها إلا الحرف الأول في بعضها الآخر. أما فيما يخص المخطوطات المرقمة بالتعقيبة في أشكال مختلفة فإن ذلك يرجع إلى اختلاف مراكز النسخ التي تمت فيها نساخة هذه المخطوطات على الرغم من تزامن النسخ، ولا يمكن الإجابة عن هذه التساؤلات بصفة نهائية إلا بالوقوف على مجموعات خطية متزامنة نسخت كل مجموعة منها في مركز معين. فتحديد الزمان والمكان هو الشرط الذي يمكننا من دراسة الاستعمالات المختلفة لهذه التقنية، ولن يأتي هذا بمجرد دراسة رصيد مكتبة واحدة أو مكتبتين لأن أرصدة مختلف المكتبات من المخطوطات العربية تتكون من مجموعات ذات مصادر مختلفة متعددة. وبالإضافة إلى ذلك فإن العديد منها يفتقر إلى ذكر مكان النسخ، كما يحدث غالبا بالنسبة لاسم الناسخ وتاريخ النسخ. إن تحديد أنماط التعقيبة في المخطوط العربي يدعو إلى وضع نوع من الفهارس أو الكشافات يسمى فهرس أو كشاف المخطوطات المنسوخة في المكان الواحد كما يصنع الآن في مختلف المكتبات والمراكز العلمية

25- وقفنا على المخطوطين معا في هذه الخزانة العظيمة. انظر فهرستها الذي صنفه المستشرق الألماني الورد (Alward) عام 1898م في عشرة مجلدات تضم آلاف المخطوطات العربية.

26- نلاحظ استعمال التعقيبة في المطبوعات الحجرية الأولى، وقد استعملها الغربيون في المطبوعات منذ القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر الميلادي، وبعد هذه الفترة حلت محلها العلامة (signature) أي رقم أو حرف في أسفل الورقة أو الملزمة.

بالنسبة للمخطوطات المؤرخة التي وضعت لها فهارس خاصة. إن هذه الكشافات هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن الكوديكولوجي أو المختص في علم المخطوطات من دراسة هذه التقنية وأنواع استعمالاتها في المخطوط العربي، وبدونها قد يتعذر البحث في هذا المجال، وما وقفنا عليه من مخطوطات عربية في مختلف الخزانات الدولية، لا يكفي لاستخلاص نتائج نهائية تتعلق بنظام التعقيبة، وإن احتمال ظهورها في المخطوطات العربية قبل غيرها من مخطوطات اللغات الغربية في القرون الأخيرة من العصر الوسيط، يستوجب المزيد من البحث في المخطوطات العربية وفي مخطوطات إيطاليا وإسبانيا خاصة تلكم التي نسخت في شمال البلاد منذ القرن الرابع الهجري، إذ أن هذه المخطوطات تعتبر الجسور الثقافية التي أوصلت الثقافة إلى الغرب وأن دراستها تدعو إلى الإلمام بالباليوغرافيا خاصة الباليوغرافيا اللاتينية التي كتبت بها لغات الثقافة في أوربا في العصر الوسيط. وهذا النوع من البحث المقارن ظل حتى الآن عبارة عن محاولات فردية، ولن يصل إلى النتائج المتوخاة إلا في إطار مؤسسات دولية على أن تقوم به جماعات من الباحثين يعرفون لغات الغرب القديمة، وبما أن هذا النوع من المؤسسات غير موجود وأن الملمين باللغة اللاتينية من العرب المختصين في علم المخطوطات قليلون، فإن دراسة التعقيبة تكاد تكون دراسة متعذرة في الوقت الراهن، فليكن إذن هذا البحث المتواضع نداء إلى المختصين في هذا المجال لينهضوا بمثل هذه الأبحاث التي قطعت أشواطا مهمة في الدراسات الكوديكولوجية الغربية.

موقف العرب والمستشرقين من إحراق

أكبر خزانة في العصر القديم

خزانة الإسكندرية

من التهم التاريخية التي لفقت ضد العرب تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص بأمر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليس من هدف وراء هذه التهمة سوى الحط من الشعب العربي، وبالتالي التنقيص من الإسلام ونعته بالتخلف عن الحضارة الإنسانية. وإذا كانت المكتبات الدعائم الأساسية التي تشاد عليها صروح العلم والحضارة والثقافة والينابيع الفياضة التي تغذي تقدم الأمم العلمي والحضاري بماء الحياة والبقاء، فإنه لا يخفى على العالم اليوم مدى عناية المسلمين في عصورهم الأولى بالمكتبات، كما لا يستطيع أحد أن ينكر أنه لولا هذه العناية بالخزانات ومحتوياتها واحترام أهل العلم وتقديرهم، لما أمكن لهذه الأمة الإسلامية العظيمة أن تحقق في سنوات معدودات ما عجزت عن تحقيقه أمم أخرى قديمة أو معاصرة في قرون متوالية.

كان مشكل إحراق مكتبة الإسكندرية موضع نقاش حاد وصراع طويل بين العرب والمستشرقين من جهة، وبين المستشرقين أنفسهم من جهة أخرى، خاصة في القرن التاسع عشر حيث احتدم الصراع مع ازدهار حركة الاستشراق وظهور بعض أعمدتها الذين عرفوا بمناهضتهم للسامية كالعالم الفرنسي رينان (E.Renan 1892م) وغيره.

وعلى الرغم من هذا النقاش الطويل الذي يكاد يشبه من بعض الوجوه المناقشات الدينية البيزنطية، فإن المشكل لا يزال بحاجة إلى حل يرتضيه الجميع ويقتنع به كل الباحثين.

ومما يدل على أن المشكل لا يزال قائما هو أنه قد تجاوز الأوساط العلمية التي اهتمت به منذ ظهوره على مسرح البحث وأصبح يُتحدث عنه في الأوساط السياسية الدولية؛ من ذلك أن ممثلا لإحدى الدول الغربية في هيئة الأمم المتحدة لم يستطع أن يخفي كراهيته للجنس العربي في بعض الاجتماعات، فندد فيه بأن المسلمين العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية لما فتحوا مصر في القرن السابع بعد الميلاد، فاضطر أحد المندوبين المشارقة للرد عليه وبين أن ما نسبه زميله للعرب في هذا الشأن إن هي إلا تهمة ألصقت بهم، إذ لا يد لهم في هذا الموضوع.

ونظرا لما يكتنف هذا الموضوع من غموض وإبهام، واعتبارا لاختلاف آراء المؤرخين والكتاب من عرب ومستشرقين حول هذه القضية، رأيت أن ألم في هذا البحث بخلاصة ما انتهى إليه الباحثون من نتائج، معرفا أولا تعريفا موجزا بخزانة الإسكندرية: نشأتها ومحتوياتها ودورها في تطوير الفكر الهيلنستي، مسطرا المراحل التي تم فيها إحراقها قبل الفتح العربي، ثم أعرض لموقف العرب قدماء ومحدثين من القضية وأتبعه بموقف المستشرقين الذي يختلف باختلاف نزعاتهم وأهوائهم، وأختم بكلمة عن موقف الإسلام من العلم والعلماء، يتضح من خلاله تنزيه الفاتحين المسلمين عن عمل شنيع مثل هذا هو وتعاليم الإسلام في الحث على العلم والتعلم على طرفي نقيض.

ما هي إذاً مكتبة الإسكندرية؟ يكاد يتفق الباحثون على أن مؤسس هذه المكتبة هو بطليموس الأول في أواخر القرن الرابع ق م، وطورها ونماها خلفه بطليموس الثاني المدعو فلادلفوس. وكان يرمي من إنشائها إلى نقل الثقافة اليونانية إلى مصر وإلى جمع كافة آدابها في مجموعة من أحسن النسخ وترتيبها والتعليق عليها.

كان موقع المكتبة بحي من أفخم أحياء الإسكندرية آنذاك يدعى بالبركيوم، حيث توجد القصور الملكية، وحيث يوجد المتحف Museon الذي أنشئ على غرار مدرسة المشائين الشهيرة "بأثينا" Lycée التي أسسها أرسطو. وعلى العموم لم تحرز مكتبة من مكتبات العالم القديم ما أحرزته مكتبة الإسكندرية من بعد الصيت واتساع الشهرة، لأنها جَمَعَتْ من

أصناف العلوم والفنون ما كان قد انتهى منها إلى القوم حينذاك، ففيها خلاصة معارف البشر قد جمعت، وفي رفوفها وخزائنها كان يرى تراث الثقافات المختلفة منسقا مبوبا ولاسيما ثقافة اليونان، وقد كان علماء ذلك العصر الذي ازدهرت فيه هذه المكتبة وعلا شأنها يختلفون إليها وينهلون من ينابيع المؤلفات الكثيرة المكنونة فيها، تلك المؤلفات التي كانت تعد بمئات ألوف المجلدات، ويروى أن خزانة أرسطو كانت ضمن مجموعات هذه المكتبة حين تم نقلها من "أثينا" إلى الإسكندرية[1]، ويحكي أثيني Athenée أن نقل هذه الخزانة الأرسطية قد تم على الشكل التالي: ترك أرسطو كتبه لثيوفراسط Théophraste[2] وتركها هذا إلى نيلوس Nelus ومنه اشتراها بطليموس الأول الذي حملها إلى خزانته الملكية بالإسكندرية مع مجموعات أخرى اقتناها من أثينا وروضة Rhodes[3].

ومن بين مجموعات هذه الخزانة كتب من الكلدانيين والمصريين والعبريين والرومان اقتناها بطليموس الثاني ونقلها إلى اللغة اليونانية[4].

وكان الشاعر الإغريقي كاليماخوس (Callimacus) 240 ق م من جملة العلماء المشرفين على هذه المكتبة، وإنه أنشأ لكتبها فهارس موضوعية سميت باسم Pinakes، ويعتبر هذا الفهرس من أقدم الأمثلة على الببليوغرافيا في العالم. ولم يصل من هذه الببليوغرافيا إلا مقتطفات نسخت عن الأصل. وكان عنوان هذا الفهرس كالتالي: **"قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها"**.

ويشتمل في أصله على 120 لفافة بردية، قسمه كاليماخوس إلى ثمانية أقسام:

---

[1]- يحكي المؤرخون القدماء أن قسما كبيرا من خزانة أرسطو نقل إلى روما. وحسب سترابون Strabon يبقى أرسطو أول من جمع أول مجموعة للكتب وأول من علم ملوك مصر كيف يجمعون وينظمون مكتبة.

[2]- تلميذ أرسطو بعدما كان تلميذا لأفلاطون: توفي سنة 287 قبل الميلاد.

[3] -**Manuel bibliographique,** G.Peignot, 1800, p.9.

[4]- إن حصول بطليموس الثاني على كتب اليهود المقدسة من بينها التوراة كان حافزا له على نقل هذا الكتاب المقدس إلى الإغريقية وهو الذي سمي في التاريخ بالترجمة السبعينية التي تعد بالإضافة إلى الترجمة اللاتينية أو Vulgate في القرن الرابع الميلادي المأثور المسيحي للعهد القديم إلى جانب المأثور اليهودي المبني على النص العبري الذي نسخته جماعة الكاتبين اليهود (Sopherim).

1. المؤلفون المسرحيون

2. شعراء الملاحم والأناشيد

3. المشرعون

4. الفلاسفة

5. المؤرخون

6. الخطباء

7. أساتذة علم الخطابة

8. مؤلفون متنوعون

ويبدو من خلال هذه المحتويات أن المكتبة كانت في جوهرها مركزا للآداب، ولاشك أن الكتب العلمية قد وضعت في قسم الفلسفة نظرا لمفهومها القديم، وأغلب هذه الأقسام كان مرتبا ترتيبا موضوعيا . . .[5]

ومن خلال هذا الفهرس يمكن استخلاص أنواع الكتب التي كانت تضمها رفوف هذه الخزانة. أما عدد المؤلفات فمختلف فيه، منهم من جعلها 400.000[6] كتاب، ومنهم من جعلها 500.000 ومنهم من جعلها 700.000[7]، ويدل هذا على أن مكتبة الإسكندرية أكبر مكتبة في العصر القديم، وبفضلها كانت الإسكندرية عاصمة الدنيا الفكرية والثقافية طوال العصور الهلنستينية[8].

وقبل الحديث عن إحراق هذه الخزانة نشير إلى أن المكتبة التي هي موضوع البحث ليست خزانة واحدة بل هما مكتبتان: أكبرهما هي التي سبق الحديث عنها، استمرت في نشاطها إلى سنة 47 ق م فأحرقت لما غزا يوليوس قيصر الإسكندرية وخربها[9].

---

[5]- تاريخ العلم: جورج سارتون، ج الرابع. الفصل العاشر، ص.358.

[6]- Sénèque القرن الأول الميلادي: كاتب ومؤرخ روماني.

[7]- أميان Ammien: مؤرخ لاتيني من أصل إغريقي 400م.

[8]- كان إلى جانب الخزانة متحف يضم عدة مدارس للطب والتشريح والرياضيات والفلك وغيرها. ويلاحظ أن كتب هذه الخزانة مدونة في أغلبها على ورق البردي وعلى الرقوق (الجلود).

[9]- يقول Sénèque : 400.000 مخطوط محتوى خزانة الملك فيلادلفوس التهمتها النيران عند هجوم يوليوس قيصر. سنيك Sénèque: من رجال القرن الأول الميلادي، وهذا يدل على أن إحراق الخزانة قد تم قبل فتح العرب لها بقرون عدة. انظر: Manuel bibliographique : Peignot. Introduct.

ويقول المؤرخ المسيحي أورسيوس (القرن الخامس الميلادي): "وفي أثناء النضال أمر قيصر بإحراق أسطول الملك، وكان عند ذلك راسيا على الشاطئ فامتدت النيران إلى جزء من المدينة وأحرقت فيها أربعمائة كتاب كانت في بناء قريب من الحريق، فضاعت خزانة أدبية عجيبة مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة الجليلة من مؤلفات النابغين"[10].

وبعد هذا الحادث الذي أتى على هذه الخزانة أرسل أنطونيو إلى الإسكندرية مكتبة ملوك برغامة[11] ووضعتها كليوبترا في معبد سيرابيوم (Sérapium) الذي حل محل المتحف في تحصيل العلم وأنشئت جامعة بها عدد عظيم من الكتب.

فنهاية المكتبة وهي المكتبة العظمى لا يختلف فيه اثنان. أما الأخرى التي تسمى بالمكتبة الصغرى أو المكتبة الوليدة هي التي كانت موضع الخلاف وهي التي ألصقت تهمة إحراقها بعمرو بن العاص. ويذكر المؤرخون أن معبد السرابيوم الذي كان حصن الوثنية وملاذها والذي كان يضم أكبر مكتبة آنذاك قد هاجمه المسيحيون وخربوه سنة 391 م.

فهناك من يقول إن المكتبة قد دمرت فيما دمر، وهناك من يقول إن المكتبة قد نهبت نهبا منظما وأرسلت الكتب إلى رومة والقسطنطينية، وهناك من يشك في إحراق المكتبة إلى جانب معبد السرابيوم - على كل حال فإن أورسيوس (P.Orose) زار الإسكندرية سنة 416م ورأى الصناديق في مكتبات الإسكندرية فارغة ليس عليها شيء من الكتب[12].

ما هو موقف المؤلفين العرب من هذه التهمة ومن هو أول عالم أشار إليها ؟

من الثابت تاريخيا أن المؤرخين العرب الأوائل لم يشيروا بتاتا إلى هذا الحريق الذي أضاع على العالم مؤلفات ثمينة لمؤلفين لم تصل إلينا أسماؤهم، وأفقد الحضارة تراثا مجيدا لا يمكن

[10] - Paul Orose : **Histoire contre les païens**

[11]- برغامة Pergame توجد بآسيا الصغرى: تركيا حاليا، كان الأتابكة بها خزانة من أكبر خزائنات العصر القديم تضم 200.000 كتاب، وكانوا ينافسون بها مكتبة البطالسة مما جعل هؤلاء الأخيرين يمنعون تصدير ورق البردي إلى برغامة وذلك في سبيل إضعافها. وكان من نتائج هذا المنع أن ظهر في برغامة نوع من الجلد يكتب فيه وذلك للقضاء على ورق البردي والذي يدعى بالفرنسية Parchemin.

[12]- انظر: P.Orose :**Histoire contre les païens**
وانظر كذلك الكتاب المسيحيين أمثال : Sozomène, Ruffin وغيرهما.

أن يُعوّض عنه. فلم نعثر عند اليعقوبي وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي على ذكر لهذا الحدث، بل إن ابن النديم ترجم ليحيى النحوي في الفهرست وقال: إنه عاش إلى أن فتحت مصر على يد عمرو بن العاص، فدخل إليه وأكرمه ورأى له موضعا، فابن النديم ترجم لهذه الشخصية التي كانت المحور الذي تمحورت حوله هذه القضية ولم يشر إلى حريق المكتبة. وهكذا استقر الأمر إلى أواخر القرن السادس الهجري حتى أخرجَهُ طبيب إلى حيز الوجود... فلماذا سكت الأوائل عن هذا العمل الشنيع؟ إنهم سكتوا عنه لأنهُ لم يَحدث، ولأنه نسيج من الباطل، غير أن بعض المحدثين من العرب والمستشرقين رأوا رأيا آخر. يرى جورجي زيدان أن المؤرخين العرب تحدثوا عن الواقعة ولكنها حذفت بعدما نضج المجتمع الإسلامي واهتم بالعلم، وهذا تحليل ضعيف لأن جل الكتب التي أشرنا إليها سبق المستشرقون إلى تحقيقها واعتمدوا في ذلك مقابلة النسخ الموجودة لكل كتاب.

أما المستشرقون فيعللون هذا السكوت بأن المؤرخين العرب لم يتعرضوا في تواريخهم لظاهرة إحراق الكتب مستدلين على ذلك بعدد من المكتبات التي أحرقت في العراق وفارس على يد الإسكندر وغيره، ولم يوجد لها ذكر في تآليفهم، وهذا دليل لا يقوم، لأن استقراء كتب المؤرخين العرب استقراء شاملا دقيقا من شأنه أن يدحض آراء المستشرقين ويعطي نتائج مخالفة لاستنتاجاتهم. فمتى إذن ظهر هذا الخبر المفجع؟ ومن الذي سجله لأول مرة وأصبح فيما بعد المصدر الأساسي المعتمد عند الباحثين؟ ثبت تاريخيا أن أول كاتب سجل الخبر هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة 629 هـ، فلم يكن هذا الرجل مؤرخا فقط بل كان متكلما ومحدثا ولغويا وطبيبا، وجل مؤلفاته كانت في الطب. وورد الخبر في أحد كتبه المسمى **الإفادة والاعتبار** حيث يقول:

"ورأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صَحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وشيعته من بعده

وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه"[13].

هكذا كانت هذه العبارة وفيها جاء خبر الإحراق عرضا، فلأول وهلة نلاحظ أن البغدادي يتحدث عن مكتبة المتحف التي ثبت تاريخيا أن يوليوس قيصر هو الذي أحرقها عندما أمر بإحراق السفن.

أما الذي أورد الخبر مع شيء من التفصيل وكان الثاني في لائحة الذين ذكروا الخبر من المؤلفين العرب هو العالم الكبير جمال الدين القفطي المتوفي سنة 646 هـ. جاء في **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ما يلي:

"قال يحيى لعمرو بن العاص: إنه قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها، فأمّا مَالك به انتفاع فلا لعارضك فيه، وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به. فأمر بالإفراج عنه. قال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه، قال: كتب الحكمة في الخزائن الملوكية وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها، فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى واستأذنه ما الذي يصنع فيها، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب الذي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفرقتها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقدها وذكروا أنها استنفدت في مدة ستة أشهر. فاسمع ما جرى واعجب"[14].

نقل هذا الخبر ابن العبري في كتابه **مختصر تاريخ الدول** ثم تبعه ابن دحية الكلبي في كتابه **النبراس في تاريخ آل العباس** ثم عمر أبو الفداء في كتابه **المختصر في تاريخ البشر** وأخيرا المقريزي في كتابه **المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار** المعروف بخطط المقريزي[15].

13ـ انظر الإفادة والاعتبار، ص.28.
14ـ اخبار الحكماء، للقفطي. (جاء هذا الحديث في إطار الترجمة التي خصّ بها القفطي يحيى النحوي).
15ـ ابن تغزي بردي والسيوطي سكتا عن الخبر.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كالتالي: ما هو المصدر الذي اعتمده البغدادي أو القفطي في هذا الخبر؟ المصدر مجهول وحتى كتابة هذه السطور لم يعثر على مصدر يمكن أن يكون قد اعتمده العالمان السابقان. فما هي تحليلات المستشرقين الغلاة في هذه الحالة؟ يستدل أحدهم وهو كازانوفا Casanova على إيقاظ هذه الأسطورة في هذه الفترة بالذات بعدة أشياء منها: لما استولى الأيوبيون على الحكم وأنهوا دولة الفاطميين الشيعة سنة (567هـ) بدأ صلاح الدين يوزع ويبيع بالمزاد كنوز قصور الفاطميين وخاصة مكتبتهم، لأن جل محتوياتها كتب شيعية[16] (جاء هذا الخبر فعلا في كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين** لأبي شامة المتوفى سنة 665 هـ)، يعتقد Casanova أن تشتيت المكتبة الفاطمية بعد قهر أصحابها من شأنه أن يوقظ في النفوس أسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية. ويضيف هذا المستشرق أن انتصارات صلاح الدين الأيوبي المتوالية وانتزاعه مدينة القدس من يد الصليبيين (سنة 583 هـ) مما يذكي قرائح الشعراء فيصوغون الأشعار مذكرين بالفتوحات الإسلامية الأولى مشبهين صلاح الدين بعمرو بن العاص القائد العظيم فاتح مصر. بل وجد في محيط صلاح الدين من الأدباء والقواد من سماهُ بالفاتح الثاني بعد عمرو بن العاص. فيعتقد هذا المستشرق أن مواقف هذا الرجل سامية وانتصاراته الباهرة ذكرت بمواقف ابن العاص وأحيت معه أسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية. ففي رأيه أن الناس كانوا يتناقلون هذه الخزانة جيلا بعد جيل حتى جاء الوقت المناسب وأدخلت في التأليف العربي بعد ذلك، وإن كازانوفا Casanova لا يكتفي بهذا بل يقول: إن مثل هذه الأساطير التي تدخل في إطار الحكايات الشعبية كثيرا ما يكون لها حظ وافر من الصحة، ثم يعطينا مثلا من ألف ليلة وليلة يشبه في نظره إلى حد ما خرافة إحراق مكتبة الإسكندرية مفاده أن أبواب بغداد كانت تغلق في الليل خوفا من الملحدين الذين ربما يسيطرون على المدينة ويرمون بكتب العلم في نهر الفرات. الغاية من هذا الكلام أن الأساطير الشعبية التي لها جانب كبير من الصحة تتناقلها الشفاه قرونا وقرونا وتستقر أخيرا في كتاب من الكتب -.

---

[16] - كازانوفا لم يعتمد تاريخ أبي شامة بل اعتمد مصدر Quatremère الذي نقل عن أبي شامة وكتابه: **مذكرات أو مباحث جغرافية وتاريخية عن مصر** .Mémoires géo. et hist. Sur l'Egypte, Paris, 1811, 2 vol

هكذا يعلل المستشرقون ظهور هذه الأسطورة فجأة في التأليف العربي.

أما موقف المحدثين من العرب إزاء هذا المشكل فيتلخص في أن الأغلبية منهم تجل عمرو بن العاص، وبالتالي عمر بن الخطاب عن مثل هذا العمل الشنيع؛ ومع ذلك فإن بعض المحدثين من الشرقيين يرى رأي البغدادي والقفطي وبالتالي رأي المستشرقين، وهذا الرجل هو جورجي زيدان: ففي كتابه **تاريخ مصر الحديث** في الطبعة الأولى منه، يجل الفاتحين المسلمين عن هذه العملية الشنعاء، أما في الطبعة الثانية لهذا الكتاب وكذلك في الجزء الثالث من **تاريخ التمدن الإسلامي** فإنه يغير رأيه ويلصق التهمة بعمرو بن العاص: يقول في هذا الكتاب: "على أن بعض الكتبة ينزهون الإمام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة وكنا قد جاريناهم في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها، وقد فصلنا الأدلة على ذلك في الجزء الثالث من **تاريخ التمدن الإسلامي** ولا نزال عليه حتى يتبين لنا ما ينقضه، ونحن موالون البحث في هذا الشأن، إذ لا غرض لنا غير تقرير الحقيقة"[17].

هذه على العموم مواقف المستشرقين نحو هذه الأسطورة. يتضح من خلال أبحاث هؤلاء المستعربين أن هناك مواقف ثلاثة: منهم من غالى في الهجوم على المسلمين واحتج على إحراقهم المكتبة بصيغ مختلفة، ومنهم من وقف موقف الشك والارتياب، ومنهم من أنصف العرب وأجلهم عن مثل هذا العمل الشنيع. وقبل الحديث بإيجاز عن هذه المواقف الثلاثة علينا أن نبين كيف ومتى وصل هذا الخبر إلى المستشرقين في الغرب.

لم يطلع الغربيون على هذه الأسطورة إلا في القرن السابع عشر الميلادي حين حقق المستشرق الانجليزي بوكوك Pococke **مختصر تاريخ الدول** لابن العبري ونقله إلى اللاتينية.

ظل هذا الكتاب المصدر الأول والأخير لهذه الحكاية بالنسبة للغربيين إلى أن جاء Leclerc في القرن التاسع عشر وبين لهم أن ابن العبري قد نقل الخبر عن القفطي الذي توفي قبله بما يقرب من أربعين سنة[18].

---

[17]- تاريخ مصر الحديث، ج 1، ص. 89. ط 2 جورجي زيدان.
[18]- تاريخ الطب العربي: لوسيان لوكليرك. ج 2، ص. 151، بالفرنسية.

فلنبدأ الآن بموقف الغلاة من المستشرقين حول هذا الخبر، إنهم كثيرون وسنقتصر على اثنين من بينهم هما: رونان E.Renan وهذا معروف بعدائه للساميين عموما وللعرب خصوصا، وكازانوفا Casanova الذي لم يخامره شك في أن عمرو بن العاص أحرق المكتبة بأمر من ابن الخطاب. . . فيما يخص Renan فإن الإسلام ما دخل بلادا إلا وخربها وهدم معالم الحضارة فيها، وما وقع في الإسكندرية ليس إلا مثالا من أمثلة عديدة، وإن كانت مكتبة المتحف قد أحرقت إثر هجوم الرومان، فإن العرب أحرقوا ما تبقى من كتب ومكتبات هذه المدينة التي قدر لها أن تصبح عاصمة الدنيا الفكرية والثقافية عدة قرون.

أما كازانوفا فيرى أن إحراق كتب الدول المفتوحة على أيدي المسلمين ظاهرة مسلم بها، ثم يأتينا بخبرين وَرَدَا في **مقدمة ابن خلدون** أحدهما شبيه بحديث الإسكندرية: (ابن خلدون لم يذكر إحراق مكتبة الإسكندرية). يقول ابن خلدون: "العلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الإنساني متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح"[19].

أما الثاني فهو: "ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتبا كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقينها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن أطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله، فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا"[20].

ومهما كان الشبه قويا بين رواية ابن خلدون عن إحراق كتب الفرس، وأسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية فالبراهين التاريخية كثيرة، وهي تجل الإسلام والمسلمين عن مثل هذه

= اهتم الغربيون بابن العبري لأنه كان مسيحيا سريانيا. أما كتابه **مختصر تاريخ الدول** فإنه قد ألفه في آخر حياته وهو فقط مختصر للنسخة السريانية لذلك التاريخ بل يزيد عنها أشياء تتعلق بالإسلام والمغول. ولم يذكر ابن العبري في النسخة السريانية إحراق المكتبة بل أدخله في المختصر، والسبب في ذلك أن الكتاب السرياني تكلم فيه عن أخبار الفتح، وفي المختصر تحدث عن آداب العرب والروم مما جعله يذكر مكتبة الإسكندرية، ويعتقد البعض أنه أدخل عليه.

19ـ **المقدمة** لابن خلدون، ص. 32. ط مصر 1930.

20ـ نفس الرواية عند حاجي خليفة في **كشف الظنون** – وفي ترجمة روزنتال لمقدمة ابن خلدون يعلق على الخبر قائلا: "إن إحراق المكتبة أسطورة، وقضية كتب الفرس من هذا القبيل".

الأعمال الشنيعة، فلا يختلف اثنان في أن الفاتحين من العرب فرضوا لغتهم ودينهم على الفرس وأخذوا الباقي من حضارة وإدارة وسياسة من بلادهم، فإنهم شاهدوا كتب الفرس ومكتباتهم وأعجبوا بها، وصاغوا مكتباتهم على النمط الفارسي. يحكي المسعودي في **مروج الذهب** أنه شاهد مخطوطا علميا فارسيا أخذ كغنيمة وقت الفتوح واحتفظ به وترجم إلى العربية. وهذا طيفور صاحب كتاب **تاريخ بغداد** يحكي أن كتب العجم في العصر العباسي كانت موجودة في خزائن مرو..

كلنا يعلم الازدهار العلمي الذي حققته دولة بني ساسان، خاصة تحت حكم (أنوشروان) قبل الفتح العربي، فمدارس أنواع العلوم في هذا البلد كثيرة ومعروفة، وكل مدرسة لها خزانتها كما هو معهود، ولم يجرؤ العرب على هدمها، بل استفادوا منها واحتفظوا بمحتوياتها. ويفترض بعض المستشرقين أن رواية ابن خلدون صحيحة فيقول: إن شعور المسلمين نحو كتب الفرس الوثنيين لابد يخالف شعورهم نحو كتب المسيحيين، فقد كان المسلمون على الأقل في أول أيامهم يكرهون إتلاف ما كتب عليه اسم الله. فلا يمكن أن تنطلي علينا حيلة هذا المغرض الذي أراد أن يلصق التهمة بالعرب عن طريق الدفاع عنهم. ويضيف كرانوفا قائلا: إن هذه القصة لم تخلق خلقا، وهي حادثة طبيعية إذا ما أدركنا تخوف المسلمين الأوائل من تعدد الكتب على غرار اليهود والنصارى، حتّى الحديث لم يكتب ولم يدون إلا بعد قرن من مجيء الإسلام خوفا من أن يختلط بكلام الله، وهذا عثمان أحرق المصاحف واحتفظ بمصحف عمر الذي أخذه عن أبي بكر. ونسبة القصة إلى عمر عامل آخر يدعو إلى تصديقها، بحيث إن هذا الرجل كان يقول: لا كتاب إلا كتاب الله؛ والدليل على ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وهو كالتالي: قال البخاري رحمه الله "حدثنا يحيى بن سليمان، قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرني يونس عن أبي شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس، قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا

وكثر اللغط قال: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إن الرؤية كل الرؤية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه"[21].

ولا يقف المستشرق كازانوفا Casanova عند هذا الحد، بل يتهم عمر بن الخطاب اعتمادا على وثيقة سريانية أنه أمر قائده عمرو بدمشق بمحاورة المسيحيين ومحاولة جمعهم حول كتاب واحد على غرار كتاب المسلمين الأوحد[22]. فابن الخطاب الذي تميز شخصه بهذه الخاصية وهي جمع كل الناس حول كتاب واحد وهو القرآن لحري به أن يحرق كل ما ليس بقرآن..

وواضح أن هذا المستشرق الذي لا يخفى غيظه وحقده تجاه العرب المسلمين قد تكلف شططا في تبرير إحراق مكتبة الإسكندرية بأمر من ابن الخطاب.

أما الذين وقفوا موقف الشك والارتياب فهم كثيرون، ونخص منهم بالذكر رونوضو Renaudot ودوساسي de Sacy، وهذا الأخير نقل كتاب البغدادي إلى الفرنسية **الإفادة والاعتبار** وقال باحتمال إحراق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص.

أما أصحاب الموقف الثالث، موقف الذين أنصفوا العرب المسلمين وأجلوهم عن هذه العملية النكراء، فهم كذلك كثيرون، ونخص منهم كوستاف لوبون G.Lebon الفرنسي وباتلر Butler الانجليزي وكلاهما من رجال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أما لوبون Lebon فأشار إلى الواقعة قائلا: "وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمنا طويلا؟ وهذه القصة دحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ولم يبق منها ما يحرق"[23].

---

[21] - انظر صحيحي البخاري ومسلم.

[22] - لم يكن عمرو قائدا لابن الخطاب على دمشق بل هو ابن أبي وقاص. فالخلق ظاهر في هذه القصة (انظر كذلك الجريدة الأسيوية 1915: الأب بن. J.Asiatique. Père Pan. 1915

[23] - حضارة العرب: ك. لوبون، ص. 213.

أما المستشرق باتلر Butler فقد درس المشكلة بعناية وقصده أن يبين حقيقة هذا الأمر ومقدار قصة إحراق العرب لهذه المكتبة من الصحة والكذب، وكانت مصادره قبطية، أرمنية، سريانية، لاتينية، يونانية وعربية:

1. إن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التي نذكرها.

2. إننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل.

3. إن الرجل الذي تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل.

4. إن حنا النيقوسي وهو أسقف مصري مؤرخ في القرن السابع الميلادي لم يذكر هذا الحريق. كزانوفا يعتمد على ترجمة حبشية لتاريخ حنا يشير فيه إلى الواقعة، Butler يتقصى كتب حنا ولم يعثر عليها في أصلها.

5. إن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين: الأولى مكتبة المتحف، وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر، وأما الثانية وهي مكتبة السرابيون (Serapienne)، فإما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام 391 م، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت، فتكون على أي حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن.

6. إن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع.

7. إن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية حتى فتح العرب للإسكندرية وعقد الصلح بين العرب والمصريين على تسليم المدينة لكان من أسهل الأمور وأيسرها منالاً نقل ما في مكتبتها من كتب وإنقاذها من أيدي الفاتحين. فقد جاء في جملة شروط الصلح بين الطرفين أن للمغلوب منها نقل المتاع والأموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة، وكانت تلك المدة أحد عشر شهرا، فهي مدة كافية لنقل أي مجموعة من الكتب مهما كان عددها كبيرا.

وأخيرا فإن جانبا لا يستهان به من كتب مكتبة الإسكندرية كان مكتوبا على الرق وهو مادة لا تصلح للوقود[24].

وخلاصة القول فإن هذه الرواية لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخُرافة ليس لها أساس مؤكد في التاريخ. ونظرا لاعتماد المستشرق باتلر على مصادر متعددة وفي مختلف اللغات فإننا نراه أقرب إلى الصواب وأحرى بأن يكون قد أصاب القصد. وبالإضافة إلى مواقف أمثال هذا المستشرق النزيه فإن العرب الفاتحين كانوا حملة رسالة وهذه الرسالة تحض على العلم والتعلم وهي إنسانية في أساسها أتت من أجل خير الإنسان واحترامه وتثقيفه، وإن إحدى مميزات حضارة أصحاب هذه الرسالة أنها حضارة كتب ومكتبات نبعت من حض الإسلام معتنقيه على العلم والتعلم. وقد حث القرآن الكريم المسلمين والمؤمنين على التعلم ومدح العلم والعلماء في آيات كثيرة من بينها: قال عز وجل: **إقرأ بسم ربك.** . . . . . وقال تعالى: **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.** - وقال تعالى: **إنما يخشى الله من عباده العلماء.**- وقال عز من قائل. .**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات.** وفيها قرن الإيمان بالعلم إلى غير ذلك من الآيات.

أما أحاديث الرسول في هذا الموضوع فعديدة نذكر من بينها "اطلبوا العلم ولو بالصين" "طلب العلم فريضة على كل مسلم" إلى غيرها من الأحاديث التي تحض على طلب العلم وتحث المسلمين على مغادرة الأهل والوطن في سبيل البحث عن الكتب والمكتبات لا لإحراقها لأنها توافق أو تخالف القرآن ولكن لقراءتها والاستفادة منها وللاطلاع على علوم الأوائل.

ولست بحاجة إلى التذكير بوجود خمسين مدرسة في بلاد ما بين النهرين كالرها ونصيبين وحران وكان بكل مدرسة مكتبة، وكانت هذه المدارس مراكز الفكر اليوناني الهلنستيني السرياني، ولا يجهل أحد التأثير المباشر لهذا الفكر في الفكر الإسلامي، فلماذا

---

[24]- فتح العرب لمصر : مكتبة الإسكندرية: أج بتلر. وبالإضافة إلى موقف العالم البريطاني "بتلر" ترى المستشرقة الألمانية Ruth Stellhorn Mackensen أن الشيعة هم الذين نشروا هذا القول حينما أغلق صلاح الدين بيت الحكمة وأنشأ بدلها المدارس فنشر علماء الفواطم أن أهل السنة هم أعداء العلم والكتب. انظر مجلة **عالم المكتبات**، يناير فبراير 1961.

أحجم المسلمون الفاتحون عن تدمير مكتبات هذه المدارس التي كانت مراكز إشعاع للفكر اليوناني وأقبلوا على إحراق أكبر مكتبة في العصر القديم لا تختلف في اتجاهاتها ومناهجها ومحتوياتها وعلومها عن أخواتها في بلاد ما بين النهرين؟

وما إلحاح المستشرقين اليوم على قصة إحراق مكتبة الإسكندرية على يد العرب إلا محاولة لإخفاء ما قام به الغرب من إحراق وتشتيت ونهب عدد من المكتبات الإسلامية كمكتبة طرابلس أثناء الحروب الصليبية ومكتبة زيدان السعدي التي آلت إلى الإسكوريال ومكتبة القسطنطينية لما دخلوا الجزائر ومكتبة جامعة الجزائر عند مغادرتهم هذا البلد..

وختاما لهذا العرض نتساءل: لماذا رجعنا إلى الحديث عن خزانة الإسكندرية التي يرجع عهدها إلى العصر القديم والإنسان يعيش عصر العقول الالكترونية والتنظيم الآلي المدهش داخل المكتبات المعاصرة؟[25] هل كان ذلك إحساسا بالحاجة إلى مكتبة على غرار خزانة البطالسة لها من الإمكانات ومن الوسائل العلمية والتقنية ما يروي غليل الباحث المعاصر؟ هل كان ذلك شعورا بما تعانيه دول العالم الثالث وخاصة منها الدول العربية الإسلامية من نقص، بل أقول من انعدام خزانة تشبه في محتوياتها وتنظيماتها تلك المكتبات التي كان يزخر بها المجتمع الإسلامي والتي بفضلها كان العرب المسلمون سادة الفكر والحضارة في القرون الوسطى؟ كل ذلك صحيح، والعوامل التي دعت إلى هذا التخلف وذلك الجمود لا تخفى على المثقف المعاصر الذي يعي وعيا قويا مشكلات بلدان العالم الثالث الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، فهل هناك شيء أقسى وأشد على الباحث من أن يدرك أن بلده يفتقر إلى خزانة وطنية حديثة كما في البلدان المتطورة وهو يعلم أن أسلافه كان لهم القدح المعلى في هذا المضمار؟ أمن المنطق أن ننتقل مباشرة إلى الميكروتيك (Microthèque) ونحن لا نملك بليوتيك (Bibliothèque) بكل معطياتها المعاصرة؟ أمن الحكمة أن تقتني آلات القراءة لقراءة

[25]. قررت الحكومة المصرية منذ بداية التسعينات إعادة بناء خزانة الإسكندرية العظيمة بمساعدة منظمات دولية يأتي على رأسها اليونسكو. وقد خصص غلاف مالي لتحقيق هذا المشروع يزيد على الستين مليون دولار أمريكي وقد دشنت رسميا في عام 2003م..

الميكروفيش والمثقفون أنفسهم بحاجة إلى توعية مكتبية، وليس هذا من العار في شيء إذا علمنا أن اليونسكو أثبتت أن المسؤولين عن الثقافة في انجلترا قاموا بهذه التوعية المكتبية بالنسبة لطوائف متعددة ومختلفة من المثقفين الانجليز.

إذا كان تقدم بلاد من البلدان وازدهارها يقاس بتقدم المكتبات وازدهارها فإن تخلف العالم الثالث يرجع أساسا إلى عدم النهوض بهذه المؤسسات العلمية الضرورية لكل نهضة. وينبغي ألا يغتر إنسان بكثرة عدد الشهادات العليا التي يحصل عليها أبناء مجتمع معين، فليس ذلك دليلا على نهضة هذا البلد بل يجب أن تقاس قيمة ثقافة المجتمع ونهضته بإنتاج هذا المجتمع الحضاري والفكري وبمردوديته في حقل البحث العلمي ولا يتيسر هذا إلا بخلق مناخ ملائم يتمثل في إنشاء خزانات حديثة وعلى رأسها خزانة وطنية مجهزة بأحدث الوسائل العلمية وبالتالي تكوين محافظين لهذه المكتبات تكوينا علميا وتقنيا في نفس الوقت[26].

26- بدأ العمل لإنشاء مكتبة وطنية في الرباط سنة 2003 وستكون مدة بنائها ثلاث سنوات.

العلاقات المغربية الإسبانية إثر اختطاف

خزانة الأمراء السعديين

الحديث عن العلاقات المغربية الإسبانية إثر الاستيلاء على الخزانة السعدية في عرض البحر في بداية القرن السابع عشر يدعو إلى الحديث عن هذه العلاقات منذ سقوط غرناطة آخر معقل عربي بالأندلس في أواخر القرن الخامس عشر إلى الاستيلاء على خزانة زيدان السعدي عام 1612م. وإن ما قام به المسيحيون أثناء هذه الفترة تجاه المسلمين وتراثهم لم ينحصر فقط في إطار العلاقات بين إسبانيا والمغرب بل كان صراعا بين المسيحية والإسلام. فباسم النصرانية وفي سبيل استئصال المسلمين والقضاء على حضارتهم وثقافتهم قرر المسيحيون، بعد سقوط غرناطة بسنوات معدودات، القضاء على ما تبقى من آثار العرب، فأقيم حفل ديني في مدينة طليطلة عام 1499م بأمر من مطرانها تم خلاله إحراق مآت الآلاف من المخطوطات جمعوها من غرناطة وأرباضها وباقي القواعد الأندلسية لم تستثن منها، حسب معظم الروايات، إلا ثلاثمائة من كتب الطب، وهب بعضها لجامعة القلعة وأودع البعض الآخر في أروقة قصر الإسكوريال، وفي بعض المكتبات العامة. وبعد قرن من الزمان عاش فيه المسلمون أو المورسكيون في ظل العبودية ولقوا خلاله ما لقوا من ألوان التنكيل والعذاب قررت الدولة الإسبانية بإيعاز من الكنيسة نفيهم نهائيا من الأندلس، لأنها كانت تعتبرهم خطرا على الدولة وعلى المسيحية كذلك[1]. ولم يكن هذا الحدث ليزيد في توتر العلاقات بين إسبانيا والعالم الإسلامي بأكمله. وبعد ثلاث سنوات من هذا الحادث امتدت أيادي القراصنة الإسبان إلى

---

[1]- تم هذا على يد الملك فيليب الثالث عام 1609م

خزانة زيدان السعدي في عرض البحر فازدادت العلاقات سوءا بين البلدين، ودعا الأمر إلى تدخل عدد من الدول لإصلاح ذات البين بين الدولتين، لكن إسبانيا رفضت كل وساطة واحتفظت بالخزانة. **ما هي خزانة السعديين؟** وما هي الظروف التي تم فيها استيلاء القراصنة عليها؟ وكيف كانت آثار هذا الحدث على العلاقات المغربية الإسبانية في مستهل القرن السابع عشر الميلادي؟

إن الحديث عن خزانة السعديين الملكية يدعو إلى الحديث بإيجاز عن إنشاء هذا النوع من المؤسسات في مراكش على عهد هذه الأسرة الشريفة. كانت مراكش على عهد المرابطين والموحدين مركز نشاط سياسي وعلمي كبير، لأنها كانت قاعدة ملك هاتين الأسرتين. ثم نراها تخضع لأنواع من الخمول الفكري، وألوان من التأخر الثقافي خاصة أواخر العصر المريني وفي العهد الوطاسي، لأن ملوك هذه الأسرة قد صرفوا عنها وجوههم نحو فاس التي أصبحت قاعدة الملك. وبعد ثلاثة قرون من الزمان، تعود مراكش لتقوم من جديد بمهمة العاصمة لأفراد الأسرة السعدية الشريفة، فتشرق عليها شمس العرفان، ويسودها رخاء كبير، ويؤمها العلماء من كل حدب وصوب وتصبح أكبر مركز فني وثقافي في الغرب الإسلامي[2]. كيف كانت إذن حال المكتبات؟ وما هو الدور الذي لعبته في تنشيط الحركة الثقافية والازدهار الفكري الذي عرفته مراكش في ذلك العهد؟.

يرجع هذا النوع من المؤسسات العلمية إلى الأمراء السعديين الذين كانوا رجال علم وأدب، ابتداء من مؤسس هذه الأسرة محمد القائم بأمر الله الذي درس العلم بدرعة قبل أن يشتغل بمشاكل الملك، وكذلك الشأن بالنسبة لأولاده وحفدته خاصة واسطة عقد هذا البيت أحمد المنصور الذهبي. دأب هؤلاء الأمراء على بناء الخزانات بجانب المساجد التي أسسوها، والتي لا تزال إلى اليوم ماثلة تشهد بمكانتهم وعظمتهم. ولم يخرج السعديون عن السنة المتبعة في بناء المكتبات في المجتمع الإسلامي القديم. وهكذا أسس عبد الله الغالب السعدي جامع

---

[2]- دوفردان: مراكش من النشأة إلى 1912. ج 1، ص. 460، ط 1959، بالفرنسية.

الشرفاء بالمواسين، وشيد بجانبه خزانة شحنها بنفائس الكتب، ووقف عليها من نوادر المخطوطات ما جعلها في مستوى خزانة القرويين بفاس، ومما يدل على أهمية هذه المكتبة هو أن أحمد بابا التنبكتي استفاد منها الكثير، واعتمد مصادرها في تأليف كتبه الشهيرة في التراجم خاصة **نيل الابتهاج**[3] و**كفاية المحتاج** اللذان هما عبارة عن **ذيل لديباج ابن فرحون** في القرن الثامن.

وقد بنت مسعودة الوزكيتية أم المنصور خزانة بجانب مسجد باب دكالة الذي شيدته ووقفت عليه عددا كبيرا من الكتب يوجد بعضها اليوم بتحبيسها بخزانة القرويين بفاس.

وكذلك فعل أبو فارس[4] بن المنصور الذهبي حين بنى مسجد أبي العباس السبتي. فقد أقام بجانبه خزانة مهمة لا يزال بعض الكتب التي وقفها عليها محفوظة بمكتبة قصر الإسكوريال[5].

وهكذا كانت كل مساجد مراكش[6] مزودة بخزانات مليئة بكتب اللغة والأدب والتاريخ والفقه، بالإضافة إلى المصاحف القرآنية ومعظمها من وقف الأمراء والمحسنين. ولا يزال عدد من هذه الكتب محفوظا بالخزانة العامة بمكناس، وخزانة القرويين، والمكتبة العامة بالرباط، وغيرها.

هذا عن المكتبات العامة. أما عن المكتبات الخاصة في العصر السعدي فلا يكاد يخلو بيت من بيوت العلماء الذين ظهروا أو نزحوا إلى مراكش من خزانة صغيرة أو كبيرة. ولم يكن هذا قاصرا على بيوتات مراكش، بل كان منتشرا في المغرب كله حواضره وبواديه، وذلك لعدة عوامل من بينها اتساع المراكز الثقافية وانتشارها، ووفرة الكتب المؤلفة في المغرب في ذلك العهد، وكتب المهاجرين خاصة من الأندلس، ثم توفر وسائل الكتابة بكثرة كالورق الذي كان يصنع داخل المغرب نفسه[7].

[3]- محمد حجي: **الحياة الثقافية في العصر السعدي**، ج 1، طبعة 1977، ص. 185.

[4]- هو عبد الله الواثق المهدي المتوفى عام 1608م.

[5]- مثلا رقم 1840؛ انظر محمد حجي: **الحياة الثقافية**، ج 1، ص. 186.

[6]- مسجد القصبة كذلك كانت به خزانة.

[7]- انظر محمد حجي: **الحياة الثقافية**، ج 1، ص. 175.

ومن بين الخزانات الخاصة بمراكش خزانة عبد الواحد الرجراجي أستاذ العلوم العقلية والنقلية، وأحد أعلام علماء مراكش ونبهائها الذين لقيهم أحمد المقري في رحلته[8]، فأطنب في التنويه به ووصفه في روضة الآس بجدة الفهم وقوة الإدراك، وذكر له بعض التآليف في التوحيد وقواعد اللغة التي أنشأها لخزانة المنصور.

وقد اطلع المقري في مكتبة هذا العالم المراكشي على كتب نوادر لم يسبق له ولعلماء تلمسان العثور عليها، كحواشي الإمام اللقاني[9] على توضيح الشيخ خليل، فأهداه الرجراجي نسخا منها انقلب بها المقري إلى أهله مسرورا، وكانت محط استغراب علماء تلمسان قاطبة. ولم تكن خزانة الرجراجي إلا مثالا لمكتبات العلماء الخاصة على عهد السعديين بمدينة مراكش. وعلى الرغم من مكانتها العلمية وقيمة مخطوطاتها النفيسة، فإنها ليست شيئا بالنسبة لمكتبة القصر السعدي، أم الخزانات الخاصة.

ترجع النواة الأولى لتأسيس هذه المكتبة إلى مؤسس هذه الأسرة محمد القائم بأمر الله الذي كان عالما ومولعا بجمع الكتب. ولقد نماها ولداه أحمد الأعرج ومحمد أمغار. لقد رحل هذان الأميران لتحصيل العلم بفاس أيام السلطان أحمد الوطاسي، فأظهرا من الذكاء والنبوغ ما جعل هذا الملك الوطاسي يختارهما لتأديب أبنائه، فأطلق لهم على الخزائن العلمية اليد فنقلوا منها كتبا نفيسة إلى مقرهم بسوس[10]. ولما أفضت الإمارة إلى السعديين وتسنموها بعد استئصالهم للوطاسيين، وتسلموا مقاليد المغرب والصحاري والسودان وتخومه، زادوا فيها من تلك الأقطار، وصرفوا عنايتهم لجمع الكتب العلمية من أقاصي السودان إلى أقاصي المشرق -ولقد بلغت هذه العناية أوجها في عهد أحمد المنصور، هذا الملك العالم الذي نشأ بين أحضان العلماء ومجالس الأدب، فكان عمارة لتلك العقول النيرة، ونموذجا لثقافة أولئك الأشياخ-.

---

[8]- المقري : روضة الآس، طبعة 1964، ص. 315.

[9]- إبراهيم بن إبراهيم أبو إسحاق ت عام 1041هـ من علماء الحديث وأصوله والكلام والفقه. انظر المصدر السابق.

[10]- المختار السوسي : المعسول، ج 3، ص. 332.

ربط المنصور اتصالات مع مختلف جهات المعمور في سبيل إغناء هذه الخزانة. وهكذا نراه يتصل بعلماء مصر، خاصة أصحاب البيت البكري، كما اتصل بعلماء الدولة العثمانية بتركيا، وبالعلماء والأمراء بالحرمين الشريفين. ونراه مرة أخرى يصانع نصارى إسبانيا للتوصل إلى الخزائن العلمية الأندلسية. فما كان يبلغه خير مصنف أو مؤلف في المشرق أو في المغرب إلا ويرسل إلى مصنفه أو ملفه ليبعث به إليه"[11]. وقد جاء في إحدى الرسائل السعدية التي حققها الأستاذ عبد الله كَنون أن رجالا من البلاط السعدي كانوا يذهبون بانتظام إلى المشرق وفي رواحلهم صناديق مملوءة ذهبا ليعودوا بها مملوءة كتبا[12].

ويقول الإفراني في النزهة : "وكانت للمنصور عناية باقتناء الكتب، والتنافس في جمعها من كل جهة، فجمع من غرائب الدفاتر ما لم يكن لمن قبله ولا يتهيأ لمن بعده مثله. وجل كتبه طالعه وتفهمه ووقف عليه بخطه، ونبه على الغامض وشرح الطريف. . ."[13].

وبالإضافة إلى الكتب المجلوبة من خارج المغرب كانت المكتبة تحتوي على مؤلفات المغاربة، سواء في مراكش التي أصبحت كعبة العلماء، ومقصد الأدباء والمفكرين أو خارجها. ويبدو من خلال وثيقة نشرها دي كاستري[14] أن المنصور مد يده إلى بعض كتب خزانة القرويين ووضعها بخزانته الخاصة. ولم تكن هذه العملية ذات قيمة، إذا ما قورنت بالبناية الفخمة التي أقامها المنصور لمكتبة القرويين (وهي الخزانة الحالية) وبالمخطوطات العديدة التي وقفها عليها، والتي لا تزال محفوظة بها إلى اليوم. . .

ولقد كان بخزانة المنصور بمراكش نساخون مهرة، وفنانون للتّجليد والتزويق، يكتبون بدل المداد بمحلول الذهب والعنبر المسقي بماء الورد، وينشفون بمسحوق الذهب بدل التّراب[15].

---

[11]ـ العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب، ط، 1960، ص. 39.

[12]ـ صاحب خلاصة الأثر يذكر مراسلة للمنصور : في هذا الشأن، ج. 4، ص. 290.

[13]ـ كان بها المصحف العقباني، بقي متداولا في خزائن السعديين ثم العلويين إلى أن بعث به السلطان عبد الله بن إسماعيل إلى الحرم النبوي عام 1742 وقد فقد الآن هذا المصحف.

[14]ـ دوكستري : المصادر الدفينة، قسم فرنسا، المجلد الأول، ص. 246.

[15]ـ تذكرنا هذه الخزانة ببيت الحكمة، ويذكرنا حماس المنصور بحماس المأمون في اقتناء الكتب.

هذه بإيجاز خزانة المنصور الذهبي الخاصة التي أصبح معظمها في ملك ابنه زيدان بعد وفاته. ولم يكن هذا الوارث بأقل من أبيه اهتماما بالعلم، وولوعا بالكتب والبحث عنها في مظانها. لقد كان فقيها مشاركا في العلوم. له تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية (542 هـ) والزمخشري (538هـ). وله رصيد من اللغة والعلم يكفي ليجعله من الملوك العلماء. وقصته مع أحمد بن أبي القاسم الصومعي، وكتابه **المعزى إلى مناقب أبي يعزى** دليل على تضلعه في اللغة. وعلى الرغم مما أصاب المغرب بعد وفاة المنصور من فتن وحروب كانت سجالا بين الإخوة الثلاثة، ومن تهديدات الثائرين المغاربة المتطلعين إلى الحكم، وتهديدات المسيحيين بالإستيلاء على الموانئ المغربية، ظل زيدان محافظا على هذه الخزانة، واستمر يربط الاتصالات في سبيل جلب الكتب إليها. وهكذا نرى أنتوان ماري Antoine de St Marie الدومينيكي الإيرلندي الذي حمل أسيرا إلى مراكش، نراه في مكتبة زيدان يترجم له إلى القشتالية الكتب اللاتينية التي يملكها ثم يأمر زيدان بنقلها إلى العربية، ولقد قضى أنتوان دوسان ماري Antoine de St Marie ثمان سنين في القيام بهذه المهمة...[16].

ونلاحظ كذلك علاقات زيدان مع المستشرقين، خاصة الهولنديين منهم. فنرى أربانيوس Erpenius زعيم حركة الاستشراق في هولندا يهدي إليه إنجيلا مكتوبا بالعربية عام 1622م.

وقد شاء القدر أن تحرم مراكش من هذه الخزانة التي هي أكبر خزانة خاصة في تاريخ المغرب نتيجة الاضطرابات والحروب، وأن تحمل إلى أوربا أسيرة عددا من السنين لتصبح فيما بعد كعبة الباحثين من جميع بقاع هذا العالم الفسيح، على الرغم مما ضاع منها من مخطوطات بسبب الصاعقة التي يزعم مؤرخو النصاوى أنها سقطت عليها. فإلى أي حد استفاد الغربيون من كنوز هذه الخزانة، وكيف كان أثر فهارسها وأدلتها في إرشاد الباحثين من المستشرقين المهتمين بالتاريخ العربي الاسباني المشترك؟

[16]- ويثبت دي كاستري في إحدى الوثائق أن هذه الخزانة قد ضمت مخطوطات(Tite Live) لوتيتوس ليفيوس المؤرخ الروماني في القرن الأول ق. م باللغة العربية وقد كانت تعتبر في حيز المفقود, كما كانت تضم مخطوطات لمؤلفين رومانيين وإغريق آخرين. انظر دي كاستري : المصادر الدفينة، قسم فرنسا المجلد الأول، ص. 246.

بالرغم من أن الحديث عن الفهارس يهم أمناء المكتبات أكثر مما يهم الباحثين، فإن طبيعة الموضوع تفرض عرض نظرة موجزة عن اللوائح البيبليوغرافية التي وضعت لهذه الخزانة. نلاحظ أن هناك محاولات أولية لوضع قوائم بيبليوغرافية لمخطوطات الإسكوريال عربية كانت أم أجنبية. وفي هذه الأثناء تم ضم بعض المخطوطات العربية ضمن مجموعات اللغات غير العربية، وقد لاحظ المستشرق الفرنسي درنبورغ (Hartvig Derenbourg) أن مجموعة المخطوطات اليونانية[17] تضم بعض المخطوطات العربية. وبالإضافة إلى ذلك قد سمعنا أخيرا أنه تم اكتشاف كتاب في الإسكوريال كان يعتبر مفقودا، وتم تحقيقه بعناية أحد الباحثين، وهذا المخطوط هو مختصر كتاب الحيوان للجاحظ أثبت المحقق نسبته لابن منظور[18]. ومن المحاولات الأولى لفهرسة مخطوطات الإسكوريال العربية وجود لائحتين بهذه الخزانة، إحداهما عربية لاتينية وتضم 578 مخطوطا، والأخرى لاتينية فقط، وتضم 419 مخطوطا.

ولقد عثر العالم شتايشنيدر (Steinschneider) على ثبت باللغة الاسبانية للمخطوطات العربية المحفوظة بالإسكوريال. وهذا الثبت محفوظ في مخطوط لاتيني بخزانة الفاتيكان تحت رقم 3958[19].

وأول فهرست كبير للمجموعة العربية بهذه المكتبة هو الفهرست الذي وضعه العالم اللبناني ميخائيل الغزيري الذي انتدبته إسبانيا من إيطاليا في القرن الثامن عشر لتنظيم وتصنيف وفهرسة ما بقي من التراث العربي بالإسكوريال[20].

وظهر هذا الفهرست في جزأين مع مقدمة باللتينية عن قيمة المخطوطات العربية وأهميتها بين عامي 1760 و1770 وعنوانه: المكتبة العربية الإسبانية بالإسكوريال، وباللاتينية:

---

17. وضع ميلر Miller الفرنسي فهرستا للمخطوطات الإغريقية وتبعه شارل كَرو Charles Graux وكتب كتابا بعنوان : بحث أصول المجموعة الإغريقية بالإسكوريال ؛ وكلا العالمين من القرن التاسع عشر.

18. كان ابن منظور مشهورا باختصار الكتب. يقول الصفدي : لم تعرف كتابا مطولا إلا اختصره.

19. أسسها البابا نقولا الخامس في القرن 15 م

20. ظهور بيبليوغرافيين عرب في هذا القرن : السمعاني مثلا يضع المكتبة الشرقية في 4 مجلدات وهو عبارة عن فهارس مخطوطات الفاتيكان.

Bibliotheca Arabico-Hispana Escuriolensis : Brill Leyden.، ولقد تمت ترجمته إلى اللغة العربية في عهد المولى سليمان العلوي عام 1815 م باقتراح الأديب المغربي محمد بن عبد السلام السلوي وزير السلطان المذكور. وتوجد منه نسخة فريدة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 6792"[21]. ويبدو أن هذا العمل كان نتيجة لامتداد اهتمام المغاربة بالمخطوطات العربية الأندلسية بصفة عامة، ومخطوطات الإسكوريال بصفة خاصة.

وفي القرن التاسع عشر كلف المستشرق الفرنسي "هارتفيغ درنبورغ" بإعادة هذا الفهرست لما تم اكتشاف أغلاط ونقص بفهرست الغزيري"[22].

توفي درنبورغ وترك جزأين فقط من المعجم بعنوان: (**المخطوطات العربية بالإسكوريال**، Les Manuscrits arabes de l'Escurial, 1884).

ولقد تولى إتمام هذا العمل البيبليوغرافي المهم مستشرقان فرنسيان، الأول ليفي بروفنسال Lévi Provençal، أخرج الجزء الثالث عام 1928م. والثاني رينو H.Renauld وأخرج الجزء الرابع سنة 1941م[23].

أما أثر فهرست الإسكوريال في مؤلفات العلماء فقد حدث ذلك مباشرة بعد ظهور معجم الغزيري الذي في مؤلفات العلماء، فقد حدث ذلك بعد ظهور معجم الغزيري الذي ظل أكثر من قرن مرجعا فريدا لهذه المجموعة العربية. ومن العلماء الذين استفادوا من المصادر العربية بفضل هذا المعجم يوسف كوندي صاحب كتاب: **تاريخ دولة العرب في إسبانيا**، نشر عام 1810، في ثلاثة أجزاء. ودوزي Dozy صاحب: **تاريخ المسلمين في اسبانيا حتى فتح المرابطين**، نشر عام 1861 في أربعة أجزاء[24].

---

[21]- لقد تفضل الأستاذ الجليل العلامة سيدي محمد بن عبد الهادي المنوني فكتب مقالا عن هذه الترجمة ونشره بمجلة البحث العلمي الصادر في شعبان 1385 موافق دجنبر 1965.

[22]- أضاف درنبورغ مائة مخطوط غفل عنها الغزيري.

[23]- الحديث يطول عن هذه الأمور الفهرسية فليرجع إليها من شاء إلى مقدمات هذه الفهارس نفسها.

[24]- هو صاحب كتاب: تاريخ إسبانيا وآدابها في العصور الوسطى. انظر محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط.2 : 1962، ص.206. =

والآن ما هي الظروف التي تم فيها الاستيلاء على هذه الخزانة؟ وما أثر هذا الحدث على العلاقات المغربية الإسبانية في ذلك الوقت؟ لسنا بحاجة إلى وصف الحالة السياسية التي كان عليها المغرب في بداية القرن السابع عشر من صراع على الحكم بين الأمراء السعديين فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين المتطلعين إلى الحكم من المغاربة من جهة أخرى. في هذا المناخ وفي ظل هذا الصراع انتقلت هذه الكنوز من المغرب إلى إسبانيا. فلولا حملة أبي محلي واستيلاؤه على مراكش وفرار زيدان منها إلى أجادير، ولولا التجاء أخيه المأمون إلى الإسبان وتسليم العرائش لهم، وانتشار أسطولهم في عرض المحيط الأطلسي لما وقع ما وقع، ولبقيت خزانة زيدان بقصر البديع بمراكش عوض إيداعها أقبية الإسكوريال[25]. ففي سنة 1611م عينت فرنسا قنصلا بالمغرب يدعى فيليب دي كاستيلان J.Philippe de Castellane وكان دبلوماسيا يعرف منطقة المغرب العربي، بحيث كان قد أوفدهُ هنري الرابع Henri IV ملك فرنسا عام 1603م إلى الجزائر ليفاوض في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين. وأثناء مقامه بالمغرب، وللكفاءة الدبلوماسية التي كان يتمتع بها، وباعتبار الظروف السياسية التي كان يعيشها المغرب آنذاك، استطاع دوكستيلان De Castellane أن يتجاوز مهمته الأساسية كقنصل ليقنع زيدان السعدي للتوقيع على معاهدة مهمة بين المغرب وفرنسا على غرار المعاهدة الموقعة بين فرنسا والدولة العثمانية، وقد قدم نسخة من هذه الأخيرة إلى السلطان السعدي. وبموجب هذه المعاهدة يمكن للمغاربة أن يمارسوا التجارة في فرنسا، بحيث يمكنهم أن يتاجروا في كل شيء بما في ذلك الأسلحة، كما يمكن للفرنسيين أن يتاجروا في المغرب وأن يقيموا به، وتسمح المعاهدة للسلطان المغربي أن يجعل في خدمته ومساعدته الرعايا الفرنسيين المقيمين في مملكته، وعلى إثر هذه

= 5- الإسكوريال Escurial ضاحية من ضواحي مدريد عاصمة إسبانيا، أنشأه فيليب الثاني PhilipeII تخليدا لذكرى انتصاره على الفرنسيين في معركة(سان كانتان) St Quentin عام 1557م وتنويها بالقديس لورنزو St Lorenzo الذي استمد عونه في هذه المعركة. ويشتمل هذا البناء على قصر وكنيسة وديرومكتبة ومعهد ديني ومدفن ملكي، والذين يشرفون على هذه المكتبة منذ إنشاءها إلى اليوم آباء مسيحيون يتبعون المذهب الأوغسطيني St Augustin وقد ضم فيليب الثاني إلى هذه المكتبة ما بقي من مخطوطات المدن الإسلامية كغرناطة وبالنسيةومرسية وغيرها. وضمت إليها أيام فيليب الثالث مكتبة زيدان السعدي فبلغ عدد المخطوطات العربية وحدها حسب بعض الأخبار عشرة آلاف مخطوط (10000).

[25]- واخبر زيدان ممثله بالأقاليم المتحدة اليهودي صمويل بولاش Samuel Polache بما صنع مع دو كاستلان de Castellane .

المعاهدة أرسل زيدان فرسين للملك لويس 13 (Louis XIII) هدية له، وأطلق سراح الفرنسيين الأسارى بالمغرب[26].

ولما ثار أبو محلي على إثر تسليم العرائش للدولة الإسبانية واستولى على سجلماسة ودرعة، ووصل إلى جبال الأطلس المحيطة بمراكش أحسَّ زيدان بالفزع وفقد الأمن، فعزم على مغادرة مراكش في اتجاه أجادير عن طريق أسفي مستنجدا بيحيى بن عبد الله الحاحي ليساعده على استرجاع قاعدة ملكه[27]. ولما حل بأسفي وجد سفينة القنصل الفرنسي J.Phillipe de Castellane التي تسمى Notre Dame de la Garde تتهيأ للإقلاع في اتجاه مرسيليا بفرنسا تحمل من بين ما تحمل الفرسين الذين أهداهما زيدان لملك فرنسا. وبموجب المعاهدة المغربية الفرنسية الموقعة أخيرا طلب زيدان من القنصل الفرنسي أن يحمل في سفينته كل أمتعته التي فرَّ بها من بينها التاج والصولجان وخزانة كتبه مقابل ثلاثة آلاف مثقال ذهبي (3000 ducats)، واستأجر سفينة ثانية هولندية لنفسه وخدمه وحشمه وبعض من بقي معه من الجند المخلصين. وبعد وصول السفينتين معا إلى ميناء أجادير رفض "دو كستلان" إفراغ مركبه قبل أداء الثلاثة آلاف المتفق عليها. وبعد قضاء ستة أيام في انتظار الأداء فرَّ (De Castellane) دوكستلان من ميناء أجادير صبيحة 22 جوان عام 1612 في اتجاه مرسيليا حاملا المكتبة وباقي أمتعة الملك بقصد تسليمها لحاكمها Duc de Guise. وفي الخامس من شهر يوليوز دفعت الرياح مركب دوكستلان في اتجاه سلا فاعترضته أربعة سفن إسبانية من أسطول الأميرال فياردو Fajardo برئاسة دون خوان دولارا Don Juan de Lara واستولت عليه بسهولة ثم قادته إلى إسبانيا[28].

بدأ زيدان حواره مع فرنسا بتوجيه رسالتين إلى الملك الفرنسي وحاكم مرسيليا دوق دوكيز Duc de Guise حملها سفيره بالأقاليم المتحدة[29]، هذه الدولة التي طلب منها زيدان،

---

[26] - ولخبر زيدان ممثله بالأقاليم المتحدة اليهودي صمويل بولاش Samuel Polache بما صنع مع دوكستلان De Castellane.

[27]- ولم يلبث ابن عبد الله الحاحي أنتوجه إلى مراكش على رأس جند من الشبانات وهشتوكة وقتل أبا محلى وفتح مراكش وتنازل بعد ذلك عليها لزيدان السعدي.

[28]- يعتقد بعض المؤرخين أن القراصنة الإسبان ظنوا أن الصناديق المحملة بالكتب مليئة بالذهب فلما وجدوا أنها كتب عرضوها على الملك فيليب الثالث.

[29]- السفير هو الجزولي قاضي الملك زيدان بتارودانت.

بحكم صداقتها للمغرب، وساطتها لتسهيل مرور سفيره إلى التراب الفرنسي. وفي العاشر من شهر غشت عام 1612 كتبت دولة الأقاليم المتحدة التي تجهل كل شيء عن هذه القضية إلى سفيرها بفرنسا François Van Aersen تطلب منه مساعدة السفير المغربي في مهمته لدى السلطات الفرنسية، وأن يتدخل باسم بلده لدى الملك الفرنسي بأن يعيد السفينة إلى المغرب بمجرد ظهورها في إحدى المراسي الفرنسية. ولما علمت فرنسا باحتجاز السفينة من طرف الإسبان لم تر فائدة في السماح للسفير المغربي بالبقاء سنة كاملة بلاهاي ينتظر هذا اللقاء إلى أن تلقى الأوامر بالعوة إلى المغرب[30]. وفي هذه الأثناء قام الملك الفرنسي "لويس 13" Louis XIII بمحاولات لدى العرش الإسباني في سبيل استرجاع السفينة الفرنسية، نظرا للعلاقات الطيبة التي تربط بين البلدين. رفض الإسبان طلب الملك الفرنسي باعتبار أن المركب الفرنسي يحمل أمتعة ونفائس بلد هو في صراع مع إسبانيا، وقرروا إحالة القضية على العدالة الإسبانية. وقد أثبتت محكمة قادس التي بثت في القضية أن سفينة دوكستلان de Castellane لا تحمل وثائق قانونية تمكنها من حمل ما تحمل من أمتعة، واعتبرتها عملا من أعمال القرصنة، فأصدرت حكما بالإعدام على قائد السفينة ونائبه، وأودعت دوكستلان السجن ليعامل معاملة خاصة باعتباره دبلوماسيا فرنسيا.

وعلى الرغم من إلحاح الأميرال فياردو Fajardo على تنفيذ الأحكام الصادرة في حق الرعايا الفرنسيين فإن تدخل السفير الفرنسي Vancelas فانسلاس والضجة الدولية التي أثارتها هذه القضية حالا دون ذلك، فبقى الأسارى في السجن ثلاث سنوات أي إلى عام 1615م حيث أطلق سراحهم بأمر من فيليب الثالث، وذلك بمناسبة أعراس أمراء القصر الإسباني. أما صناديق الكتب فقد حملت إلى لشبونة بالبرتغال - وقد كانت تحت النفوذ الإسباني يومئذ - ففهرست هناك فهرسة أولية ثم حملت إلى قصر الإسكوريال بإسبانيا على إثر اقتراح رئيس الدير دوبرالتا J. de Peralta، وكان عدد الكتب المفهرسة يزيد على الأربعة آلاف حسب

---

[30]. غشت 1612 إلى غشت 1613.

الوثائق التي اعتمدها دوكستري de Castries، على عكس الرواية الشائعة في كتب التاريخ والتي تجعل عدد مؤلفاتها ثلاثة آلاف مخطوط[31].

وبعدما فشلت فرنسا في محاولاتها لدى البلاط الإسباني لاسترجاع الخزانة لجأت إلى وسائل أخرى اقتصادية ودبلوماسية علها تفلح في إقناع السلطان السعدي بالتخفيف عن الأسارى الفرنسيين في المغرب، فقررت منح السفير المغربي لديها تسهيلات جمركية بالنسبة للسلع الصادرة أو الواردة من المغرب[32]، ثم كتبت إلى حكومة الدولة العثمانية بموجب المعاهدة المبرمة بين البلدين تطلب منها التدخل لدى المغرب ليخفف من التنكيل بالفرنسيين، وأخيراً كاتبت السلطان السعدي عن طريق أصدقائه في الأقاليم المتحدة مذكرة إياه بأن فرنسا ستستمر في مفاوضة إسبانيا في شأن المخطوطات وملتمسة منه إطلاق سراح الفرنسيين الأبرياء ومعاملتهم على غرار معاملته المثالية للموريسكيين الذين نفاهم الإسبان قبل ثلاث سنوات.

لم يقتنع زيدان بمقترحات الحكومة الفرنسية واعتبر تنكيله بالفرنسيين تنكيلا بالمسيحيين الإسبان، معتبرا أن الكفر ملة واحدة، وأن اختطاف المخطوطات العربية هو امتداد للصراع بين الصليبية والإسلام. وعلى هذا الأساس أجاب زيدان الملك الفرنسي لويس 13 قائلا :

"أنت المسؤول عن هفوات رعاياك، وإذا ما توصلت إلى حل هذا المشكل فستكون آنذاك قد قمت بعمل خليق بسلطان مثلك، وستبعد عن شخصك تهمة لا يقبلها أبدا إنسان في مستواك، وإذا توانيت عن محاولة استرجاع الخزانة فإنك ستتحمل هذه المسؤولية أبد الآبدين"[33].

وبعدما تأكد لدى السلطان السعدي أن فرنسا عاجزة عن إقناع الملك الإسباني بإعادة المخطوطات التي أودعت بالإسكوريال مع حظر خروج أي واحد منها بأمر من البابا،

31- شاعت هذ الرواية شيوعا كبيرا الشيء الذي جعل Godard صاحب كتاب "وصف وتاريخ المغرب" يجعل من الخزانة التي اختطفت خزانتين إحاهما عام 1611 م أثناء مساعدة الأسطول الاسباني للشيخ السعدي وعددها 3000 كتاب، والأخرى هي موضوع بحثنا هذا.

32- انظر توماسي Thomasy العلاقات الديلوماسية والتجارية بين فرنسا والمغرب، ط 1842، ص. 119.

33 -H. de Castries : « Autour d'une bibliothèque marocaine, **Journal des débats,** 20 ovtobre 1907.

وبعدما اقتنع أن التهديدات التي كان يوجهها إلى الدولة الإسبانية بمختلف الطرق لم تغن شيئا، اضطر إلى المفاوضات المباشرة مع إسبانيا فاقترح عليها ستين ألف مثقال ذهبي (60.000 ducats) مقابل استعادة كتبه، وقد أرسلت لهذه المهمة مجموعة المسيحيين البرتغال المقيمين بالجديدة، وباتفاق مع الدولة البرتغالية التي بذلت جهدها في إقناع الملك الإسباني بقبول مقترحات زيدان السعدي. أمام هذا الإلحاح وافق فيليب الثالث على إرجاع الخزانة مقابل شروط يستحيل على زيدان السعدي الموافقة عليها، ويتعلق الأمر بإطلاق سراح كل الأسرى الإسبان بالمغرب، ومعلوم أن زيدان لا يحكم إلا جزءا من مغرب ذلك الوقت. تكررت محاولات زيدان سنوات معدودات ولكن بدون جدوى إلى أن وافته المنية عام 1626/1037م.

وقد استمر خلفاؤه من بعده في المطالبة بهذه الخزانة مستعملين الوعد حينا والوعيد حينا آخر، حيث قتل أحدهم الراهب الفرنسيسكاني "خوان دل برادو" Juan del Prado الذي اعتبره مسؤولا عن رفض ملك إسبانيا إعادة الكتب. وفي عام 1631 قام المولى محمد الابن والخليفة الثالث لزيدان بمحاولة لاسترجاع الخزانة فأرسل الراهب الأب Pedro d'Alcantra رئيس الطائفة الفرنسيسكانية آنذاك ليفاوض الملك فيليب الرابع مقابل السماح له ببناء كنيسة بمراكش[34]. ولما حل هذا الراهب بإسبانيا حاول مقابلة الملك فلم يفلح لكنه حظي بلقاء ممثل البابا بالديار الإسبانية الذي أكد له أن الكنيسة تعتبر إعادة هذه المخطوطات مساندة للمسلمين ورعاية لدينهم، وكان من الواجب أن تحرق على غرار ما صنع بالآثار الإسلامية إثر سقوط غرناطة قبل قرن من الزمان، غير أن التدخلات الدولية وما تحتوي عليه هذه المجموعات من كتب ذات موضوعات تاريخية متعلقة بالوجود العربي بإسبانيا قررتا المحافظة عليها وإيداعها في مكان خاص بالإسكوريال، بعيدا عن الكتب المقدسة كمؤلفات القديس أوجستان St Augustin، والقديس طوماس St Thomas، والقديسة طريز اليسوعية St Thérèse de Jésus وغيرها.

---

[34]- معظم المسيحيين الأوروبيين المقيمين بالمغرب آنذاك ينتمون إلى المذهب الفرنسيسكاني (Franciscains) ومما يدل على ذلك أنه بمجرد ما استولى الإسبان على مدينة العرائش بنوا فيها كنيسة فرنسسكانية.

وبعد فشل الراهب المسيحي الذي عاد إلى مراكش حاملا معه رسالة اعتذار من المسؤولين الإسبان إلى الشريف السعدي، توالت محاولات أخرى باءت كلها بالفشل، الشيء الذي دعا بعض أبناء زيدان المولى عبد الملك إلى الدخول في عمليات انتقامية.

ولم تنته المحاولات في سبيل استرجاع هذه الخزانة مع نهاية أسرة السعديين، بل استمر المغاربة يلحون على إعادة تراثهم الإسلامي في العهود التالية، وظل هذا المشكل يطبع العلاقات المغربية الإسبانية عدة قرون. فلا يتم لقاء دبلوماسي ولا ترسل سفارة ولا توقع معاهدة إلا ويطالب المغرب فيها ليس بكتبه في الإسكوريال فقط، بل بكل ما تبقى من نسف معاول الجهالة والحقد والتعصب من تراث العرب بالأندلس. وأول محاولة جديرة بالذكر تمت بعد ذهاب السعديين، تلكم التي قام بها السلطان العلوي المولى إسماعيل حيث كتب إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا في قضية الأسرى الإسبانيين بمدينة العرائش يقول: "وذلك أن تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المئة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة". وكان صاحب هذه المهمة الوزير ابن عبد الوهاب الغساني الفاسي الذي كانت سفارته لإسبانيا عام 1689/1101 م. وفي هذا الإطار وضع رحلة **الوزير في افتكاك الأسير**. وعلى الرغم مما قاله المؤرخون عن فشل هذه المحاولة فإن "دوكستري" قد أثبت أن السلطان المغربي قد حصل بالفعل على بعض المخطوطات العربية من الدولة الإسبانية، وقد أعقبت هذه المحاولة محاولات أخرى تمت على الخصوص في عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله العلوي، حيث كانت المطالبة بالمخطوطات المغربية من بين أشغال سفارتين اثنتين بعثهما السلطان إلى كارلوس الثالث: الأولى سفارة أحمد المهدي الغزال الفاسي التي تمت عام 1765/1179 إلى إسبانيا، وكتب على إثرها رحلته المشهورة المسماة: **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**، وقد خص قضية مطالبة الكتب بقوله: "يأمر ملك إسبانيا بإخراجها من المحل الذي كانت به ودفعت لنا وزدنا على ما صاحبنا من كتب كتبا من غرناطة.. إلى أن قال: ... وذهبنا في هذه الجموع بعد أن قدمنا[35] بثلاثمائة من الأسارى، وجعلنا على رأس كل أسير كتابا من كتب الإسلام أنقذها

---

[35]- يقصد الدخول إلى مدينة مراكش.

الله من بلاد الكفر"[36]. أما السفارة الثانية فهي التي قام بها محمد بن عثمان المكناسي ووضع على إثرها رحلته المعروفة: **الإكسير في فكاك الأسير**، ذكر فيها اهتمامه باسترجاع الكتب، يقول بعد زيارته لخزانة الإسكوريال ومعاينة الكتب: "فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادي نارها، ونادت باللثارات، فلم يأخذ أحد ثارها، ياليتني لم أرها"[37].

وإذا استطاع المغرب أن يسترجع بعض تراثه المغتصب إثر محاولات دبلوماسية متعددة، فإنه لم يحصل على شيء من مخطوطات الإسكوريال، لأن البابا أمر ألا يخرج من هذه الخزانة أي شيء[38]، وقد ذكر ابن عثمان في **الإكسير** أن الملك كارلوس الثالث قدم له مخطوطات عربية مشفوعة بالاعتذار عن كتب الإسكوريال للسبب السالف الذكر. ولهذا السبب كذلك رفض الكردودي سفير السلطان الحسن الأول إلى إسبانيا زيارة هذه الخزانة على الرغم من إلحاح المسؤولين الإسبان على هذه الزيارة.

وأخيرا، ألم يان للمغرب اليوم في ظل القوانين المتعارف عليها دوليا، والمتعلقة باسترجاع التراث المغتصب في حالة الحرب أن يطالب بهذه الخزانة؟ فبحكم هذه القوانين أعادت فرنسا جزءا مهما من المخطوطات والوثائق إلى كل من النمسا والجزائر، استولت عليها في ظروف تاريخية معروفة. وبحكم هذه القوانين كذلك طالبت مصر وتطالب الأنجليز بإعادة جزء من تراثها اغتصب أيام استعمارها لهذا البلد. وإذ ننوه بما قامت به الدولة الإسبانية من أعمال علمية جليلة للحفاظ على هذا التراث، فإننا لا نستبعد أن يجد هذا المشكل حله في إطار العلاقات الطيبة المتميزة التي أصبحت تربط بين البلدين المتجاورين في السنوات الأخيرة.

---

[36]. نتيجة الاجتهاد، ص.145.
[37]. الإكسير، ص. 144 و 194.
[38]. يطبق هذا الأمر حتى على الكتب المكتوبة باللغات الأجنبية.

الكتب والمكتبات في مراكش

على عهدي المرابطين والموحدين

مدينة مراكش من أطول المدن المغربية عمرا، وأعرقها حضارة، وأكثرها إنتاجا للعلم والعلماء. ولقد لعبت منذ تأسيسها إلى اليوم أدوارا بارزة في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية المغربية.

وقد كانت بحكم موقعها السياسي على عهدي المرابطين والموحدين مصدر إشعاع كبير، ومركزا ثقافيا مهما أنتج أكبر العقول، وأهم المؤلفات وأغنى الخزانات، ليس على مستوى المغرب فقط، بل على مستوى الغرب الإسلامي بكامله.

كيف كانت الوضعية الثقافية بمراكش في تلكم الفترة؟ وما هي أنواع المكتبات التي ظهرت فيها؟ وما هي إسهامات هذه المؤسسات العلمية في تطوير الثقافة العربية الإسلامية؟

هذا ما سيحاول الإجابة عنه هذا العرض.

لا يمكن لباحث أن يتحدث عن الحياة الثقافية في مراكش على عهدي الدولتين المرابطية والموحدية بمعزل عن الحياة الثقافية في بلاد الأندلس، فإذا كان الاتصال الحضاري بين البلدين قد تم منذ الفتح الإسلامي، فإنه لم يعد في القرنين الخامس والسادس عبارة عن علاقة بين جارين كما كان الشأن من قبل، بل توثقت الصلات، وتم التلاقح والتمازج، وتوحدت الحضارة، فأصبح التمييز صعبا بين الأندلسيين والمغاربة. لقد دخل هؤلاء بلاد الأندلس في زمن حلت فيه الآداب الرفيعة، والأشعار الرقيقة، والعلوم البارزة، والحياة الهادئة محل الصراعات القبلية، والحروب الأهلية، حيث أصبح ملوك الطوائف يتنافسون في جلب الأدباء

والعلماء، وتأسيس المجالس العلمية، وحضور المناظرات الأدبية والدينية. فإلى نزوح رجال الثقافة والعلم الأندلسيين بمحض إرادتهم إلى مراكش عاصمة السياسة والعلم، تضاف هجرة زمرة أخرى من أعلام الفكر دعاهم أمراء وخلفاء الإمبراطوريتين للعمل في دواوينهم وخزائنهم. وكان بعض هؤلاء الأعلام في خدمة ملوك الطوائف، كأبي بكر بن القصيرة الذي كان كاتبا للمعتمد بن عباد. يقول صاحب المعجب: "فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"، إلى أن قال: "ولم يزل أمير المسلمين علي بن يوسف من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم بن الجد المعروف بابن الأحدب وابن القبطرنة، وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان، وأبى محمد ابن عبدون، وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال"[1].

وسط هذا المناخ الثقافي تأسس جامع علي بن يوسف بمراكش، فدرّس فيه عدد من هؤلاء الأعلام أمثال: أبي الوليد ابن رشد الجد، والسلالجي وسواهما، وتخرج فيه أمراء وعلماء نبغوا في الثقافة العربية الإسلامية بمؤلفاتهم العلمية الرصينة. ولم يكن الخلفاء الموحدون أقل اهتماما من سابقيهم بجلب رجالات العلم إلى مراكش، فأسماء مثل ابن الصقر الخزرجي، وابن طفيل، وابن رشد، وابن زهر الذي بنى له المنصور دارا على غرار داره بقرطبة حتى لا يغادر مراكش، تكفي لإعطاء صورة عن الجو الثقافي الزاخر في مراكش على عهد الموحدين. يقول صاحب المعجب: "وكان ممن صحبه (يوسف) من العلماء المتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين، ولم يزل ابن طفيل يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي نبهه على أبي الوليد ابن رشد"[2].

---

1. المراكشي: المعجب، ص.104 و 256.
2. المراكشي: المعجب، ص.349.

ومن الطبيعي أن يتمخض هذا المناخ الفكري عن تصانيف علمية وفقهية وفلسفية لا يزال جزء منها محفوظا في الخزانات المغربية والأجنبية. ففي العصر المرابطي كانت معظم المصنفات فقهية تكاد تختص في علم فروع المذهب المالكي، باعتبار انتشار هذا المذهب وسيطرة فقهائه، واقتناع الخليفة بقواعده ومبادئه، ورفض ما يعارضه، إلى جانب الحث على عدم الاكتراث بكتب الفلسفة وعلم الكلام والتصوف وبعض العلوم الأخرى. يقول صاحب المعجب: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ علمَ الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعُومل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ص)، إلى أن قال: "ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام"[3].

وفي العهد الموحدي اتسع ميدان التأليف وازدهر، وشمل بالإضافة إلى العلوم الفقهية العلوم التي كانت غير رائجة أو محظورا رواجها كالتصوف والفلسفة وغيرهما. فمؤلفات القاضي عياض الفقهية، وتأليف ابن الزيات التادلي في التصوف، ومصنفات وتراجم ابن رشد الفلسفية، ومؤلفات آل زهر العلمية، لدليل على هذا التفتح العلمي والازدهار التأليفي في هذا العصر. ولقد وردت أمثلة كثيرة على هذا النشاط الفكري في كتب التراث، أكتفي منها بواحدة فقط، يقول المراكشي في المعجب: قال ابن رشد: "فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد إن سألني عن اسمي ونسبي: ما رأيهم في السماء أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف. قال صاحب المعجب: واستدعاه ابن طفيل فيما بعد وقال له: سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه، ويقول لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس.. فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وإني لأرجو أن تفيَ به.. قال ابن رشد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس"[4].

---

3. المراكشي: المعجب، ص. 254.

4. نفس المصدر: ص. 354.

وأعتقد أن الحركة العلمية والنشاط التأليفي الذين عرفتهما مراكش على ذلك العهد كانتا نتيجة لعدة عوامل، فبالإضافة على نزوح العلماء من الأندلس إلى مراكش كان هناك هدوء سياسي نسبي، ورخاء اقتصادي سائد، ثم ظهور الورّاقين بفضل انتشار الورق الذي دخل المغرب من إسبانيا، وتأسست معامل الورق في فاس وسبتة[5]، وكانت مراكش بغداد المغرب، المستفيد الأول من هذه الحركة لما ازدهر فيها من ألوان الأدب وفنون المعرفة، ولما حل بها آنذاك من أمراء البيان ومن العلماء وقادة الفكر.

وكانت هذه الحركة التأليفية، ولإقبال سكان مراكش، من خلفاء ووجهاء وخواص، على الكتب وحبهم لها، وتقديرهم لمحتوياتها، وبحثهم عنها في جميع الأصقاع، سببا في تشييد المكتبات لجمع الكتب وحفظها وصيانتها. فبفضل هذه المؤسسات العلمية أمكن الحفاظ على عدد من المصادر الفقهية والعلمية والفلسفية[6]. وبعد استقراء كتب التراث أمكننا تصنيفها أنواعا ثلاثة:

المكتبات الملكية.

المكتبات الخاصة.

المكتبات العامـة.

ففيما يخص المكتبات الملكية في مراكش فإن أولها تلكم التي أقامها يوسف بن تاشفين على الرغم من قلة اهتمام المصادر بشأنها. وقد أشار إليها ابن خلدون إشارة غامضة أثناء حديثه عن المصحف العثماني الذي انتقل من الأندلس وآل إلى خزائن لمتونة كما يقول. والمرجح عندي أن ابن تاشفين أسسها بالفعل وأنه حمل معه مجموعة من الكتب أثناء رحلاته المختلفة إلى بلاد الأندلس، والغالب على الظن أن هذه الكتب من بقايا خزانات ملوك الطوائف وخزانة

---

[5]- بلغ عدد المصانع في فاس أيام المرابطين 104، انظر: **الترجمان المعرب للزياني**، ص. 277 وقد بلغ عددها 400 على عهد الموحدين: انظر **القرطاس** لابن أبي زرع، ص. 29.

[6]- من يقرأ كتب التراث العربي لا يجد فيها أبوابا أو فصولا خاصة بالمكتبات ومحتوياتها وأنظمتها، أخبار الخزانات قليلة والحديث عن تنظيمها أقل إن لم يكن منعدما.

الأمويين بقرطبة التي تشتتت بعد دخول المرابطين إلى شبه الجزيرة الإيبرية، ولا أدل على ذلك من دخول المصحف العثماني إلى المغرب، وحفاظ بعض الخزانات المغربية على بعض المخطوطات التي تحمل تمليكات الخلفاء والأمراء الأمويين.

بلغت هذه الخزانة الملكية أوجها أيام علي بن يوسف الذي أثبتت المصادر أنه كان يأتي بالكتب لإغنائها من جميع الجهات. وقد نص على هذه الخزانة في خواتم أجزاء من مخطوط كتب برسم هذا السلطان بقيت بعض أجزاء وقطع منه موزعة بين مكتبة القرويين حيث يحمل رقم 605، والمكتبة العامة بالرباط حيث يحمل رقم 2947.

أما في العصر الموحدي فقد كانت الخزانة الملكية في مراكش أُم الخزانات في العالم الإسلامي بكامله، ويرجع هذا إلى اهتمام خلفاء هذه الدولة بها، وجلب الكتب إليها من جميع جهات العالم الإسلامي. فقد كانت في عهد يوسف بن عبد المومن تشبه بخزانة الحكم المستنصر بقرطبة في القرن الرابع الهجري. ويروي المقري في نفح الطيب أن عدد الكتب العلمية وحدها قد بلغ مائتي ألف كتاب[7]. ويقول صاحب المعجب: "ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي"[8].

ولم يدخر الخلفاء وسعا في جلب الكتب التي هم بحاجة إليها لتوضع في خزاناتهم، ويطلبون من الكتاب والعلماء تأليف الكتب برسم هذه الخزانة. ففيما يخص خزانة المرابطين الملكية بمراكش تحتفظ خزانة القرويين والخزانة العامة بأجزاء من موطأ مالك، نسخ على رق الغزال، ويحمل رسم علي ابن يوسف. وقد كتب على الجزء الحادي عشر: "نسخ هذا الكتاب لابن يوسف في مراكش عام 502 هـ يحيى بن محمد بن عباد اللخمي"[9].

---

[7]- المقري: النفح، ج.1، ص.184.

[8]- المراكشي: المعجب، ص. 347.

[9]- تحتفظ خزانة الرباط بأجزاء أخرى من هذا الكتاب وقد وقفها أبو عنان على خزانة القرويين.

وبالإضافة إلى تشجيع العلماء على تأليف الكتب برسم خزانتهم، وتقبلهم المصنفات كهدية من طرف الأدباء والملوك من المغرب[10]، ومن خارج المغرب[11]، ونسخهم واستنساخهم للكتب والمصاحف[12]، واقتنائهم المخطوطات، بالإضافة إلى هذا كله كانوا يصادرون المكتبات التي يعلمون أنها تحتوي على كتب تدخل في إطار تخصصاتهم واهتماماتهم العلمية: أشير هنا إلى مثال واحد على هذه الظاهرة.

كان يوسف بن عبد المومن شغوفا بكتب العلم والفلسفة، باحثا عنها في كل مكان، جمع منها وحدها زهاء مائتي ألف كما ذكرنا سابقا: يقول صاحب المعجب: "ولم يزل (يوسف) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب"[13].

اعتبارا لهذا الحب والاهتمام لم يكتف يوسف بالطرق المذكورة للحصول على الكتب، بل لجأ إلى مصادرة بعض الخزانات الخاصة التي يعلم أنها تضم نوادر في الفلسفة: يقول المراكشي: "أخبرني عبد الملك الشدوني أحد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجوم، قال: كنت في شبيبتي أستعير كتب هذه الصناعة من أبي الحجاج يوسف المراني، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس [إلا] أن خبرها أنهي إلى أمير المؤمنين فأرسل إلى داري وأنا في الديوان وكان الذي أرسل كافور الخصي وأمره ألا يروع أحدا، وألا يأخذ سوى الكتب. . .ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها"[14].

10ـ هذه الهدايا عبارة عن نوع من الإيداع القانوني بالتعبير الحديث.

11ـ صلاح الدين الأيوبي أهدى مصحفين للخليفة يعقوب المنصور، انظر **الإستقصاء**، ج2ص. 182.

12ـ نسخ عمر المرتضى مصحفا من عشرة أجزاء وحبسه السقاية: الجزء الأول بالرباط والجزء السابع بالمتحف البريطاني بلندن، ولا يزال إلى اليوم مصنفان انتسخا برسم خزانته: **نظم الدرر والروضات البهية**، لابن القطان محفوظين بالقرويين تحت رقم 291 و296.

13ـ المراكشي: المعجب، ص.349.

14ـ نفس المصدر. طريقة مصادرة الكتب معروفة قديما وحديثا. كان الوزير الفرنسي ريشليو Richelieu معروفا بمصادرة المكتبات الخاصة.

وبتضح من خلال الأخبار الواردة في شأن الخزانة الملكية في مراكش على العهدين المذكورين أن معظم محتويات هذه المؤسسة كان على عهد المرابطين عبارة عن كتب معظمها في فروع الفقه[15]، بينما كانت في مختلف العلوم في الخزانة الموحدية، لإقبال السلاطين على جميع أنواع العلوم والفنون الرائجة في ذلك العهد. وإذا كانت المصادر قد أفصحت عن محتويات هذه الخزانة، فإنها قد سكتت عن كيفية تنظيمها وطرق تنسيقها وترتيبها، باستثناء الإشارة إلى خطة المحافظة التي كانت تستند إلى علية القوم. وإذا كنا لا نعلم شيئا عمن تولى هذه المهمة على عهد المرابطين، فإن الأخبار تحدثنا عن بعض من تولاها على عهد الموحدين أمثال: أبي العباس ابن الصقر الخزرجي، يقول ابن فرحون في الدّيباج: "ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب عبد المومن ألزمه (ابن الصّقر) خدمة الخزانة العالية، وكانت عندهم من الخطط الجليلة التي لا يعين لها إلاّ علية أهل العلم وأكابرهم"[16].

وإذا انتقلنا إلى الصنف الثاني من المكتبات في ذلك العهد وهي المكتبات الخاصة، نجد أن لكل عالم من العلماء الذين استوطنوا مراكش خزانة كتب خاصة، منها ما أشارت إليه كتب المصادر والتراجم، ومنها ما أهملته. والخزانة الخاصة هي مجموعة من الكتب يجمعها عالم أو حاكم أو مهتم بالكتب أو هاو لها، للاستفادة منها، أو للاستمتاع بجمالها وخطوطها. ومن بين الخزانات الخاصة التي عرفتها مراكش آنذاك مكتبة محمد بن أحمد المراكشي المعروف بابن الطراوة (659). قال عنه صاحب الذيل والتكملة: "كان أنيق الوراقة، متقن التقييد مليح التدبير، نسّابة لخطوط الأشياخ، شديد المحافظة على كتبه، مثابرا على الاعتناء بتصحيحها متهمما باقتناء الأصول التي بخطوط أكابر الشيوخ أو عنوا بضبطها، وجمع منها جملة وافرة"[17].

ومنها خزانة ابن الصقر الذي كان محافظا لخزانة الملك، قال صاحب الديباج: "ولم تكن همته مصروفة إلا إلى العلم وأسبابه، فاقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه

15- يذكر هذا بخزانة بالقاهرة، معظم محتوياتها كتب شيعية.
16- ابن فرحون: **الديباج المذهب**، ص.49.
17- المراكشي: الإعلام، ج4، ص.239-240.

الرائق، وامتحن مرات بضروب الحوائج كالغرق والنهب بغرناطة في الفتنة الكائنة بها، وكذلك نهبت كتبه بمراكش حين دخلها عبد المومن وكان معه عند توجهه إلى مراكش خمسة أحمال كتب، وجمع منها بمراكش شيئا عظيما"[18] ومنها خزانة ابن غلندة الأموي الطبيب الخاص ليعقوب المنصور، يقول ابن أبي أصيبعة في **طبقات الأطباء** ولوكلير Leclerc في **تاريخ الطب العربي**: "وقد امتاز ابن غلندة في خطاطته بأنه كان يكتب بخطين أندلسيين"[19].

ومنها أخيرا خزانة محمد بن أحمد القيسي المسلهم الرندي المتوفى عام 653 هـ، قال صاحب **الذيل والتكملة**: "كان محدثا مكثرا متسع الرواية، أديبا، من أبرع الناس خطا، عاقدا للشروط، جماعة للكتب وفوائد الشيوخ، نسابة لخطوط العلماء، ذاكرا للتواريخ. . . . "[20].

لسنا بحاجة إلى الحديث عن خزانات العلماء والفقهاء والفلاسفة الذين عرفوا بمصنفاتهم وآثارهم الواسعة أمثال: ابن طفيل وابن رشد والقاضي عياض وأمثالهم. ومن يقرأ في كتب التراجم يجد مزيدا من الأحاديث المتعلقة بالخزائن الخاصة لمن سكن مراكش على عهدي المرابطين والموحدين.

أما الخزانات العامة فإن الباحث يجد حرجا لتحديد مفهوم "العمومية" في ذلك الوقت، فالخزانات المغربية بجميع أصنافها كان لها طابع عمومي، فبالإضافة إلى خزانات المساجد المفتوحة في وجه عامة الناس، كانت الخزانات الملكية والمكتبات الخاصة تفتح للعلماء والكتاب والأصدقاء والخواص، باستثناء غير المعروفين من الطبقات الشعبية. ومما يدل على عمومية الخزانات في تلك الفترة ظاهرة وقف الكتب عليها ليقرأها من شاء من الناس، رجاء ثواب الله ومرضاته. ولهذا كان المغاربة على اختلاف طبقاتهم يسارعون إلى وقف المصاحف والكتب الدينية وسواها. فلا تزال المكتبات المغربية تحتفظ ببعض أجزاء المصحف وكتب أخرى مثل

---

[18]- ابن فرحون: الديباج، ص. 49

[19]- طبقات الأطباء، ج2، ص.79، Leclerc:Histoire de la médecine arabe,T.2 , p . 96.

[20]- المراكشي: الإعلام، ج5، ص. 365..

التمهيد[21] لابن عبد البر (463 هـ)، والإنجاد في أبواب الجهاد لابن أصبغ[22] التي وقفها الخليفة الموحدي عمر المرتضى في أواسط القرن السابع الهجري. ولهذا السبب كذلك روى صاحب اختصار الأخبار أن أول خزانة عمومية ظهرت في المغرب هي خزانة أبي الحسن الشاري 649 هـ التي وقفها في المدرسة التي بناها بنفسه في سبتة[23].

والمرجح أن هذا الصنف من الخزانات كان موجودا بمراكش قبل عهد الشاري، ويعتقد الأستاذ المنوني أن الخزانة التي بناها يعقوب المنصور في مراكش كانت لها صبغة عمومية، وقد تحدث عنها العمري في **المسالك والممالك**[24]، و الحسن الوزان الغرناطي الفاسي المعروف بليون الإفريقي في كتابه **وصف إفريقيا**، يقول هذا الأخير بعد مضي أربعة قرون على بناء المنصور للمدرسة وخزانتها في القصبة: "والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج، وآخر للحمام، وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصا لهذه الطيور"[25].

هذه بعض أخبار هذه المؤسسات العلمية على عهدي المرابطين والموحدين، وعلى الرغم من ضآلتها وضحالتها فإنها مكنتنا من رصد الدور الفعال الذي لعبته في تطوير الثقافة العربية الإسلامية في ذلك العهد. فبالإضافة على اقتناء النوادر من المخطوطات والنفائس من المؤلفات، وتمكين العلماء والباحثين من قراءتها والاستفادة منها، كان الخلفاء يشجعون الكتاب ويطالبون العلماء والمؤلفين بوضع الكتب في العلوم والفنون التي تفتقر إليها الثقافة العربية بوجه عام. وكانت النتيجة أن ألفت هذه الكتب ووضعت في خزاناتهم، وكان لها الأثر الكبير على جهابذة الفكر منذ القرن السادس إلى اليوم. قال المستشرق الفرنسي إ.رينان E.Renan: لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو. ونقول نحن بدورنا: لولا يوسف بن عبد المومن الموحدي لما

21- الخزانة الملكية، رقم 927.

22- خزانة ابن يوسف، رقم 216.

23- الأنصاري:" اختصار الأخبار" هسبيريس عام 1931.

24- العمري: مسالك البصار، ج1، ص. 184.

25- ليون الإفريقي: وصف لإفريقيا، ج1، ص. 133 من الترجمة العربية.

عمل ابن رشد على شرح وتلخيص أعمال هذا المفكر اليوناني الذي عرف العديد من آثاره، ودرس في الجامعات الأوروبية من خلال شروح وتلخيصات ابن رشد لها[26].

هذه بإيجاز بعض مساهمات الخزانات المراكشية في مسيرة الثقافة في ذلك العهد. وختاما لهذا العرض فإن ما تم سرده في هذا البحث هو عبارة عن أخبار عن الكتب والمكتبات وردت في كتب التاريخ والحضارة، وهي أخبار لازالت بحاجة إلى مزيد من التعميق والتحليل. فالذي يجب أن يبحث فيه وهو لم يبحث حتى الآن هو انعكاسات هذه الحركة التأليفية على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، بمعنى: كيف كانت تتم نساخة الكتب؟ ومن كان ينسخها؟ ولم استمر استعمال الرق مع ظهور الورق؟ وهل كانت الغلبة للكاغد أم للرق؟

إن هذا النوع من البحث العلمي الإحصائي لو توفرت وثائقه حري بأن يمكننا من الوقوف على جوانب مهمة من الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لمراكش، والمجال الوحيد الذي يمكن أن نتمكن من خلاله إلى الوصول إلى بعض النتائج هو دراسة ما بقي من النسخ الخطية التي تعود إلى ذلك العهد أو إلى العهود التالية دراسة علمية مخطوطية. فالبحث العلمي اليوم لم يعد فيه مجال التأويل والحدس في غياب النصوص، وعلى الأخص إذا كان الأمر يتعلق بمجتمع في العصر الوسيط كمجتمع مراكش على عهدي المرابطين والموحدين.

---

[26]. أمر الملك الفرنسي لويس الحادي عشر Louis XI بتدريس مذهب ابن رشد في كل جامعات فرنسا.

رعاية المغاربة للمكتبات

في القرن التاسع عشر.

الحديث عن المكتبات في فترة تاريخية معينة، وفي مجتمع معيّن لا يمكن أن يتّم إلا في إطار دراسة شاملة لجميع جوانب هذا المجتمع، من ثقافية وفكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها. وبما أن عددا من عروض هذه الجامعة الصيفية قد تعرضت أو ستتعرض لبعض أو كل هذه الجوانب، في مغرب القرن التاسع عشر، وبما أن الوقت المحدد لمعالجة هذا الموضوع لا يسمح بالإضافة والتفصيل في هذه العوامل التي أكرر أنها شديدة الارتباط بهذه المؤسسات العلمية، بل ضرورية للبحث فيها ودراستها، فإنني سأتعمّد الإيجاز بالإشارات إليها أثناء حديثي عن خزانات الكتب المغربية في هذه الفترة.

وقبل الشروع في الموضوع أريد، أن أشير إلى ضرورة الإلمام بتاريخ المكتبات من طرف المهتمين بالعلوم المكتبية الحديثة، ومن طرف المؤرّخين كذلك. فلا يستطيع المكتبي أن يكون ماهرا في تخصصه إلا بتمكنه من علم التاريخ عموما وتاريخ المكتبات خصوصا، لأن الآثار التاريخية هي أساس معرفته ونشاطه في هذا الميدان، كما أن المؤرخ لا يستطيع أن يبحث في التاريخ القديم والوسيط والحديث، أو تاريخ الفكر والمذاهب والثقافة بدون معرفة جيدة، وإلمام كبير ودقيق بتاريخ المكتبات. وأضيف أنه لا يمكن لأي باحث مهما اعتز بقوّته الفكرية وطاقته الخلاقة، ومهما كثر تردده على هذه المؤسسات العلمية أن يجني كثيرا من ثمارها ويستفيد من مدخراتها وكنوزها ما لم يقف على الأقل على الخطوط العليا والأساسية لتاريخها، وما لم يدرك كيف تجمّع هذا التراث الذي ورثناه جيلا بعد جيل عن الذين أبدعوه وسجلوه وصانوه من العلماء الأفذاذ، والمفكرين الجهابذة، وهواة الكتب والقيّمين الأكفاء.

إن المتأمل في عنوان هذا العرض يبدو له لأول وهلة أن رعاية واهتمام الملوك المغاربة بهذه المؤسسات العلمية كانت في فترة تاريخية معينة هي القرن التاسع عشر، وبالتالي أن خزانات الكتب كانت في وضعية دعت هؤلاء الملوك إلى إصلاحها والعناية بها . لهذا ارتأيت أن أعالج هذا الموضوع من خلال محورين اثنين، أبحث في أولاهما وضعيات المكتبات المزرية في هذه الفترة، مشيرا بكل إيجاز إلى بعض الأسباب التي دعت إليها، وأنصُّ في ثانيهما على محاولات المسؤولين المغاربة إصلاح هذه المؤسسات العلمية، وجعلها تقوم بالدور اللائق بها في مسيرة الثقافة المغربية في تلك الفترة. ورأيت من المنطق أن أستهل العرض بمقدمة جدّ موجزة عن حالة المكتبات وعن مدى اهتمام المغاربة بها في القرن التاسع عشر .

إن المستعرض لتاريخ المغرب الثقافي يلاحظ أن المغاربة على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية قد اهتموا بالكتب شراء ونسخا واستنساخا، فكوّنوا لأنفسهم المجموعات الخاصة، وأسسوا المكتبات، ووقفوا عليها المخطوطات رغبة في نشر العلم والمعرفة بين الناس، فحَفَل تاريخ المغرب الثقافي بمنجزات علمية تجلت بوضوح، وتمثلت في اعتزاز وازدهاء في المؤسسات العامة، والمجموعات الخاصّة التي لعبت دورا كبيرا في تطور المغرب عبر تاريخه الطويل. ويتضح من خلال هذا الاستقراء التاريخي أن المكتبات المغربية لم تكن متركزة فقط في العواصم والمدن الكبرى، أو في الأمصار العظيمة العمران بتعبير ابن خلدون، على غرار ما كان يعرف عن الخزانات في الدول الأخرى، بل وُجدت في أطراف المغرب النائية، واستقرت في الزوايا والمدارس العتيقة والبعيدة عن هذه العواصم. وإن دل هذا الانتشار على شيء فإنما يدل على تفاني المغاربة قاطبة في حبّ الكتب، وعلى رغبتهم الواسعة في التعليم والتعلم.

منذ القرن الثالث للهجرة نلاحظ وجود أنواع من المكتبات في المغرب نتيجة النشاط الثقافي المزدهر في عهد الأدارسة. فجامع القرويين الذي بدأت فيه الحلقات الدراسية فور بنائه في أواسط القرن الثالث الهجري، تضمن خزانة جامعية عمومية في آن، وكانت موضوع اهتمام المغاربة منذ تأسيسها حتى اليوم. وقد دشن الخليفة الإدريسي يحيى الرابع تأسيس الخزانات

الملكية الخاصة، وعيّن عددا من الورّاقين لنسخ الكتب[1]. وزاد اهتمام المغاربة بهذه المؤسسات على عهدي المرابطين والموحدين حيث جلبت الكتب من الأندلس ومن المشرق، وتعددت المكتبات الخاصة، وأولى الخلفاء للمكتبات الملكية عناية خاصة، حيث جعلوا القيمين عليها من الفقهاء والقضاة والوزراء والأمراء، ونسخوا الكتب والمصاحف بأيديهم. أما في العهود التالية فقد ازدهرت الخزانات، وتنوعت بازدهار التعليم، واقبال المغاربة عموما على العلم والمعرفة. وإلى جانب الخزانات الملكية اهتم الخلفاء بالخزانات الجامعية والعمومية. ففي عهد المرينيين ظهرت خزانات المدارس العتيقة التي أسسها الخلفاء في جميع أنحاء المغرب، واختاروا لها المجموعات المهمة من خزائنهم الخاصة، وحذا حذوهم الوزراء وعامة الناس، فوقفوا عليها من الكتب والذخائر المغربية والشرقية ما جعلها كعبة الباحثين والعلماء من جميع الجهات، وفي كل العصور. وفي العصرين السعدي والعلوي ازدهرت خزانات الزوايا التي نافست بعلمائها ومخطوطاتها ونساخها خزانات المدارس، فقصدها الطلبة والعلماء من كل حدب وصوب، ووقف عليها الشيوخ والملوك، ونشطت الإعارة، وتم التبادل بينها وبين باقي المكتبات، ومن خير الأمثلة على هذا النشاط المكتبي ما قام به السلطان المولى عبد الله العلوي من توزيع خزانة جده السلطان المولى إسماعيل، التي بلغ عدد كتبها اثني عشر ألف كتاب، على خزانات المغرب بما فيها خزائن الجوامع والمدارس والزوايا. ولا يزال بعض هذه المؤسسات يصون ضمن محتوياته قليلا أو كثيرا من هذه الكتب الموقوفة، ولا يمكن أن يكون هذا الازدهار وهذا النشاط المكتبي إلا في شعب شغوف بالكتب، مقدر للعلماء، متفان في خدمة العلم. .

وبحلول القرن التاسع عشر يلاحظ المتتبع لتاريخ المغرب الثقافي أن هذه الخزانات التي كانت مشرقة زاهية في العصور السابقة قد خبا شعاعها، وانطمس إشراقها، أو كاد، وأصابها العقم، ولحقها الإهمال، ولم تعد مكتبات بالمعنى العلمي لهذه الكلمة، بل أصبح ما

---

[1]- البكري، وصف إفريقية، ص. 255.

بقي منها عبارة عن مخازن كتب (Bibliothèques Souterraines)، وأصبحت محتوياتها لقمة سائغة للأرضة، وعرضة للتلف والضياع.

وقبل سرد بعض الأسباب التي دعت إلى الوضعية المزرية التي آلات إليها مؤسساتنا هذه، نشير إلى ملاحظات بعض الباحثين الأجانب، والرحالين الأوروبيين الذين تمكنوا من زيارة المغرب في ذلك الوقت بحثا عن المخطوطات النادرة. ومن الحوافز الأساسية التي دعت هؤلاء الأجانب من العلماء والباحثين إلى التوجه إلى المغرب هو أن بلادنا أصبحت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر البلد العربي الإسلامي الوحيد الذي لم تطأ أرضه أقدام المستعمرين، فاعتقدوا أن كل مخطوط تعذر العثور عليه في الخزانات الشرقية والغربية قد يكون مصونا في المغرب. فجاءوا إليه، وتجولوا في خزاناته، وقد مكنتهم هذه الجولات العلمية من الإدلاء بأحكام وشهادات تعبر عن الإهمال واللامبالاة التي كانت تعاني منها المكتبات المغربية. ومن بين هذه الشهادات قول كودار L.Godart في الكتاب الذي ألفه عن المغرب في أواسط القرن التاسع عشر: "في عام 1613م علمَ المستشرق الهولندي اربانيوس (Erpenius) من شاهد عيان أن إحدى مكتبات [القرويين] هذه العاصمة [فاس] كانت تحتوي آنئذ على اثنين وثلاثين ألف كتاب، فأين هذه الكتب اليوم؟"[2].

ويقول علي باي العباسي(Badia ylieblich) في رحلاته : "إن هذه الخزانات العلمية فارغة، وشعاعات هذه المراكز الثقافية منطمسة"[3].

ويصف القنصل الفرنسي بوميي Baumier مكتبات مراكش العمومية قائلا:"إن مكتبة[4] مراكش مغلقة منذ زمان، ولم تحتو اليوم إلا على الغبار والأرضة"[5]. واستمرت المكتبة

---

[2]-L.Godart, Le Maroc, note d'un voyageur, 1858-59, p.124

[3] -Ali Bey Al-Abbassi /Voyages en Afrique et en Asie, t. 1, p.117.

من المعلوم أن العباسي هذا رُخص له بالبحث في خزانة جامع القرويين عن عشريات العالم الروماني " تيط ليف" Les decades de Tite-Live التي استفاد منها ابن خلدون في تاريخه وعلى الأخص في وصفه لمعركة "كان" (Canes) التي التقى فيها الرومان برئاسة فارون(Waron) والقرطاجنيين برئاسة هانيبال (Hannibal) عام 216 ق م وانتهت بانتصار ساحق للقرطاجنيين على الرومان.

[4] - يعتقد دوفردان Deverdun أن Beaumier يقصد مكتبة الأشراف. أنظر مراكش من التأسيس إلى عام 1912، ج1، ص.569.

[5] - Beaumier : Description sommaire du Maroc ;Paris 1868 pp.42-43.

المغربية في هذه الوضعية حتى أواخر حكم المولى عبد الحفيظ وبداية عهد الحماية، حيث يشهد المستشرق ألفريد بل Alferd Bel الذي تلقى أمر السلطان المولى يوسف في شأن تنظيم خزانة القرويين6 ووضع فهرس مخطوطاتها. يقول ألفريد بل في مقدمة هذا الفهرس الذي نشر منذ السنوات الأولى من عهد الحماية: "لقد وجدنا الخزانة في حالة مزرية، الأوراق مبعثرة، المخطوطات مبتورة وما بقي من أجزاء بعض المصاحف القرآنية مشتتة ومتآكلة هي أشبه شيء بأعضاء الجثث التي مرّ عليها زمان طويل تحت الأرض"[7].

فخزاناتنا المغربية كانت إذن متدهورة في القرن التاسع عشر، والسبب في ذلك يرجع قبل كل شيء إلى الحالة العامة التي كانت تعيشها البلاد من النواحي السياسية والجتماعية والاقتصادية. وبما ان هذه المؤسسات العلمية هي جزء لا يتجزأ من المجتمع، فإنها خضعت لما خضعت له باقي المرافق من التدهور والانحطاط. وأعتقد أن من الأسباب الأولى لهذا التخلف حالة التعليم المتخلفة، والطرق البيداغوجية العقيمة السائدة في المغرب آنذاك. فبعدما كان الشيوخ يدرّسون الطلبة في الزوايا والمدارس والمساجد، ويرشدونهم إلى مواطن البحث، ويحيلونهم على المصادر لإتمام دراستهم، وتثبيت المعلومات التي لقفوها من أفواههم، أصبح هؤلاء الطلبة يعتمدون على الحفظ والذاكرة من جهة، وتقديس مايفوه به الشيوخ دون التفكير في نقد أو إبداء رأي من جهة أخرى[8].

فلم يعد الطلاب بحاجة إلى مصدر أو مرجع، بل لا يحسون بأي حاجة إلى اجتلاء ما قد يكون غامضا أو ناقصا من مصادر العلم التي تملأ الخزانات التي كانت كل فئات المجتمع على اختلاف طبقاتها ومستوياتها تساهم قليلا أو كثيرا في إغنائها وإنمائها بالإهداء والوصية والوقف. فقول الشيخ أو المرشد أصبح في هذه الفترة سدرة المنتهى في العلم، وهو البداية

---

6 - وضع هذا الفهرس بمعية ومساعدة الشيخ عبد الحي الكتاني.

7 -A.BEL : Catalogue de la qarawiyyin , Paris 1918 ,p.6.

8 - سبق لابن خلدون أن انتقد في مقدمته هذه الطريقة البيداغوجية التي تعتمد على الذاكرة وحدها في امتلاك العلوم. ويحدثنا ابن زيدان في الدرر الفاخرة عن محاولة المولى عبد الرحمن لإصلاح مناهج التعليم بجامعة القرويين.

والنهاية، وفيه القول الفصل، وأصبحت التقريرية والإتكالية في العلم المنهج المتداول في التعليم والطريقة المطبقة في الحلقات الدراسية ما قتل في الطلبة كل حب للاطلاع، وكل ميل إلى الكشف والاستطلاع، وكل تفكير في البحث في منابع المعرفة، وأخيرا كل اعتصام بالمصادر والوثائق والنصوص. فخزانات الزوايا التي تخرّج فيها عدد من عباقرة المغرب من فقهاء وعلماء قد قل الإقبال عليها، فضعفت محتوياتها، وتبدّد جزء مهمّ من مخطوطاتها. وانتهت أو كادت حلقات المدارس العتيقة فأهمل ما بقي من مكتباتها وأصبحت وظيفة القيم تسند إلى أحد القاطنين من الطلبة بعد ما كان يُختار القيم عليها من خيرة أساتذة المدرسة[9]. أما هذا الوضع لم يكن مستغربا أن تهمل الخزانات، وتضيع المصادر، وتتبدّد المخطوطات.

ومن الأسباب التي أدت إلى وضعية خزاناتنا هذه بل أدت إلى إغلاق عدد منها، وضياع العدد من مصادر التراث، لجوء المغاربة إلى إخفاء الكتب عندما أحسوا باستعداد الأجانب من الأوروبين للسيطرة على البلاد، وقد لوحظت ظاهرة الإخفاء هذه في الفترة العزيزية على الخصوص. فحتى لا تقع المخطوطات النفيسة والكتب الدينية في أيدي الكافرين والملحدين بتعبير ذلك الوقت، عمل المغاربة على إقامة الحيطان على دور الكتب، أو دفنوا الكتب في بطن الأرض. وكان شيوخ الزوايا أكثر الناس حرصا على صيانة هذا التراث وعلى حفظه من الوقوع في أيدي المستعمرين، فلذلك التجأوا إلى ظاهرة الإخفاء هذه، وكانت خزانة تامكروت وهي من أغنى الزوايا المغربية من بين المؤسسات التي أقامت الحيطان على الكتب، فضاع منها من جراء هذه العملية قسط كبير[10]. على مكتبات الزوايا وحدها بل حتى الخزانة الملكية الموجودة بالقصر السلطاني بفاس قد أخفيت وبني على مخطوطاتها الكثيرة في السنة

---

[9] ـ أصبح التعليم في المراحل النهائية مستوعبا من طرف المساجد الجامعة ونقلت مجموعات كتب المدارس والمساجد إلى خزانات هذه المساجد الجامعة.

[10] ـ من بين الكتب المتداولة في هذه الزاوية كتاب شرح التسهيل لأبي عبد الله المرابط، وهذا من الكتب النادرة التي ضاعت اليوم من هذه المجموعة وقد بدأ تحقيقه أحد المشارقة وظهر منه الجزء الأول والثاني فيما أحسب. في سنة 1958، وبأمر من جلالة محمد الخامس نقل ألف مخطوط من تامكروت إلى الرباط.

التي تم فيها عقد الحماية[11]. هذه بإيجاز بعض الأسباب التي أدّت إلى انهيار وتخلف الخزانات المغربية في هذه الفترة، فما هو الموقف الإصلاحي الذي وقفه الملوك المغاربة إزاء الوضعية المزرية التي كانت عليها هذه المؤسسات العلمية؟

الموقف الإصلاحي:

كان إحساس الملوك كبيرا إزاء ما لحق المكتبات من إهمال، وما أصاب المخطوطات من تبدد وضياع، فانصب اهتمامهم أول الأمر على إصلاح خزاناتهم الملكية الخاصّة وإغنائها بالكتب العلمية المفيدة. وأعتقد أنه كان هناك عاملان في اختيار محتويات هذه الخزانات. أولهما: اعتبار ماكان العلماء والباحثون بحاجة إليه من مصادر التراث، لأن هذه الخزانات الملكية كانت عبر تاريخ المغرب ولاتزال تتسم بسمة العمومية، بحيث إنها كانت دائما مفتوحة في وجه كل الباحثين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم العلمية. لهذا نجد ضمن هذه المجموعات الملكية كتبا في مختلف العلوم والمعارف من فقه وتفسير ولغة وأدب وفلسفة ورياضيات وفلك وطبّ وغيرها.

وثانيهما: تزويد هذه الخزانات بمجموعات أخرى من كتب العلوم والمعارف التي يهتم بها السلطان نفسه. يحدثنا الزياني في الروضة السليمانية أن أغلب محتويات خزانة السلطان المولى سليمان[12] (1822) كان كتب تاريخ، لأن هذا الأخير كان يحب قراءة التاريخ[13].

أما خزانة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن فإن كتب العلوم هي التي تمثل أغلبية مجموعاتها، لأن هذا الأخير كان شغوفا بهذا النوع من الكتب. وكان السلطان المولى الحسن الأول أكثر شغفا من أبيه بكتب العلوم وكتب علم الكيمياء Alchimie على وجه

---

[11] - التازي: **جامع القرويين**، ج3ص.670. أمر السلطان يوسف في بداية حكمه بإقامة جدار على الخزانة الملكية بفاس، واعتقد أن هذا الجدار لم يرفع إلا بعد الاستقلال، وكانت هذه المجموعات هي النواة الأولى للخزانة الملكية الحديثة

[12] - يمكن اعتبار هذه الخزانة بداية المكتبات المتخصصة في المغرب.

[13] - الزياني: الروضة السليمانية، مخطوط، الخزانة العامة، د1275- وقد نسب إليه كتاب عن يوسف الفاسي الفهري جد السرة الفاسية في القرن العاشر.

الخصوص. يحدثنا الشيخ عبد الحي الكتاني "أن هذا السلطان كان يجلب مخطوطات الكيمياء من خزائن جامع القرويين وإسبانيا واصطنبول بتركية، وأخيرا من الخزانة الخديوية بالقاهرة"[14].

وإن شدة اهتمام السلطان بهذا العلم جعله يؤسس إلى جانب هذه الخزانة التي تختص بكتب الكيمياء مختبرا علميا يعمل فيه بمساعدته وتحت إمرته عالمان مختصان في هذا العلم هما: محمد المزّور واليهودي مخلوف أمسلام. وكانت مجموعة هذه الخزانة الخاصة تضم إلى جانب الكتب العربية المتعلقة بالكيمياء Alchimie، كتبا عربية أخرى مكتوبة بحروف عبرية مثل كتاب **الوافي في تدبير الكافي** الذي كان يضم نصوصا مجهولة تماما لدى العلماء المهتّمين بهذا العلم في أوربا[15]. وإلى جانب اختيار الكتب واقتنائها وجلبها من الخارج اهتم الملوك بترتيبها وتنظيمها، حيث كانوا يختارون من العلماء الأكفاء من يفهرسها ويصنفها. يقول العابد الفاسي عن خزانة الحسن الأول: "ولم تكن الخزانة الملكية تنقص عن الخزانة المعروفة في القصور السلطانية يعيّن لها بين الحين والحين من يضع لها فهارس منظمة، ويتعهدها بالإصلاح، ويقتني لها الذخائر والنفائس من القديم والحديث، وقفت على عدة فهارس موضوعة للخزانة الحسنية الخاصة، وجميع محتوياتها من النادر الغريب الذي لا نعرف له الآن رواجا"[16]. وتحتفظ الخزانة الحسنية الحالية بقوائم الكتب التي كانت تحتوي عليها خزانات كتب المولى عبد الرحمن، والمولى الحسن الأول، والمولى عبد العزيز، والمولى عبد الحفيظ[17]. ومن الجدير بالذكر أن هذا التخصص الذي نلاحظه في المكتبات الملكية في القرن التاسع عشر: المكتبة التاريخية في عهد المولى سليمان، والمكتبة العلمية في عهدي المولى محمد عبد الرحمن، والمولى الحسن الأول، قد يتضمن ملامح تدل على أن المغرب عرف ما يسمى بالمكتبات المتخصصة (Bibliothéques spécialisées) التي ظهرت لأول مرة في أوربا في القرن التاسع عشر[18].

---

[14]- الكتاني : المكتبات الإسلامية، المخطوط، الخزانة العامة.ك 3021.

[15]-G.Salmon : "Note sur L' alchimie à fes " ; in Archives Marocaines , vol .7année 1907.

[16]- العابد الفاسي: الخزانة العلمية ص60..

[17]- الخزانة الحسنية، الأرقام التالية:4263-6586-4429-4259-4883-8252-4433.

[18]- ظهر هذا النوع من المكتبات وتطور في لندن لأول مرة ثم امتد إلى مدن أوربا وأمريكا حيث زودت المنظمات والمعاهد والمؤسسات العلمية والتقنية بمكتبات متخصصة، بل ظهرت مكتبات متخصصة خاصة بكاتب معين كتلك التي ظهرت في واشنطن خاصة بشكسبير Shakespeare Library، وهو المركز الخاص بالبحوث والدراسات الشكسبيرية.

ولم يقتصر إصلاح الملوك المغاربة للمكتاب على خزاناتهم الخاصة، بل امتدّ كذلك إلى مابقي قائما من الخزانات العمومية، ومكتبات المساجد الجامعة على الخصوص، فقد أمدوا هذه الخزانات بمجموعات مختارة من الكتب، وأمروا بإصلاح وترميم المتلاشي من محتوياتها، وعينوا من النظار والقيمين من ينظمها، بل أصدروا الظهائر الشريفة في هذا السبيل، وذلك للعناية الكبرى التي أولوها لهذه المؤسسات العلمية. وكان لخزانتي القرويين وابن يوسف الحظ الأوفر من هذه الرعاية، لأن التعليم العالي على الأخص كان يقتصر علىهاتين الجامعتين بعدما انتهى أو كاد من المدارس العتيقة والزوايا، ولأن جزءا كبيرا من محتويات خزانات هذه المؤسسات الأخيرة انتقل إلى الخزانتين المذكورتين. فقد أصدر السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام ظهيرا شريفا في موضوع إصلاح كتب القرويين، وتجديد ما اندثر من أسفارها، وما تبدد من مخطوطاتها. وقد جاء هذا الظهير مكتوبا على ظهر أول ورقة من الجزء الثاني من كتاب **تيسير الوصول إلى جامع الأصول** للحافظ أبي الربيع الشيباني، وهي مؤرخة بأواخر شعبان من عام سبعة وخمسين ومائتين وألف، بخط الفقيه العدل قيم الخزانة وقتئذ الشريف أبي عبد الله محمد ابن الطيب ابن عبد السلام بن الخياط القادري الحسني[19].

وبعث السلطان الحسن الأول بظهير شريف لإصلاح نفس الخزانة للقاضيين محمد بن محمد العلوي المدغري، وحميد بناني: يقول بعد الحمدلة والتصلية: "وبعد فلا يخفى ما كانت عليه خزانة الكتب التي بالقرويين من الضبط والصيانة والمقابلة والتعهد، وقد بلغ علمنا الشريف أ ن أمرها الآن استحال إلى ضياع وتفريط بسبب إهمالها، وعدم الاهتمام بشأنها، ولأجله تعين إيقاظكم وتنبيهكم وحضكم على رد البال إليها، وإجراء العمل فيها على ما سنقرره لكم من الضوابط والفصول، حتى تعود بحول الله إلى حالتها الأولى، وترجع إلى ماكانت عليه من الصيانة، وما أسسه السلف الصالح فيها إن شاء الله. . . إلخ. . ."[20].

19- العابد الفاسي: الخزانة العلمية، ص.71.

20- نفس المصدر، ص.72.

وإلى جانب هذا الإصلاح الذي تجلى كما رأينا في إهداء المجموعات المختارة، واقتناء المخطوطات أو نسخها، وإصدار الظهائر وكتابة الرسائل إلى النظار والقضاة والقيمين في هذا السبيل، شارك الملوك المغاربة كما نعلم جميعا في تأليف الكتب وترجمة أخرى من اللغات الأجنبية، إرضاء لرغباتهم العلمية، وتشجيعا للعلماء: فمؤلفات ومترجمات كل من المولى محمد ابن عبد الرحمن[21]، والمولى عبد الحفيظ خير مثال على ذلك. وبالإضافة إلى هذه المساهمة العلمية الفعّالة والمباشرة في ميدان الكتابة، فإنه كان لهؤلاء الملوك يد بيضاء كما يقال في تشجيع وتنشيط العلماء والأدباء ورجال الفكر على التأليف في مختلف العلوم والفنون، فألفت الكتب، وجمعت الدواوين، ودوّنت الرحلات، وكانت الغاية القصوى من هذه الحركة التأليفية والعلمية هو غناء الخزانات التي ينتهي إليها هذا الإنتاج، فتسترجع نشاطها، وتعود العامة إلى الإقبال عليها، والاختلاف إليها كما كان الأمر من قبل.

وفي هذا السبيل كذلك لم يتوان ملوك القرن التاسع عشر في مواصلة المطالبة باسترجاع التراث العربي والمغربي المحفوظ في المكتبات الإسبانية. وعلى الرغم من أن هذه المطالبة بدأت رسميا منذ السادة السعديين، خصوصا بعد استيلاء القراصنة الإسبان على خزانة السلطان زيدان السعدي التي خلقت مشاكل دبلوماسية لست دول، وعلى الرغم من أن نتائج هذه المطالبة كانت هزيلة، فإن الأمل لا يزال كبيرا في الحصول على صور من هذه الكتب.

وتعتبر الترجمة العربية في هذه الفترة لأول فهرس لمكتبة الإسكوريال الذي وضعه العالم السوري ميشيل الغزيري في القرن الثامن عشر، محاولة أخرى للمطالبة بتراثنا الضائع. أما تأسفات السفير الكردودي في إسبانيا على عهد الحسن الأول عن عدم تمكنه من زيارة خزانة الإسكوريال الملأى بالمخطوطات العربية، فإنها توحي بأن المغاربة لازالوا يفكرون ويطالبون بتراثهم وإن كان اليأس من استرجاعها قد بلغ فيهم مبلغه[22].

[21]- أشرف على ترجمة كتاب " لالند" Lalande المسمى: **الجامع المغرب النافع المعرب** وكتب كل منهما معروفة ومطبوعة طبعة حجرية أو طبعة حديثة ومحفوظة في مختلف الخزانات المغربية وعلى الأخص المكتبة الحسنية الحالية.

[22] - الكردودي: **التحفة السنية**.

وآخر ظاهرة من ظواهر إصلاح الخزانات المغربية ورعايتها وتنميتها تتجلى في دخول الطباعة للمغرب[23]. وكانت النتائج المتوخاة هي تعداد المؤلفات، ووقفها على مختلف الخزانات رغبة في إغنائها وتشجيعا للناس في التردد عليها . . وقد ثبت أن المولى محمد بن عبد الرحمن الذي تمت في عهده هذه الحركة المباركة وقف جملة من الكتب التي طبعت بأمره ونفقته على الخزانات المغربية، وعلى الأخص منها خزانات المساجد الجامعة، كمكتبة جامع القرويين. ولم تقتصر الطباعة على المخطوطات الجامعية كما يقول الفرنسيون Manuscrits universitaires، بل امتدت إلى كتب ثقافية عامة يستفيد منها الجميع: يقول العابد الفاسي رحمه الله: "وبتصفح قائمة المطبوعات المحمدية (محمد الرابع) تتبين نظرية هذا الملك العبقري في الاعتناء بكتب الدراسة الابتدائية والمتوسطة، وإن شئت قلت الكتب الشعبية التي يجب ان تكون في متناول الجميع وقدرته"[24] .

فما المقصود بعبارة الكتب الشعبية؟ وما هو الهدف البعيد والغاية القصوى من طبعها ؟ الكتب الشعبية كما قال المؤلف هي التي تكون في متناول الجميع، أما الغاية من طبعها والاهتمام بها فهي التي يجب أن يبحث فيها وفي نية الرجل الذي أمر بطبعها . فلا يخفى على المهتمين بشؤون المكتبات وتاريخها أنه ظهر في أوربا وفي أواسط القرن التاسع عشر بالضبط نوع من الخزانات دُعي الخزانات الشعبية Bibliothèques populaires . فهل كان المولى محمد الرابع ينوي إقامة خزانات شعبية على غرار تلك التي ظهرت في انجلترا وفرنسا قبيل تربعه على عرش المغرب؟ وهل وصلته أصداء هذا النوع من الخزانات الحديثة النشأة، فأخذ بطبع الكتب العامة ليجعلها رهن إشارات القراء في كل المستويات؟ مثل هذا لايستبعد من رجل كان يفهم اللغة الفرنسية، وكانت تأتيه الكتب العلمية من أوربا، كما كان على علم كبير بالتقدم

---

[23] ـ ظهرت الطباعة بحروف غير عربية فيالمغرب قبل هذا التاريخ 1860 (مطبعة بتطوان بحروف إسبانية) ويعتقد أنه كان فيالمغرب مطبعة عبرية منذ بداية القرن السادس عشر فكانت أول مطبعة في إفريقيا: وكان أول كتاب طبع هو تفسير التوراة لمؤلفه إسحاق أبارينيل Abarbanel وتوجد نسخة منه في مكتبة الكوليج اليهودي بولاية Ohio بالولايات المتحدة الأمريكية.

[24] ـ العابد الفاسي: الخزانة العلمية، ص.58.

العلمي والحضاري في الغرب، فعزم على إرسال البعثات العلمية للاستفادة والتكوين، ولاشك أن هذه تساؤلات بحاجة إلى جوانب موثق عنها.

تلك إطلالة سريعة على بعض معالم الإصلاح الذي حاوله الملوك المغاربة في مجال خزانات الكتب التي أودت بالجانب الأعظم منها الظروف التي ذكرناها، وعبثت بمذخراتها أيدي المطامع والإهمال، فتشتت أسفارها وتبددت كنوزها، ولم يسلم منها إلا ثمد من نهر.

"ابن يوسف" جامع أم جامعة ؟

في الثلاثينات من هذا القرن، ومع بزوغ الحركة الوطنية في المغرب، ونشأة الجامعات في الشرق ظهر على الساحة الفكرية خلاف بين فريقين من المهتمين بالتعليم في كل من فاس ومراكش حول التسمية التي ينبغي أن ينعت بها كل من القرويين وابن يوسف.

رأى فريق أن القرويين أجدر بأن تنعت بالجامعة، وابن يوسف بالكلية، بينما يرى فريق ثان عكس ذلك، وكان على رأس المتحمسين لهذا الرأي من المراكشيين محمد بن عثمان الذي وضع تأليفا يبحث في أطوار هذه الجامعة العلمية، برورا بها واعترافا لها بما أمدته به من معارف، واستوحى عنوانه، فيما أعتقد، من الصراع الذي كان يدور وقتئذ، فسماه الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة. ولم يتردد في تمهيده للكتاب في أن ينعت القرويين بالكلية وابن يوسف بالجامعة حيث يقول:

" إن القرويين كلية تمد فاس وما إليها، والجامعة اليوسفية تمد مراكش ومن حولها حتى سوس الأقصى ودرعة، وتمثل معلومات الجنوب تمثيلا علميا، لأن كثيرا ما يقصد أفراد تلك النواحي القاصية الجامعة اليوسفية لتتميم دراستهم العليا"[1].

ويزداد حماس ابن عثمان في الدفاع عن ابن يوسف في قوله: "كان لهذه الجامعة الرياسة العلمية في بعض عصورها القديمة، ولو تتبعوا (علماء غير مراكش) بعض تراجم علمائها في بطون التاريخ لاستطاعوا أن يحكموا عليها حكما عادلا لا يجحف بحقوقها، وأنها في مستوى غيرها، بل ربما تتفوق عليها في بعض العلوم كما شهد بذلك بعض المنصفين من رجال العلم". إن هذا الحماس قد أثار ثائرة العديد من العلماء، ونقتصر هنا من ردود الفعل على كلام عبد السلام

---

[1]- الجامعة اليوسفية: ابن عثمان المراكشي، ص.11.

بنسودة رحمه الله حين وصف الجامعة اليوسفية في دليل مؤرخ المغرب الأقصى بقوله: "جعل بن عثمان الفضل في انتشار العلم بالمغرب كله راجعا إلى الكلية المذكورة وما سواها عالة عليها حتى جامع القرويين"

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة　　　أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر[2]

إذن ما الجامعة؟ ما هي العوامل التي أدت إلى إنشائها في الغرب ثم في الدول العربية والإسلامية؟ وأخيرا هل توافرت الشروط اللازمة لإنشاء جامعة لدى أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين الذي أسس الجامع اليوسفي؟

"الجامعة" كلمة عربية استعملها المحدثون من المشارقة ترجمة لكلمة Universitas اللاتينية لما أنشأوا جامعات عصرية على غرار الجامعات الأوروبية، هذه الجامعات التي نشأت في العصر الوسيط حينما بدأ المجتمع الغربي ينفض عنه غبار الجهل الذي ساد عدة قرون بعد نهاية العصر القديم. إن الدارس للنشاط العلمي والفكري في الغرب الأوروبي منذ نهاية هذا العصر حتى نشأة الجامعات يلاحظ أن المجتمع الغربي بعدما قضى فترات من الفوضى والاضطراب دعا إليه انتقاله من القديم بمثله وقيمه إلى الوسيط بفلسفته وأفكاره قد توالت عليه نهضات علمية مبكرة ومتواضعة انتهت به إلى ما سمي بنهضة القرن الثاني عشر التي أدت إلى قيام الجامعات. فبعد النهضة الكارولنجية التي يرجع الفضل فيها إلى شارلمان الذي عمل على إحياء الدراسات الأدبية، وجمع الكتب القديمة ونسخها، وأمر ببناء المدارس في الأديرة، حيث أباح التعليم فيها لجميع طبقات الشعب بدون مقابل، جاءت نهضة القرن الحادي عشر لتعلن عن ظهور بوادر فكرية مدرسية، فهيأت الجو لنهضة القرن الثاني عشر المعروفة بالنهضة العلمية الأولى التي بدأت تتأكد فيها العودة إلى التراث الكلاسيكي القديم. ففي هذا القرن تسربت إلى أوروبا علوم جديدة عن طريق صقلية وإيطاليا وإسبانيا، حيث ازدهرت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية[3]، فنقلت إلى الغرب أعمال بطليموس وأرسطو وأطباء الإغريق

2ـ ابن سودة: الدليل ج1 ص.43.

3ـ في هذا العصر ظهرت أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية في دير كلوني (Cluny) عام 1143 م.

وغيرها من العلوم، وحلت الأرقام العربية محل الأرقام الرومانية إلى غير ذلك من العوامل التي جعلت الشباب الأوروبي يقبل على العلم والتعلم. فلم يعد التعليم مقتصرا على الأديرة، بل امتد إلى مدارس أوسع ألحقت بالكاتدرائيات أو الكنائس العظمى، هذه المدارس التي تحولت فيما بعد إلى ما سمي بالجامعات. وكان من نتائج هذه النهضة إقبال الطلاب على العلم، فتكاثرت أعدادهم في المراكز العلمية التي قصدوها من جميع الجهات الأوروبية، ودعا هذا التكاثر إلى اجتماع الآفاقيين منهم على الخصوص من أجل التعاون فيما بينهم، فأنشأوا لهم اتحادا أو نقابة universitas على غرار ما كان جاريا في العصور الوسطى بين طوائف التجار والعمال وذلك ليضمنوا لأنفسهم سبل الأمن والسلامة والاستقرار في هذه المراكز العلمية البعيدة عن بلادهم وأوطانهم، وتمكنهم من النظر في مشاكلهم ومصالحهم، وتحررهم من وسائل الضغط والمضايقات التي كانوا يتعرضون لها داخل المدينة. ولم ينفرد الطلبة وحدهم بإنشاء هذا الاتحاد أو universitas بل حتى الشيوخ والأساتذة قد أنشأوا فيما بينهم نقابة للدفاع عن حقوقهم، ولتحقيق مطالبهم. فبحكم بناء المدارس إلى جانب الكنائس كان الإشراف على شؤون العلم والتعليم يرجع إلى أمين الكاتدرائية الذي يرخص للطلبة والأساتذة بولوج هذه المدارس. فلما أنشئت الجامعة أو universitas على مستوى الطلبة ومستوى الشيوخ لم يسع السلطتين الدنيوية والدينية إلا أن تعترفا بها في بداية القرن الثالث عشر كهيئة لها شخصيتها ومقوماتها وكيانها وحقوقها وامتيازاتها، فأصبح الأساتذة والطلبة يقررون شؤونهم بأنفسهم، بحيث لا يمكن لأي طالب الالتحاق بهيئة التدريس أو بجامعة المعلمين إلا عن طريق امتحانات يحصل بعدها هذا الطالب على إجازة التدريس Licence من أحد الأساتذة باعتبارها شهادة تفيد تحصيله للعلم والمعرفة[4]. فإذا كان اتحاد الطلبة قد ظهر في بولونيا بإيطاليا، ونقابة الأساتذة قد أنشئت في باريز فإن هذا التنظيم يعتبر الخطوة الأولى في سبيل إنشاء الجامعة، وكانت كل من جامعتي بولونيا وباريز أولى الجامعات في أوروبا الوسيطية حيث اختصت الأولى في الدراسات القانونية[5]، واختصت الثانية في دراسة

[4]- هذه الإجازة هي أقدم شكل للدرجة الجامعية.

[5]- على الرغم من سيطرة القوانين الجرمانية في أوروبا في العصر الوسيط فإن القانون الروماني لم يختف نهائيا بل ظل باقيا إلى جانب القوانين الجرمانية ويبقى عمل جستنيان 565 م مجموعة القوانين المدنية corpus juris civilis أهم موسوعة تمثل هذا القانون.

اللاهوت والشؤون الدينية، فتبعتها معظم الجامعات التي ظهرت مباشرة في أوروبا في القرنين الثالث والرابع عشر.

وإذا أطلقت كلمة جامعة universitas في بادئ الأمر على مجموع الطلاب والمدرسين، فإنها أصبحت منذ القرن الرابع عشر تطلق على المؤسسات التعليمية نفسها التي كانت تسمى فيما قبل بالمدارس العامة.

هذا بإيجاز مفهوم الجامعة ونشأتها في الديار الأوروبية في العصر الوسيط، ماذا عن نشأة هذا النوع من المعاهد في عالمنا العربي والإسلامي؟ وهل توافرت لدينا الشروط اللازمة لإطلاق المصطلح اللاتيني universitas على جوامعنا العتيقة وعلى الأخص منها جامع ابن يوسف بمراكش.

من المعروف في تاريخ العالم الإسلامي أن المسجد[6] كان يقوم بوظائف مختلفة من ضمنها وظيفة التدريس. لقد بدأت الحلقات الدراسية تعقد في المسجد[7] منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت المعارف التي نشأت بعد الإسلام كعلوم القرآن والحديث وعلوم اللغة العربية تدرس بحكم طبيعتها بالمساجد. واستمر المسجد المقر الرسمي لتدريس العلوم الجديدة التي ظهرت في المجتمع العربي الإسلامي، بحكم اتصاله وتفتحه على ثقافات المجتمعات الأخرى. وحتى خزانات الكتب الأولى في الشرق الإسلامي فإنها ظهرت أول ما ظهرت في المساجد، ونمت فيها بحكم ظاهرة وقف الكتب عليها من طرف المحسنين من المسلمين. وعلى الرغم من ظهور ما يسمى بالمدارس كالمدرسة النظامية وغيرها، والتي كانت تضيف إلى وظيفة التدريس مهمة إيواء الطلبة، فقد بقي للمسجد الصدارة في التدريس وتكوين العلماء.

وقد كانت حلقات التدريس تعقد خاصة فيما أطلق عليه اسم المسجد الجامع أو الجامع بحذف الموصوف[8]، وقد نعت عدد من الجوامع في العالم الإسلامي بالجامعة كجامع الزيتونة

---

[6]- كلمة مسجد كلمة سامية مشتركة في عدد من اللغات السامية كالعبرية و الاثيوبية.

[7]- انظر كلمة مسجد في دائرة المعارف الإسلامية الغربية.

[8]- المسجد الجامع أي الذي يجمع أهله، وهي نعت له لأنه علامة للاجتماع وقد يضاف فيقال مسجد الجامع بالإضافة كقولك الحق اليقين. =

والقرويين والأزهر وابن يوسف وغيرها، لأنها كانت المعاهد التي تجيز الشيوخ والعلماء في مختلف العصور. وإذا بحثنا في العوامل التي ساعدت على تأسيس هذه الجوامع التي تحولت إلى معاهد لتدريس مختلف العلوم، نجد أن معظمها أسس قبل كل شيء للعبادة باستثناء جامع ابن يوسف، فإن ظروف بنائه تمتاز ببعض الخصائص من شأنها أن تضفي عليه الصفة الجامعية بمفهومها الأوروبي الوسيط.

فجامع الزيتونة الذي بني في القرن الثامن الميلادي وأعاد بناءه بنو الأغلب في القرن التاسع لم يصبح جامعة بالمفهوم العتيق للكلمة إلا في عهد الحفصيين في القرن الثالث عشر، حيث جلب إليه أبو زكريا الأول الحفصي أساتذة من الأندلس وصقلية لتدريس الفقه واللغة والأدب والتاريخ والفلسفة والرياضيات والطب. وجامع القرويين الذي عقدت فيه الحلقات الدراسية منذ القرن الثالث الهجري لم تشيده فاطمة الفهرية إلا لعبادة الله طمعا ورجاء في ثوابه.

أما جامع الأزهر فإن ظروف بنائه في القرن الرابع الهجري لا تخفى على أحد. بناه القائد جوهر الصقلي عام 972 م لإقامة الصلوات من جهة، ولتدعيم الحكم الفاطمي بنشر الفقه الشيعي والمذهب الإسماعيلي منه على الخصوص من جهة ثانية. ولم يأخذ صفته الجامعية بالمفهوم الشعبي وشبه الرسمي للكلمة إلا في القرن الثالث عشر، حين أصبح يجذب إليه الطلبة الأجانب، ويدرس أنواع العلوم بعد تعطيل المستنصرية ببغداد وما يماثلها من مدارس ومعاهد الشرق.

أما العوامل التي أدت إلى بناء الجامع اليوسفي والتي يبدو لنا أنها تشبه نسبيا العوامل التي أدت إلى قيام الجامعات في أوروبا الوسيطية، فإنه يجب استخلاصها من دراسة الحركة العلمية والنشاط الفكري الذي ساد المجتمع المغربي أيام يوسف بن تاشفين وابنه علي. ولست بحاجة إلى بسط القول في هذه النهضة العلمية التي وطد ركائزها زعماء الدولة المرابطية، وذلك

= وحق اليقين، مسجد الجامع تقديره مسجد اليوم الجامع، وحق اليقين تقديره حق الشيء اليقين لأن إضافة الشيء إلى نفسه لا تجوز إلا على هذا التقدير. قال تعالى: "وذلك دين القيّمة" أي دين الملة القيمة. وأمر جامع أي يجمع الناس. قال تعالى: "وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه" والجامع من أسماء الله الحسنى لأنه يجمع الخلائق ليوم الحساب. (انظر لسان العرب لابن منظور).

بتشييدهم للمدارس والمساجد، وتشجيعهم للعلم والعلماء، واجتذابهم إلى عاصمة ملكهم أكبر علماء وكتاب العصر من أمثال: ابن رشد الجدّ، وابن أبي الخصال، وأبي القاسم ابن الجد، وابن القبطرنة وغيرهم. وليس أدل على هذه الحركة العلمية من قول صاحب المعجب عن بلاط علي بن يوسف الذي كان يعج بعلماء المغرب، وما توافد عليه من كتاب وأدباء الأندلس: "ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتّاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لمَلك"[9]. في هذا الجو العلمي، ووسط هذا المناخ الفكري، حيث كثر العلماء، وتوافر عدد الطلاب، وألفت الكتب في مختلف فروع المعرفة برسم أمير المسلمين، عزم هذا الأخير على إنشاء جامع لاستقطاب أصحاب هذه العقول النيرة، والاستفادة من علومهم وتجاربهم في سبيل تربية وتكوين الأجيال. يقول ابن عثمان رحمه الله: "أسس الجامع اليوسفي في عصر حضارة الدولة المرابطية، وتوافر العمران بعاصمتها التي أصبحت دار هجرة للعلماء والأدباء والكتّاب المنحدرين إليها من العواصم الأندلسية. فتعاظمت بذلك مظاهرها العلمية، ونضجت بذورها الفكرية". ألا يذكرنا شغف علي ابن يوسف بالعلم وعنايته بالعلماء بحب شارلمان للعلم ورعايته لأهله، فبادر كل منهما إلى تأسيس معهد أو معاهد تكون في مستوى الحركة الفكرية التي عملا على ازدهارها على أرض هذين المجتمعين المختلفين؟ ألم يؤسس جامع ابن يوسف في بداية القرن الثاني عشر الميلادي وهو العصر الذي بدأ فيه إنشاء الجامعات الغربية؟ ألم يمكن جوار المغرب بأوربا من أن تصله أصداء النهضة العلمية الأولى التي أدت إلى قيام الجامعات؟ إن الجامعة اليوسفية تعبر بحق عن روح ذلك العصر الذي نشأت في ثناياه، وترعرعت بين أحضانه، كما تعبر الجامعات الغربية عن النهضة العلمية وحركة الإحياء التي عرفتها أوربا بعد الخروج من ظلام عصور الانحطاط والتخلف. فإذا كانت الجامعات الوسيطية تحمل الاسم اللاتيني studium general، أي المدرسة العامة، بمعنى أنها كانت المكان العام الذي يستقبل طلاب العلم الوافدين إليه من جميع الجهات، حيث يتلقون

[9]- المعجب للمراكشي، ط7، 1978، ص. 255..

قسطا من الدراسات العليا في مختلف فروع المعرفة على أيدي أساتذة أكفاء، فإن الجامعة اليوسفية التي دعت إلى إنشائها عوامل مشابهة لتلك التي أدت إلى قيام جامعات الغرب لازالت تدعى باسم الجامع. ولولا تلكم التجمعات الطلابية في شكل هيئات ونقابات للدفاع عن أنفسهم وحقوقهم، لما نشأت كلمة جامعة universitas التي أصبحت تطلق على هذه المعاهد منذ القرن الرابع عشر، ولظلت هذه المؤسسات الغربية تدعى المدارس العامة كما ظلت مؤسساتنا الجامعية العتيقة تسمى جوامع. ولولا تأثير الحضارة الغربية لما استعار الشرق كلمة جامعة، ولظلت كلمة جامع تسمية للجامعات العصرية. ويبدو أن لفظ "جامعة" دخل في الاستعمال العربي في أواسط القرن التاسع عشر، وهي ترجمة للكلمة الأجنبية université أو university ذات الأصل اللاتيني universitas[10]. وقد استعملت كلمة جامعة أول ما استعملت كنعت أو صفة لمدرسة حيث كان يقال المدارس الجامعة، ويبدو أن أول من استعملها بهذا الشكل هو أحمد فارس الشدياق في كتابه **الساق على الساق**[11] الذي وضعه في أواسط القرن الماضي. وقد ظل هذا الاستعمال إلى بداية القرن العشرين. وأول مؤسسة أطلقت عليها اسم جامعة فيما يبدو هي جامعة القاهرة التي دعا إلى إنشائها جماعة من المثقفين ورجال السياسة أمثال: قاسم أمين، وسعد زغلول وآخرين. وعلى الرغم من وجود جامعات إسلامية وعربية منذ النصف الثاني من القرن الماضي، كجامعة القديس يوسف ببيروت، فإنه كان يطلق عليها كلية التي هي ترجمة للكلمة اللاتينية collegium، والتي أصبحت collège في اللغة الفرنسية. وقد دأب علماء القرن الماضي على استعمال "كلية" للتعبير عن الجامعة، فالكلمتان تعبران مترادفين آنذاك. وحتى المعاجم اللغوية عربية - فرنسية أو عربية - إنجليزية[12] التي وضعت في أواخر القرن التاسع عشر فإنها قد وضعت كلمة كلية في مقابل Université أو University. أما المعاجم التي وضعت في نفس الفترة كمحيط **المحيط** للبستاني، وأقرب الموارد للشرتوني،

---

[10] - universitas كلمة لاتينية ظهرت سنة 1218م.

[11] - الساق على الساق فيما هو الفارياق: وضعه الشدياق في عام 1855م.

[12] -Arabic-english dictionary de Hava, Beyrouth; 1899
le vocabulaire arabe-français de Belot,Beyrouth,1893

فإنها لم تذكر كلمة جامعة، وإذا ذكرتها فنعتا أو صفة لمدرسة بدون تمييز بين جامعة وكلية، ولما أصبحت كلمة "جامعة" هي المصطلح الرسمي في مقابل كلمة University الغربية، فإن كلمة كلية قد خصت للتعبير عن مؤسسة أو معهد للدراسات العليا، وتعتبر فرعا من فروع الجامعة. أما الدول الإسلامية غير العربية فإن بعضها قد أدخل الكلمة الأجنبية إلى لغته كالهند وإيران وتركيا وباكستان، أما إندونيسيا فقد احتفظت بالصيغة اللاتينية للكلمة فقالت Universitas[13].

وأخيرا أين هي جامعة ابن يوسف اليوم بين جامعات الشرق والغرب؟ إن ذاك المعهد الذي أسس من أجل العلم، والذي أنتج أكبر العقول، وتخرج فيه الأمراء والوزراء، وعقدت فيه المجالس والحلقات منذ عهد أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ المغرب حتى هذا القرن، ذاك المعهد الذي أراد لنفسه قبل عقود مضت أن يكون جامعة، وأراد الغير أن ينعته بكلية، فوقف ذوو الحماس من أبنائه وعلمائه بالحديث على المنابر، وبالكتابة والتأليف في وجه كل من أراد الحط من قيمته العلمية، والتنقيص من قدراته ومؤهلاته الجامعية، فأحدث النظام واستمرت الدروس على غرار ما يجري في أمثاله مما كان يسمى بالجامعات العتيقة. إن ذاك المعهد الذي غامر فلم يقنع بما دون النجوم كما يقول المتنبي، شاءت له إرادة الإنسان بعد إرادة الله أن يعود لا هو جامعة ولا هو كلية، بل مسجدا كغيره من المساجد. وبما أنه قد أحدثت جامعات حديثة وأحييت جامعات عتيقة كجامعة القرويين، فمن الإنصاف أن يرد الاعتبار لجامعة ابن يوسف باعتبارها رمزا تاريخيا حتى تستمر في تبليغ رسالتها العلمية التي أدتها أحسن تأدية منذ فجر القرن السادس الهجري حتى العقود الأخيرة من هذا القرن.

13- انظر كلمة "جامع" بدائرة المعارف الإسلامية الغربية.

البعثة العلمية الفرنسية بطنجة

وخزانتها الكبرى

مما لا جدال فيه أن تحضير فرنسا لاحتلال المغرب بدأ منذ استيلائها على الجزائر في النصف الأول من القرن الماضي. وعلى الرغم من اهتمامات ساستها وعلمائها بالمغرب طوال القرن التاسع عشر، فإن القضية المغربية لم تبدأ رسميا إلا مع نهاية القرن، أي بعد احتلال إقليم "توات" وما إليه من الواحات المغربية. وعلى الرغم من هذا الاحتلال فإن فرنسا كانت تدرك تمام الإدراك أن الغزو عن طريق القوة لم يعد السياسة التي تحظى بموافقة الرأي العام الفرنسي الذي لم يقبل بأي عملية تتجاوز الإقناع المسالم. ولن يتأتى هذا إلا باللجوء إلى العلم كإحدى الوسائل لتحقيق هذه الغاية. ولما اشتد اهتمام العلماء والمنظمات والجمعيات بالدراسات حول المغرب، اضطرت فرنسا إلى مراقبة هذه الأعمال والإشراف عليها، وتمويل الاختيارات الملائمة لسياستها، فتمخض عن ذلك إنشاء ما سمي بالبعثة العلمية التي استقرت في طنجة منذ عام 1904. فما هو المناخ السياسي الفرنسي والمغربي الذي نشأت فيه هذه البعثة؟ وما هي الأعمال العلمية التي تمخضت عنها هذه المؤسسة؟ وأخيرا ما هي الوضعية التي آلت إليها البعثة العلمية بعد عقد الحماية ؟

من نافلة القول وصف الحالة السياسية والاقتصادية التي آل إليها المغرب خلال الفترة التي دعيت في تاريخ المغرب المعاصر بالفترة العزيزية، فكتب التاريخ بمختلف اللغات قد أفاضت في القول عن الظروف والأزمات التي توالت على المغرب على الرغم من إدراك المسؤولين لثقلها، ووعيهم بآثارها على مستقبل بلدهم وجهودهم لدرئها، والحفاظ على استقلال المغرب. فحركة التمرد التي قام بها الروكي بوحمارة الذي كان يعمل بإمدادات

وتوجيهات يتلقاها من وراء الحدود خير مثال على هذه الأزمات. في هذا المناخ وبعد صراع طويل ومرير بين مختلف الاتجاهات السياسية والعلمية بفرنسا[1]، ظهرت البعثة العلمية، واستقرت إزاء المفوضية الفرنسية بطنجة عام 1904م. وإن البحث في الجذور التاريخية، وفي الأسباب الرئيسية التي دعت إلى إنشاء هذه البعثة يمكن الباحث من النفاذ إلى قلب العالم السياسي والثقافي الفرنسي ليس فقط في السنوات التي سبقت تأسيسها، بل منذ منتصف القرن الماضي. إن سياسة الاحتلال والغزو بقوة السلاح لم تعد السياسة الحكيمة التي تمكن المستعمر من الاستمرار في البلد المحتل، بل إنها سياسة يعارضها الرأي العام عموما. لهذا بدأ التفكير والدعوة إلى احتلال مبنيّ على أسس علمية، كدراسة منسقة للمجتمع، والبحث في معتقداته وعاداته ومؤسساته الاقتصادية والاجتماعية، تمكن المستعمر من الوقوف على مواطن القوة والضعف لهذا المجتمع. فمنذ الأربعينات من القرن الماضي ارتفعت أصوات بعض المنظرين من الساسة والمثقفين، تدعو إلى هذه السياسة العلمية حتى يتلافى المستعمر ما وقع فيه من أخطاء الماضي[2]. ومن بين هؤلاء العالم طوماسي Thomass الذي دعا في كتابه الذي نشره عن المغرب عام 1842م[3] الفرنسيين إلى الاستعداد إلى معرفة أرض إمبراطورية المغرب التي لا مناص من غزوها في يوم من الأيام. بنصحهم في هذا الكتاب إلى استعمال كل الوسائل لتحقيق هذه الغاية، ومن بينها سلاح العلم الذي يمكن من معرفة الأرض التي ستطأها أقدام المستعمر. إنه مقتنع بفعالية مساهمة العلماء في فتح الطريق للغزاة بطريقة علمية، تحول دون إراقة الدماء. وعلى الرغم من نداء طوماسي Thomassy وأمثاله من العلماء في ذلك الوقت لم تكن القضية المغربية من بين قضايا الساعة لدى ساسة فرنسا، كما أن الأبحاث التي أقيمت في هذا الشأن حول المغرب إلى حدود نهاية القرن لا تعدو أن تكون عبارة عن قرارات لبعض أعضاء البعثات العسكرية، ودراسات تتعلق بالحدود الجزائرية المغربية، وضعت لإرشاد

---

[1]- E.Burke : la Mission Scientifique, in Bull économique et social ; 1978 : انظر

[2] ـ الأخطاء التي وقع فيها أثناء احتلال الجزائر مثلا.

[3]- Le Maroc, Thomassy : 2e éd.1859.

المستعمر لحماية هذه الحدود من جهة، وللتعرف على المغرب ورصد أماكنه الاستراتيجية من جهة ثانية. وفي أواخر القرن التاسع عشر تغير الاتجاه، وأصبح الفرنسيون ينظرون إلى المغرب بعين المحتل، فظهرت طوائف سياسية مختلفة، وجماعات علمية متنافسة في فرنسا وفي الجزائر، تخطط لهذا الاحتلال، وتفكر في السياسة الملائمة لتحقيقه. وهكذا ظهرت في الأفق اهتمامات ومحاولات فردية وجماعية تتعلق بالدراسات المغربية من بينها تلكم التي ظهرت عند المستشرقين الفرنسيين بالجزائر، فهم كانوا يرون أنفسهم أكثر تأهيلا من غيرهم للقيام بمهمة البحث في تاريخ المغرب وفي معتقداته وعاداته ومؤسساته، بحكم تخصصهم في دراسة العالم الإسلامي، وعلى الأخص منه الشمال الإفريقي. فدوتي E.Doutté ومولييراس A.Moulieras وأوكوستان برنا Augustin Bernard ومار A.Marçais وآخرون قد قاموا برحلات ناجحة في المغرب تمخضت عن دراسات سوسيولوجية ومونوغرافيات استفاد منها المستعمر الشيء الكثير. ومن هذه المحاولات الفردية كذلك تلكم التي قام بها لوشاتوليي A.le Chatelier في فرنسا وانتهت بإنشاء البعثة العلمية. أما المحاولات الجماعية فإنها تتمثل في مجالس وجمعيات فرنسية تمول البعثات العلمية، وترسلها إلى المغرب لوضع الأبحاث والدراسات بقصد التعريف به، والاستيلاء عليه. ومن بين هذه الجمعيات مجلس إفريقيا الفرنسية (Comité de l'Afrique Française)، الذي بدأ منذ عام 1900 م يمول المشاريع المتعلقة بالمغرب، من بينها مشروع Le Comte de Castries المتعلق بوضع تاريخ للمغرب، معتمدا على الوثائق المحفوظة في مختلف خزانات أوربا. وقد تمخض هذا المشروع، كما هو معلوم، عن كتابه الضخم: **المصادر الدفينة لتاريخ المغرب**، ومشروع دوكستري هذا ستحتضنه فرنسا بعد الحماية، كما ستحتضن معه كذلك أعمال البعثة العلمية.

ولما تعددت الاهتمامات والبعثات، وكثرت الدراسات، واشتد التنافس والصراع حول القيام بهذه المهمة، اضطرت الحكومة الفرنسية إلى مراقبة هذه الأعمال والتنسيق بينها وتوجيه ثم مساعدة وتمويل من تراه أكثر ملاءمة وموافقة للتوجيهات السياسية العليا للدولة. وعلى الرغم من سيطرة الاثنولوجيين والسوسيولوجيين الفرنسيين، وعلى الأخص منهم الذين

يعملون بالجزائر ويقومون بالأبحاث المتعلقة بالمغرب، فإن طريقتهم في التفكير لا توافق أصحاب القرار في وزارة الخارجية التي تفضل أن تقام هذه الدراسات في إطار مجموعة واحدة وموحدة تسير في اتجاههم السياسي، ويمكنها الإشراف عليها وتسييرها. وبعد مناقشات حادة بين كبار الساسة وجهابذة العلماء من الأكاديمية الفرنسية والكوليج دوفرانس حظي مشروع لوشاتوليي A.le Chatelier الذي تمخض في النهاية عن البعثة العلمية بموافقة أصحاب القرار. وقد أهملت مشاريع باقي الجمعيات والأفراد، وأصبح من العسير بل من المتعذر على الباحثين، وعلى الأخص منهم علماء الجزائر، أن يحصلوا من المفوضية الفرنسية بطنجة على الرُّخص التي تمكنهم من مواصلة أبحاثهم داخل المغرب. فمن هو لوشاتوليي A.le Chatelier وكيف ولدت البعثة العلمية؟

كان A.le Chatelier ذا شخصية مميزة، ومنظرا كبيرا، ومقنعا هائلا، بدأ حياته كضابط في الشؤون الأهلية بالجزائر عام 1876 م لمدة عشر سنوات، وقام برحلات علمية إلى إفريقيا ومصر والمغرب، كما قام بوضع دراسات عن الطرق الصوفية لحساب القسم الافريقي بالقيادة العليا للجيش الفرنسي[4]، وبحكم هذه التجربة لعب لوشاتوليي A.le Chatelier دورا سياسيا مهما حيث أصبح منظرا للسياسة الإسلامية الفرنسية في إفريقيا، فحظيت اقتراحاته وتقاريره بقبول كبار الساسة آنذاك أمثال: أوجين إيتان Eugéne Etienne و Paul Revoil الذي كان وزيرا مفوضا بطنجة، ثم حاكما عاما بالجزائر. وبعد اقتناع هذين الرجلين وآخرين من كبار المسؤولين الفرنسيين بأفكار واختيارات لوشاتوليي A.le Chatelier السياسية، والمتمثلة خصوصا في عباراته التي كان يوجهها إلى مساعديه: "اعملوا دون أن تهتموا بالسياسة" والتي اعتبرها المسؤولون أحسن سبيل للتوغل داخل المغرب، تمت الموافقة على إنشاء البعثة العلمية وإرسالها إلى طنجة برئاسة A.le Chatelier. ولم تنشأ هذه البعثة من العدم، بل إنها نشأت كمؤسسة تابعة لشعبة السوسيولوجيا الإسلامية التي أسندت كُرْسيّها في الكوليج دوفرانس (للوشاتوليي A.le Chatelier) بعد صراع ومعارضة جامعة باريز[5]، لأن

---

[4]. من بين أعماله كذلك : Situation actuelle de la France au Maroc , programme politique, questions économiques.

[5] ـ كان رئيس جامعة باريز في ذلك الوقت Louis Liard الذي أطلق اسمه على قاعة مناقشة الرسائل بالصوربون .

الرجل لا يحمل الشهادات العليا التي من شأنها أن تخول له هذا المنصب العلمي الكبير. وقد مكنته هذه الشعبة من الدعوة بصفة رسمية وعلنية إلى أفكاره واختياراته. وترجع فكرة تأسيس البعثة العلمية إلى عام 1888م حين اقترح A.le Chatelier إنشاء مكتب مركزي للأبحاث والدراسات الإسلامية يكون ملحقا بقسم إفريقيا بالقيادة العامة للقوات الفرنسية. ولم يحظ اقتراحه هذا آنذاك بالقبول، فأعاد الفكرة عام 1900م ودعا إلى إنشاء مركز للتوثيق يكون ملحقا بالمفوضية الفرنسية بطنجة يهتم بالدراسات حول المغرب، وذلك لتنوير الرأي العام الفرنسي والتعريف بالمشاكل المغربية. وعلى الرغم من فشل A.le Chatelier للمرة الثانية استطاع أخيرا أن يقنع الساسة بإنشاء كرسي السوسيولوجيا الإسلامية[6]، تنبثق عنه بعثة علمية صغيرة تقوم بوضع أبحاث علمية عن المغرب، كما عمل على فتح حوار حول المغرب وتحسيس الساسة بأهمية المستعمرات الإسلامية بوجه عام.

أسست البعثة وأعلن عنها مؤسسة تابعة لوزارة التعليم، وتراقب أعمالها وزارة الخارجية. وعلى الرغم من كونها منبثقة عن كرسي السوسيولوجيا الإسلامية، فهي مؤسسة علمية وسياسية في آن واحد تقوم بالبحث العلمي من أجل خدمة السياسة[7].

وقد عمل المسؤولون على إبراز الجانب الثقافي وإخفاء الجانب السياسي للبعثة، وذلك بإعلانهم للملأ أن مهمة هذه المؤسسة هي قبل كل شيء تحضير مونوغرافيات إثنوغرافية حول المجتمع المغربي، وإقامة خزانة لعلماء البعثة وأعضاء المفوضية الفرنسية بطنجة، وهي المهام التي كلف بالإشراف عليها الاركيولوجي اليهودي جورج سلمون G.Salmon قبل استقرار البعثة بطنجة عام 1904م. وقد أثار هذا التعيين حفيظة المستشرقين الفرنسيين المختصين في إفريقيا الشمالية الذين يرون أنفسهم جديرين بهذا الإشراف أكثر من غيرهم[8]. وقبل الحديث

[6]- Chaire de Sociologie et de Sociographie musulmane.

[7]- أنشئ بجانبها مجلس تحسين وضعية البعثة العلمية برئاسة المستشرق Barbier de Meynard يراقب أعمالها ونشاطها العلمي.

[8] - جورج سلمون خريج معهد علوم الآثار الفرنسية بمصر، وقد تمّ تعيينه باقتراح من أستاذ علم الآثار الكبير بالكوليج دوفرانس Gaston Maspero.

عما تمخضت عنه البعثة العلمية من أبحاث وتآليف تتعلق بالمغرب، أشير إلى أن هذه السنة (1904م) التي استقرت فيها البعثة بطنجة كانت سنة حاسمة في تهيئ الحماية الفرنسية. فبعد إبرام الاتفاقيات السرية والعلنية بين فرنسا من جهة، وابريطانيا وإسبانيا من جهة أخرى لتقسيم المغرب، سافر إلى فاس رئيس المفوضية الفرنسية روني تيلانديي St René Taillandier[9] حاملا معه أول مشروع للحماية الفرنسية.

أما عن النشاط العلمي فإن تأسيس البعثة العلمية قد دعا المنافسين لها من إتنوغرافيين ولسانيين وسوسيولوجيين إلى وضع المونوغرافيات، والتآليف العديدة، ليظهروا بمظهر المهتّمين بالمغرب على الرغم من تهميشهم. فبغض النظر عن أعمالهم الكثيرة التي وضع معظمها في إطار منافسة أعمال البعثة العلمية، وبصرف النظر كذلك عن المونوغرافيات الجغرافية العديدة التي وضعها A.le Chatelier الأب الروحي لهذه المؤسسة، فإن أنشطة البعثة العلمية قد أدت خدمة للبحث العلمي بالمغرب، علما بأنها ساهمت مساهمة فعّالة في إرشاد المستعمر وهديه إلى الغزو العلمي لهذا البلد. فمنذ شهر ماي سنة 1904م ظهر العدد الأول من السلسلة التي سمتها البعثة **بالوثائق المغربية** وكانت تنشر على صفحاتها دراسات سوسيولوجية عن عادات وتقاليد المغاربة، وأبحاثا تتعلق بالقبائل والمدن المغربية. وقد أبلى سلمون Salmon البلاء الحسن، وذلك باعتراف منافسيه، في تهيئ وإعداد هذه السلسلة. فبالإضافة إلى الأبحاث العلمية الرصينة، دأبت الوثائق المغربية على تخصيص الصفحات الأخيرة من أعدادها للعمل البيبليوغرافي، وذلك بنشر أسماء الكتب المطبوعة والمخطوطة التي اقتنتها المكتبة والمتعلقة موضوعاتها بتاريخ وحضارة المغرب. إن هذا العمل يُعد باكورة العمل البيبليوغرافي المغربي الصرف. وبإزاء الوثائق المغربية كانت البعثة العلمية تنشر مجلة تسمى **مجلة العالم الإسلامي** بإشراف الباحث "ميشو بلير" Michaux-Bellaire تنشر فيها أبحاثا تتعلق

---

[9] ـ ألف "تيلانديي" كتابا بعنوان: **أصول المغرب الفرنسي**، ولزوجته كتاب ذكريات وهو مصدر ثمين لتاريخ المغرب من عام 1901 إلى 1906- ولأخيها Chevrillon كتاب: شفق المغرب **Crépuscule du Maroc** .

بتطور المؤسسات والحضارة الإسلامية في مختلف بلاد الإسلام. وقد لعبت هذه المجلة دورا توثيقيا مهما بالنسبة لهذه البلدان[10].

وعلى العموم فإن الأبحاث التي نشرت بإشراف البعثة العلمية في سلسلة الوثائق المغربية، ومجلة العالم الإسلامي برغم ما فيها من مظاهر النقص والقصور، وبصرف النظر عن الغايات المقصودة من كتابتها، هي أبحاث رصينة في معظمها، أعدّها باحثون أكفاء لا غنى عنها للباحثين والمختصين في حضارة وتاريخ المغرب المعاصر. وقد زودت البعثة العلمية بطنجة بخزانة كتب مهمة معظم محتوياتها جاء عن طريق الاقتناء، وكان عبارة عن مطبوعات حجرية ومخطوطات نادرة كوّنت رصيدا هائلا أفاد المختصين في التاريخ والحضارة المغربيين. وقد قام المستشرق بلوشي E.Blochet بوضع فهرست لمحتوياتها المفيدة[11] منذ عام 1909.

وباستطاعتنا أن نقول في ختام هذا العرض إن البعثة العلمية قد حققت الأهداف المتوخاة من تأسيسها وهي تسخير العلم لخدمة السياسة. فبعد عقد الحماية قرر الفرنسيون في شخص ليوطي (Lyautey) أول مقيم عام بالمغرب أن يحتضنوا رسميا أعمال المؤسسات العلمية التي عبدت الطريق للتوغل، وبذلت الجهد الجهيد في دراسة الوسط المغربي، والتعرف بتاريخه وحضارته. فكما ألحق مشروع دوكستري H.de Castries الذي عين مستشارا تاريخيا بالمملكة الشريفة بإدارة الشؤون الأهلية ومصلحة الاستعلامات باسم "شعبة التاريخ" ضمّت البعثة العلمية إلى نفس الإدارة تحت اسم "شعبة السوسيولوجيا"[12]، فلم تعد مهمتها علمية وحسب، بل أصبحت مرتبطة رسميا بإدارة سياسية تابعة للحماية، وحتى تؤدي مهمتها الجديدة على أحسن وجه، فقد نقلت من طنجة إلى مدينة سلا قرب العاصمة

---

10 - بدأت في الصدور منذ عام 1906 إلى غاية 1927 فأصبحت مجلة الدراسات الإسلامية بإشراف المستشرق لويس ماسنيون L.Massignon مستقلة عن شعبة السوسيولوجيا، وأصبحت تنشر كملحق لها المستخلصات الإسلامية Abstracta Islamica.

11- E.Blochet :**catalogue du Musée de la Mission Scientifique**, 1909.

أسعد داغر: دليل الأعارب، ط 1947، ص. 90.

12 - عندما أصبحت البعثة العلمية القسم السوسيولوجي فإنها عادت إلى أصلها حيث كانت تابعة لكرسي السوسيولوجيا بالكوليج دوفرانس الذي انشئ عام 1902.

الإدارية للمغرب، وقد انتقلت معها كذلك خزانتها الكبيرة. وبما أن البعثة العلمية هي مؤسسة للبحث العلمي فقط ارتأى ليوطي Lyautey أن ينشئ مؤسسة تجمع أكبر منافس للبعثة يضيف إلى البحث العلمي مهمة التعليم. فعندما أصبح روني باسي مديرا للمعهد طلب بأمر من "ليوطي" من جميع موظفي الحماية وعلى الأخص منهم الضباط ورجال التعليم أن يهتموا بالمدن والقرى والأقاليم التي يعملون بها، لأن معرفة الوسط تساعدهم على القيام بالمهمات الملقاة على عاتقهم أحسن قيام. وإذا كانوا ينشرون أبحاثهم العلمية في مجلة هسبريس Hespéris التي نشأت عن اندماج الوثائق البربرية، ونشرة المعهد، فإن تقاريرهم السياسية والإدارية لاتزال ضمن الوثائق المحفوظة في مختلف دور الوثائق الفرنسية. وفي نهاية المطاف وبعد الإحتلال اتضح جليا أن فكرة Thomassy قد تحققت، فكان العلم من بين الوسائل الفعّالة التي اعتمدها الفرنسيون للتعرف على المغرب والسيطرة عليه. وما قام به المارشال ليوطي من ضم البعثة العلمية لإدارة الشؤون الأهلية، وتأسيس معهد الدراسات المغربية العليا لأكبر دليل على تحقيق هذه الفكرة.

السيرة البيبليوغرافية أو البيوبيبليوغرافيا في التراث العربي

جلال الدين السيوطي نموذجا

السيوطي أغزر كتاب مصر على العهد المملوكي، وربما أغزر كتاب العربية على الإطلاق[1]. على الرغم من انحداره من أصل فارسي وأم تركية، ولد بالقاهرة وتوفي بها سنة 911 هـ، بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس بغزارة إنتاجه، وثقافته الموسوعية، حيث إنه عاش في عصر، وترعرع في بلد اتسما بالموسوعية في التأليف. ولم تكن الموسوعية وليدة عصر السيوطي والعصور التي سبقته، بل عرفت القرون الإسلامية الأولى التأليف الموسوعي من خلال أعمال الجاحظ وابن قتيبة والمسعودي ومن جرى مجراهم، وهي أعمال تتسم بالخلق والإبداع، بخلاف موسوعية فترة ما نعت بعصور الانحطاط، فهي استرجاع وتجميع لأعمال العصور السابقة، وإحياء لها في صيغ وأشكال متطورة، بحكم تعاقب العصور، وإمدادات الأجيال المتعاقبة. فالنويري الذي عمل في الإدارة المملوكية أعاد في **نهاية الأرب** كتابة الأدب بمعناه الأخلاقي على غرار ما جاء في **أدب الكاتب** لابن قتيبة، أبرز فيه كل ما يجب أن يتحلى به الكاتب في الديوان. وهو بالإضافة إلى ذلك كتاب تاريخ وجغرافيا وإثنوغرافيا وعلم النبات والحيوان. إن المؤلفات الموسوعية لهذه الفترة وعلى الأخص منها مؤلفات السيوطي قد عالجت معظم علوم ومعارف التراث الإسلامي، واحتفظت بكثير من النصوص والأخبار والوثائق ضاعت مصادرها. وطبيعي أن تدعو غزارة الإنتاج المؤلفين والعلماء إلى وضع تآليف عن مؤلفاتهم أو مؤلفات غيرهم،

[1]- يمكن اعتبار محيي الدين ابن عربي الحاتمي من طبقة السيوطي من حيث كثرة الإنتاج.

وهذا النوع من التأليف هو الذي يسمى في العصر الحديث بالببليوغرافيا. إن الباحث في التطور الدلالي لهذا المصطلح اليوناني، يجد أن الببليوغرافيا كانت تعني قديما كتابة الكتب أي النساخة؛ والببليوغرافي[2] هو الناسخ، وقد تطور مدلول الكلمة في القرن التاسع عشر فانتقل من كتابة الكتب إلى الكتابة عن الكتب. وعلى الرغم من تعدد أنواع الببليوغرافيا نقتصر في هذه العجالة على نوعين كبيرين: أولهما: الببليوغرافيا التحليلية[3] التي تهدف إلى الفحص العلمي الدقيق للكتاب، ويتفرع منها الببليوغرافيا الوصفية[4] التي تقتصر على وصف الكتاب للتعريف به، والببليوغرافيا النقدية التي تهدف إلى تقييم ونقد الكتب. وثانيهما: الببليوغرافيا النسقية[5] أو المنهجية التي تعتمد مجموعة من القواعد من أجل وضع قائمة منظمة ومنتظمة لمجموعة من الكتب تجمعها بعض الصفات المشتركة، ويحكمها ترتيب منسق ومنهج معين، وقد تكون ببليوغرافيا ماضية[6] أو جارية[7] وشاملة[8] أو مختارة[9]. وقد يتفرع منها أنواع أخرى نقتصر على نوعين منها:

1. الببليوغرافيا الحصرية أو التعدادية (Enumérative)، وغايتها التسجيل الشامل لكل ما هو موجود في مكتبة معينة كالببليوغرافيا القومية أو الوطنية (Nationale).

2. الببليوغرافيا الموضوعية (Subjective) هدفها خدمة موضوع معين وتتناول المؤلفات فيه كأفكار، وقد يكون الموضوع واسعا شاملا أو ضيقا محصورا في قضية معينة. وقد يكون موضوع الببليوغرافيا الموضوعية علما من الأعلام أو مؤلفا من المؤلفين وفي هذه الحالة تسمى البيوببليوغرافيا (Biobibliographie) أو السيرة الببليوغرافية، قد يتحدث فيها صاحبها عن حياة المؤلف ومؤلفاته، وقد يضيف ما ألف عنه من

2- الببليوغرافوم (Bibliographum): الناسخ باليونانية القديمة.

3 -Analytique .
4 -Descriptive .
5 -Systématique .
6 -Retrospective.
7 -Courante .
8 -Exhaustive.
9 -Selective.

دراسات وأبحاث[10] وترجمات لأعماله وما حقق منها كما يشير إلى أماكنها في مختلف الخزانات مع إبراز ما هو موجود وما لم يصل منها، إلى غير ذلك من العمليات التي سنفصل القول فيها لاحقا. فهل عالج القدماء هذا النوع من التأليف؟ وإن كان كذلك فكيف كانت الطرق التي نهجوها في تناوله، وما هي البواعث التي دفعتهم إلى العناية به وممارسته؟ ظهر نوعان من التأليف عند القدماء في مجال البيبليوغرافيا الموضوعية، أولهما يتعلق بالكتب المؤلفة في أسانيد الكتب ويتناول المؤلفات بالتواتر في إطار موضوع معين، ويعالج ثانيهما المؤلفين الذين أفردوا مؤلفاتهم بالتأليف أو ألف فيها آخرون وهو موضوع هذا البحث. يقول الشيخ عبد الحي الكتاني في شأن النوع الأول من التأليف مبرزا الأسباب الداعية لذلك: الكتب المؤلفة في أسانيد الكتب والوصلة بها هو باب واسع؛ اعتنى المسلمون بهذا الموضوع وكان الباعث عليه تصحيح النسخ والتوثيق من نسبة ما فيها لمؤلفها، فلذلك كانوا يقولون: إن الكتب التي لم تصحح على مؤلفيها ولو بوسائط لا يجوز الاعتماد عليها في النقل. ويقولون أيضا: **الأسانيد أنساب الكتب**[11].

ومن المصنفات الأولى في هذا المجال، **فهرسة ابن خير الأموي الإشبيلي** (575 هـ)[12]، **وصلة الخلف بموصول السلف** لمحمد بن سليمان الروداني المكي الدمشقي[13]، **وحصر الشارد من أسانيد محمد عابد** للشيخ محمد عابد بن أحمد الأنصاري السندي المدني 1275هـ[14]، **وإتحاف الأكابر بأسانيد الدفاتر** لمحمد بن علي الشوكاني[15].

والنوع الثاني من التأليف الذي خص بالمؤلفات والذي يطلق عليه البيوبليوغرافيا، قد يعود أقدمه إلى القرن الخامس الهجري حيث يمكن اعتبار البيروني 440 هـ من أوائل إن لم يكن

[10] - أصول البحث العلمي: أحمد بدر ص.204 ط2، 1975م.

[11] - المكاتب الإسلامية: عبد الحي الكتاني: مخطوطة الخزانة العامة بالرباط وهي مسودة محفوظة تحت رقم 3002 ك.

[12] - يسرد ابن خير الكتب التي سمعها عن شيوخه ويقدم سلسلة النقلة بالتواتر إلى زمانه – وهكذا يظهر التواتر العلمي فيعرف متى ومن نقل إلى الأندلس المؤلفات المكتوبة في الشرق. (انظر مقدمة فهرسة ابن خير). ذكر 1040 كتابا لم يذكر منها حاجي خليفة إلا القليل.

[13] - حققه محمد حجي ونشرته دار الغرب الإسلامي في لبنان في عام 1988م.

[14] - نسخة بخط المؤلف في المكتبة المحمودية بالقاهرة.

[15] - جمع فيه الشوكاني ما رواه عن شيوخه من كتب الأئمة في جميع فنون العلم، وقال: وسأذكر في حرف الميم إسناد مؤلفات جماعة من العلماء على العموم لكون ذلك أكثر نفعا وأتم فائدة.

أول من اهتدى إلى إفراد مؤلفاته بفهرس خاص[16]. وضع أبو الريحان البيروني رسالة في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي 311 هـ[17] وأدمج فيها فهرست كتبه الخاصة وقال: مائة وثلاثة (103) قد تم إنجازها، وعشرة (10) في طريق الإنجاز من بينها القانون المسعودي وخمسة وعشرون (25) مؤلفا صنفت باسمه على يد كل من أبي نصر وأبي سهل وأبي علي الجيلي[18].

ومن الذين أفردوا كتبهم بفهرست أو ثبت محيي الدين ابن عربي الحاتمي 638 هـ وأبو شامة 665 هـ في **ذيل الروضتين في أخبار الدولتين** وابن الخطيب في **الإحاطة** والسيوطي في **حسن المحاضرة** وهو موضوع هذه الدراسة وغيرهم.

وقد اهتم الباحثون المحدثون مستشرقين وعربا بالسيرة البيبليوغرافية الخاصة بالقدماء الذين وسمت أعمالهم بالموسوعية وغزارة التأليف. وهي أعمال تفوق الحصر نكتفي بدراسة بعضها لإبراز السمات والخصائص التي تتميز بها هذه الدراسات. وعلى الرغم من جهود القدماء في رصد أعمال من سبقهم من العلماء وفي العناية بحياتهم ومؤلفاتهم، فإن المحدثين قد خصوا البيوببليوغرافيا باهتمام كبير مستفيدين من الطرق والمناهج الحديثة في تناول الموضوع. وقبل أن نبسط القول فيما تم الاختيار عليه من أعمال، نشير إلى بعض الدراسات الرائدة في هذا المجال. ولن نجازف إذا قلنا إن عناية المستشرقين بهذا الموضوع قد بدأت مع بداية اهتمامهم بالتراث العربي من حيث الجمع والتحقيق والدراسة. فقد وضع المستشرق الألماني

16- مما ورد في إطار البيوببليوغرافيا قبل البيروني ذلكم الفهرس (Pinakes) الذي وضعه جالينوس لمؤلفاته. وقال ابن أبي أصيبعة: غرضه في هذا الكتاب أن يصف الكتب التي وضعها، وما غرضه في كل واحد منها. عيون الأنباء ج 1 ص 136. وأكد البيروني كذلك أن حنين بن إسحاق وضع ثبتا للكتب التي لم يذكرها جالينوس في فهرست كتبه وصف فيه جميع ما وجد لجالينوس من الكتب لا يشك أنها له، وقال إن جالينوس يكون صنفها بعد وضعه الفهرست. عيون الأنباء ج 2 ص 162.

17- وضع المستشرق الألماني روسكا (Ruska) فهرست مؤلفات محمد بن زكريا الرازي كما نشر محمود النجم آبادي كتابا بعنوان: شرح حال محمد بن زكريا الرازي عام 1318هـ أدرج فيه مجموع ما في فهرست ابن النديم ورسالة البيروني وأخبار الحكماء وعيون الأنباء من تصانيف الرازي وبلغت مائتين وخمسين (250) مصنفا.

18- حقق هذه الرسالة المستشرق الألماني بول كراوس P.Kraws في عام 1936م اعتمادا على النسخة المخطوطة المحفوظة بليدن بهولندة. قال ياقوت في معجم الأدباء: تصانيفه (البيروني) تفوق الحصر ورأيت فهرستها في وقف الجامع "بمرو" في ستين ورقة. وقد نافت مؤلفات البيروني على 180 مؤلفا. انظر بحث السيدة Atés على البيروني بدائرة المعارف الإسلامية الأوروبية. وقد نشر المستشرق الألماني زاخو ت1930م (Sahau) ثبت كتب البيروني في مقدمة تحقيقه لكتاب البيروني: الآثار الباقية في القرون الخالية المنشور في ليبزيغ عام 1878م. وقد نقله فيما بعد إلى اللغة الإنجليزية (1879م).

ويستنفلد Westenfeld (1899) كتاب **مؤرخو العرب ومؤلفاتهم**[19] واعتنى المستشرقان "بول كراوس" و"زاخو" بمؤلفات أبي الريحان البيروني، ووضع المستشرق الإسباني كرسيا كوميز (Garcia-Gomez) ببليوغرافيا تحليلية لكتب ابن حزم الظاهري في الملحق الثاني بالترجمة التي وضعها لكتاب **طوق الحمامة** إلى اللغة الإسبانية سنة 1952م. وقد اهتم بابن حزم كذلك المستشرقة طوميش فنشرت ببليوغرافيا حديثة بأعمال هذا الرجل وذلك في ترجمتها لكتاب **الأخلاق والسير** إلى اللغة الفرنسية[20]. أما المستشرق الألماني برجستراسر (1933م) فإنه نشر كتابا حاول أن يحصر فيه مؤلفات العالم الكبير حنين بن إسحاق ضمنه ما ألفه وما نقله من اللسان اليوناني أو السرياني إلى اللغة العربية.

وفي نفس المجال وضع المستشرق الألماني هورتين (Horten 1945م) ثبتا بمؤلفات الفارابي في ثنايا مقدمة بحث له عن هذا الفيلسوف الكبير[21]. كما نشر المستشرق ألنسو (Alonso) ثبتا بمؤلفات ابن رشد في سنة 1943م. وقد اهتم الأب قنواتي (Anawati) بالسيرة الببليوغرافية لابن سينا وأحصى له مائتي وستة وسبعين (276) مؤلفا بما فيها المشكوك فيه والمنسوب إليه. وقد أعاد صياغتها وترتيبها الباحث المهداوي فأحصى له مائة واحدى وثلاثين (131) مؤلفا صحيحا ومائة وعشرة (110) كتابا منسوبا إليه.

إن هذه الأثبات وغيرها كثير قد نشرت في إطار السيرة الببليوغرافية للقدماء خصوصا منهم هؤلاء الذين عرفوا بغزارة الإنتاج، أو الذين اضطربت الآراء حول آثارهم ومؤلفاتهم، وهي أبحاث يختلف بعضها عن بعض من حيث التحليل والعمق وطرق التناول. وقد ارتأينا أن نتناول بالحديث ثلاثة أعمال بيوببليوغرافية من بين مجموعة من الدراسات في هذا المجال تجمعت فيها الخصائص التي يتميز بها هذا النوع من التأليف في العصر الحديث نعتبرها تمهيدا لموضوعنا في السيرة الببليوغرافية لجلال الدين السيوطي. هذه الأعمال هي

---

[19]- نشره في مدينة جوتنجن بألمانيا في عام 1882م.

[20]- نشر العمل في بيروت في عام 1961م (Epîtres morales).

[21]- نشره في المجلة الآشورية بين سنتي 1907 و 1914م.

المتعلقة بمؤلفات كل من ابن خلدون (808 هـ) والإمام الغزالي (505هـ) وابن عربي الحاتمي (738 هـ) وابن البناء العددي المراكشي (721 هـ).

ومن يمعن النظر في هذا النوع من التأليف من التراث العربي، يجد أن كثيرا من الدراسات الخاصة بهذا المجال قد اهتدى إليها أو تناولها المستشرقون إن لم تكن بطريقة شمولية فبصفة جزئية. وقد يكون هذا من تأثير بعض المحدثين من الغربيين الذين خصوا قدماءهم من العلماء والأدباء بمؤلفات بيوببليوغرافية تنفض الغبار عما ظل قابعا في الخزائن من أعماله مع الإشارة إلى ما طبع وحقق ونشر وترجم منها كتلكم السيرة الببليوغرافية التي وضعها أحد الفرنسيين المحدثين للمسرحي الشهير موليير Molière.

كان عبد الرحمن بن خلدون موضع اهتمام بالغ من طرف الباحثين شرقا وغربا منذ البدايات الأولى لعصر النهضة. وما زالت فلسفته ونظريته في علم الاجتماع ومؤلفاته موضوعا للندوات العلمية والدراسات الأكاديمية الجامعية والتآليف الببليوغرافية. وعلى الرغم من تعدد هذه الأبحاث فإنه يمكن اعتبار كتاب مؤلفات ابن خلدون للمرحوم عبد الرحمن بدوي أهم سيرة ببليوغرافية لهذا الرجل. فبعد رسم لوحة لحياته العلمية والسياسية المضطربة[22] فإنه قد أحصى آثاره ووصف ما تبقى في خزائن العالم من مخطوطاته واستقصى ما كتب عنها من دراسات وما ترجم منها إلى سائر اللغات. ومن أبرز السمات العلمية التي تميز بها هذه الدراسة الفريدة ذلكم التتبع الدقيق والاستقصاء شبه الشامل لكتاب المقدمة والعبر مبرزا الروايات المختلفة في النسخ، كالتنصيص على الروايتين التونسية والمصرية للمقدمة. وقد تتبع مخطوطات هذا الكتاب في الخزائن الدولية مع تحديد رقمه، فوصف مخطوطات القاهرة التي تجاوز عددها اثني عشرة نسخة ومخطوطات اسطنبول وقد بلغ عددها ثلاث عشرة نسخة ثم مخطوطات باريز وليدن وفاس والمتحف البريطاني وهو الخزانة الوطنية حاليا وميونيخ بألمانيا وفلورنسة وفيينا وليننجراد ومدريد وبرلين وتونس وكوبنهاجن بالدانمارك وما وجد منها في

22- تتبع بدوي أخبار حياة ابن خلدون مع الإشارة إلى آراء المعاصرين فيه كابن الخطيب وابن الاحمر وابن حجر والسخاوي والمقريزي وغيرهم.

بعض الخزائن الخاصة كخزانة المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي (de Sacy). ولم يقتصر عمل بدوي على المقدمة والعبر بل تجاوزه إلى التنقيب عن مؤلفاته الأخرى الهامة ككتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. وبعد ذلك تتبع بدوي ترجمات المقدمة والعبر إلى اللغات التركية[23] والفرنسية[24] والإيطالية والألمانية واللاتينية والإنجليزية والأوردية (لغة الباكستان). ولم يفت المؤلف أن يثبت النشرات النقدية والطبعات المختلفة لمؤلفاته الأساسية مع الإشارة إلى أثرها في أفكار ومؤلفات من جاء بعده كابن الأزرق وغيره.

وسيبدو عبد الرحمن بدوي أكثر علمية في هذا المجال عندما وضع سيرة ببليوغرافية للإمام الغزالي (505 هـ) لأن غزارة إنتاج هذا الأخير وشهرته العلمية ومكانته الرفيعة في حياته وبعد مماته جعلت الناس ينسبون إليه الكثير من جلائل الأعمال على عادة العلماء الذين يظفرون بمثل هذه الشهرة وذلك المجد. فأصبح من العسير بل من المتعذر حصر مؤلفاته بكاملها وتحديد المشكوك فيها والمنسوب إليه منها[25].

بعد الإشارة في المقدمة إلى بعض الأعمال الغربية التي تناولت حياة الغزالي ومؤلفاته كالمستشرق ر.جوشه (R.Gosche) ومكدونلد (D.B.Macdonald) وجولد تسيهر (Goldziher) وديموبين (Demonbynes) وجيردنر (W.H.T. Gairdner) فإن أول محاولة جدية لترتيب مؤلفات الغزالي هي التي قام بها المستشرق الفرنسي ماسنيون (Massignon 1962م) في كتابه: "مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام"[26]. وقد تلا هذا البحث ما قام به المستشرق مونتجمري وت (W.M.Wat) من بحث في صحة المؤلفات المنسوبة إلى الغزالي[27]. وفي سنة 1959 نشر جورج حوراني مقالا بعنوان: الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي[28] يرصد فيه التاريخ المحدد لكل مؤلف من مؤلفاته. وفي نفس الفترة وفي نفس السياق

23- بما أن الترجمة التركية تمت قبل اختراع الطباعة فإنها كانت مخطوطة في نسخ مختلفة حاول عبد الرحمن بدوي أن يتتبعها في مظانها في مختلف الخزائن التركية.

24- أشار بدوي إلى كل الترجمات كليا أو جزئيا "المقدمة" بدءا من دي سلان (de Slane) إلى فنسان مونتي (Vincent Monteil).

25- رأى بدوي أن هناك شبها بين الغزالي وأرسطو من حيث نسبة الكتب إليهما. فكلاهما نسب له حشدهائل من المؤلفات.

26- نشره في باريز في سنة 1929 قدم فيه لوحة تاريخية لمؤلفاته.

27- بحث بعنوان: "صحة المؤلفات المنسوبة إلى الغزالي" نشر في "مجلة الجمعية الأسيوية الملكية" JRAS سنة 1952م.

28- نشر في "مجلة الجمعية الشرقية الامريكية" JAOS في أكتوبر – ديسمبر سنة 1959.

نشر المستشرق موريس بويج (Maurice Bouyges 1951م) كتابا بعنوان: **بحث في الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي**[29] يعتبر أوفى ما ظهر حتى هذا التاريخ عن مؤلفات الغزالي من حيث حصر عددها والبحث في ترتيبها والتحدث عن كل كتاب منها من حيث صحته.

أما البحث الذي قدمه عبد الرحمن بدوي فإنه يختلف من حيث المنهج ومن حيث التناول عما فعله بويج Bouyges ومن سبقه من الباحثين. بعد مقدمة موجزة شاملة عن حياة الغزالي حاول بدوي أن يحصي كل ما أمكن إحصاؤه من مخطوطات كل كتاب من كتب الغزالي الصحيحة والمنحولة مع الإشارة إلى مظانها في العالم واصفا لبعضها، ذاكرا لمضامين ما لم ينشر منها خدمة للباحثين. وقد ذكر بدقة ما طبع منها وما ترجم إلى اللغات الأخرى وما كتب عنها من دراسات نقدية في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات. قال بدوي في مقدمة كتابه: "فقد قصدنا من هذا البحث أن نقدم للباحثين في الغزالي الأداة الضرورية التي يستطيعون الاستعانة بها في تحقيق مؤلفاته وحصرها"[30].

إن من شأن هذه السيرة الببليوغرافية أن تيسر الطريق للباحثين للقيام بأبحاث علمية سليمة وإصدار الأحكام النزيهة عن هذا المفكر الكبير.

ومن الكتاب الذين عرفوا بالخصوبة والسعة والشمول في التأليف محيي الدين بن عربي الحاتمي الذي بلغت مؤلفاته الصحيحة والمزيفة ألفا وخمسمائة وتسعين عنوانا (1590). وقد كانت سيرته الببليوغرافية موضوعا لدراسة جامعية أنجزها عثمان يحيى رحمه الله في الخمسينات من القرن الماضي[31]. وقد أخذ المؤلف على عاتقه مهمة نقد وفحص وتحقيق المؤلفات المنسوبة لابن عربي في محاولة لتمييز الصحيح من الزائف، وتبيين ما كان منحولا أو مشكوكا في صحة نسبته، وما كان عنوانا أصليا وما كان عناوين مختلفة تابعة لعنوان

---

[29]- انجز بويج هذا الكتاب في سنة 1924 ولكنه لم يقدمه للطبع لأسباب مجهولة فأكمله ونشره في بيروت ميشل ألار (Michel Allard) مع إضافات جدد فيها معلومات المخطوطة.

[30]- مؤلفات الغزالي: بدوي عبد الرحمن ص.19: الطبعة الثانية 1977.

[31]- قدمت هذه الرسالة بعنوان: تاريخ وتصنيف مؤلفات ابن عربي مع تحقيق وترجمة كتاب التجليات في الجامعة الفرنسية (الصوربون) 1958م وقد ترجمت إلى لغات أخرى من بينها اللغة العربية.

أصلي. وأول من اهتم بهذه السيرة ابن عربي نفسه وضعها نزولا عند رغبة أحد أصدقائه، وضع ثبت مؤلفاته التي كان لا يعلم عددها بالضبط بسبب غزارتها فكان أساسا ومصدرا لكل الأبحاث التي ظهرت في هذا المجال. وقد وصلنا هذا الفهرس في ثلاث روايات مختلفة أولاها تلكم النسخة المحفوظة بخزانة يوسف أغا بقونية بتركيا وهي نسخة ناقصة. أما النسخة الثانية فهي التي نشرها كوركيس عواد[32] (1992م) وأحصى فيها مائتين وثمانية وأربعين مؤلفا (248). وكانت الرواية الثالثة تلكم التي ضمنها ابن عربي إجازته[33] لغازي بن مالك العادل الأيوبي في عام 632 هـ أحصى فيها ما ثين وتسعة وثمانين عنوانا وهي محفوظة في مكتبة برلين بألمانيا. وبعد الفحص الكبير للتراث الفكري والروحي الذي خلفه ابن عربي تبين للباحث عثمان يحيى أنه يزيد على 900 كتاب (تشتمل على 1395 عنوانا) قد نسبت بالفعل إلى الشيخ الأكبر وكثير منها قد نُحل عليه وزورت نسبته إليه. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الكتاب الذي لا يعرف له مؤلف في ميادين علوم التصوف والأسرار كان ينسب إلى ابن عربي في فهارس المكتبات أو بأقلام النساخ[34]. وقد حرص الباحث رحمه الله على تحقيق أبعاد ثلاثة في هذه الدراسة التي يمكن اعتبارها أهم دراسة بيوبليوغرافية في العصر الحديث لأن ابن عربي يعتبر أكثر علماء الإسلام خصوبة في التأليف وأكثرهم شهرة وانتشارا في المؤلفات، وقد توزعت مصنفاته على أقطار العالم أجمع، بل شكلت مؤلفاته خزائن من أثرى الخزائن في مكتبات الشرق والغرب. تجلى الهدف الأول في وضع قائمة نقدية كاملة لجميع مؤلفات[35] الشيخ معتمدا في ذلك

---

[32]- نشره كوركيس عواد مدير متحف العراق ببغداد في سنة 1954م في مجلة المجمع العربي بدمشق. ثم نشره كذلك أبو العلاء عفيفي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية. وقد نشره في مجلة الكلية في عام 1954م.

[33]- نشرت الإجازة نشرة علمية اضطلع بها عبد الرحمن بدوي وظهرت في مجلة الأندلس رقم 20 عام 1955. بدأ بدوي هذه النشرة بدراسة موجزة باللغة الإسبانية عن أعمال ابن عربي وعن أهمية الإجازة ثم أتبعها بترجمة مختصرة لبعض الشيوخ المذكورين بهذه الإجازة ثم عرض قائمة قابل فيها بين المؤلفات التي ذكرها بروكلمان والمؤلفات التي ورد ذكرها في الإجازة.

[34]- لم تكن هذه الظاهرة خاصة بابن عربي وحده بل امتدت إلى كثير من العلماء والشعراء والمتصوفة أمثال السيوطي وعمر الخيام. فكان كلما ظهرت رباعية شعرية في التصوف وعلم الأسرار إلا ونسبت للخيام الشيء الذي جعل تمييز الصحيح من الزائف في رباعيات الخيام من أصعب الدراسات النقدية الخاصة بهذا الشاعر الصوفي منذ القرن التاسع عشر.

[35]- مصادر عثمان يحيى في وضع هذا الكتاب ثلاثة:
1. كتابات المؤلفين القدامى.=

كل الوثائق التي أتيح له الوقوف عليها في خزائن العالم بدءا بالثبت الذي وضعه ابن عربي نفسه في مختلف رواياته.

وقد حاول في البعد الثاني أن يضع تاريخا لتراث الشيخ الأكبر يرصد فيه الأصداء التي أحدثتها هذه المؤلفات في الوسط الفكري عند المسلمين من القرن السابع حتى أيامنا هذه. ولم يكن هذا التاريخ إلا إشارات إلى مختلف الآراء حول ابن عربي لأن هذه الدراسة تتغيّى التوثيق لأعماله العلمية وتعدل عن التحليل لأفكاره.

وبعد الفحص العلمي لتراث هذا المؤلف الكبير أفرز الباحث 550 مصنفا ثبتت نسبتها لابن عربي موزعة في مجموعة من خزائن العالم في 2917 نسخة مخطوطة. كما وضع قوائم بالمصنفات المفقودة وأخرى بالمصنفات المشكوك في نسبتها والمنحولة.

ومما صدر أيضا في مجال السيرة البيليوغرافية كتاب حياة ومؤلفات ابن البناء المراكشي[36] للباحثين أحمد جبّار ومحمد أبلاغ. يتميز هذا المصنف بكون صاحبيه قد بذلا جهدا كبيرا في تتبع مؤلفات ابن البناء مخطوطة ومطبوعة واستعملا مصطلح بيوبليوغرافيا لتحديد الدراسة وهو المصطلح المناسب الذي لا نكاد نعثر عليه في الأعمال الخاصة بهذا المجال. قسّم الباحثان بحثهما إلى ثلاثة أقسام: خصا القسم الأول برسم لوحة دقيقة عن حياة هذا الرياضي الكبير، ووضعا في القسم الثاني قائمة بمؤلفاته معتمدين في ذلك على مجموعة من المصادر الأساسية[37] والمراجع الحديثة[38]، وحدّدا في القسم الثالث النصوص غير المنشورة.

---

2. أعمال المؤلفين المحدثين: ويتصدرها الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي .G.A.L للمستشرق بروكلمان، ثم عمل كوركيس عواد وتلتها أعمال مختصرة عن مؤلفات ابن عربي نشرها كل من العالم التركي محمد طاهر رفعت والمستشرق ريتر Ritter ومحمد اسماعيل الصفائحي التونسي في كتابه كشف النقاب.

3. مخطوطات متفرقة في خزائن الكتب في الشرق والغرب.

[36]- حياة ومؤلفات ابن البناء المراكشي: منشورات كلية آداب الرباط 2001.

[37]- اعتمدا بالدرجة الأولى كتاب التمحيص في شرح التلخيص لابن هيدور التادلي (816هـ) الذي كان مصدرا لآخرين أمثال ابن القاضي في درة الحجال وجذوة الاقتباس وأحمد بابا في نيل الابتهاج وابن تيجلات في إثمد العينين والشاطبي في الإفادات والإنشادات وابن قنفد في أنس الفقير والمقري في نفح الطيب وأزهار الرياض.

[38]- اعتمد الباحثان مجموعة من الدراسات والأبحاث والمقالات الخاصة بابن البناء كان من أجودها بحث المستشرق رونو (Renaud) المنشور في مجلة هسبريس (Hespéris) 1938. وعبد الله كنون: في ذكريات مشاهير رجال المغرب: ابن البناء العددي.

وبرغم تعدد النسخ لمؤلفات ابن البناء وكثرة الخزائن التي تحتفظ بالكثير منها فإن الباحثين لم يقتصرا على ما جاء من توصيف للمخطوطات في الفهارس والكتب الببليوغرافية وكتب التراجم بل حاولا الوقوف على ما تيسر لهما من مخطوطات تلافيا للأخطاء التي وقع فيها الباحثون والنساخ، وتحريا للدقة التي يستوجبها الضبط الببليوغرافي. وقد مكنهما حرصهما العلمي هذا من إفراز الصحيح من الزائف والمشكوك فيه والمنسوب إليه فوضعا جردا جامعا ومانعا لمؤلفاته لا يمكن أن يرقى الشك في نسبتها إليه. وفي النهاية يتسم هذا العمل بالجرأة في البحث والتحليل، وبإعمال النظر الفاحص في آراء وجهود من سبقهما إلى الاهتمام بالسيرة الببليوغرافية لابن البناء المراكشي.

وعلى كثرة الدراسات الحديثة في مجال السيرة الببليوغرافية وبالرغم من أهميتها وحرص أصحابها على الدقة والتتبع البالغ لمختلف مكوناتها وعناصرها، لم يلق واحد من الأعلام الذين كانوا موضوع هذه الأبحاث ما لقيهُ السيوطي وإنتاجه الغزير من اهتمام الباحثين قديما وحديثا. وقد فطن هذا الموسوعي إلى غزارة إنتاجه فوضع لنفسه أول ثبت بمؤلفاته ضمّنَهُ كتَابَهُ **حسن المحاضرة** الذي ترجم نفسه فيه: قال: "وإنما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلي فقل أن ألف أحد منهم تاريخا إلا وذكر ترجمته فيه، وممن وقع له ذلك الإمام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور وياقوت الحموي في **معجم الأدباء** وابن الخطيب في **الإحاطة**[39] وتقي الدين الفارسي في **تاريخ مكة** وابن حجر في **قضاة مصر** وأبو شامة في **الروضتين**[40]. وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه"[41]. وقد اعتنى كثيرون قديما وحديثا بحصر مؤلفات السيوطي مع اختلاف الروايات في عددها وذلك لغزارتها؛ فبالإضافة إلى ما جاء في **حسن المحاضرة** نسبَ للسيوطي فهرس مستقل بمؤلفاته لعله نسخه بخط يده ونسخه عنه تلاميذه فيما

[39]- ذكر ابن الخطيب ثبت مؤلفاته (حوالي 60 مؤلفا) خلال ترجمته لنفسه في آخر كتاب الإحاطة غير أن هذا الثبت لا يتضمن كل مؤلفاته لأنه وضعه ثلاث سنوات قبل وفاته. وقد نقل المقري ثبت كتب ابن الخطيب في نفح الطيب 4/ 653-655 وأزهار الرياض 180-190.

[40]- ويقصد به ذيل الروضتين.

[41]- حسن المحاضرة. ج1 ص: 155 و 157.

بعد، وقد أحصى هذا الفهرس المحفوظ بخزانة شستربتي بإرلندا أربعمائة وواحداً وستين عنوانا[42]. وتحتفظ كثير من خزائن العالم بفهارس خاصة بمؤلفات السيوطي كالفهرس الذي نسخه في سنة 1121هـ عثمان بن يحيى بن عبد الوهاب الميري وهو محفوظ بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، وقد بلغ عدد المؤلفات فيه نحو خمسمائة وأربع وأربعين (544) عنوانا، والفهرس الذي عثر عليه عبد الحي الكتاني في مصر والذي يحصي 538 عنوانا[43]، ونسخة أخرى من الفهرس محفوظة بالزاوية الحمزية بالمغرب وقف عليها الفقيه المنوني وذكرها في رسالة نشرها بمجلة تطوان في العدد الثامن سنة 1963. وقد نشر المستشرق الألماني فلوغل ثبتا بمؤلفات السيوطي أحصى فيه 561 عنوانا بمجلة (Wiener Jahi.b) 1832 عدد 58-60. وقد اعتمد فلوجل نسخة تعود إلى عام 1169 هـ. وقد نشر في الطبعة الأوروبية القديمة لكشف الظنون فهرس مؤلفات السيوطي يضم 504 عنوان. وأخيرا ذكر بروكلمان في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي[44] 415 مؤلفا من كتب السيوطي اختار منها ما هو مشهور ومطبوع ووضعه في البحث الذي نشره عن السيوطي في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الأولى[45].

بالإضافة إلى هذه الأثبات والفهارس القديمة وضعت دراسات لبعض المحدثين خاصة بالسيرة البيليوغرافية للسيوطي. منها ما نشره يحيى محمود ساعاتي وكل من أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني وما تمخضت عنه مجموعة من الندوات العلمية من أبحاث حول حياة السيوطي ومؤلفاته، وأخيرا مكتبة الجلال السيوطي للأستاذ الشرقاوي إقبال التي أحصى فيها 725 عنوانا والتي قضى في إنجازها ردحا من الزمن طويلا. ولا يسع الواقف على مختلف الأعمال التي اختارت موضوعا لها السيرة الببليوغرافية للجلال السيوطي إلا أن يبدي إعجابه بهذا العمل الكبير الذي أنجزه أحمد الشرقاوي عن مؤلفات هذا العالم الموسوعي، وقد يزداد

[42]- نسخة منقولة من نسخة المؤلف محفوظة بالخزانة المذكورة ضمن مجموع من 71 إلى 79 تحت رقم 3420. نشرها يحيى محمود ساعاتي في مجلة عالم الكتب. المجلد الثاني عشر، العدد الثاني (شوال 1411هـ). وفي مشيخة البدر القرافي لدى ترجمة شيخه الحافظ السيوطي فهرس أسماء مؤلفاته قال: وهي ستمائة مؤلف. انظر فهرس الفهارس للكتاني. ج2 ص: 1020ط: إحسان عباس.

[43]- فهرس الفهارس ج:2. ص1020.

[44]- تاريخ الأدب العربي ج:2. ص145.

[45]- دائرة المعارف الإسلامية : الطبعة الأولى. مادة : السيوطي.

إعجابا وذهولا عندما يعرف الظروف العلمية والاجتماعية والمادية التي أنجز فيها الأستاذ الشرقاوي هذا الكتاب، ونكتفي بالذكر أن الرجل قد أنجز هذا العمل وهو لم يخرج من بيته من مراكش رحمه الله. ولنتصور ضخامة هذا الكتاب وبعده العلمي والببليوغرافي لو أتيح لهذا الباحث ما أتيح لغيره من إمكانات الأسفار والتردد على خزانات العالم والوقوف على نوادرها وفهارسها ومذخراتها، وعلى الرغم من عدم تيسر هذه الإمكانات فإن صاحبنا قد جرى مجرى علماء الغرب في وضع ببليوغرافيات المؤلفين من المفكرين والأدباء والمسرحيين وغيرهم دون الوقوف على هذه الأعمال للاقتداء بها واستلهامها في هذا الإنجاز. قدم الشرقاوي مكتبته بمقدمة كافية شافية موجزة عن حياة السيوطي، فتحدث فيها عن نسبه وتعليمه ومشيخته وتلامذته ورحلاته العلمية وجهوده في الإبداع والتأليف وعلاقته مع العلماء واتصاله بالخلفاء والأمراء وأخيرا عن ثقافته الموسوعية التي جعلت منه أغزر مؤلفي العربية إنتاجا على الإطلاق.

لقد سار الشرقاوي على منوال الفطاحل من القدماء المعترفين بجهود من سبقهم من الجهابذة والعلماء، وذكر في مقدمة كتابة المصادر التي اعتمدها في إنجاز عمله واستهلها بذلكم المسرد الذي أودعه السيوطي نفسه في ثنايا ترجمته في حسن المحاضرة، ثم ما جاء في شذرات الذهب لابن العماد وفي ذيل طبقات الشعراني وفي بدائع الزهور لابن إياس وفي ذرة الحجال لابن القاضي وفي كشف الظنون وذيوله لحاجي خليفة والبغدادي وفي عقود الجواهر لجميل بك العظم وفي مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زادة وفي الرسالة المستطرفة لمحمد ابن جعفر الكتاني وفي تاريخ الأدب العربي لجورجي زيدان وفي تاريخ الأدب العربي لبروكلمان. ولم يغفل الشرقاوي ذكر الفهارس والأثبات والقوائم التي تيسر له الوقوف عليها وفحصها ومعاينتها لمكتبات مغربية وأجنبية.

وكما ساير الشرقاوي القدماء في منهجهم العلمي الرصين وفي اعتبارهم للأمانة العلمية في النقل والاقتباس، سار مع المحدثين في تناولهم للدراسات الببليوغرافية خصوصا منها تلكم التي تتعلق بأفراد العلماء بتآليف خاصة بحياتهم ومؤلفاتهم. تناول دراسة مؤلفات السيوطي

بمنهجية حديثة فعرف ببعض المخطوطات التي ارتأى أن التعريف بها ضروري[46]، وأشار إلى ما طبع منها أو حقق تحقيقا علميا مع ذكر التاريخ والمكان ثم درس مؤلفات السيوطي تبعا لما يسمى اليوم بالببليوغرام والببليوكرونغرام أي مخطط علاقات النصوص والمخطط الزمني لعلاقات النصوص كالشرح والاختصار والتذييل والتعقيب والتلخيص والذيل والتكملة وما إلى ذلك.

وحتى يسهل تناول الكتاب وتتم الاستفادة منه بيسر وسهولة عمد الشرقاوي إلى ذكر العناوين مرتبة على المعجم ثم ذكر عناوين المؤلف قبل عناوين النساخ فذكر الإسم المشتهر للمؤلفات التي لها أكثر من عنوان[47]، ثم الإشارة إلى المخطوط الذي يضم مجموعة من التوليفات أو الكراريس أو الكتب التي أدمجت في مؤلف واحد، وختم بمسرد بالكتب المنسوبة للسيوطي خطأ والمنحولة له والمكذوبة عليه افتراء. ومن مميزات هذه السيرة الببليوغرافية أن الشرقاوي لم يضع فيها إلا ما توثقت نسبته للسيوطي من المؤلفات وما اعتمد من المصادر والمراجع والأثبات إلا ما كان مأمونا موثوقا حسب ما جاء في مقدمته. وعلى الرغم مما يمكن أن يؤاخذ به العلامة الشرقاوي في هذا الإنجاز الهام من نقص وهنات خصوصا فيما يخص الجانب الببليوغرافي والفهرسي، وهذه طبيعة كل عمل علمي، فإن هذا الكتاب يبقى أهم عمل في مجال السيرة الببليوغرافية السيوطية بالرغم من تمكن أصحابها من الوقوف على الأثبات والفهارس والنسخ الخطية المحفوظة في مختلف خزائن العالم. إن الشرقاوي استطاع أن يضع يده رغم قصرها على مجموعة من المعارف الببليوغرافية قد غفل عنها المستشرق الألماني فلوغل في الفهرست التي نشره للسيوطي في بداية القرن 19م. وإذا تعددت الفهارس الخاصة بمؤلفات السيوطي واختلفت عشرات المصادر فيما يخص عددها وتعددت الدراسات والأبحاث والندوات حول هذا العالم ومؤلفاته، فإن السبب في ذلك يرجع إلى ضخامة الإنتاج وغزارة التأليف الذي عرف به السيوطي. ومما يؤسف له فإن اهتمام الأفراد بالسيرة الببليوغرافية

---

[46]- من إيجابيات السيرة الببليوغرافية الاطلاع الواسع على المخطوطات غير المنشورة تذاع في الناس ثم تحقق وتنشر.

[47]- من المشاكل التي تعترض الباحث في السيرة الببليوغرافية أن المؤلفين يسكتون بعض الأحيان عن تسمية مؤلفاتهم مما يفتح الباب على مصراعيه للعلماء والمؤرخين والنساخ فيقترحون العناوين فيحدث اضطراب لدى الباحثين والمحققين حول العنوان الحقيقي للكتاب. وقد حدث هذا مثلا عند ابن البناء المراكشي الذي سكت عن عنونة بعض الكراريس فجاءت بعض العناوين مختلفة من مؤرخ لآخر.

للسيوطي وابن عربي وغيرهما من الموسوعيين في التراث العربي وما أكثرهم قد لا يؤدي إلى القول الفصل ولا يمكن الوصول إلى نتائج مرضية إلا في إطار ما يسمى بالعمل الجماعي ترعاه مؤسسات علمية لها من الإمكانات المادية والمعنوية ما يمكنها من استقطاب ذوي التجربة والممارسة والكفاءة في مجال العلم والببليوغرافيا وعلم المخطوطات والفهرسة، يعرفون خبايا المخطوطات وزوايا الخزائن. وهؤلاء هم الذين يستطيعون جمع مؤلفات السيوطي لمقارنة بعضها ببعض، وتوثيق العناوين وإعلان المختصر وإبراز المدمج وتمييز المنحول والمنسوب والمشكوك فيه. فكيف بنا أن نطالب رجلا واحدا بالقيام بهذا العمل الكبير الذي لا يمكن أن تُنجزَهُ إلا جماعة من الجهابذة خصوصا إذا علمنا مثلا بأن مكتبة برلين بألمانيا تضم في جنباتها المآت من النسخ الخطية لمؤلفات السيوطي، منها ما خطه بقلمه حسب فهرست الورد (Alwhard) الذي نشره في نهاية القرن التاسع عشر، أو إذا علمنا أيضا بأن المكتبة السليمانية بإصطانبول تضم ثلاثة آلاف مخطوط (3000) من مؤلفات السيوطي هي نسخ مختلفة لما يقرب من ثلاثمائة (300) كتاب ورسالة ومقالة. يقول عبد الحي الكتاني رحمه الله: "إن مؤلفات السيوطي بالنسبة لمعاصريه وشيوخه حصلت على إقبال عظيم عند الأمة الإسلامية لم يحصل عليها غيره، ولا تكاد تجد خزانة في الدنيا عربية أو عجمية تخلو عن العدد العديد منها بخلاف مؤلفات أقرانه وشيوخه فإنها أعز من بيض الأنوق[48]".

إذا كان التأليف في السيرة الببليوغرافية يعتبر بحق فحصا عن مصنفات عالم كبير غزير الإنتاج[49]، فإنها في نفس الوقت أداة عمل ومدخل ضروري للعاملين في مجال البحث العلمي الحديث، إنها الأورجانون الذي يمكنهم من سبر أغوار حياة هؤلاء العباقرة الفكرية فتعتبر بذلك مصدرا للمعلومات الموثقة والأخبار العلمية الدقيقة تسمح بإصدار الأحكام السليمة النزيهة حول نظرياتهم الفكرية وآرائهم العلمية.

48- عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس. ج:2 – ص:1019.

49- لا يصدر كتاب محقق لعالم من العلماء إلا ويبادر محققه إلى إعطاء نبذة عن حياته وقائمة بمؤلفاته غالبا ما تكون عبارة عن جرد جزئي لهذه المؤلفات غير مستوفية ولا شاملة تفتقر إلى التوثيق العلمي الدقيق. وتبقى السيرة البيليوغرافية أمرا لازما وضروريا يجب القيام بها خصوصا بالنسبة للمؤلفين كثيري الإنتاج.

التأليف الببليوغرافي في التراث العربي

تشكل ثلاث كلمات، أو قل ثلاثة مصطلحات، مدار الكلام في هذه المقالة: التأليف والببليوغرافيا والتراث، فكل واحد منها يحتاج شرحه إلى عروض بل إلى كتب؛ والدليل على هذا هو أن المؤلفات التي كانت هذه المفاهيم موضوعا لها لم تشبع رغبات المختصين من العلماء والباحثين. فشعورا مني بضخامة هذا الموضوع لن أتناول من موضوع التأليف إلا ما يتعلق بالمؤلفات ذات الصبغة الببليوغرافية التي لم تحظ بما حظيت به أنواع أخرى من التآليف من عناية العلماء واهتمام الباحثين. وسأتناول الببليوغرافيا لا كفرع من فروع علم المكتبات الحديث، شأن المختصين من وثائقيين ومكتبيين، ولكن باعتبارها وسيلة علمية وأداة ضرورية للباحثين في مختلف مجالات المعرفة. أما التراث العربي الذي يعني ما يعنيه اليوم من إرث ثقافي وحضاري ورثناه أو أورثتنا إياه أمتنا العربية فسأتناول منه الجانب المتعلق بالمخطوطات والمصادر ذات الطابع الببليوغرافي بالإضافة إلى الأدوات الببليوغرافية الحديثة التي رصدت هذا التراث وضبطته ويسرت سبل البحث فيه خدمة للعلم والعلماء. وكان المقصود من اختيار هذا الموضوع هو تحسيس الطلبة بأهمية البحث الببليوغرافي في الدراسات الجامعية وإرشادهم إلى الأدوات الببليوغرافية التي تكون الركائز الأساسية في البحث وتضفي عليه الطابع الأكاديمي، هذا الطابع الذي تفتقر إليه معظم الأبحاث التي تقدم في مختلف الجامعات العربية.

ربما لن أعدو الحقيقة إذا قلت إنه ليس هناك من تقدم علمي أو اجتماعي بدون عناية بالببليوغرافيا، لقد ولى زمن العشوائية في البحث ومضت تلكم الطرق التقليدية التي يخبط من خلالها الباحث خبط عشواء من أجل العثور على المصادر الضرورية، وجاء زمن التوثيق

الذي ليس شيئا سوى تجميع الوثائق[1] وتنظيمها وجعلها رهن إشارة الباحثين، ولم يكن ليتم هذا بدون تلكم الأدلة الببليوغرافية التي يسرت البحث وأعطت وجها آخر لبحوثنا المعاصرة. فالببليوغرافيا وسيلة علمية ضرورية للوقوف والتعرف والتحكم نسبيا في الإنتاج العلمي، وهي قاسم مشترك في كل الدراسات لابد لأي باحث علمي أو أدبي أو اجتماعي من أن يقف على بعض أساليبها لا كعلم وفن له أصوله وقواعده كما يصنع المختصون في مجال المكتبات والمعلومات، ولكن يلم بها كأداة تمكنه من الوقوف على مصادر بحثه وتيسر له الوصول إلى أهم الأعمال المتصلة بموضوعه في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات. فالببليوغرافيا إذن شيء ضروري للباحث ولا يمكنه الاستغناء عنها كيفما كان تخصصه واتجاهه، فهي أشبه شيء بالمنطق بالنسبة لدراسة العلوم في العصر القديم، إذ كان العالم في تلك العصور ملزما بدراسة مادة المنطق قبل التبحر في العلوم الأخرى، لأن المنطق باعتباره علما لقوانين التفكير حسب تعريفه الكلاسيكي[2] هو الوسيلة التي تعلمه كيف يفكر، فلما قسم أرسطو المعرفة تقسيمه الفلسفي الثلاثي المعروف إلى علوم نظرية وعلوم علمية وعلوم إنتاجية أو علوم الشعر، قال: "إنه قبل كل هذه الأقسام الثلاثة وأول كل ذلك وخارج كل ذلك يأتي المنطق الذي هو الآلة أو (الأورجانون) التي تستعمل في دراسة كل هذه العلوم، والإلمام به شرط مبدئي لكل طالب".

ولم يكن القدماء من علماء الإسلام وحكمائه ليخالفوا المعلم الأول في تأكيد ضرورة دراسة المنطق للباحثين، فقد بين الفارابي في مقدمة كتابه الموسوعي إحصاء العلوم وجه الحاجة إلى المنطق ومنفعته وضرورته لمن أقدم على الدراسات العلمية، وذكر بأهمية المنطق كذلك كل من ابن طملوس في المدخل إلى صناعة المنطق وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء. فالببليوغرافيا إذا أداة ضرورية لا مناص منها للباحث المعاصر في أي مجال

---

[1]- الوثيقة اليوم هي كل ما يعطينا معلومة من المعلومات مخطوطا كان أو مطبوعا دراسة كانت أو مقالا، وليس المفهوم المعاصر إلا رجوعا إلى الأصل اللاتيني لكلمة وثيقة document بالفرنسي التي كانت في اللاتيني docere بمعنى كل ما يعلمنا شيئا.

[2]- أي فنّ حسن التأمل والتفكير في معرفة الأشياء سواء لتثقيف النفس أو لتثقيف الآخرين.

من مجالات المعرفة. فهل عرف القدماء من العرب المسلمين هذا العلم؟ وإذا عرفوه كيف عبروا عنه؟ وبأي طريقة مارسوه؟ وما هي المؤلفات التي خلفوها في هذا الميدان؟

إن الباحث في تراثنا العربي يجد أن أسلافنا قد مارسوا بالفعل هذا العلم منذ العصور الأولى ووضعوا فيه مؤلفات يكاد بعضها يفوق في تنسيقه البيبليوغرافي كتب المحدثين في هذا المجال، غير أن العرب كاللاتينيين القدماء قد استعملوا المصطلح اليوناني ببليوغرافيا[3] للتعبير عن هذا العلم- فإذا كان اللاتينيون قد استعملوا مصطلحات لاتينية واستعاروا أخرى يونانية[4] لنعت علم البيبليوغرافيا فإن العرب بدورهم استعاروا الكلمة الفارسية "فهرست" للتعبير عن هذا العلم عوض ببليوغرافيا بحكم امتزاجهم وتشبعهم بالثقافة الفارسية.

ولم تقتصر كلمة "فهرست" على البيبليوغرافيا بل كانت تعني في نفس الوقت مجموعة الكتب التي تحتوي عليها خزانة من الخزانات. فالفهرست إذن هو الدليل الذي يحصي الرصيد من مؤلفات مكتبة معينة، بينما الفهرست بمعنى البيبليوغرافيا هو الدليل الذي يرشدنا إلى معظم أو كل ما ألف في موضوع من الموضوعات أو في شخصية من الشخصيات أو في مكان من الأمكنة أو ما كتب عن فترة تاريخية من فترات التاريخ، الفهرست البيبليوغرافي يخبرنا بوجود كتاب معين بينما فهرست الخزانة يدلنا على مكان هذا الكتاب. إن القدماء من العرب المسلمين أطلقوا الكلمة الفارسية للتعبير عن الفنّين معا فقالوا فهرست بيت الحكمة وفهرست مؤلفات الجاحظ فهي في المعنى الأول دليل مكتبة أو كاتالوك (Catalogue) وهي في المعنى الثاني تدل على ما يعرف اليوم بالبيبليوغرافيا، فما ترويه لنا كتب التراث من أخبار عن فهارس الخزانات القديمة كفهرست خزانة المامون العباسي في بغداد ومكتبة الحكم المستنصر في قرطبة هو عبارة عن قوائم الكتب التي تضمها هذه الخزانات أما المفهوم الآخر لكلمة فهرست والذي

[3] - ببليوغرافيا Bibliographie : كلمة يونانية مركبة من كلمتين: biblio وهي تصغير biblio وتعنى كتاب- و graphie وتعنى نسخ، وصف..

[4] -Index, Inventarium -Catalogus- Repertorium- Bibliotheca

يعني القوائم الببليوغرافية فيتمثل في فهرست ابن النديم وفهرست ابن خير الإشبيلي وسواهما من الفهارس ذات الصبغة الببليوغرافية.

وإذا كاد إجماع المحدثين من الباحثين ينعقد على أن فهرست ابن النديم هو أول عمل ببليوغرافي في اللغة العربية، فإن ابن النديم نفسه يعترف في مواضع مختلفة من كتابه بأنه مسبوق إلى هذا الفن وأن هناك أعمالا ومحاولات سابقة عليه استفاد منها فأوحت إليه بوضع هذا التأليف الذي أراد له أن يكون حصرا لكل ما ألف باللغة العربية، وكل ما ترجم إليها في مختلف فروع المعرفة حتى أواخر القرن الرابع الهجري. ومن بين الأعمال الببليوغرافية التي سبقت عمل ابن النديم فهرست كتب الطبيب اليوناني جالينوس Galien وترجمته إلى العربية على يد حنين بن إسحاق لعلي بن يحيى المنجم في القرن الثالث الهجري[5]. ومنها كذلك فهرست كتب أرسطو وترجماتها إلى العربية على يد يحيى بن عدي في القرن الرابع للهجرة. وعلى الرغم مما تتسم به هذه التجميعات الببليوغرافية الأولى من مظاهر النقص والقصور حيث إنها لم تخضع لأي ترتيب، هجائيا كان أو موضوعيا، فإنها قد هيأت السبيل لابن النديم الذي يعتبر أبا الببليوغرافيا في العصور الإسلامية الأولى. وإذا توالى التأليف في هذا المجال بعد ابن النديم فإن المؤلفات الببليوغرافية التي وضعت على مر العصور تبقى قليلة بالنسبة لكتب التراث، وقد اخترت أربعة منها أتناولها في هذا العرض حيث إنها تمثل في رأيي أقصى ما وصلت إليه الأساليب الببليوغرافية الحديثة وهي على التوالي: **فهرست ابن النديم وإرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد لابن الأكفاني ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زادة وكشف الظنون لحاجي خليفة**، بالإضافة إلى نوع من التأليف الببليوغرافي اصطلح على تسميته بالفهرسات أو كتب البرامج[6]، ولن أتناول من وصف هذه المؤلفات إلا ما يؤكد طابعها الببليوغرافي.

---

[5]- حقق الكتاب ونقله إلى اللغة الألمانية ونشره المستشرق الألماني برجسترايسر ووضع جالينوس نفسه ببليوغرافيتين لكتبه وقف عليها حنين بن إسحاق.

[6]- على الرغم من وجود مؤلفات أخرى في هذا المجال مثل إحصاء العلوم للفارابي ومفاتيح العلوم للخوارزمي وحدائق الأنوار للرازي ودرة التاج للشيرازي فإن الصورة الببليوغرافية لم تكن واضحة وكاملة مثل ما هي عليه في المؤلفات المذكورة أعلاه.

I. الفهرست:

يعتبر فهرست ابن النديم تاريخا لعلوم العرب ومصدرا أصيلا لدراسة ثقافتهم من نشأتها إلى القرن الرابع، فهو مرجع بيليوغرافي سجل لنا الحياة الفكرية للمسلمين وأحصى الكتب[7] الموجودة في فنون الثقافة العربية باللغة العربية أو المنقولة إليها من لغات الأمم الأخرى، يقول ابن النديم: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سبع وسبعين وثلاثمائة" [8].

والقارئ في الفهرست يجد أن ابن النديم لم يقف عند حد إحصاء الكتب بل تجاوزه إلى الكلام في حياة المؤلفين وأخبارهم والكلام في أصناف العلوم وأساليب الدراسة والبحث عند العرب وغير ذلك من شؤون الثقافة والحضارة، كما يتضح له أن ابن النديم يتميز بروح علمية وأمانة دقيقة بحيث إنه يصرح في مواضع كثيرة من كتابه بأنه رأى هذا الكتاب أو ذاك وعرفه. وبالإضافة إلى وصف الكتب يشير إلى قيمتها وتجويد أصحابها في التأليف أو تقصيرهم فيه، وهذا منتهى ما وصلت إليه البيبليوغرافيا الحديثة من وصف وتحليل ونقد وتشخيص للكتب (Autopsie) . قسم ابن النديم كتابه إلى عشرة أبواب سماها مقالات، وقسم كل مقالة منها إلى فصول سماها فنونا ، وبهذه الأبواب والفصول استوعب المؤلف معظم الكتب ومؤلفيها في الثقافة العربية في عصورها الأولى فكان معينا لا ينضب للباحثين ومصدرا أساسيا في أي دراسة لتاريخ العلم عند العرب، فهو عمل بيليوغرافي رائد سباق في مجاله وفي ترتيبه[9].

---

[7]- ابن النديم لم ينقل لنا كل الكتب المعروفة في القرون الأربعة الأولى، وهو معذور في ذلك إذا علمنا أن ما يطبع في بلد عربي اليوم لا يعلمه علماء بلد آخر رغم التقدم التكنولوجي ووسائل الاتصال، فهو قد ذكر حوالي:6000 كتاب.

[8]- المقدمة من كتاب الفهرست لابن النديم.

[9]- حققه Flugel وتوفي قبل أن يتممه فنشره Muller et Roediger 1871، عثر Ritter على نسخ أخرى للكتاب في تركيا ونشره عام 1928، وقال إن النسخ التي اعتمدها Flugel كانت أساسا ضعيفا للنشر، نقله B.Dodge إلى الإنجليزية ونشرته جامعة كاليفورنيا عام 1971، ووضع له فهارس مهمة.

II . إرشاد القاصد

إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد كتاب ببليوغرافي صرف أبان فيه ابن الأكفاني عن أصول العلوم وفروعها بكيفية لم نعهدها قط في المؤلفات العربية، فقد عزز الكلام عن كل علم بذكر ما صنف فيه من الكتب طويلها ومتوسطها ومختصرها، وشفع هذا بذكر مشاهير العلماء والمؤلفين في كل فن إلى غير ذلك مما جعله في بابه فريدا، يقول عنه حاجي خليفة: "ذكر فيه أنواع العلوم وأصنافها وهو مأخذ مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة، وجملة ما فيه ستون علما منها عشرة أصلية: سبعة نظرية وهو المنطق والإلهي والطبيعي والرياضي بأقسامه وثلاثة عملية وهي السياسة والأخلاق وتدبير المنزل وذكر في جملة العلوم أربعمائة تصنيف"[10] .

وكانت غاية المؤلف من تأليف هذا الكتاب هي استفادة الإنسان من هذه العلوم في سبيل تحلية نفسه بالفضائل وإبعادها عن الرذائل، فلا ينبغي أن تدرس هذه العلوم لنفسها، ولكن في سبيل تقويم النفس وترقيتها إلى أعلى المراتب الإنسانية، وإذا استفاد الأكفاني في مؤلفه هذا من إحصاء العلوم للفارابي خاصة في مقدمته، حيث ينقل حرفيا بعض عباراته، فإن كتابه على صغر حجمه أثر في أكبر الكتب الببليوغرافية التي عرفها التراث العربي بعد القرن الثامن الهجري أمثال مفتاح السعادة وكشف الظنون[11] .

III. مفتاح السعادة ومصباح السيادة، لطاسكبري زاده[12] .

هو كتاب موسوعي في تاريخ العلوم العربية[13]، وقد رتبه المؤلف ترتيبا مصنفا أي وفقا لنظام تصنيف المعرفة البشرية السائدة في عصره، وقد تضمن معلومات ببليوغرافية تبين أهم

10- كشف الظنون: مادة: إرشاد القاصد.

11- طبع الكتاب في مائة صفحة عام: 1900، وما يدل على قيمة هذا الكتيب أن محمد فريد وجدي قد جعل تصوره للعلوم هو التصور الذي سجله للعلوم عند العرب في مادة علم من دائرة معارف القرن العشرين. طبع أولا بكالكوتا بالهند في القرن 19. ثم طبع في القاهرة مرتين في 1900 و1904 وأعاد تحقيقه وطبعه أخيرا المستشرق الهولندي فيتكام Vithkam وتوجد منه نسختان خطيتان بالمكتبة الصبيحية بسلا تحت رقم 7/223 و 1/517.

12- طاش كبرى: قرية من قرى الأناضول بتركيا.

13- عالج فيه المؤلف نحو ثلاثمائة علم.

المؤلفات في كل علم من العلوم التي تعرض لها المؤلف. وقسم طاسكبري زاده كتابه إلى مقدمات أربع وقسمين كبيرين سماهما طرفين، وكل طرف إلى دوحات، يبين في المقدمات غرضه من تأليف الكتاب وهو إرشاد الراغبين في تحصيل العلوم النظرية والعلمية، يقول فيها: "واعلم أن تحصيل العلوم لما لم يكن إلا بتصورها اسما ورسما وموضوعا ونفعا أحببنا أن نبين في هذه الرسالة الأمور المذكورة في كل علم أصلا وفرعا، ونبين أسماء الكتب المؤلفة فيها وأسماء مؤلفيها ليكون عونا في تحصيل العلوم وترغيبا في طلبها وإرشادا إلى طريق تحصيلها"، أما الطرف الأول فقد خصصه للإرشاد إلى كيفية تحصيل طريق النظر، وقد خصص الطرف الثاني للعلوم المتعلقة بالتصفية[14] التي هي ثمرة العلوم بالعمل، وعلى العموم فإن طاسكبري زاده يذكر موضوع العلم وغرضه ومبادئه وفائدته ومجال بحثه وحدوده، ويدخل كثيرا في مناقشات علمية حول هذه المسائل، ثم يذكر أهم المؤلفات في كل علم من العلوم فيبدأ بالمؤلفات الأصلية ثم المختصرات والشروح، وحينما يذكر الكتاب يعرج على ترجمة مؤلفه، فالكتاب ببليوغرافيا تشتمل على تراجم المؤلفين وعلى شرح للكتب تبين أهميتها ومكانها بين الكتب الأخرى في نفس الموضوع، وكثيرا ما يستطرد فيذكر مؤلفات المصنف الأخرى في العلوم الأخرى أو في نفس العلم ثم يعود إلى موضوع حديثه السابق. هذا إذن كتاب مفتاح السعادة المؤلف الببليوغرافي[15] الذي يمثل أرقى وأكمل ما وصل إليه تصنيف العلوم وتقسيمها عند المسلمين والذي يعطينا صورة عن الحياة العقلية لدى المسلمين فيما بعد غزو المغول للعالم الإسلامي وتدميرهم لبغداد.

IV . كشف الظنون، لمصطفى بن عبد الله حاجي خليفة.

أما كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، فهو من أهم الكتب الببليوغرافية إن لم يكن أهمها بحكم استخدامه لأهم عناصر الوصف الببليوغرافي. دون فيه زهاء خمسة عشر ألفا من أسماء الكتب والرسائل العربية والتركية والفارسية[16] وما ينيف على تسعة آلاف

---

[14] ـ المقصود بالتصفية تصفية الروح وجلاء النفس وتطهير القلب.
[15] ـ نقله كمال الدين بن طاش كبرى زادة إلى التركية.
[16] ـ اكتفى حاجي خليفة بذكر المصنفات المشهورة في كل علم وموضوع.

وخمسمائة من أسماء المؤلفين، وتكلم فيه عن نحو ثلاثمائة علم، فذكره لمؤلفات في لغات مختلفة يجعله أول ببليوغرافيا عامة دولية في التراث العربي تفوق من الناحية التقنية كل ما جاء قبله حتى في الغرب[17]، أمّا منْ حيث المنهج فإن حاجي خليفة قد وضع له مقدمة[18] ضافية مهمة تبحث في أحوال العلوم جعلها من بابين: خص الباب الأول لتعريف العلم وأقسامه وبيان فضله وأنواعه، وخص الباب الثاني لمنشأ العلوم والكتب والتدوين في الإسلام وما قبله وأنواع العلوم والآداب، ثم انتقل بعد ذلك إلى ذكر أسماء الكتب، مرتبا العناوين والموضوعات، لا وفقا لتصنيف أو تصور معين للمعرفة البشرية ولكن ترتيبا ألفبائيا، حيث يذكر لمحة عن حياة المؤلف وتاريخ ولادته ووفاته ويذكر مفتتح الكتاب وأوله ويذكر موضوعه، يقول في مقدمته: "وأما أسماء الكتب فذكرتها باعتبار المضاف إليه، فعلم الفقه مثلا في الفاء وما يليه كما نبهت عليه مع سرد كتبه على الترتيب المعلوم".

ويمتاز كشف الظنون ببعض الخصوصيات لا نعثر لكثير منها على أثر في معظم الكتب الببليوغرافية:

1) وضع الإحالة في موضعها العلمي، حيث يذكر حاجي خليفة في المكان الصحيح بحسب الترتيب الهجائي اسم كتاب مّا قد يعرف مثلا باسم آخر فيحيل على المكان الذي ترد فيه التفصيلات عنه[19].

2) يمتاز بذكر بداية المؤلفات كما يذكر خاتمتها بعض الأحيان[20] فهو بهذا ييسر للغاية سبل العاملين في ميدان تحقيق المخطوطات العربية.

---

[17]- يعترف المستشرق الفرنسي جالان Galland بتفوق الكشف عما سبقه خاصة كتاب Gessner: المكتبة الدولية Bibliotheca Universalis الذي يعتبر أول ببليوغرافيا عامة دولية منذ عام 16م. أحصى فيه مؤلفه العالم السويسري جسنير الكتب اليونانية واللاتينية والعبرية.

[18]- ترجمت لأهميتها إلى الألمانية، ونشرت في موسوعة فان هامر (Von Hammer) عام: 1804.

[19]- أول كتاب فتح به الكشف هو: **الإجابة في شرح الباحة**، يحيل عليه في حرف الباء وهو أول كتاب في حرف الباء بعنوان: **الباحة في علمي الحساب والمساحة**، منظومة في الرجز لإبراهيم بن عمر البقاعي (885هـ) ثم شرحها وسماه **الإباحة**.

[20]- على الرغم من إجماع المحدثين على سبق حاجي خليفة إلى ذكر مقدمات الكتب في كشف الظنون فإنه قد سبق إلى ذلك كاليماخوس اليوناني(3 ق م). الذي وضع فهرسا ببليوغرافيا لخزانة البطالسة بالإسكندرية، كانت اللفافات البردية تكتب في آخر المخطوط وذلك أدعى لصيانتها ولا تعرف المخطوطات وتميز إلا ببداياتها فلذلك وضع كاليماخوس مقدمات الكتب في فهرسته.

3) رؤية الكتب وتفحصها قبل وصفها ونسبتها إلى صاحبها، وهذا ما يعبر عنه عند ذوي الاختصاص بالتشخيص "[21](Autopsie) . يقول حاجي خليفة في مقدمته: "وقد ألهمني الله تعالى جمع أشتاتها (الكتب)، وفتح عليّ أبواب أسبابها، فكتبت جميع ما رأيته في خلال تتبع المؤلفات وتصفح كتب التواريخ والطبقات" . وما ذكِرُه لمفتتح المؤلفات إلا دليل آخر على وجود ظاهرة التشخيص عنده.

4) الصدق في النقل: يصرح حاجي خليفة في مواضع من كتابه أنه استفاد من كتب سابقيه خاصة مؤلفات طاش كبرى زادة[22] ومقدمة ابن خلدون.

5) ومما يمتاز به كشف الظنون كذلك، إحساس صاحبه بما يسمى اليوم بمشكلة التحكم في الإنتاج الفكري العلمي، فحاجي خليفة نبه إلى صعوبة الوقوف على كل ما يؤلف من كتب بل إلى تعذر ذلك، وأن السبيل الوحيد هو الإشارة إلى وجودها وذكر مظانها، وهو منتهى ما وصلت إليه النظم الببليوغرافية الحديثة، يقول: "العلوم والكتب كثيرة والأعمار عزيزة قصيرة والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر وإنما المطلوب ضبط معاقدها والشعور بمقاصدها"[23] .

وقد كان كشف الظنون أهم مصدر ببليوغرافي لمعظم أعمال المستشرقين المتعلقة بالتراث العربي، أكتفي هنا بالإشارة إلى تأثيره في أهم عمل موسوعي ببليوغرافي استشراقي هو كتاب المكتبة الشرقية"[24] لدربولو d'Herbelot , Bibliothéque orientale في القرن السابع عشر الذي اعتمد في معظم تراجمه و كتبه على الكشف. وأكبر دليل على تأثره به هو ذكره للمؤلفات باللغات العربية والتركية والفارسية. فبظهور هذا الكتاب الذي يهتم بشعوب الشرق وتاريخها

---

[21]- بروكلمان لم ير كل المؤلفات التي جاءت في كتابه تاريخ الأدب العربي.

[22]- خاصة كتاباه: مفتاح السعادة ومصباح السيادة ونوادر الأخبار في مناقب الأخيار..

[23]- مقدمة الكشف.

[24]- هو عبارة عن ببليوغرافيا Bibliographie وهو نوع من الببليوغرافيا الموضوعية لأنها تعطي ترجمة المؤلف مع مؤلفاته وما ألف عنه..

وعاداتها وعقائدها وعلومها وفلاسفتها ومؤرخيها ظهر ما سمي في أوربا بالاستشراق العلمي[25]، وكان له أثر كبير في حركة الاستشراق إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[26].

وضعت على كشف الظنون ذيول مهمة أضافت ما غفل عنه أو جاء بعده من مخطوطات، منها، بالإضافة إلى إيضاح المكنون وهدية العارفين الملحقين بالكشف، كتاب السر المصون، ذيل كشف الظنون ضمنه المؤلفات التي لم يذكرها الكشف وما كان بعده منها[27]، والاستذكار الجامع للآثار في أسماء الكتب لحسين بن محمد النبهاني العباسي الحلبي (1095هـ) وضعه لذكر ما فات حاجي خليفة فبلغ أربعا وعشرين ألف مؤلف[28]. ثم كتاب في أسماء الكتب المتمم لكشف الظنون لرياضي زادة عبد اللطيف 1078هـ. واختصره حسين النبهاني، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الملكية بكوبنهاجن وهي مصورة بمعهد المخطوطات العربية. وله ذيل اسمه آثارنو لأحمد حافظ زادة (1180هـ) ذكر فيه أهم الكتب التركية والفارسية التي ظهرت بعد كشف الظنون[29].

نشر الكشفَ المستشرق لألماني فلوغل Flügel ونقله إلى اللاتينية في سبعة مجلدات. ووضع له مقدمة تعرض فيها لمشاكل النساخة وهي أدق موضوعات ما يسمى اليوم بعلم المخطوطات أو الكوديكولوجيا[30].

ومن المؤلفات القديمة التي تدخل في إطار التأليف الببليوغرافي تلكم التآليف التي نعتها أصحابها بالفهرسات أو البرامج أو الأثبات[31] وهي كتب يسجل فيها العلماء ما قرأوه من

---

[25]- نشأ الاستشراق العلمي مع دربولو وأمثاله من المستشرقين الذين توجهوا إلى الشرق بحثا عن القديم باسم البعثات الأثرية (Missions archéologiques) لرسلها Colbert وMazarin وآخرون.

[26]- كان كشف الظنون كذلك مصدرا للمستشرق الألماني الكبير ريسكه Reiske (18 م) خاصة في كتابه: مدخل عام إلى تاريخ الإسلام، في3 مجلدات وكان ريسكه أستاذا للمستشرق (Schnurrer) "شنورير" مؤلف المكتبة العربية **Bibliotheca arabica** أول كتاب ببليوغرافي خاص بالمطبوعات العربية.

[27]- كتاب كبير بحجم كشف الظنون ابتداء بمقدمة في الكلام عن العلوم والفنون وأشهر المصنفين والمصنفات في زهاء ألف صفحة. مؤلفه هو جميل بك العظم ت 1933م.

[28]- توجد منه مسودة باصطنبول بمكتبة يكثي رقم: 815 وهذه المسودة مصورة بمعهد المخطوطات العربية.

[29]- نشر في ذيل طبعة(Flugel) فلوغل.

[30]- أعيد طبع الكتاب في الأستانة وفي مصر. كما نقله إلى الفرنسية (Petit de la Croix).

[31]- هذا العلم يرجع في أصله إلى علم الحديث ويحتفظ ببعض مصطلحاته وأساليبه.

مؤلفات في مختلف العلوم، يذكرون عناوين الكتب و أسماء مؤلفيها والشيوخ الذين حضروا مجالسهم وتلقوا عنهم، فبالإضافة إلى ذكر الكتب المتداولة في بيئة معينة وفي علم معين احتفظت لنا الفهرسات بأسماء العديد من الكتب التي ضاعت ولم نجد لها أثرا في غيرها من مصادر التراث العربي[32]. أما طريقة وضعها، فهي إما أن تبوب على أساس الكتب وترتب حسب موضوعاتها كما هو الشان في **فهرسة** ابن خير الإشبيلي (575هـ) أو ترتب حسب الشيوخ كما جاء في **فهرسة** ابن عطية الغرناطي (541هـ) وفي **برنامج** الرعيني (666هـ) أو يجمع المؤلف بين الطريقتين معا كما صنع الواداياشي (749هـ) في **برنامجه** حيث خصص الجزء الأول منه لأسماء الشيوخ وخصص الجزء الثاني لما أخذه عنهم مبتدئا بالقرآن وعلومه ثم الحديث إلى آخر الموضوعات، وأيا كانت الطريقة التي اتبعت في هذه الفهرسات فهي كتب ببليوغرافية بالمعنى العلمي للكلمة.

ولا نريد أن نختم الحديث عن المؤلفات الببليوغرافية التي اهتمت بالمخطوط العربي دون أن نقف وقفة قصيرة عند نوع من التأليف حاول أصحابه مواصلة أعمال ابن النديم وحاجي خليفة حول هذا التراث. هذه الكتب هي التي نعتت بتاريخ الأدب العربي أو تاريخ التراث العربي. ولم يكن المقصود بالأدب العربي هنا معناه الاصطلاحي الضيق الذي ينحصر في الشعر والنثر ولكن المقصود به التراث أي خلاصة الإنتاج الفكري والعلمي للأمة العربية. وأول من فتح هذا النوع من التأليف الببليوغرافي المتعلق بالتراث العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر المستشرق النمساوي يوسف هامر بورجستال (J.Hammer Purgstall) الذي نشر في فيينا (Vienne) أول تاريخ للآداب العربية في سبعة مجلدات ضخام تناول فيها ما يقرب من عشرة آلاف ترجمة وسيرة مقتبسة كلها من مخطوطات فيينا وليدن وخزانات أوروبية أخرى. ولإعطاء فكرة عن قيمة هذا الكتاب الموسوعي الببليوغرافي نعرض فقط لمَا يحتوي عليه المجلد الأول: يستعرض المؤلف في الجزء الأول الحياة السياسية والأدبية في الشرق الإسلامي حتى

32_ تسمى في البداية مشيخة ثم معجما، ثم برنامجا أو فهرسة أو ثبتا(انظر فهرس الفهارس للكتاني). كتب الفهرسات كثيرة عند علماء الحديث والفقهاء: **معجم الطبراني** – **المعجم المفهرس**: لابن حجر.

القرن الثاني عشر للميلاد، وقد استوحى فيه المصادر التاريخية والأدبية التي اعتمد عليها فقسمها إلى ثلاثة أبواب:

المصادر التاريخية العامة

المؤلفات العامة في السير والتراجم

السير والتراجم الخاصة وهي على ثلاثة أنواع:

أ- سير الأفراد

ب- سير العلوم بحسب الشعوب والبلدان.

ج- سير العلماء والأدباء حسب الطبقات.

وقد ذكر من رجال الطبقات: طبقات العلماء والمصنفين والقراء والمفسرين والحفاظ والمحدثين والرواة والمالكية والقضاة والمعتزلة والصوفية والشعراء وآخرين.

وإذا كان بروكلمان[33] قد حذر من الاعتماد على هذا الكتاب على الرغم من قيمته التاريخية والعلمية فإن مؤلف بورجستال كان مصدرا أساسيا للمستشرقين بما فيهم بروكلمان نفسه ويتضح هذا التأثير بسهولة ويسر لمن حاول المقابلة بين الكتابين.

1) تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان[34].

هذا كتاب آخر لتاريخ الأدب العربي يعتبر أهم مؤلف ببليوغرافي في التراث العربي بدون منازع، قدم فيه هذا المستشرق جردا يطمح إلى الاستقصاء لهذا التراث منذ بداية

[33]- حذر بروكلمان من الاعتماد عليه لأن مصادر التراث لم تكن قد اكتشفت بعد ولأن بورجستال لم يكن يتقن العربية.

[34]- الكتاب في مجلدين وثلاثة ملاحق. الطبعة الأولى: 1898-1902 أضاف إليه ملحقات في الثلاثينات. وأعاد طبعه في الأربعينات. لم يتمكن من ترجمة الكتاب بكامله، ذكر فيه بروكلمان عشرين ألف مخطوط (20000)، وعنوانه بالألماني:(Geschischte der Arabischen Literatur) بالإضافة إلى ترجمة بعض أجزاء هذا الكتاب الضخم على يد عبد الحليم النجار ورمضان عبد التواب فإن السيدة ثرية الخطيب بدأت تنقل فهارس تاريخ الأدب العربي لبروكلمان إلى العربية حيث ظهر الجزء الرابع منها في عام 1988 وهو من منشورات معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب- سوريا. وقد أتم ترجمته كليا السيد محمود فهمي حجازي في سنة 1995م بدون الملحق الخاص بالفهارس وهو أهم ما في الكتاب.

التأليف إلى أوائل هذا القرن العشرين. يتمثل منهجه في الكتاب بإيراد ترجمة موجزة للمؤلف مع الإشارة إلى مصادر ترجمته، ثم يذكر ما بقي من مؤلفاته مع إعطاء نسخ كل مخطوط منها بأرقامها في مختلف الخزانات العالمية أو في فهارسها المطبوعة، ثم يشير إلى ما طبع منها مع ما وضع حولها من شروح وتعليقات. ولندرك الأهمية العلمية والغاية المقصودة من الكتاب فلنتأمل ترجمة أحد الموسوعيين الكبار وأحد الأعلام البارزين في تاريخ التراث العربي كمثال وكنموذج من محتويات هذا المؤلف، هذا العالم هو أبو عثمان الجاحظ. بعد ترجمة الرجل أعطى بروكلمان أهم المصادر والمراجع التي كتبت عن الجاحظ سواء كانت مخطوطات أو مطبوعات، دراسات كانت أو مقالات في دوريات، سواء في اللغة العربية أو في غيرها من اللغات، ثم يذكر ما بقي من مؤلفات الجاحظ، مع الإشارة إلى أماكن وجودها مع أرقامها في المكتبات، ثم ما نشر منها بل ربما يشير حتى إلى الكتب أو الرسائل التي كانت موضع شك في نسبتها للجاحظ.

فهذا إذن كتاب ببليوغرافي لا يستغني عنه الباحثون في مجال التراث العربي وخاصة منهم المهتمون بعملية التحقيق العلمي للمخطوطات[35]. وعلى الرغم من أهمية هذا المؤلف

---

[35]- استثنى بروكلمان من هذا التراث المخطوط فئتين هما:

1. الأعمال المجهولة المؤلف(وهي ظاهرة اهتم بها ببليوغرافيو أوربا).

2. مؤلفات العرب غير المسلمين من المسيحيين واليهود لأنه اعتبر التراث العربي تعبيرا عن الفكر الإسلامي، أما مؤلفات غير المسلمين فلا تمثل الفكر العربي ولا تعبر عن ضمير الأمة العربية، اما التراث المسيحي واليهودي المكتوب بالعربي فإنه كان موضع دراسات ببليوغرافية منفردة:

- **تأليف التراث العربي المسيحي:** G.Grat بالألماني :5 مجلدات الفاتيكان:1944-53.

- **الأدب العربي اليهودي:** شتاينشنايدر Steinschneider أستاذ العقائد بجامعة ميونيخ، Francfort : فرانكفورت 1902.

أما المخطوطات الفارسية فقد خصت هي بدورها بأعمال ببليوغرافية حديثة نذكر منها على الخصوص:

1. تاريخ الأدب الفارسي للمستشرق ستوري (Storey) أشبه شيء بكتاب بروكلمان اتبع فيه منهجا موضوعيا لازمنيا كما صنع بروكلمان.

2. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، 22 مجلدا. الشيخ أغا بُزُرْكَ Bozorg الطهراني وهو أوفى ثبت بما صنفه مؤلفو الشيعة على مر العصور.

وينبغي للمختص في الأدب الفارسي أن لا يهمل دائرة المعارف الإيرانية(1985) ودائرة المعارف الإسلامية الشيعية: حسن الأمين: بيروت: جزء 1، 1972 والجزء 13 عام 1977 صدرت أولا بالإنجليزية قبل أن تظهر باللغة العربية. وأخيرا الكشاف الإيراني index Iranicus' l وضعه الإيرانيون على غرار الكشاف الإسلامي l'Index Islamicus وهو عبارة عن دليل منهجي للمقالات الفارسية المتعلقة بالدراسات الإيرانية المنشورة في مختلف الدوريات.

المجلد الأول: من عام 1910 إلى عام 1958.

المجلد الثاني: من عام 1959إلى 1966.

وضخامته فإنه قد فات بروكلمان الكثير من المخطوطات التي لم يتيسر له الوقوف عليها أو اكتشفت فيما بعد. وقد أحس العلماء والمختصون بالحاجة إلى إتمام عمل هذا المستشرق الكبير ومواصلة مجهوداته البيبليوغرافية الجبارة، فبدأ يصدر منذ ستينات القرن العشرين كتاب موسوعي ضخم يضيف ما غفل عنه بروكلمان ويلحق به ما اكتشف من مخطوطات: إنه تاريخ التراث العربي لألماني آخر من أصل تركي هو فؤاد سيزكين.

2) **تاريخ التراث العربي**، فؤاد سيزكين.

كان الغرض من هذا الكتاب هو مواصلة عمل بروكلمان واستدراك الأخطاء التي وقع فيها وتطبيق منهجه، لكن سيزكين عدل عن هذه الفكرة وأصدر كتابا جديدا يضم مادة بروكلمان ويستكملها ويتدارك الأخطاء، فرتب مادته ترتيبا حسب المواضيع لا حسب العصور والدول كما فعل بروكلمان. وحرص على تطبيق ظاهرة المواضيع التي تفرضها الأساليب البيبليوغرافية الحديثة بحيث رأى وتصفح المخطوطات التي سجلها[36]، مما اضطره إلى تحديد المجال الزمني لكتابه فوقف عند سنة 430 هـ لأن هذا التاريخ في رأيه يمثل نهاية العصر الذهبي للثقافة والفكر في الحضارة العربية الإسلامية. وقد أتاحت له ظاهرة التشخيص هذه إضافة أشياء لم يتمكن بروكلمان من ذكرها لأنه اعتمد بالدرجة الأولى فهارس المكتبات، وهي ذكر أجزاء المخطوط وعدد صفحاته أو أوراقه وتاريخ نسخه[37].

وعلى الرغم من هذا المجهود الفردي الجبار الذي حاول به فؤاد سيزكين أن يحيط بالتراث العربي فإن كتابه هذا يبقى بعيدا عن تقديم صورة متكاملة عن هذا التراث بحيث إن أحد مواطنيه من الأتراك يدعى رمضان ششن قد وضع منذ 1975 كتابا بعنوان **نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا** يذكر فيه الكتب التي لم يقف عليها سيزكين وحتى بروكلمان[38]. ومع ذلك يبقى هذا الكتاب أهم عمل بيليوغرافي وضع حتى الآن إلى جانب كتاب بروكلمان.

---

[36]- زار مائة دولة وتردد على حوالي 100 خزانة من خزانات تركيا..

[37]- بلغ أحد عشر جزءا ونقلته إلى العربية جامعة الرياض بالسعودية.

[38]- وقف رمضان ششن على 1500 كتاب مخطوط غفل عنها سيزكين وقد زار حوالي 150 مكتبة تركية. طبع الكتاب مرتين.

بالرغم من الأساليب المتباينة في التنظيم التي اتبعتها هذه المؤلفات حيث رتب بعضها مادته ترتيبا موضوعيا كما هو الحال في **الفهرست** و**مفتاح السعادة** و**تاريخ التراث العربي** لفؤاد سيزكين، واعتمد البعض الآخر الترتيب الهجائي كما هو الحال في كشف الظنون والذريعة إلى تصانيف الشيعة، فإن هذه الببليوغرافيات هي أعمال عامة لا تتقيد بزمان ولا بمكان ولا بموضوع وإنما تستوعب المؤلفات العربية في كل علم وفي كل عصر وفي كل بيئة.

وإذا كان تراثنا العربي المخطوط قد حظي في القديم وفي الحديث بمؤلفات ببليوغرافية، وذلك من أجل الضبط الببليوغرافي لتيسيره وللاستفادة منه، فإن تراثنا العربي المطبوع قد حظي هو الآخر بهذا النوع من التأليف يقدمه ويصنفه منذ بداية الطباعة بحروف عربية متحركة، إلى القرن التاسع عشر حيث وضعت أول القوائم الببليوغرافية للمطبوعات العربية. فإذا كانت بوادر النهضة قد ظهرت في الشرق في نهاية القرن الماضي وذلك بانتشار التعليم وبإرسال البعثات العلمية إلى الغرب وتسرب العنصر الأوربي إلى الشرق، وتأثير حركة الاستشراق وتأسيس الجمعيات العلمية، إلى غير ذلك من العوامل التي من شأنها أن تبعث من جديد علم الببليوغرافيا الذي كان مزدهرا فيما سبق من العصور الإسلامية، فإن الاهتمام الببليوغرافي بتراثنا المطبوع كان قبل كل شيء على أيدي المستشرقين. إن القرن التاسع عشر الذي يعتبر بحق عصر الببليوغرافيا، حيث تحول مفهوم الببليوغرافيا من كتابة الكتب إلى الكتابة عن الكتب وظهر ما يسمى بالببليولوجيا Bibliologie أي علم الكتب أو علم المكتوب على الأصح لتستقل الببليوغرافيا التي أصبحت جزءا منه بوصف الكتب ونقدها وتحليلها فكانت وصفية أو نقدية أو تحليلية، ففي هذا العصر بالذات وضعت أكبر ببليوغرافيات التراث العربي على اختلاف لغاته القديمة والحديثة. فعلى إثر هذه النهضة الببليوغرافية، إن صح التعبير، حظي التراث العربي هو الآخر بمؤلفات ببليوغرافية وضعها ثلة من مستشرقي هذا القرن أذكر منهم على الخصوص شنورير (Schnurrer) الألماني الذي وضع **المكتبة العربية Bibliotheca arabica**[39]

[39]. وضع هذا الكتاب باللغة اللاتينية تكريما لدي ساسي de Sacy زعيم الاستشراق في أوربا أحصى فيه 500 كتاب عربي منذ بداية الطباعة إلى سنة 1810م. وقد رتبه ترتيبا موضوعيا وألحقه بكشاف للمطبوعات مرتب ترتيبا زمنيا. =

وتسنْكِرْ Zenker الألماني الذي وضع المكتبة الشرقية Bibliotheca orientalis[40] وشوفان Chauvin البلجيكي الذي وضع كتابه المسمى ببليوغرافيا الكتب العربية أو التي لها علاقة بالعربية المنشورة في أوربا المسيحية من سنة 1810 إلى سنة 1885م[41] في اثني عشر مجلدا. وهو ذيل على كتاب المكتبة العربية لشنورير Schnurrer، ويتميز هذا المؤلف الذي وضعه صاحبه بالفرنسي بمقدمة مهمة وأساسية عن علم الببليوغرافيا وأهميته وعن دور الببليوغرافي في تسهيل مهمة الباحث.

وأخيرا كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع للمستشرق الأمريكي "فان ديك" E.Van Deyk وضعه بالعربية وجمع فيه أسماء الكتب العربية المطبوعة من أقدم عهدها إلى نهاية القرن التاسع عشر[42]، وقد رتبت فيه المواد حسب المواضيع. أما الببليوغرافيات التي وضعها المشارقة في هذا المجال أقتصر على كتابي يوسف سركيس وهما: معجم المطبوعات العربية والمعربة وجامع التصانيف الحديثة، جعل الأول سجلا شاملا لجميع المصنفات العربية التي نشرت في أنحاء المعمور منذ تأسيس الطباعة إلى سنة 1919 مع إشارة وجيزة إلى موضوع كل منها ثم ذكر تراجم المؤلفين مع ذكر مصنفاتهم وأماكن طبعها. أما الكتاب الثاني فهو تكملة في جزءين يغطي الجزء الأول الفترة من سنة 1920 إلى 1926 ويغطي الجزء الثاني مطبوعات سنة 1927.

أما في هذا القرن فقد وضع المستشرقون والغربيون عموما ببليوغرافيات تغطي كليا أو جزئيا ما يصدر حول التراث العربي من أعمال مثل الببليوغرافيا العربية الإسلامية

= طبع في هالة Halle عام 1811 بألمانيا. ولفظ Bibliotheca هنا جاء بمعنى الببليوغرافيا كما عبر عنها بذلك اللاتينيون القدماء. وقد ظهر عدد من الكتب الببليوغرافية بهذا العنوان في اللغات الأجنبية ككتاب شنورير هذا وكتاب ديربلو D'Herbelot السالف الذكر **المكتبة الشرقية** : Bibliothéque Orientale وترجمت إلى العربية بلفظ مكتبة وهي لا تعني مفهوم المكتبة بقدر ما تعني مفهوم الببليوغرافيا.

[40]- حاول أن يعطي جميع أسماء الكتب المطبوعة بالعربية والفارسية والتركية منذ بداية الطباعة إلى عام 1860 تسنكر عناوين الكتب بالحرف العربي، أما وصفها وأسماء مؤلفيها فبالفرنسي طبع في جزءين في ليبزيغ 1840-1861.

[41] - Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885.

[42]- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أجل التأليف العربية في الطبائع الشرقية والغربية. طبع بالقاهرة عام 1897 صححه محمد علي الببلاوي الإدريسي الحسني (كان نقيبا للأشراف ووكيلا لدار الكتب بالقاهرة). وطبع مرة ثانية بطريق الأوفسيط (offset).

(Arabic Islamic bibliography. J.D.Pearson) باللغة الانجليزية والمستخلصات الإسلامية (Abstracta Islamica) :

فالأول عبارة عن ببليوغرافيا تهتم بالأعمال المتعلقة بالعالم العربي من الناحية الأدبية والفكرية والعلمية (ببليوغرافيا الببليوغرافيا)، أما المستخلصات الإسلامية فهي نشرات ببليوغرافية[43] هدفها إخبار القارئ بوضعية البحث في العالم الإسلامي وبما جد من إنتاج في إطار الثقافة الإسلامية سواء في الماضي أو في الحاضر[44]. وقد لجأ المعاصرون إلى هذا اللون من التأليف لمحاولة الإحاطة بما يظهر في مختلف الثقافات من إنتاج ومعلومات أصبحت السيطرة عليه من قبيل المستحيل حتى بالنسبة للدول المتقدمة تكنولوجيا.

أما الدوريات وهي وعاء لآخر الأبحاث في مختلف المجالات العلمية والوسيلة الأولى للإخبار والإعلام بالنسبة لكثير من العلوم والتي تعتبر معلوماتها أحدث من تلك التي تقدمها الكتب مهما كانت درجة حداثتها فإنها قد حظيت باهتمام المفهرسين وأصحاب التكشيف في المكتبات المتخصصة والمراكز والمنظمات الدولية على الرغم من ضخامة عددها واختلاف أنواعها ولغاتها[45].

أما الدوريات المتعلقة بالتراث العربي سواء في اللغة العربية أو في غيرها من اللغات فلن أتعرض لتحليلها أو لوصفها باعتبارها أدوات ببليوغرافية هامة ولكن سأقتصر في حديثي عما وضع عنها من كشافات حاولت تكشيف محتوياتها تيسيرا على المهتم بالثقافة العربية. وقد يصعب البحث في هذا النوع من الببليوغرافيات لأن العدد الهائل من الدوريات الذي يصدر سنويا يحول دون فهرستها فضلا عن القيام بجرد شامل لمقالاتها ووضعها رهن إشارة الباحثين والرواد[46]. أقصر حديثي إذن على كشافين أحدهما غربي وثانيهما شرقي. فالغربي هو

43- ظهرت لأول مرة ملحقة بمجلة الدراسات الإسلامية عام 1927، واستقلت في الستينات حيث بدأت تظهر مستقلة سنويا.

44- إنها تتكون من معطيات المجلات المتخصصة أو ملخصات وتقريرات الجمعيات العلمية.

45- الإصدارات السنوية: 100000 دورية- 2.000.000 مقال- 800.000 عالم أو أكثر – 50 لغة. هذا إحصاء الثمانينات من القرن العشرين.

46- قليلة هي الدول التي وضعت جردا لمحتويات دورياتها وأقل منها تلكم التي وضعت جردا لمحتويات بعض الدوريات الأجنبية (أمريكا، بريطانيا، ألمانيا).

الكشاف الإسلامي **L'Index Islamicus** الذي وضعه المستشرق الإنجليزي **J.D.Pearson** والشرقي هو مجلة الفهرست التي تصدر في لبنان في بداية الثمانينات. الكشاف الإسلامي اهتم فيه "برسون" بوضع جرد للدوريات الأوروبية للأبحاث المتعلقة بالدراسات العربية الإسلامية (**Islamologie**) في مختلف اللغات[47].

وأما الفهرست فهو أشمل وأوسع محاولة عربية في مجال الضبط البيليوغرافي لمحتويات الدوريات الصادرة باللغة العربية، يغطي محتويات عدد من الدوريات التي تصدر في جميع الدول العربية. ويعتبر بذلك عمل يحاول تسليط الضوء على مجمل إنتاجنا الدوري العربي وذلك في سبيل خدمة المهتمين بهذا التراث.

وأخيرا أتساءل : إلى أي حد اهتم الباحثون في الجامعات العربية واستفادوا من معطيات هذه الأعمال البيليوغرافية الجليلة قديمها وحديثها التي سهرت في سبيل إعدادها عيون وذابت من أجل وضعها جذوات من الهمم الصادقة؟

إن تجربتنا المتواضعة في ميدان البحث العلمي ووقوفنا على أبحاث باحثينا المنعوتة بالأكاديمية وفحصنا لبيليوغرافيات هذه الأعمال الخفية[48] توحي لنا بأن هناك قطيعة كبرى بين البحث العلمي العربي وبين ما أنتجته هذه العقول النيرة عربية كانت أو غربية من بيليوغرافيات لا يمكن لأي بحث أن ينعت بالعلمية والأكاديمية إلا باعتمادها والاستفادة منها. إن تكرار الدراسات والازدواجية في البحث وإغفال العديد من الأبحاث ذات الصلة بالموضوع الذي يبحث فيه ترجع في أصلها إلى افتقار باحثينا إلى أبسط قواعد البيليوغرافيا. ولا يمكن أن تلافى هذه المشاكل ونسد هذه الثغرات إلا بتكوين طلبتنا في الجامعة تكوينا مكتبيا يمكنهم من

47- من بين الدوريات المكشفة: هسبريس- Hespéris.
وقد بدأ الجرد منذ سنة 1906 إلى 1955- ثم بدأت تظهر الملاحق سنويا إلى الثمانينات- واهتم فيه كذلك بمقالات الدراسات المهداة (Melanges). وقد ظهرت كشافات أخرى على غرار الكشاف الإسلامي مثل: الكشاف الإفريقي L'index Africanus- الكشاف اللبناني l'Index Libanicus والكشاف الإيراني l' Index Iranicus.

48- البيليوغرافيا الخفية la Bibliographie cachée: أطلقها المحدثون على بيليوغرافيا الدراسات والرسائل والكتب جرت عادة القراء والباحثين ألا يهتموا بقراءتها مع أنها تكون أهم جانب من جوانب البحث، فلهذا نعتوها بالخفية كأنها تخفى عن العيون بحكم موقعها في آخر الكتاب.

العثور بأنفسهم في أقرب وقت وبأيسر كلفة على أهم المصادر و المراجع ذات الصلة بموضوعات أبحاثهم. فإذا تمكنا نحن الجامعيين من إعطاء الطلبة هذا التكوين فإننا سنكون قد عدلنا عن خلق الشخص المقلد إلى خلق الأديب المبدع والباحث المفكر.

مدخل إلى البيبليوغرافيا المغربية

(الدرس البيبليوغرافي)

لا جدال في أن البحوث "التقديمية" لأي عرض من العلوم مهمة وصعبة في آن واحد فهي مهمة لأنها تبرز الخطوط العريضة للعلم الذي يُبحث فيه، وهي صعبة لأن المتناول لها مطالب بأمرين:

1) الإلمام بكل أو معظم موضوعات هذا العلم؛

2) إعطاء صورة عامة منظمة مركزة عن هذا العلم من ناحية، وتقديم تصور منهجي لطرق البحث فيه وخطط سبر أغواره من ناحية ثانية.

وقد يكون الأمر أكثر صعوبة وأبعد إشكالا إذا كان موضوع البحث علما جديدا كعلم البيبليوغرافيا حيث لا تزال الخلافات قائمة حتى الآن بين ذوي الاختصاص من الغربيين حول مفهومه وأنواعه وفروعه وأهدافه. وإذا كان البحث في البيبليوغرافيا غير يسير عند الغربيين فما بالك بالبحث فيه عندنا نحن العرب مشارقة ومغاربة، الذين لا نزال حديثي العهد بالمصطلح، وإن كان أسلافنا قد عرفوا العلم قديما دون التنصيص عليه أو إفراده بتآليف خاصة.

1) فما هي البيبليوغرافيا؟ وما مفهومها وإلى أي حدّ اهتم بها المغاربة سواء في القديم أو في العصر الحديث؟ انطلاقا من هذه التساؤلات ارتأينا أن يتمحور هذا البحث في المحاور الثلاثة التالية:

يبرز المحور الأول مفهوم البيبلوغرافيا كما يبرز أهمية هذا العلم في حضارتنا المعاصرة.

ويهدف المحور الثاني إلى الوقوف على محاولات المغاربة في وضع الفهارس والببليوغرافيات تدليلا على الكتاب وتعريفا به قبل إنشاء الجامعة المغربية.

ويهتم المحور الثالث بالحديث عن الدرس الببلوغيرافي وعن مدى أهميته وضرورته في البحث الجامعي بالمغرب.

يعتبر موضوع الببليوغرافيا من أدقّ الموضوعات العلمية الحديثة، وتناوله يُحرجُ الباحث إحراجا حيث إن مفهوم هذا العلم لم يتضح حتى الآن عند ذوي الاختصاص أنفسهم، وعلى الرغم من ذلك فإنه لامناص لنا من تجاوز هذا الحرج إذا أدركنا خطورة الببليوغرافيا في حضارتنا المعاصرة.

لا جدال في أن الاهتمام بحصر المؤلفات العلمية وتسجيلها ورصد أماكنها ومظانها قديم، إذ جاءت كلمة "ببليوغرافيا" اليونانية للتعبير عن هذه العملية العلمية والفنية في آن واحد. وإذا كان اللفظ قديما فإن علم الببليوغرافيا أقدم منه بحيث إنه يرجع إلى الآشوريين والبابليين وإلى أيام البطالسة وليس أدل على ذلك من العمل الببليوغرافي المهمّ الذي قام بوضعه الشاعر اليوناني كاليماخوس Callimacus حينما كان قيما على خزانة الإسكندرية الشهيرة في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد[1].

وليس لكلمة "ببليوغرافيا" تعريف دقيق وموحدّ بل لها تعاريف مختلفة اكتسبتها مع تطور العلوم وتقدمها وتعدد اللغات واختلافها. فإذا كانت تعني في اليونانية فنّ نسخ المخطوطات فإنها بعد اختراع الطباعة، أصبحت تهتم بحصر الكتب المطبوعة ووضع قوائم ما تحتويه منها الخزانات[2]، وبعبارة أخرى انتقلت الببليوغرافيا من كتابة الكتب إلى الكتابة عن الكتب، وبتحدد مجالها بالضبط في القرن التاسع عشر مع ظهور الببليولوجيا[3] Bibliologie التي اهتمت بعلم الكتب بل بكل ما هو مكتوب. Science de l'ecrit.

---

[1] - وصلتنا بعض النتف من هذا الفهرس وهي محفوظة بالخزانة الوطنية البريطانية.
[2] -كان جبرائيل نودي Gabriel Naudê أول من أطلق كلمة ببليوغرافيا على فهرست خزانة مزران(Mazarin).
[3] - Gabriel Peignot هو الذي وضع كلمة Bibliologie كما قسم البليوغرافيا إلى عامة ومتخصصة.

وأحدث أنواع الببليوغرافيا تلكم التي أطلق عليها عند الشعوب الأنجلو ساكسونية Physical Bibliography وعند الفرنسيين Bibliographie matérielle وترجمها بعض المشارقة بالببليوغرافيا النصية وهي ترجمة جزئية إذا علمنا أنها تهتم بالكتاب كوعاء وبمحتواه معا أي أنها تحدد أثر تقنيات الإنتاج المادي في نتاج الفكر الذي هو النصوص.

وعلى الرغم من التعريفات المختلفة والأنواع المتعددة للببليوغرافيا فإن خدمات هذا العلم الجلي تعتبر من أهم فنون الاتصال البشري التي تعمل على توسيع الأفكار البشرية من جيل لآخر وتتيح للباحثين فرصة الوقوف على مصادر البحث المناسبة لهم أو بالنسبة للإنتاج الفكري بصفة عامة. إن الببليوغرافيا تضع في خدمة هؤلاء الباحثين وفي متناولهم أحسن وأقوم ما أنتجته العقول في عصرهم بل أحسن ما أنتجته الإنسانية فيما سلف من العصور. وبدون عمل ببليوغرافي لايوجد سبيل للحصول على المعلومات والوقوف بشكل منسق ومنظم على تراث السلف، والاستفادة من آثار وسجلات الفكر الإنساني بوجه عام. ولايمكن بناء الحاضر إلا بالاستفادة من تجارب السابقين. فإذا أردنا أن نبني حضارة معاصرة لابد أن نقدم للباحثين في مختلف العلوم ذلك الرصيد من المعارف الذي نملكه في صورة حصر ببليوغرافي منظم لهذه المعارف وهذا التراث. يقول أحد العلماء: "إن سجلات الحضارة الإنسانية بدون الببليوغرافيا لا تعدو أن تكون أكواما من جهود مبعثرة تفككت روابطها واختل نظامها و لا يمكن تطبيقها على حاجيات الإنسان".

ولم يكن القدماء ليتغافلوا عن هذه الظاهرة العلمية الهامة، إذ أنهم قد عنوا بهذه الناحية من الثقافة العامة فوضعوا فهارس الخزانات وصنفوها حسب اجتهادهم وما توصلوا إليه من علوم في هذا الإطار. أما المحدثون فلم يدخروا وسعا في وضع اللوائح الميسرة والأدلة المبسطة والفهارس الموصلة تعريفا بالكتب وتقريبا لمتناوليها. فكان مجهودهم الجاهد هذا ينظم سلكا نظيما من الفهارس العديدة المتنوعة الأغراض المتباينة الأهداف المترامية المناحي تسهر في سبيل إعدادها عيون وتحبو في سبيل وضعها جذوات من الهمم الصادقة كل ذلك للتفتيش عن مصادر العلم وتهييئها وجعلها رهن إشارة الباحثين.

كيف تناول المغاربة هذا العلم؟ وماهي المحاولات الببليوغرافية التي قاموا بها قبل تأسيس الجامعة المغربية الحديثة؟. لم يعرف أسلافنا من العلماء كلمة ببليوغرافيا التي هي جديدة على القارئ العربي مغربيا كان أم شرقيا، بل دأبوا علىاستعمال لفظ فهرست الفارسية[4] الذي يعني عملية إحصاء كتب خزانة معينة كما يُطلق على القائمة التي تحصي ما كتب عن موضوع من الموضوعات العلمية أو بلد من البلدان أو شخص من الأشخاص أو فترة من فترات التاريخ بصرف النظر عن وجودها أو عدم وجودها في مكتبة من المكتبات. إنهم عبروا بنفس اللفظ عن الفئتين معا دون التمييز بينهما، لهذا كانوا يقولون: فهرست مؤلفات فلان وفهرست خزانة كذا، وهو في الاستعمال الأول يعني ما نعرفه اليوم بالببليوغرافيا وفي الاستعمال الثاني يقصد به المعنى الاصطلاحي الحديث لكلمة فهرست.

وما وصلنا من أخبار عن فهارس المكتبات المغربية كالخزانات الملكية وخزانات الزوايا وغيرها هي نماذج لمفهوم الفهرس على أنه عبارة عن لوائح تحصي كتب خزانات بعينها لا تتعداها إلى غيرها، أما المفهوم الآخر لكلمة فهرس والذي يعني القوائم الببليوغرافية كما يمثل ذلك فهرست ابن النديم مثلا فقد عبّر عنه المغاربة بكلمة فهرسة[5]، وموضوع هذا النوع من التآليف الذي قلما نجد عالما لم يؤلف فيه يهتم بالشيوخ وبالمواد المدُرّسة والكتب المقررة في مختلف البلدان والعصور. لهذا أمكن اعتباره نوعا من الببليوغرافيا الموضوعية.

أما في العصر الحديث فإن المحاولات الأولى في إطار الببليوغرافيا هي التي قام بها مجموعة من العلماء الغربيين وتتمثل في القوائم والأدلة التي وضعوها من أجل حصر الكتب المصونة في الخزانات المغربية. بصرف النظر عن الأعمال الببليوغرافية الأولى التي نشرتها ثلة من المستشرقين أمثال بلوشي Blochet[6] وسلمون Salmon[7] وميّار Maillard[8] في مختلف الدوريات

[4] - فهرست: كلمة فارسية معربة معناها: الكتاب الذي تجمع فيه الكتب وتطلق أيضا على قائمة محتويات الكتاب.

[5] - يطلق المشارقة على هذا النوع من التأليف كلمة "ثبت" وهو البرنامج عند أهل الأندلس. أنظر **فهرس الفهارس**: لعبد الحي الكتاني، ط.1982، ص.69

[6]-'Blochet'**catalogue de la mission scientifique au Maroc** ,1909.

[7]- J,Salmon' «Catalogue des Mss d'une bibliothèque privée de Tanger», in Archives marocaines, 1905.

[8]- Maillard' la bibliothèque de la grande mosquée de Tanger; essai de bibliographie marocaine **R.M.M**,1918, T, II,353-357.

كالوثائق المغربية ومجلة العالم الإسلامي فإن أول قائمة ببليوغرافية هامّة هي تلكم التي وضعها كل من الشيخ عبد الحي الكتاني والمستشرق الفرنسي ألفريد بل Alfred Bel[9] لمحتويات خزانة جامع القرويين.

وعلى الرغم من ادعاء ألفريد A.Bel بأن الدليل هو أول فهرست منهجي وضع لخزانة مغربية فإنه يبقى بعيدا عن مفهوم الببليوغرافيا العلمي الذي كان المغرب في مسيس الحاجة إليه للتعريف بمصادر فكره وآدابه[10]. أما المحاولات الأولى التي يمكن اعتبارها بداية للعمل الببليوغرافي المغربي الصرف فهي تلكم التي ظهرت على صفحات **الوثائق المغربية** التي تصدرها البعثة العلمية الفرنسية في طنجة منذ السنوات الأولى من هذا القرن. فقد دأبت هذه الدورية على نشر قائمة من الكتب المخطوطة أو المطبوعة المتعلقة بتاريخ المغرب وآدابه وحضارته. وعلى غرار مجلة البعثة العلمية سارت دوريات مغربية أخرى كالأخبار الببليوغرافية المغربية ومجلة هسبريس التي تنشر سنويا وبتعاون مع الخزانة العامة القوائم الببليوغرافية المغربية. ولم تكتف هسبريس بهذه النشرة الببليوغرافية السنوية بل كانت تنشر من حين لآخر أبحاثا علمية تدخل في إطار ما يسمى بالسيرة الببليوغرافية bio-bibliographie وهي نوع من الببليوغرافيا الموضوعية تتضمن إدراج مؤلفات شخص ما وما أُلف عنه من كتب ودراسات. ومن الأبحاث الببليوغرافية الأولى في هذا الإطار بحث العالم الفرنسي هنري دوكستري H. de Castries عن السبعة رجال بمراكش المنشور في هسبريس عام 1924[11].

ومن الأعمال الببليوغرافية المغربية الهامة التي وضعها المستشرقون على عهد الحماية نجد المستخلصات الإسلامية abstracta islamica[12] التي ظهرت سنة 1927 كجزء من مجلة

---

[9]- A.Bel; **Catalogue des livres arabes de la bibliothèque Qarawiyyin**,Fes, 1918.

[10] - برغم ما في هذه الفهارس من مظاهر النقص والقصور من حيث وضعها وترتيبها فإنها قد أثبتت غنى مكتبات المغرب.

[11]- H.de Castries « les septs patrons de marrakech » ,**Hesperis**, 1924.

[12]- ظهرت المستخلصات لأول مرة بأمريكا في بداية القرن اعتبارا للانفجار الإعلامي. وأول المستخلصات التي ظهرت مختصة بعلوم الكيمياء 1907- أما المستخلصات الإسلامية فإنها استقلت عن مجلة الدراسات الإسلامية عام 1965 وأصبحت نشرة سنوية.

الدراسات الإسلامية. فإذا كان هدف هذه المستخلصات هو الإشارة إلى أهمّ الأبحاث بالعالم الإسلامي فإن المسؤولين عن تحريرها وعلى رأسهم لويس ماسنيون L.Massignon لم يكونوا ليتغافلوا عما يصدر في المغرب وعن المغرب من دراسات وأبحاث ومقالات يشيرون إليها ويعلقون عليها تعليقات نقدية أحيانا أخرى[13].

ومن القوائم البيبليوغرافية المتعلقة بآداب وحضارة المغرب، إلى جانب اهتمامها بالتراث الإسلامي عموما **الكشاف الإسلامي** Index islamicus[14]. إن الضبط البيبليوغرافي الذي وضعه العالم برسون Pearson في هذا الكشاف لمحتويات الدوريات الخاصة بالعالم الإسلامي لا يخلو من الإشارة إلى الدراسات المتعلقة بالمغرب. وكانت هسبريس أولى المجلات المغربية التي خضعت لهذا الضبط البيبليوغرافي[15].

أما فيما يخص العمل البيبليوغرافي في المغرب في الوقت الراهن فإنه، على الرغم من بعض الاهتمام والتطور الذي عرفه، يبقى بحاجة إلى تظافر الجهود من لدن موثقين وجامعيين باحثين لوضع جرد بيبليوغرافي مصنف لما أُلفَ عن المغرب داخل وخارج البلاد.

وبما أن الجانب التعليمي كان من بين أهداف هذه الندوة العلمية ارتأيت ختاما لهذا البحث أن أعرض بإيجاز لما سميته بالدرس البيبليوغرافي اعتبارا لأهميته وضرورته في البحث الجامعي.

إن الدرس البيبليوغرافي أو البحث البيبليوغرافي أو الدرس المصدري أو البحث المكتبي أو ما شابه هذه العبارات هي عناوين مناهج دراسية تعطى في كثير من الجامعات الأوروبية والأمريكية وبعض الجامعات العربية، الغاية منها إرشاد الطلاب وتعليمهم كيفية البحث عن المصادر اللازمة لبحوثهم والوقوف عليها في أقرب وقت وبكل سهولة ويُسر. إن نظريات التعليم الحديثة تؤكد ضرورةَ تلقين الدرس البيبليوغرافي الذي من شأنه أن يحقق غايتين أساسيتين في تكوين الطالب الجامعي.

---

13 ـ كالتعليقات النقدية على الكتب الصادرة عن المغرب والتي كتبها الأجانب.
14 ـ ظهر الجزء الأول عام 1956. ويغطي ما صدر بين 1906- 1955.
15 ـ كانت مجلة هسبريس أحد مصادر الكشاف الإسلامي.

أولا: يعلم الطالب الباحث كيف يصل بنفسه إلى المعلومات اللازمة لبحثه، وقد يتحقق هذا لا بتهافته على الفهارس البطاقية التي لا تفيده بقدر ما تسيء إليه، بل باستشارته لأنواع الببليوغرافيات وحسن تعامله معها تعاملا منهجيا. فهذه الممارسة الببليوغرافية تمكن الطالب من الوقوف على نظرية معينة أو فكرة نيرة يستفيد منها في كتابه أو إعداد محاضراته.

أما الغاية الثانية فإن هذا الدرس يمكّن الطالب الباحث من الوقوف على آراء الغير والاطلاع على مختلف وجهات النظر وتأكيد أو مقارنة ما تلقنه من نظريات فتتكون لديه آراؤه الشخصية وأفكاره الخاصة، أما اكتفاء الطالب بالملخص وتَقَيُّدُه بالمحاضرات وتقبُّله واقتناعه برأي الأستاذ شيء يتنافى ونظريات التعليم الحديثة بل فيه وأد للإبداع وقتل لقابلية النقد وقضاء على الثقة بالنفس.

فاعتبارا للأهمية العلمية التي يكتسيها الدرس الببليوغرافي واعتبارا لضرورته واعتماده في جميع حقول المعرفة فإن إدخاله ضمن البرامج التعليمية المقررة في مختلف الجامعات قد أصبح ضربة لازب، بل إن منظمة اليونسكو قد نادت بمناسبة السنة الدولية للتربية وهي سنة 1970 بتدريس مادة التوثيق والإعلام في جميع الشُعَب الجامعية تتضمن بلا شك الدرس الببليوغرافي. إن الانفجار الإعلامي والفيض الهائل من المعلومات قد أصبحت الإحاطة به صعبة والسيطرة عليه متعذرة حتى في الدول المتقدمة تكنولوجيا، فكانت الببليوغرافيا أهم وسيلة لحل بعض المشاكل.. ولا يمكن للباحث أن يقف على ما يؤلفُ في إطار تخصصه إلا باللجوء إلى هذا العلم.

أما الجامعة المغربية فإنها لم تكن لتتغافل عن هذه المادة في تكوين الطالب الجامعي منذ السنوات الأولى من تأسيسها، غير أن الطريقة العتيقة التي كانت تلقن بها إلى وقت قريب والتي كانت لا تتعدى حدود التعرف بمصادر التراث ودراستها وتحليلها لم تف بالمقصود من تدريس هذه المادة، وهو خلق الطالب الباحث. إن طبيعة البحث العلمي قد تغيرت من البحث عن المصادر إلى البحث عن المعلومات، والطريقة المثلى لتحقيق هذا الهدف هو تلقين الطالب الدرس الببليوغرافي بمنهج جديد يساير المعطيات العلمية الحديثة. وحَسْبُمَا أعلم فإن كلية

الآداب بالرباط تنفرد بتلقين هذا الدرس الذي دعت إليه المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم ويُعْطَى كجزء من المنهج الدراسي في قسم اللغة العربية.

وعلى الرغم من تلقين هذا الدرس في جامعتنا[16] بالشكل وبالطرق التي يفرضها البحث الحديث فإن هذا الدّرس يبقى مفتقرا إلى عدة حاجيات ولوازم ليكون في مستوى الدروس التي تلقى في الجامعات الأجنبية نذكر منها:

1) تلقين الدرس البيبليوغرافي في كل السنوات الجامعية؛

2) تعميمه في جميع الشعب؛

3) قيام الطلاب بجولات علمية في أقسام خزائن الكتب برفقة القيم عليها أو الأستاذ الملقن المختص للتعريف بالخدمات المكتبية وعلى الأخص منها تلكم التي تهمّ الطلبة. وقد يدعو هذا العمل بالطبع إلى إيجاد خزانة جامعية مجهزة تجهيزا حديثا تلبي رغبات الطلبة الباحثين.

فإذا استطاعت الجامعة المغربية أن تعمّم التكوين البيبليوغرافي على مستوى مختلف الكليات وتؤسس خزانات جامعية مثالية فإنها ستقفز من طور تكوين الشخص المقلد إلى طور تكوين الأديب المبدع والباحث المفكر.

16. لابد للملقن أن يكون قد مارس البحث العلمي وملما إلماما كافيا بعلوم المكتبات، أو على الأقل يكون قد تدرب تدريبا كافيا في طرق استخدام المكتبة وفي الاحتياجات الخاصة للطلاب على اختلاف مراحلهم الدراسية والبحثية. وإلا فإن أمناء المكتبات المهنيين هم أكثر تأهيلا لتدريس هذه المادة وعلى الأخص منها الجانب المتعلق بالمصادر والمراجع وكيفية تنظيمها والاهتداء إليها والاستفادة منها.

البيبليوغرافيا الدولية العامة

بين كونراد جسنر وحاجي خليفة

يعتبر الحديث عن الببليوغرافيا في الوقت الراهن من أشق المواضيع التي يتناولها الباحثون عموما والمختصون في هذا العلم خصوصا. ولم يكن اقتحامنا لهذا الموضوع بقصد البحث في عموم هذا العلم الذي لم تتفق الآراء بعد حول تعريفه وحدوده، وإنما غرضنا تناول أحد أنواعه الأساسية يدعى عند المختصين المحدثين بالببليوغرافيا العامة الدولية وذلك من خلال مصدرين ببليوغرافيين يعتبران من أول ما ألف في هذا المجال في العصر الحديث. تناول الأول منهما التراث الغربي القديم واهتم الآخر بالتراث العربي الإسلامي. هذان الكتابان هما **المكتبة الدولية:** Bibliotheca Univesalis[1] للعالم السويسري كونراد جسنر (1516-1565) **وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (1608-1657). وقد اهتديت إلى هذا البحث بعد استقراء للكتابين معا، لاحظت خلاله عددا من أوجه التطابق والتشابه في التوجيه الببليوغرافي عند الرجلين. فما هي إذن الببليوغرافيا العامة الدولية؟ كيف اهتدى الرجلان إلى هذا النوع من البحث وما هي الأسباب التي دعتهما إلى ذلك؟ وأخيرا كيف كان أثر هذين المؤلفين في الأعمال العلمية والببليوغرافية منذ عصرهما حتى الوقت الحاضر؟

الببليوغرافيا العامة الدولية فن يُحصي الكتب التي تعالج جميع أنواع المعرفة، المكتوبة في لغات مختلفة، مخطوطة كانت أو مطبوعة. وهي تنقسم إلى قسمين: أولهما: الببليوغرافيا

---

[1] ـ صفحات في ملحق هذا الكتاب باللغة اللاتينية من مقدمة المكتبة الدولية "الكنراد جسنر" الذي طبع بمدينة زوريخ عام 1543م. وقد نقلنا أهم ما فيها من اقتراحات وأفكار في هذه الدراسة المقارنة بين المؤلف وبين حاجي خليفة.

العامة الدولية الماضية[2]، ثانيهما: الببليوغرافيا العامة الدولية الجارية[3]. والذي يهمنا في هذا البحث هو النوع الأول الذي يرجع وضع أول مؤلف فيه إلى فيلولوجي من العلماء الإنسانيين في عصر النهضة العالم كونراد جسنر[4]. إن المهتمين بالببليوغرافيا قبل كونراد جسنر جعلوا نشاطهم الببليوغرافي امتدادا لدراساتهم وتخصصاتهم، بل ربما اعتبروا هذا النشاط شيئا ثانويا بالنسبة لهذه التخصصات، بينما كان جسنر، الذي يعتبر الكتاب رمزا لحضارة الإنسان، يرى أن البحث الببليوغرافي علم قائم بذاته، ولهذا اعتُبر الأب الروحي والمؤسس الأول لعلم الببليوغرافيا الحديث. ولهذا الاعتبار كان جسنر أول عالم يبحث عن كل ما أنتجه العقل الإنساني من نصوص دون تفضيل بعضها عن البعض الآخر لأن الكتاب كيفما كان نوعه ومادته ومحتواه هو رمز للثقافة بوجه عام، فجمع ما أمكنه جمعه من مؤلفات مكتوبة في لغات ثلاث، كانت لغات الثقافة في عصره وهي العبرية[5] واليونانية واللاتينية، في كتابه الببليوغرافي الكبير

---

[2]- وقد تسمى راجعية: Rétrospective.

[3]- Courante، ظهرت الببليوغرافيا العامة الدولية الجارية منذ القرن السابع عشر وبالضبط منذ عام 1665 حينما صدرت في باريز دورية تسمى: صحيفة العلماء (Journal des savants) وهي دورية تهدف إلى الإخبار بما ظهر من جديد في عالم الأدب. تنشر أسبوعيا أخبار ما طبع من كتب في أوربا مع ذكر ملخص لمحتوياتها. لهذه الدورية شبيه في كل من أنجلترا وألمانيا حيث كان يصدر في لندن وقائع المعارف Philosophical transactions ويصدر في ليبزيغ وقائع البحوث Les acta eruditurum وكلاهما ببليوغرافيا عامة دولية جارية. وقد بلغ هذا النوع من الببليوغرافيا أوجه في القرن التاسع عشر وذلك بظهور كتاب شارل بروني: **موجز المكتبي** Manuel du libraire وكتاب جرايس: **كنز الكتب** Le trésor des livres. وقد أهملت الببليوغرافيا الدولية بعد هذه الفترة. ولكن التضخم الذي عرفه عالم الطباعة في أوربا في القرن الماضي دعا الببليوغرافيين إلى العمل من جديد في هذا المجال حيث إن المعهد الدولي للببليوغرافيا في بروكسيل حاول ابتداء من عام 1895 القيام بوضع فهرس بطاقي دولي للكتب، لكن صعوبة هذا العمل حالت دون إنجازه. وقد حاول المعهد إحصاء الكتب المطبوعة منذ القرن الخامس عشر حتى ذلك الوقت، ولما استحال عليه الأمر دعا الببليوغرافيون والمختصين إلى التفكير في طرق أخرى تمكنهم من القيام بهذا الإحصاء الدولي. ومما اقترحه هؤلاء المختصون جمع كل أدلة مكتبات العالم في دليل واحد، وفي عام 1947 حاولت اليونسكو القيام بوضع دليل واحد لكل المكتبات الأوربية يكون بمثابة المرحلة الأولى للدليل الببليوغرافي المنشود.

[4]- Conrad Gesner صاحب كتاب: **المكتبة الدولية** Bibliotheca Universalis.

[5]- كان جسنر يتقن هذه اللغات الثلاث، وقد تعلم العبرية بمدينة ستراسبورغ بفرنسا. وهذه اللغات الثلاث كانت ضرورية للمثقف في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد اهتم الغربيون باللغة العبرية لأنها لغة التوراة. فلما أسس الملك الفرنسي فرانسوا الأول François 1er الكوليج دوفرانس عام 1530 كانت لغات التدريس ثلاثا: اللاتينية والإغريقية والعبرية. وكان من بين أساتذة المعهد غليوم بوستيل Guillaume Postel الذي كان يتقن اللغات المذكورة بالإضافة إلى اللغة العربية التي ظل يدافع عنها وعن تدريسها، بل دفعه هذا الحب إلى آراء توفيقية بين المسيحية والإسلام فأدى به هذا إلى طرده من الكنيسة رغم مكانته وقربه من الملك الفرنسي، وقد ألف كتابا في النحو العربي **Grammatica Arabica** أكد في مقدمته أهمية دراسة وتدريس اللغة العربية التي يعتبرها أساسا لتحصيل المعارف والعلوم الإنسانية. ومن بين تلامذته بالمعهد الفرنسي المستشرق جوزيف سكليجر Joseph Scaliger الذي لعب دورا طلائعيا في تدريس العربية في الديار الهولندية. وعلى الرغم من دفاع بوستيل عن اللغة العربية وحبه لها فإن كراسي اللغة العبرية في الجامعات الغربية هي أولى كراسي اللغات السامية.

المكتبة الدولية Bibliotheca Universalis. وإذا ظهر "جسنر" في القرن السادس عشر وهو القرن الذي بدأ ينمو فيه علم الببليوغرافيا بفضل جهود العلماء في البحث عن الكتب واكتشاف المخطوطات فإن هذا العلم لم يمتد ولم يتجهزْ إلا في القرن السابع عشر حين اتخذت الخزانات طابعا موسوعيا بفضل توسع الفكر وتقدم الثقافة وصدور العديد من الفهارس الببليوغرافية وظهور المختصين في هذا المجال ممن ألفوا في هذا الفن أمثال جبرائيل نودي الذي كان كاتبا للوزير الفرنسي مازران وقيما على خزانته[6] والذي وضع أول دليل ببليوغرافي في عام 1633 يحمل كلمة ببليوغرافيا وهو: **الببليوغرافيا السياسية** Bibliographia Politica درس فيها جبرائيل نودي باللاتينية معظم الذين كتبوا في السياسة من المؤرخين والفلاسفة. في هذا العصر بالضبط ظهر مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة الذي فتح باب الببليوغرافيا العامة الدولية في التراث العربي الإسلامي حين وضع كتابه الموسوعي الببليوغرافي **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** جمع فيه هو بدوره المؤلفات المكتوبة بلغات الثقافة آنذاك وهي العربية والتركية والفارسية. إن حاجي خليفة مسلم تركي الأصل والنشأة فكان لابد له كما هو الشأن بالنسبة لأي عالم تركي آخر أن يتقن العربية لأنها لغة الدين والثقافة والتاريخ كما كان لابد له من تعلم الفارسية لغة الشعر والأدب بالإضافة إلى اللغة الأم وهي التركية[7]. وبجمعه لأول مرة مؤلفات بهذه اللغات كان كتاب **كشف الظنون** أول ببليوغرافية عامة دولية في التراث الإسلامي.

فما هي أوجه التشابه ونقط الائتلاف بين الرجلين؟ كلاهما أوربي الأصل والمولد والنشأة؛ ولد جسنر وعاش في سويسرا وولد حاجي خليفة ونشأ بالأستانة أو اصطنبول وهي مدينة تقع في القارة الأوروبية، كلاهما عاش يتيما ولم يتجاوز عمره تسعا وأربعين سنة؛ فقد جسنر أباه وهو ابن خمسَ عشرة سنة، كما ولد عام 1516 وتوفي عام 1565، فعمره إذاً تسع وأربعون سنة. وفقد خليفة أباه وهو ابن العشرين وعاش تسعا وأربعين سنة، بين عامي (1608-1657م).

---

[6]- تدعى La Mazarine نسبة إلى Mazarin . يعتبرها المؤرخون أول مكتبة عمومية بفرنسا فتحت عام 1643م. تقع في الجناح الأيسر من مقر الأكاديمية الفرنسية بباريز – ألحقت أولا بالمكتبة الوطنية عام 1923م ثم ألحقت ثانيا وأخيرا بمعهد الأكاديمية الفرنسية عام 1945م. وتحتوي على رصيد هائل من الكتب الموسوعية في لغات مختلفة.

[7]- كانت اللغات الثلاث أساسية في تركيا في العصر العثماني، وعدد كبير من ألفاظ هذه اللغات استقر في اللغة العثمانية.

كانت للرجلين اهتمامات أخرى سابقة عن اهتمامهما بالببليوغرافيا، كلاهما تنوع تراثه وتعدد وألف في علوم مختلفة. كان جسنر طبيبا بمدينة بال Bâle وأستاذا للغة اليونانية بلوزان وأستاذا للتاريخ بزوريخ. وضع حوالي اثنين وسبعين كتابا من بينها تاريخ الحيوانات الذي ألفه سنة 1552م والذي يعتبر أساس الدراسات في علم الحيوان في العصر الحديث. أما حاجي خليفة فإنه كان يحضر في الآستانة دروس التفسير والحديث والنحو واللغة والفلسفة وغيرها على أساتذة مشهورين وكان يحسن الميل إلى التزود من علوم أخرى مثل الحساب والهندسة والجغرافية والطب. وكان عسكريا ماهرا وكاتبا خاصا في الجيش العثماني. ولما انتهت مهمته العسكرية عاد إلى الدراسة والبحث فوضع مؤلفات في مختلف المعارف والعلوم تفوق العشرين مؤلفا من أهمها كتاب **سلم الوصول إلى طبقات الفحول**[8] وهو معجم في تراجم الأعيان يعتبر أهم مؤلفاته بعد **كشف الظنون** جمع فيه تراجم أساطين من الأوائل والأواخر مع بيان مبهمات الأسماء والأنساب. ولم يقتصر العالمان الجليلان على التأليف بل تجاوزاه إلى الترجمة والنقل من لغة إلى لغة أو لغات أخرى. نقل جسنر من اللاتينية إلى اليونانية ومن الإغريقية إلى اللاتينية، ومن بين ترجماته مؤلفات ميشيل دفيز Michel d'Ephese وسطوبي Stobee ومارسيال Martiale[9] وغيرهم. ونقل خليفة من التركية إلى العربية والفارسية ومنهما معا إلى العربية بل نقل من اللاتينية إلى اللغات المذكورة بمساعدة عالم فرنسي اعتنق الإسلام يدعى الشيخ محمد الإخلاصي[10].

يبدو واضحا بعد هذه المقارنة أن الرجلين لم يحترفا مهنة الوراقة ولم يمارسا قط مسؤولية تنظيم الكتب وفهرستها وصيانتها في معهد أو مؤسسة أو مكتبة بل ولعا بالكتب وشغفا بها وهما خارج وطنيهما حيث زارا مختلف الخزانات وجالسا الوراقين والعلماء والمهتمين بالكتب بوجه عام؛ بدأ ولوع كونراد جسنر بالكتب لما كان طالبا بمدينتي بورج وباريز

[8] - في آخر القسم الأول من هذا الكتاب كتب حاجي خليفة بنفسه أوائل ترجمته. وتوجد النسخة الأصلية للكتاب بخط المؤلف في مكتبة شهيد علي باشا باصطنبول محفوظة تحت رقم 7781.

[9] - مارسيال Marcus Valenus Martiale شاعر لاتيني من القرن الأول الميلادي.

[10] - يقول صاحب مقدمة كشف الظنون "وترجم له من اللغة اللاتينية الشيخ محمد الإخلاصي الراهب الإفرنسي الذي هداه الله تعالى إلى الإسلام كتاب **أطلس مينور** سماه **بلوامع النور** وترجم التاريخ الأفرنكي تاريخ ملوك النصارى وتاريخ قسطنطينية سماه بروئق السلطنة. المقدمة ص.17.

بفرنسا فبدأ يجمع الكتب، مخطوطات ومطبوعات ينظمها ويرتبها ودفعه هذا الحب إلى زيارة خزانات الكتب الكبرى والوقوف على مختلف فهارسها وأدلتها الببليوغرافية. يذكر جسنر في نهاية مقدمة المكتبة الدولية عددا من خزانات الكتب التي تمت له زيارتها كمكتبات البندقية[11] وفلورنسا وروما وبولونيا والفاتيكان وباريز وهيدلبرغ، ووقف على فهارسها وأدلتها كدليل تريتم[12] Trithème وشامبي Chompier وغيرهما. ولم يقتصر جسنر على التنقيب عن المخطوطات والمطبوعات الاستهلالية Incunables بل إنه مافتئ يزور معارض الكتب في مختلف البلاد الأوروبية للوقوف على أحدث الكتب كمعرض فرانكفورت بألمانيا الذي زاره عام 1543 كما كاتب علماء عصره للحصول على الكتب. وبهذا تمكن جسنر من الحصول على المصادر الضرورية والمواد الأساسية التي استعملها في بناء المكتبة الدولية. أما حاجي خليفة فإن اهتمامه بالكتب قد بدأ لما كان في مهامه الإدارية بالشام وخاصة بحلب حيث أخذ يدون أسماء الكتب ويجالس الوراقين ويزور الخزانات العامة والخاصة. ولما استقر بالآستانة واصل ما كان بدأ به هناك في حلب وإذا هو يجد في مكتبات اصطنبول الشيء الكثير. يقول في كتابه ميزان الحق[13] الذي كتب فيه القسم الأخير من ترجمته "... ولما رجع إلى اصطنبول سنة 1045هـ صمم العزم وأقبل إقبالا تاما على العلوم والمطالعة فشرع في إتمام المهمة التي كان ابتدأها في حلب، وهي مهمة تدوين أسماء الكتب التي ألهمها الله إياه حتى اشتغل بها مدة إقامته بحلب. كان يكتب أسماء الكتب التي يجدها عند الوراقين الكتبيين وفي خزانات الكتب بها وكان ينقب

---

[11]- كان هورتادو Hurtado الكاتب سفيرا لملك إسبانيا شارل كينت Charles Quint في البندقية وكان شغوفا بالكتب والمخطوطات فجمع خزانة كتب مهمة جعل على رأسها الكاتب أرلينوس Arlenus الذي أشار عليه بدعوة جسنر للعمل بالخزانة والاستفادة من معارفه وعلومه. وهناك تمكن جسنر من نقل أسماء وعناوين كتب الإغريق وهي حوالي مائة واثني عشر مخطوطا ذكرها في المكتبة الدولية ضمن المخطوطات الإغريقية. وقد ذكر جسنر في كتابه هذا أن السفير والعالم هورتادو أهدى هذه المجموعة من المخطوطات إلى الملك الإسباني فيليب الثاني الذي وضعها بدوره في خزانة الإسكوريال وبقيت هناك إلى أن حدث ما كان يخاف منه جسنر وهو احتراق خزانة الإسكوريال عام 1671م.

[12]- دليل تريتم Trithème، طبع ونشر عام 1494م.

[13]- **ميزان الحق في اختيار الأحق**: كتاب باللغة التركية آخر كتب حاجي خليفة ألفه عام 1656 وهو العام الذي توفي فيه. يتناول فيه مسائل مختلفة من مسائل علم الكلام والتصوف. توجد منه نسخة خطية في فيينا Vienne بالنمسا.

عن الكتب بالآستانة ويقتني المؤلفات وساعده على ذلك أموال ورثها من بعض قرابته سنة 1047 هـ حتى صرف لشراء الكتب نحو ثلاثمائة ألف عثماني"[14].

ولم يكن حب الكتب والاهتمام بالتراث السبب الوحيد الذي دعا الرجلين إلى وضع مؤلفيهما الببليوغرافيين الأولين من نوعهما في هذا المجال بل هناك عوامل أخرى دعت هذين العالمين إلى اقتحام باب الببليوغرافيا العامة الدولية. كلاهما عانى الكثير من أجل الحصول على الكتب اللازمة لأبحاثه المختلفة وتبين لهما بعد البحث والتنقيب أن التراث يضيع مع الأيام فوجب تسجيله حتى تنتفع به الأجيال المقبلة. يؤكد جسنر في مقدمته حرصَهُ على تسجيل الإنتاج الفكري الإنساني الذي سيضيع إذا لم يسجل، ويشير بالمناسبة إلى مكتبات العصر القديم التي بادت وضاع معها الكثير من كتب التراث لا نعرف اليوم إلا عناوين بعض محتوياتها كمكتبة الإسكندرية ومكتبة برغامة[15] التي كانت تنافسها الزعامة. وأكبر حدث أثر في نفس جسنر هو إحراق الأتراك لأحسن مكتبة في أوربا في القرن السادس عشر وهي مكتبة الملك المجري كورفين ماتياس Corvin Mathias[16]، إن هذه المصيبة التي أودت بخمسين ألف مخطوط دفعت جسنر إلى جمع المعارف والعلوم وإلى العمل على تزويد الأجيال المقبلة بما حققه الفكر الإنساني منذ أقدم العصور حتى عصره.

ولم يكن حاجي خليفة أقل حرصا من جسنر على تسجيل التراث الإنساني وحفظه من الضياع وتيسيره للانتفاع به والاستفادة منه. يقول في مقدمة الكشف : "غير أن أسماء تدويناتهم لم تدون على فصل وباب، ولم يرو فيه خبر كتاب. ولا شك أن تكحيل العيون بغبار

---

[14]- الكشف، المقدمة، ص. 15، مطبعة المثنى، بغداد.

[15]- يقول جسنر : إن مكتبة برغامة بتركيا كانت تضم كل أعمال جالينوس الطبية بما في ذلك الببليوغرافيا التي وضعها لمؤلفاته بعنوان De libris propus liber.

[16]- إن هذا الملك هو الذي أسس أول جامعة وأول مطبعة ببلاد المجر، بودابيست. وقد جلب الكثير من العلماء والمثقفين إلى بلده وجمع أحسن خزانة ملكية في عصره. وفي عام 1526م استولى الأتراك بزعامة سليمان الثاني على بودابيست وخربوها فذهب معظم محتويات مكتبة الملك ماتياس التي تدعى الكورفينا La Corvina نسبة إليه. وقد بقي بعض محتويات هذه الخزانة التي كانت غنية بالمخطوطات خاصة منها الإغريقية والعبرية محفوظا في بعض خزائن فيينا Vienne وفي الخزانة الوطنية الفرنسية بباريز.

أخبار آثارهم على وجه الاستقصاء لعمري أنه أجدى من تفاريق العصا، إذ العلوم والكتب كثيرة والأعمار عزيزة قصيرة والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر، وإنما المطلوب ضبط معاقدها والشعور بمقاصدها" إلى أن قال: "وما قصدت بذلك سوى نفع الخلق وإبقاء ذكر آثار السلف. وقد ورد في الأثر عن سيد البشر: من ورخ مومنا فكأنما أحياه"[17].

وبعد ذكر الأسباب والغايات من تأليف **المكتبة الدولية** و**كشف الظنون** يشير كل مؤلف في مقدمة عمله إلى المصادر التي اعتمدها في كتابه الذي قضى في تأليفه عددا من السنين[18] بالإضافة إلى مختلف الخزانات الأوربية التي زارها ومختلف الفهارس والببليوغرافيات التي وقف عليها. كان جسنر يتتبع كل الكتب التي كانت تصدر في مدن بال وزريخ ولوزان في سويسرا وفي غيرها من البلاد الغربية. أما فيما يخص مصادره عن المؤلفين الإغريق فإنه اعتمد بالخصوص على مجموعة من العلماء المختصين في الدراسات اليونانية أمثال فوتيوس Photius وأرلينوس Arlenus وغيرهما. أما حاجي خليفة الذي بدأ اهتمامه مبكرا بتسجيل أسماء الكتب فإنه يعترف أنه استفاد من كتب العلماء قبله في تعريفات العلوم فيقول ". . . وتلخيص ما في كتب موضوعات العلوم **كمفتاح السعادة** و**رسالة المولى لطفي الشهيد** و**الفوائد الخاقانية** و**كتاب شيخ الإسلام الحفيد**، وربما ألحقت عليها علوما وفوائد من أمثال تلك الكتب بالعزو إليها، وأوردت مباحث الفضلاء وتحريراتهم بذكر ما لها وما عليها. . ."[19].

ويمتاز **كشف الظنون** و**المكتبة الدولية** بمقدمة علمية هامة في صدر كل منهما. ذكر كل من الرجلين مختلف العوامل والأسباب التي دعت إلى هذا التأليف مع الإشارة إلى مختلف المكتبات التي استفاد من كنوزها والمصادر التي اعتمدها في وضع عمله الببليوغرافي[20].

17- مقدمة **كشف الظنون**.

18- قضى جسنر خمس عشرة سنة في تأليف **المكتبة الدولية**، وقضى حاجي خليفة عشرين سنة في تأليف **كشف الظنون**.

19- مقدمة **الكشف**.

20- ترجمت مقدمة **الكشف** لأهميتها إلى اللاتينية ونشرت في ليبزغ في موسوعة فون هامر Von Hammer عام 1804. وقد خص حاجي خليفة هذه المقدمة لأحوال العلوم كتعريف العلم وماهيته وموضوعه ومبادئه ومسائله وغايته ومراتبه وشرفه إلى غير ذلك. انظر المقدمة حيث يقول: "فكتبت ما رأيت في خلال تتبع المؤلفات وتصفح كتب التواريخ والطبقات"، المقدمة، ص 2.

وقبل الوصف الفهرسي والببليوغرافي لهذين الكتابين يجب أن نتحدث عن الغاية العلمية التي دعت جسنر وحاجي خليفة إلى وضع المؤلفين اللذين يعتبران أساسيين وجديدين في بابهما حيث أضاف كل منهما إلى تعريف العلوم تنسيق أو تصنيف الكتب. والتصنيف الذي كان سائدا حتى عصريهما هو ذلك التصنيف الذي وضعه المفكر اليوناني أرسطاطاليس.

أدى اختراع الطباعة وانتشار الحرية الدينية والسياسية إلى التجديد في مجال الفكر والثقافة وإلى الثورة على ما كان سائدا في المجتمعات الأوربية في العصر الوسيط من أنظمة تقليدية وقوانين التفكير في البحث العلمي وتصنيف الكتب والمكتبات. لقد جاءت المكتبة الدولية لكونراد جسنر بتنسيق جديد للكتب والمكتبات يخالف في جوهره ما تقدمه من طرائق التصنيف وعلى الأخص طريقة الفلاسفة المدرسيين في هذا المجال[21]. قسم جسنر في كتابه المعرفة البشرية إلى واحد وعشرين أصلا[22] طبقا لقواعد فلسفية ثابتة حيث قال:

إن الفلسفة هي مجموع كل المعارف ويمكن تعلمها من خلال العلوم والفنون، وأما العلوم والفنون فيقول إنه يوجد منها نوعان: نوع إعدادي ونوع أساسي.

فأما العلوم الإعدادية فمنها ما هو ضروري ومنها ما هو بغرض الأُبهة.

فأما الضروريات فهي تنقسم إلى ما هو بغرض الوصف أو العرض وما هو من قبيل علوم الحساب وفنونه. وأما علوم الأبهة فهي علوم غريبة نوعا تشتمل على علوم السحر والكهانة إلى جانب علوم التاريخ والجغرافيا والفنون الميكانيكية. وأما العلوم الأساسية فهي تشمل أسمى

21- إن تصنيف المكتبات في الغرب كان يستمد من تصنيف أرسطو للمعارف وامتد إلى القرن السادس عشر وكان كالتالي:

1. علم أصول الدين	1. Théologie
2. علم الشرائع	2. Jurisprudence
3. العلوم والفنون	3.Sciences et arts
4. الآداب	4. Belles lettres
5. التاريخ	5. Histoire

22- انظر: La Grande Encyclopédie Française, Vol.VII, p. 609.

أنواع المعارف وأرفعها مثل كل فروع الفلسفة من الميتافيزيقا إلى الأخلاق إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى القانون إلى الطب إلى الديانات[23].

كانت طريقة جسنر هذه أو النظام الذي وضعه أولى المحاولات العلمية التي أجريت للتوفيق بين الثورة الفكرية التي أحدثتها النهضة العلمية الحديثة وبين الطريقة المدرسية التقليدية المتحدرة عن الأجيال الوسطى ونظام أرسطو[24]. ومن أجل هذا العمل العلمي الكبير نعت جسنر بأنه أحد العقول الأكثر تنظيما في عصره.

أما حاجي خليفة فإن الغاية العلمية من وضع الكتاب واضحة جلية خاصة في مقدمته القيمة التي تحدث فيها عن العلوم التي يعرف أنواعها وفروعها[25]. وكان هذا العمل الذي أضاف فيه "خليفة" تعريفات العلوم إلى الفهرسة شيئا جديدا بالنسبة لما سبقه من فهارس ببليوغرافية. وكالعالم السويسري كنراد جسنر فإن حاجي خليفة كان من أئمة المشتغلين بعلم التصنيف ومن أوائل الذين وضعوا أسسا لتصنيف الكتب بمعناه الحديث: يقول في مقدمة الكشف: "اعلم أن موضوع علم يجوز أن يكون موضوع علم آخر، وأن يكون مباينا له غير مندرجين تحت ثالث لكن يشتركان بوجه دون وجه، ويجوز أن يكونا متباينين مطلقا . . ."[26].

ويتضح اهتمامه بالتصنيف فيما يلي:

"واعلم أن الغرض من وضع هذا الكتاب أن الإنسان لما كان محتاجا إلى تكميل نفسه البشرية والتكميل لا يتم إلا بالعلم بحقائق الأشياء وبالعلم بكتاب الله وسنة رسوله، وجب تعلم تلك العلوم وما هو كالوسيلة إليها، ولزمه أولا العلم بأنواع العلوم ليتبين منها هذا الغرض ثم العلم بأصناف الكتب في نفسها ومرتبتها ليكون على بصيرة من أمره، ويقايس بين العلوم والكتب فيعلم أفضلها وأوثقها، يعلم حال العالم به وحال من يدعي علما من العلوم ويكشف دعواه بأنه

23- خالد الحديدي : **فلسفة علم تصنيف الكتب**، ص.151.

24- أسعد داغر : **دليل الأعارب**، ص 9.

25- العنوان الأول الذي وضعه حاجي خليفة لمؤلفه "الكشف" والذي ما يزال بخط يده في مسودته هو "إجمال الفصول والأبواب في ترتيب العلوم وأسماء الكتاب" ويكفي هذا العنوان للتدليل على الغاية العلمية من تأليف **كشف الظنون**.

26- **مقدمة الكشف**، ص.8.

هل يخبر خبرا تفصيليا عن موضوع ذلك العلم وغايته ومرتبته فيحسن الظن به فيما ادعاه، ويعلم حال المصنفات أيضا ومراتبها وجلالة قدرها والتفاوت فيما بينها وكثرتها، وفيه إرشاد إلى تحصيلها وتعريف به بما يعتمد منها وتحذيره مما يخاف من الاغترار به، ويعلم حال المؤلفين ووفياتهم وأعصارهم"[27].

أما عن الوصف الببليوغرافي في الكتابين فإن كنراد جسنر وحَاجي خليفة يكادان يتفقان في عدد من العناصر. كلا الرجلين أحصى حوالي خمسة عشر ألف كتاب؛ كلاهما اقتصر على ثلاث لغات وهي لغات الثقافة في عصريهما كما سبقت الإشارة إلى ذلك. اهتم كلاهما بالمخطوطات. ولم يهمل كنراد جسنر المطبوعات لأن الطباعة ازدهرت في عصره. وقد تجمع لديه بفضل زياراته لمعارض الكتب، وتوصله بهدايا العلماء والناشرين عدد مهم من كتب التراث التي نشرت، فأحصاها في مكتبته الدولية. وإذا كان حاجي خليفة قد اقتصر على المخطوطات في كشفه فلأن الطباعة لم تدخل بعد بلده تركيا. ومع ذلك فإن كشف الظنون أحصى كتبا عربية مخطوطة قد طبعت في مطابع أوربية قبل عصر حاجي خليفة[28].

ومما يمتاز به هذان الكتابان أن الرجلين قد قرءا معظم الكتب التي وصفاها وذكرا شيئا من مقدمتها خدمة للعلم والعلماء. وعلى الرغم من اعتماد جسنر على فهارس المكتبات ومراسلات وأخبار العلماء فإنه قرأ مقدمات معظم الكتب التي أحصاها مع ذكر شيء منها، وقد أكد ذلك في مقدمة مؤلفه الكبير. أما حاجي خليفة فإنه يذكر في أكثر الأحيان مقدمة وخاتمة الكتاب أو إحداهما: يقول: "وأشرت إلى ما رأيته من الكتب بذكر شيء من أوله للإعلام، وهو أهون على تعيين المجهولات ودفع الشبهة"[29] وهذا العمل الدقيق من حاجي خليفة يُيسِّرُ للغاية سبل العاملين في ميدان تحقيق المخطوطات العربية[30].

---

27. خاتمة مقدمة **الكشف**، ص.58.

28. طبع القانون في الطب لابن سينا عام 1593م. وطبع كتاب تحرير أصول اقليدس عام 1594م. انظر **كشف الظنون**. وانظر كذلك: دليل المطبوعات العربية بالخزانة الوطنية الفرنسية: مادة ابن سينا واقليدس.

29. مقدمة **الكشف**، ص.2.

30. قد سبقت الإشارة في بحث آخر إلى أن الشاعر اليوناني كاليماخوس محافظ خزانة الإسكندرية قد ذكر شيئا من مقدمات الكتب التي وصفها في الدليل الببليوغرافي الذي وضعه لهذه الخزانة في القرن الثالث ق.م.

بالإضافة إلى ذكر شيء من مقدمات الكتب يعطي الرجلان فكرة عن محتوى الكتب، وربما تجاوزا المحتوى إلى إبداء الرأي في قيمة الكتاب، مما يضفي عن عمليهما طابع الببليوغرافيا النقدية. وبعد ترجمة المؤلف ترجمة موجزة يشير الرجلان إلى الشروح والحواشي المتعلقة بالكتاب الموصوف. وقد أشار كل منهما إلى هذه العمليات في مقدمة عمله الببليوغرافي. يؤكد جسنر في هذه المقدمة أنه ذكر لكل كتاب ما يعرفه من شروح وحواش وضعت عليه مع الإشارة إلى ترجمته من لغة إلى لغة أخرى إن كان مترجما، وأنه يترجم المؤلف ترجمة موجزة إذا كان ذلك مهما. أما حاجي خليفة فإنه يقول في مقدمة الكشف: "فكل ما له اسم ذكرته في محله مع مصنفه وتاريخه ومتعلقاته ووصفه تفصيلا وتبويبا. وربما أشرت إلى ما رُوي عن الفحول من الرد والقبول، وأوردت أسماء الشروح والحواشي لدفع الشبهة ورفع الغواشي مع التصريح بأنه شرح كتاب فلاني وأنه سبق أو سيأتي في فصله بناء على أن المتن أصل والفرع أولى أن يذكر عقيب أصله"[31]. إن حاجي خليفة لا يترجم المؤلف بل يقتصر على تاريخ وفاته وتاريخ ميلاده أحيانا. وإذا كان الكتاب منقولا إلى لغة أخرى ذكره مع ذكر اسم الناقل كما صنع بالنسبة لكتاب "سلامان وأبسال"، وضعه مؤلفه نور الدين الجامي باللغة الفارسية ونقله محمد بن عثمان اللامعي إلى اللغة العربية[32]. يقول حاجي خليفة: "...وما ليس بعربي قيدته بأنه تركي أو فارسي أو مترجم ليزول به الإبهام"[33].

ولم يقتصر حاجي خليفة على ذكر محتوى الكتاب وأبوابه وفصوله وأجزائه، بل يضيف إلى ذلك ثبتا بأسماء الكتب التي اختصرت ذلك الكتاب أو ذيلت عليه أو شرحته مع التأكيد على أهمها، ثم يأتي بأقوال القدماء حول المؤلف كما صنع مثلا بالنسبة للمتنبي ومقارنته بأبي تمام والموازنة بينهما[34]. وفي هذا كله فوائد جمة للدارس والباحث والمحقق.

31- مقدمة الكشف، ص.2.

32- كشف الظنون، ص.995.

33- مقدمة الكشف، ص.2.

34- وقد يشير إلى مختلف الروايات حول كتاب معين كما صنع بالنسبة لصحيح البخاري.

ومن أوجه الشبه بين المكتبة الدولية وكشف الظنون أن ترك كل واحد منهما فراغا[35] أمام أسماء الكتب على أن تضاف فيما بعد كل المعلومات المتعلقة بهذه الكتب. وقد يدل هذا على نية الرجلين في مواصلة هذا العمل الذي لا نهاية له مع حث الآخرين على مواصلته بعدهما. ترك كنراد جسنر فراغات كثيرة وهوامش لإضافة ما يكتشف من مخطوطات مفقودة أو مجهولة. وقد أشار كل منهما إلى هذه الظاهرة في ثنايا مقدمته.

يقول حاجي خليفة: "فكتبت ما رأيت في خلال تتبع المؤلفات وتصفح كتب التواريخ والطبقات. ولما تم تسويده في عنفوان الشباب، بتيسير الفياض الوهاب، أسقطته عن حيز الاعتداد، وأسبلت عليه رداء الإبعاد، غير أني كلما وجدت شيئا ألحقته إلى أن جاء أجله المقدر في تبييضه وكان أمر الله قدرا مقدورا"[36]. ولم يقتصر العالمان الجليلان على الكتب المعروفة المتداولة بل أحصوا كذلك المؤلفات المجهولة المؤلف.

وصنف كنراد جسنر في القسم الثاني من كتابه المؤلفات المجهولة المؤلف مع ذكر الكتب التي شرحها أو ذيلها. أما خليفة فإنه قد أحصى في كشف الظنون أكثر من خمسمائة كتاب بدون مؤلف، بعضها مجهول المؤلف، والبعض الآخر غفل المؤلف عن ذكر اسم مؤلفه ككتاب **العاطل الحالي والمرخص الغالي** لعبد العزيز ابن سرايا الحلي المتوفى عام 759 هـ، وذكر المؤلفات التي لا تحمل عنوانا باعتبار الإضافة إلى الفن أو الموضوع أو بنسبه إلى مصنفه حسب الحرف الأول من مادة الكتاب، يقول حاجي خليفة: "... وما لا رسم له ذكرته باعتبار الإضافة إلى الفن أو إلى مصنفه في باب التاء والدال والراء والكاف برعاية الترتيب في حروف المضاف إليه

---

[35]ـ من المعلوم أن ابن النديم قد سبق إلى هذه الظاهرة منذ القرن الرابع الهجري. إنه اعتاد في الفهرست أن يترك فراغات لإضافة الكتب التي سيكتشفها فيما بعد.

[36]ـ المقدمة، ص.2. سبقت الإشارة إلى أن حاجي خليفة قضى عشرين سنة في تسويد الكشف، ولم يتمكن من تبييضه كاملا حيث وافته المنية وقد وصل في التبييض إلى حرف الدال (مادة دروس) وقد بقيت هذه المادة وما يليها إلى آخر الكتاب في حالة التسويد. يقول تلميذ تلميذه جار الله ولي الدين أفندي: "وبقي الكتاب من كلمة "دروس" في مسودة المؤلف بدون تبييض، ثم اجتمع ستة رجال فبيضوه لكن لم يبيضوه كما ينبغي" انظر تصدير كتاب **كشف الظنون**، طبعة اصطنبول عام 1941، ص.8.

كتاريخ ابن الأثير وتفسير ابن جرير وديوان المتنبي ورسالة ابن زيدون وكتاب سيبويه وأوردت القصائد في القاف وشروح الأسماء الحسنى في الشين"[37].

إن هذا الترتيب الألفبائي الذي طبقه حاجي خليفة على الكتب التي لا عنوان لها هو نفس الترتيب الذي طبقه على المصنفات المعروفة عناوينها لأن المؤلف قد التزم في تصنيفه عنوان الكتاب لا اسم الكاتب. أما كنراد جسنر فإنه قد اعتمد في تصنيفه الاسم الشخصي[38] للمؤلفين في القسم الأول من المكتبة الدولية[39]. أما في قسمه الثاني فإنه رتب عناوين الكتب حسب العلوم والفنون.

وقد انفرد كنراد جسنر بذكر الجاميع مع الإشارة إلى مظانها أحيانا لأنه اعتمد في تأليفه على العديد من فهارس المكتبات الأوربية. والاعتماد على الفهارس المطبوعة لا يسمح دائما برؤية جميع الكتب المحصاة في المكتبة الدولية مما جعل كنراد جسنر يقع في أخطاء لا يهمنا الدخول في تفاصيلها في هذا العرض[40]. ولم يكن **كشف الظنون** ليسلم بدوره من الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها حاجي خليفة كتغيير تواريخ الوفيات، وعدم ذكر أسماء المصنفين وتحريف عناوين الكتب إلى غير ذلك. ولكل جواد كبوة كما قالت العرب. وقد ذيل الكتابان معا بذيول مهمة وألحقا بملاحق وطبعا طبعات مختلفة وكان لهما أكبر الأثر في المؤلفات الببليوغرافية. إن المكتبة الدولية قد طبعت منذ القرن السادس عشر وأعيد طبعها مرارا كما اختصرت أو أضيفت لها إضافات حتى أواخر القرن الثامن عشر[41]. أما **كشف الظنون** فإن له عديدا من الملاحق والذيول نقتصر منها على **إيضاح المكنون** و**هدية العارفين** اللذين أصبحا يكونان مع

---

[37]- مقدمة **الكشف**، ص.2.

[38]- إذا كان حاجي خليفة لم يلتزم في تصنيفه أسماء المؤلفين ولم يذكر مظان الكتب فإن البغدادي في ذيله على **الكشف** المسمى **هدية العارفين** قد التزمهما معا، وإن كان لم يذكر أماكن المصنفات إلا من حين لآخر.

[39]- إذا كان كنراد جسنر غير متيقن من اسم الرجل ذكره بلقبه أو كنيته ثم يضيف نعته ووصفه كأن يكون قاضيا أو ملكا أو وزيرا أو غير ذلك.

[40]- وقد اعتذر عن أخطائه في مقدمة كتابه.

[41]- طبع الكتاب عدة طبعات منذ 1545م. وآخر طبعة كانت عام 1966م في مجلدين.

الكشف كتابا واحدا[42]. وقد طبع مرارا في أوربا وفي تركيا وفي مصر أوّلها تلكم الطبعة التي قام بها المستشرق الألماني فلوغل بين عام 1835 و 1858م في بلدة "لايبزيغ" بترجمته اللاتينية في سبعة مجلدات مع كشاف بأسماء المؤلفين. وقد تعرض "جوستاف فلوغل" في هذه المقدمة إلى بعض عناصر علم المخطوطات كقضية النساخة والنساخ في التراث العربي المخطوط.

وقد كان لهذين العملين الكبيرين أثر كبير في تنسيق الكتب والمكتبات ووضع المؤلفات البيليوغرافية. لقد سبقت الإشارة إلى أن كنراد جسنر قد أبدع طريقة جديدة في تنسيق الكتب وثار على التصنيف الذي كان سائدا في أوربا في العصر الوسيط[43]. وقد كتب للتنسيق الجديد أن يسود الكتب والمكتبات في أوربا حتى القرن التاسع عشر حيث ظهرت التصانيف الحديثة. أما كشف الظنون فقد كان له أثر كبير في العديد من مؤلفات العلماء والمستشرقين نذكر منها على سبيل المثال كتابي المكتبة الشرقية للمستشرق الفرنسي دربلو d'Herbelot (1697م) والمكتبة الشرقية للمستشرق النمساوي تسينكر Zenker (1884م). كلا الكتابين أحصى الكتب المكتوبة باللغات العربية والفارسية والتركية. ولهذا الاعتبار صنفا ضمن البيليوغرافيات العامة الدولية، وإن كان هدف "تسنكر" هو حصر المطبوعات العربية في أوربا منذ بداية الطباعة إلى عصره[44]. وقد شهد "دربلو" ومعاصروه من المستشرقين أن كشف الظنون كان أول وأهم مصدر استقى منه مادة كتابه[45].

ويعترف المستشرق الفرنسي جالان Galland[46]، الذي عاصر "دربلو" وأتم كتابه بعد وفاته، أن كتاب كشف الظنون يفوق من الناحية التقنية كل ما جاء قبله من كتب ببليوغرافية حتى في الغرب[47].

---

42. انظر ملحقات وذيول كشف الظنون في البحث المتعلق بالتأليف البيليوغرافي في التراث العربي.

43. إن التنسيق الذي ابتكره كنراد جسنر لم يأخذ بالتقسيمات السبعة للفنون الحرة التي كانت متبعة في القرون الوسطى. ومن الذين تأثروا به من العلماء كميروإريوس وباسكال ولوكوك وإسرائيل سبياك وآخرون استفادوا كلهم من كتابه وأبحاثه.

44. في الواقع كانت المكتبة الشرقية لتسنكير تتميما لكتاب المستشرق الألماني شنورير Schnurrer **المكتبة العربية** الذي اقتصر في معظمه على الكتب العربية المطبوعة في الغرب. غير أن تسنكير نهج في كتابه منهج **كشف الظنون** فأحصى الكتب المطبوعة في العربية والتركية والفارسية.

45. تضم المكتبة الشرقية 8158 مادة؟

46. إن هذا المستشرق هو الذي اكتشف لأول مرة **كشف الظنون** أثناء رحلة علمية إلى القسطنطينية. وقد ترجم منه جزءا وأرسله إلى الوزير الأول الفرنسي كولبير Colbert.

47. لا شك أنه يقصد كتاب **المكتبة الشرقية** لكونراد جسنر الذي اشتهر كثيرا آنذاك في أوربا.

إن العمل الذي قام به كل من كنراد جسنر وحاجي خليفة يهدف أولا وقبل كل شيء إلى فتح الطريق للباحثين في مجال التراث وإلى حثهم على مواصلة الجهود للاهتمام بالتراث الإنساني وجمعه وفهرسته وصيانته لتستفيد منه الأجيال المقبلة. إن أعداد الكتب المحصاة في هذين الكتابين لا تعدو أن تكون أعدادا رمزية يستفاد منها حث الآخرين على الاقتداء بالرجلين في البحث عن المخطوطات والتنقيب عن نوادرها ونفائسها حتى لا تضيع كما ضاع الكثير مثلها فغابت عنا جوانب متعددة من حضارات الإنسان الماضية.

ملحق

استمارة خاصة بالمكتبات العامة والخاصة

في مختلف الدول الإسلامية

بدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة قام السيد أحمد شوقي بنبين بوضع استبانة عن وضعية المخطوطات العربية في الدول الإسلامية بقصد صيانتها وحفظها وترميمها وتنظيمها. وقد توصلت المنظمة باستمارات معبأة من طرف مجموعة من الدول مكنتها بعد دراستها من التعرف على هذه الوضعية فاقترحت لمعالجتها مجموعة من المعطيات قدمتها في الاستبانة التالية بتقديم المنظمة.

بطاقة تعريفية عن:

وضعية المخطوطات العربية في الدول الإسلامية

حرصاً من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة على نشر الوعي بالتراث بين المسلمين لحمايته وصونه والمحافظة عليه والعناية به تحقيقاً ونشراً، وعملاً بتوصية الاجتماع الأول للمجلس الاستشاري لتنفيذ الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، أعدت المنظمة الإسلامية استبانة باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية تتكون من عشرة فصول تهم الجوانب العلمية والأكاديمية والتوثيقية والفنية والتقنية المرتبطة بالمخطوطات. وبعد أن تم تعميم توزيع هذه الاستبانة على جميع الدول الأعضاء توصلت المنظمة الإسلامية باستمارات معبأة من تسع دول تمثل المناطق الثلاث العربية والإفريقية والآسيوية.

وبعد إخضاع هذه الاستمارات لأصناف متعددة من المعالجة كتفريغ المعطيات وجدولتها وقراءتها ومقارنتها بالمعطيات أكدت الدراسة الملاحظات التالية :

1. الحاجة إلى مضاعفة الجهود لتوفير وسائل صيانة وترميم المخطوطات التي لا تتوفر في أغلب الدول المشاركة في الاستبانة.

2. نقص الخبرات الفنية المدربة في مختلف نواحي العناية بالمخطوطات.

3. الحاجة إلى التقنية الخاصة بالمخطوطات بهدف صيانتها، وحفظها وترميمها، وفهرستها.

ولمعالجة هذه الوضعية أوصت الدراسة بما يلي:

1. توفير الإمكانات التي تحتاج إليها مراكز المخطوطات والمشار إليها في النتائج.

2. الدعوة إلى العمل على تحقيق المزيد من التراث المخطوط، بهدف دراسته وإنقاذه والتعريف به.

3. تدريب العناصر الفنية المتخصصة في مجالات صيانة المخطوطات وحفظها والتعامل معها وترميمها.

4. إعداد قوائم معلومات وفهارس جيدة خدمة لمعلومات المخطوطات المحقق منها وغير المحقق.

1. اسم المؤسسة وعنوانها

2. المخطوطات

1.2 – المؤلفات- عددها.

2.2 – المجاميع - العدد التقريبي لمحتوياتها.

3.2- النسخ المكررة - عددها.

4.2 - النسخ الأصلية:

أ) النسخ التي نسخها المؤلف بنفسه.

ب) النسخ التي أشرف على نسخها المؤلف.

ج) النسخ التي صححها المؤلف.

د) النسخ التي كتبت في عصر المؤلف.

هـ) عدد المخطوطات المنقولة عن النسخ الأصلية أو التي تمت مقابلتها بالنسخ الأصلية.

5.2- النسخ الخزائنية التي كتبت برسم خزانة خليفة أو أمير أو سلطان أو وزير أو شخصية بارزة.

6.2 - النسخ التي خطها سلطان أو خليفة.

7.2- النسخ التي خطها خطاط بارز، كابن البواب أو المستعصمي أو غيرهما من مشاهير النساخ في التراث العربي.

8.2 - المصاحف القرآنية.

أ) أقدم المصاحف التي تتوفر عليها الخزانة.

ب) المواد التي نسخت عليها هذه المصاحف.

9.2 - عدد المخطوطات المؤرخة.

10.2 - عدد المخطوطات غير المؤرخة.

11.2 - عدد المخطوطات العتيقة، مؤرخة أو غير مؤرخة.

12.2 - عدد المخطوطات المبتورة.

أ) مبتورة البداية.

ب) مبتورة النهاية.

ج) مبتورة البداية والنهاية.

د) الخروم.

13.2 – المخطوطات الفريدة.

14.2 – المخطوطات النادرة.

15.2 – المخطوطات المنسوخة على ورق البردي.

16.2 – المخطوطات المنسوخة على الرق (أنواع الجلود) .

17.2 – المخطوطات المنسوخة على الورق.

18.2 – المخطوطات المنسوخة على مواد أخرى كالمهارق والقباطي وغيرها.

19.2 – المخطوطات المصورة.

أ) على الورق.

ب) على الميكروفيلم.

ج) على الميكروفيش.

د) المخطوطات المنقولة على أقراص مدمجة (C.D. ROM) .

20.2 – المخطوطات المزخرفة.

21.2 – المخطوطات التي تحتوي على صور، مثل كتاب كليلة ودمنة.

22.2 – عدد المخطوطات المكتوبة بماء الذهب.

1. كليا.

2. جزئيا.

3. العنوان العام وعناوين الأبواب والفصول فقط.

23.2 – المخطوطات الإسلامية بحروف عربية.

أ) فارسية.

ب) تركية.

ج) عثمانية.

د) أردنية.

هـ) كردية.

و) أفغانية.

ز) غيرها من اللغات كالسواحلية والهوسا في إفريقيا والأوزبكية في آسيا الوسطى (أوزباكستان).

24.2 – المخطوطات الإسلامية بحروف غير عربية.

أ) لاتينية.

ب) كرشونية (Karchouni).

ج) عبرية.

25.2 – المخطوطات غير الإسلامية بحروف عربية (كالمخطوطات المسيحية مثلا).

26.2 – المخطوطات الإسبانية (الأعجمية الموريسكية). الخاميادو بحروف عربية (15م-17م).

3. المجال المعرفي للمخطوطات

1.3– العلوم والمعارف التي يعالجها رصيد المؤسسة من المخطوطات.

2.3– المعارف والفنون التي تعالجها أغلبية المخطوطات.

3.3- ما هو نوع المخطوطات التي يطلبها أغلبية الباحثين ؟

4.3- من هم الباحثون الذين يتواردون على مؤسستكم (وطنيين وأجانب) ؟

5.3- ما هو عدد هؤلاء الباحثين؟

6.3- ما هي نسبة المخطوطات المحفوظة في خزانتكم التي؟ :

أ) تم تحقيقها ونشرت.

ب) تم تحقيقها ولم تنشر (كالأطاريح والرسائل الجامعية)

ج) تم طبعها طبعة تجارية من دون تحقيق.

4. الأدلة والكشافات والفهارس.

1.4- الأدلة والقوائم واللوائح التي وضعت لمحتويات المؤسسة.

2.4- الكشافات.

3.4- الفهارس.

أ) الفهارس البطاقية : أنواعها.

ب) الفهارس المنهجية المطبوعة : عامة أو متخصصة.

ج) فهارس المخطوطات المؤرخة.

د) الرقم المحدد أو التقريبي لعدد المخطوطات المفهرسة.

هـ) الرقم المحدد أو التقريبي لعدد المخطوطات غير المفهرسة.

و) من هم هؤلاء الذين تناط بهم مهمة الفهرسة بمؤسستكم؟

1. هل هم باحثون متخصصون في التراث؟

2. أم مكتبيون؟

3. أم موظفون عاديون؟

5. الوضعية العامة للرصيد المخطوط.

1.5- حالة المخطوطات بصفة عامة.

2.5- نسبة ما هو في حالة جيدة.

3.5- نسبة ما هو في حالة رديئة.

4.5- نسبة ما هو في حالة مزرية.

5.5- نسبة ما هو في حاجة إلى علاج و ترميم.

6.5- نسبة ما يتعذر ترميمه وإنقاذه على الرغم من التقدم التكنولوجي الحديث.

7.5- هل تخضع المؤسسة لقوانين حفظ المخطوطات؟

(الهواء، الطقس، الضوء، التبخير وغيرها من مستلزمات الصيانة).

8.5- هل يمكن تحديد الحاجيات التي قد تمكن من معالجة وإنقاذ هذه المخطوطات؟

9.5- هل تتوفر المؤسسة على الإمكانيات المادية الضرورية لإنقاذ وصيانة رصيدها المخطوط، أم هي بحاجة إلى مساعدة منظمات ومؤسسات أجنبية؟

6. مصادر رصيد المؤسسة من المخطوطات

1.6- كيف تجمع رصيد المكتبة من المخطوطات؟

2.6- ما هي الوسائل والطرق المستعملة لإغناء هذا الرصيد؟

أ) النسخ والاستنساخ.

ب) التبادل.

ج) الاقتناء.

د) الوقف أو الوصية أو الإهداء أو غير ذلك.

7. هل تتوفر المؤسسة على :

أ) مختبرات خاصة بالترميم والمعالجة والتذهيب والتسفير أو التجليد وغيرها من الأمور المكتبية؟

ب) مكان خاص بالنساخين والخطاطين؟

ج) متخصصين في الترميم وكيميائيين خبراء في هذا المجال؟

8. إلى أي حد استفادت مؤسستكم من النظام التكنولوجي الحديث؟

9. هيئة العاملين بالمؤسسة :

- المكتبيون.
- الكوديكولوجيون أو المختصون في علم المخطوط.
- المساعدون والمناولون.
- الإداريون.
- كم عدد الموظفين الذين استفادوا من الدورات التدريبية المكتبية التي تنظمها المؤسسات العلمية في مختلف المراكز والمكتبات في العالم الإسلامي؟

10. علاقة المؤسسة بالمراكز و المعاهد والمكتبات.

1.10- ما هي مختلف الأنشطة التي تقوم بها مؤسستكم تجاه المؤسسات العلمية وطنية كانت أو أجنبية؟

2.10- ما هي مساهمة العاملين بالمؤسسة في الأنشطة الخاصة بالمخطوطات؟

3.10- هل سبق لبلدكم أو لمؤسستكم أن نظمت ندوة وطنية أو عربية أو دولية حول المخطوطات العربية والإسلامية؟ اذكر عناوين الندوات، وزمان ومكان انعقادها، والمحاور التي قامت عليها الندوة إن أمكن؟

البطاقة النموذجية لفهرسة المخطوط العربي

تقديم

على إثر الندوة الدولية عن المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي التي نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية في شهر أبريل 1988 والتي شارك فيها عدد من الباحثين والمتخصصين من المغرب والمشرق العربي وأوربا وأمريكا انبثقت عن هذه الندوة لجنة من خيرة المكتبيين كلفت بوضع بطاقة نموذجية لفهرسة المخطوط العربي قصد توزيعها على المراكز العلمية والمكتبات الدولية. وتكونت اللجنة من الأعضاء الآتية أسماؤهم:

- أحمد شوقي بنبين أستاذ بكلية آداب الرباط رئيسا ومنسقا.
- الأستاذ بوعياد مدير المكتبة الوطنية بالجزائر.
- الدكتور يحيى محمود ساعاتي أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- الدكتور محمد طريف السمان أمين المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية النمساوية.
- الدكتور قاسم السامرائي باحث في جامعة لايدن بهولندا.
- الأستاذ عصام محمد الشنطي المدير الثاني لمعهد المخطوطات العربية.

وقد كلف كل واحد من الأعضاء باقتراح نموذج للفهرسة وإرساله إلى منسق اللجنة الأستاذ أحمد شوقي بنبين الذي دعا إلى اجتماع اللجنة مجددا بمقر المؤسسة بالدار البيضاء. وبعد نقاش علمي دام يومين كاملين اتفقت اللجنة على وضع بطاقة موحدة راعت فيها مجموعة من البيانات يمكن استعمالها في فهرسة المخطوط وتطبيقها في الحاسوب الآلي. وأخذت

المؤسسة على عاتقها موافاة المراكز والمكتبات بهذه البطاقة قصد تعميمها وتطبيقها حتى تجعل نهاية للتعدد والأشكال المختلفة التي تعرفها الفهرسة في مختلف الجهات. وفي ما يلي نص البطاقة:

نص البطاقة

إن الغاية من فهرسة المخطوطات العربية هي التعريف بها والكشف عنها خدمة للعلماء والباحثين والمتخصصين.

ولما تعددت مناهج فهرسة المخطوطات العربية وأشكالها المختلفة ما بين قوائم قصيرة وبطاقات وصفية أو تحليلية انتهت اللجنة إلى وضع بطاقة موحدة مرفقة توفي بالغرض، ويمكن استعمالها في أدراج الفهرسة أو الحاسوب الآلي (الكمبيوتر) .

ورأت اللجنة توضيح بنود هذه البطاقة على النحو الآتي:

- تحتوي البطاقة على سبعة حقول مدرجة بالأحرف الأبجدية ومرتبة حسب الأهمية، ومرقمة ترقيما يصلح لاستعمالها في الحاسوب الآلي (الكمبيوتر) .
- البطاقة من الورق المقوى وحجمها " A 4" المعروف، ومثنية في وسطها .

الحقل أ: خصص للعنوان الرئيسي وهو يحتوي على التأشير على أنها مخطوطة أو مصورة مع بيان رقمها الحالي، والقديم إن وجد . ثم يأتي ذكر اسم المؤلف مع سنة وفاته بالتاريخ الهجري وما يقابلها بالتاريخ الميلادي، ويلي ذلك عنوان المخطوطة الكامل وبيان موضوعها العام والخاص. وفي الزاوية اليسرى العليا يشار إلى كون المخطوطة مفردة أو مجموعة وبيان عدد النصوص.

الحقل ب : يُعنى ببيان المجلدات والأجزاء ومادة المخطوطة (ورق، رق. . .) ثم بيان طولها وعرضها بالمليمتر، ثم تاريخ النسخ ومكانه.

الحقل ج : يتضمن نوع الورق مشرقيا أو مغربيا أو أوروبيا، ولونه وعدد أوراقه (ترقم بقلم الرصاص إن لم يكن) وبيان كماله أو نقصانه والإشارة إلى وجود التعقيبة.

كما يذكر نوع الخط ولون المداد وعدد السطور ثم اسم الناسخ ورصد القراءات والإجازات والسماعات والتمليكات والوقفيات ومواضيعها من المخطوطة. ثم الإشارة إلى وجود ورقة العنوان والمحتويات وشكل الفصول الرئيسية والفرعية المميزة ولون مدادها، وبيان الصور والرسوم التوضيحية والزخارف والتذهيب. ويوصف تجليد المخطوط ووجود لسانه وزخارفه وتذهيبه وحالته وعمره إذا خالف سنة النسخ، وينتهي هذا الحقل ببيان المصادر الأساسية (كشف الظنون، بروكلمان، سزكين. . .).

الحقل د : يبين العنوان كما ورد في المخطوطة إذ كان مغايرا لاسمه الكامل المعروف ثم بدايتها ونهايتها والإشارة إلى وجود نصوص إضافية في جذاذات (طيارات).

الحقل هـ : مخصص لملاحظات يسجلها المفهرس تتميز بها المخطوطة.

الحقل و : ترصد فيه نصوص المجموعة مع بيان مؤلف كل رسالة وعنوانها وموضوعها وموقعها من المخطوطة، على أن يكون لكل نص بطاقة منفردة.

الحقل ز : يذكر في هذا الحقل طبعات المخطوطة ومحققوها وناشرها ومكان النشر وتاريخه.

وفي آخر الصفحة الرابعة يبين اسم المكتبة التي تحتفظ بالمخطوطة أو المصورة الموصوفة.

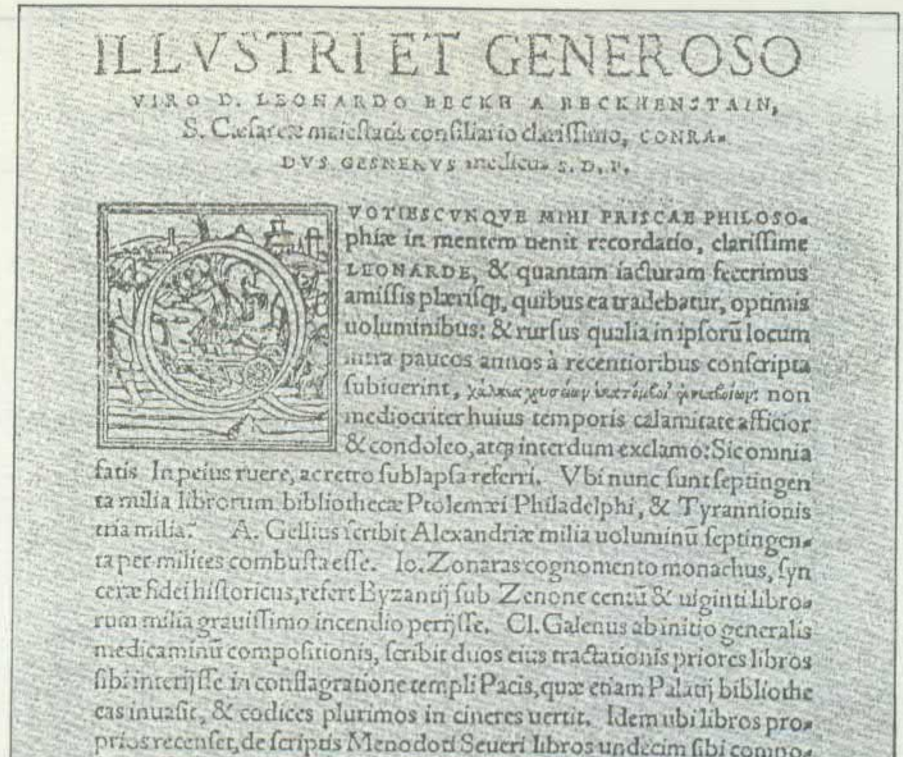

ILLVSTRI ET GENEROSO

VIRO D. LEONARDO BECKH A BECKHENSTAIN, S. Cæſareæ maieſtatis conſiliario clariſſimo, CONRADVS GESNERVS medicus S. D. P.

QVOTIESCVNQVE MIHI PRISCAE PHILOSOphiæ in mentem uenit recordatio, clariſſime LEONARDE, & quantam iacturam fecerimus amiſſis plæriſq;, quibus ea tradebatur, optimis uoluminibus: & rurſus qualia in ipſorũ locum intra paucos annos à recentioribus conſcripta ſubiuerint, χάλκεα χρυσείων ἑκατόμβοι' ἐννεαβοίων: non mediocriter huius temporis calamitate afficior & condoleo, atq; interdum exclamo: Sic omnia fatis In peius ruere, ac retro ſublapſa referri. Vbi nunc ſunt ſeptingenta milia librorum bibliothecæ Ptolemæi Philadelphi, & Tyrannionis tria milia? A. Gellius ſcribit Alexandriæ milia uoluminũ ſeptingenta per milites combuſta eſſe. Io. Zonaras cognomento monachus, ſynceræ fidei hiſtoricus, refert Byzantij ſub Zenone centũ & uiginti librorum milia grauiſſimo incendio perijſſe. Cl. Galenus ab initio generalis medicaminũ compoſitionis, ſcribit duos eius tractationis priores libros ſibi interijſſe in conflagratione templi Pacis, quæ etiam Palatij bibliothecas inuaſit, & codices plurimos in cineres uertit. Idem ubi libros proprios recenſet, de ſcriptis Menodoti Seueri libros undecim ſibi compoſitos aſſerit. Didymus Alexandrinus grammaticus, qui Ciceronis ætate floruit, Chalcenteros ab aſſiduo labore lucubrãdi dictus, plus quàm tria milia & quingenta uolumina confeciſſe fertur. Origenis eccleſiaſtici ſcriptoris librorum ſex milia D. Hieronymus ſe legiſſe teſtatur. Theophraſti treceñta uolumina numerantur, Chryſippi ſeptingenta, Empedoclis tria & quadraginta, Attej Capitonis conſulis ſexaginta, Seruij Sulpitij centum & octoginta de iure ciuili, Galeni de medicina centum & triginta. Et quoniam triſti iuuat indulgere dolori, repetam hic Strabonis uerba ex libro 13. Geographiæ. Neleus (inquit) Coriſci filius, Ariſtotelẽ & Theophraſtum audiuit, & ſucceſſor fuit bibliothecæ Theophraſti, in qua Ariſtotelica inerat. Nam Ariſtoteles et bibliothecam et ſcholam reliquit Theophraſto, & primus omnium quos ſcimus libros congregauit, & Aegypti reges bibliothecæ ordinẽ docuit. Theophraſtus uero eam tradidit Neleo, Neleus eam Scepſim detulit, ac poſteris dedit, hominibus ſanè imperitis, qui libros incluſos ac negligenter poſitos tenebant. Cumq; Attalicorum regum, ſub quibus erãt, ſtudium ſentirent conquirendorũ librorum, ad inſtruendam eam bibliothecam quæ Pergami erat, eos in foſſa quadam ſub terra occuluerunt, quos & tineis & humiditate labefa-

• مقدمة باللغة الألمانية لكتاب المكتبة الدولية لكونراد جسنر الذي طبع بمدينة زوريخ عام 1543م.

ctos, tandem qui ex eo genere erant Apelliconi Teio tradiderũt, magno emptos argento, Aristotelicos scilicet atq; Theophrasticos. Apellicon, ut qui magis librorũ esset studiosus quàm sapientiæ, uolens corrosiones emendare, eos transcribendos dedit, scriptura nõ recte suppleta, quapropter libros ædidit erroribus plenos. Continuo autem post Apelliconis obitum Sylla, qui Athenas cepit, bibliothecam eius Romam transtulit. Tyrannion quoq; grammaticus incœpit, cum Aristotelis amantissimus esset, eo sibi conciliato, qui bibliothecæ præerat. Item librarij quidam scriptoribus utentes non bonis, nec scripta cõferentes, quod in his libris præsertim fieri solet, qui uendendi transcribuntur, tum hic, tum etiam Alexandriæ. Et hactenus quidem Strabonis uerba. Porrò Laurentius ille uir Græca et Romana lingua disertus, ac idem iuris cõsultissimus, qui multiscios illos Dipnosophistas ab Athenæo descriptos conuiuio excepit, tantam librorum ueterum & Græcorũ supellectilem coegisse fertur, ut omnes alios eodẽ nomine claros facile superauerit: cuiusmodi fuere, Polycrates Samius, Pisistratus Atheniensiũ tyrannus, Euclides Atheniensis, Nicocrates Cyprius Pergami reges, Euripides poëta, Aristoteles philosophus, & qui libros illorum custodiuit Neleus, à quo Ptolemæus Philadelphus omnia uolumina coẽmit, eaq; cum alijs ex urbe Athenarũ & insula Rhodo Alexandriã transtulit. Proditur etiam in historijs, Asinium Pollionem primum Romæ bibliothecã in Herculis fano dedicauisse. Quid uero nũc ex omnibus illis tam gloriosis bibliothecis præter inanem famã reliqui est? Vbi hodie sunt illa duo milia uolumінũ ab exquisitis tantum authoribus Latinis & externis centum conscripta, de quibus attingebant studiosi propter secretum materiæ perpauca, unde suos naturæ thesaures Plinius Secundus congessit? Tarquinius Priscus olim Sibyllinos libros trecentis Philippeis sibi comparauit, Plato Philolai Pythagorici libros decem milibus denariûm: Aristoteles Speusippi Platonici utcũq; paucos talentis Atticis tribus emit. Sed quid lugemus uetera: perijt etiam patrum nostrorum memoria per immanem Turcorum impressionẽ celebris illa Bibliotheca Budæ, quæ regni Pannoniæ caput est, à nunquam satis laudato rege Matthia ex omni scriptorum genere, & innumeris Græcis Hebraicisq; uoluminibus instructa: quæ quidem ille capta iam Constantinopoli, euersisq; multis alijs amplissimis Græciæ urbibus, ex media Græcia inæstimandis sumptibus coẽmerat. Quandoquidem igitur tot & tam pretiosi in omni philosophia libri paulatim amissi sunt, partim flammis aut bellorum tumultibus consumpti, partim ipsa uetustate tineis ac situ corrupti, plurimi uero dissipati negligentia & odio in literas barbarorum, quorum alij olim Italiam inuasere, Turci uero & eiusdem religionis alij barbarissimi Græciã, imò uniuersum penè orbem præter aliquam Europæ partem etiam hodie tenent: omnes profecto bonos uiros, quibuscunq; respub. literaria cordi est, summa cõtentione

tione

tione animi decet, ut pauci etiã illi optimi libri, soli adhuc nobis superstites, & diuinitus ut uidetur per multa secula conseruati, incolumes custodiantur, neq; per incuriam nostram pessum eant. Quod quidem si accideret, & posteri nostri (quod Deus auertat) praeclaris illis disciplinarum, artium, & omnis doctrinae instrumentis priuarentur, parũ opinor discriminis à caeteris animantibus habituri forent: quales hodieq; sunt illae gẽtes, quae remotissimas à nobis terras aut insulas nuper inuentas habitant. Itaq; uolui etiam ipse hac in parte quantumcunq; labore ac studio effectũ dare ualerem, in usum humanae uitae conferre: quod pro unius hominis cõditione, hoc uolumine publicato, si non perfeci, non infeliciter tamen, ut spero, inchoaui: uiam aperui, & magnã alijs occasionẽ praebui, qua facile diuites aut principes uiri Bibliothecas instituant, libris ad posteritatem transmittendis necessarias. Quamuis enim ars typographica librorum conseruationi nata uideatur, ut plurimũ tamen nostri temporis hominum nugae, & inutilia scripta, uetustis & melioribus neglectis, in lucẽ eduntur: quare pro manuscriptis saltem libris opus est Bibliothecis. Iam uero multa in diuersis Europę partibus excuduntur, quae cum ab una ad alterã uix transuehantur, omnino latebunt, nisi diligẽter in Bibliothecas undecunq; accersantur. Adde quod impressi libri mox distrahuntur, nec amplius apparent: & qui penes priuatos homines sunt, per incuriã breui interire solẽt: solae publicae Bibliothecae, & diutissime retinent libros, & in promptu ad usum se offerunt. Quod ad me, statuerã ab initio ueteres tantum & melioris notae nostri seculi scriptores enumerare, nec alios q̃ qui hodieq; extarent: sed cum eadem opera, nec multo maiori labore, omnes cuiuscunq; generis scriptores colligi posse uiderẽ, quotquot & quales cunq; reperi libros secundum nomina authorum per alphabeti ordinem recensui in tribus praecipuis linguis, Latina, Graeca, et Hebraica, extantes & non extantes, ueteres ac recentiores, doctos cum indoctis, excusos & adhuc latentes: adiectis plaerunq; censuris, argumentis, praefationibus, aut capitibus ut uocant, siue omnibus illis, siue nonnullis, ubi fieri commode potuit. Materiam operis undecunq; corrasi: ex catalogis typographorum, quorum non paucos diuersis è regionibus conquisiui: ex Bibliothecarum elenchis, tum Bibliothecis ipsis passim, et publicis & priuatis, in Germania, Italiaq; diligenter inspectis, ex literis amicorũ, ex narratione doctorum hominum, deniq; ex Catalogis scriptorum, quos paulò post nominabo. Caeterum nomenclaturas authorum ueterum, quorum scripta uel nulla, uel partim non extant, ex Dictionario Graeco Suidae, Athenaei Dipnosophistis, Gnomologio Stobaei, & Epigrammatibus Graecis (quorum congeriem Anthologium, aut Latine Florilegium uocaui, ab Agathia primum aggregatam, deinde à Maximo Planude castratam) nec nõ alijs quibusdam obseruatas excerpsi. Et nimiũ exquisita forte aut curiosa diligentia, quaecunq; inter legendum citata nomina oc-

* 3

currebant, statim annotaui: ita ut ferè pigeat quosdam inseruisse, ueluti episcopos, quorum uerba citantur à Cypriano in libello de hæreticis baptizandis: & illos, à quibus nihil editum extat, nisi præfationes quædam, aut etiam una solum, uel epistola una. Verum hæc omnia paucis uerbis comprehenduntur, saltem studij mei perquam laboriosi testimonio futura: quid quod ipsa nominum uarietas in utraq; lingua nonnullos oblectare potest? Vtcunq; sit, multo certe facilius fuerit, si quæ superflua uidebuntur, ab ordine cæterorũ eximere, quam ipse inserui. Nullus à me scriptor cõtemptus est, non tam quod omnes catalogo aut memoria dignos existimarem, quàm ut instituto meo satisfacerẽ, quo mihi imperaueram sine delectu simpliciter omnia quæ incidissent commemorare. Nam uel ob hoc ipsum nonnulli nominandi sunt, ut Lectores moneantur de abstinendo ab eis: non enim eruditis solum, sed quibuslibet hunc Indicem collegimus, ut etiam rudes inde tanquam à præceptore muto de authoritate utilitateq; singulorũ librorum, & contra, admoneantur. Multi in uno loco uulgares et uiles sunt, ijdem alibi rarissimi, aut planè incogniti: & qui olim tritissimi erant, nunc in nullo sunt usu studiorũ: itaq; temporis & locorũ inita ratione, quãdoq; prolixior fui, & immoratus sum parui momenti authoribus: atqui ne illos quidẽ quales nam essent ignorari decebat, ne quis meliora sibi pollicitus sumptum emẽdo temere faceret, aut tempus legendo male collocaret. Plurimi hodie authores omnibus nouissimi sunt, qui proculdubio post centum annos paucissimis cogniti in tenebris latebunt. Barbaros libros, cũ ab alijs tum à monachis compositos superiore sæculo, quorum plurimi ex Io. Tritemio cõmemorantur, qui uolet cancellare, & obelisco notare poterit, ne sæpius in eosdẽ incidens fastidiat. Nos recitare tantum uoluimus, delectũ iudiciumq; liberum reliquimus alijs. Certe non raro quanquam barbari styli scriptores res cognitu dignas acri ingenio chartis mandarũt. Virgilius ex stercore Ennij legebat aurum, et Plinius dictitabat, nullum esse tam malũ librum, qui nõ aliqua ex parte prosit. Duplex sanè barbarorũ genus existit: sunt qui dicendo tantũ barbari, res interim bonas & utiles doceant, quos modis omnibus conseruari par est; alij ut uerbis, ita sensis quoq; barbari & inutiles sunt, quos equidem quoquo modo abolitos uelim. Verè Satyricus, Tenet insanabile multos Scribendi cacoëthes: &, ut Salomõ inquit, componendi libros nullus est finis. Omnes sibi famam quærunt, & si nõ cum gloria, quouis tamẽ modo in orbẽ spargi contendunt, ut nouæ alicuius rei habeantur authores: quo animo plurimos hæreticorũ præditos fuisse puto. Sic affectus erat ille qui ornatissimum Dianæ Ephesiæ templum succendit. Sed quomodo fieri possit ut confusa & noxia illa librorum multitudo circũcidatur, & in singulis disciplinis optima certaq; uolumina deligantur, quod Iustinianus imperator in Iure suo tempore fecit: & cũ aliunde tum ex barbaris præcipue selectis quæ insunt bonis, cætera

seponantur:

ſeponantur: & arguantur authorũ furta, ac millies repetita, tollantur: de-
niq; in poſterum temere ſcribẽdi libido coërceatur, aliter in infinitũ pro-
greſſura: doctioribus deliberandum, regibus deinde et principibus per-
ficiendum relinquo. Ego quod labore magis quàm ingenio præſtare po
tui, omnibus uelut in campum eductis, eligendi copiam feci. Cæterum
non diffiteor argumenta uel capita librorũ aliquot, uerboſius quàm uel-
lem explicata mihi diſplicere: ſed illud maxime in primo elemento com-
miſſi amanuenſiũ opera uſus, in cæteris nolim breuior fuiſſe. Præfatio-
num partes ad uerbum non raro tranſcriptæ, authoris ſtilum, libri occa-
ſionem, aut argumentum, aut aliud quidpiam à bibliothecæ inſtituto nõ
alienum, ſubindicant. Legi autem præfationes librorum ferè omniũ qui
ad manum erant, & inde ſolum quæ præcipua uidebantur excerpſi, ſic ut
ſuperflua & parerga cuncta præterirem, qualia ferè plurima ſunt in præ-
fationibus, ad oſtentandum ingenium, aut aſſentandum alicui plærunq;
cõpoſitis: ita ut magno onere leuandus ſit Lector, ſi non integros autho-
rum in ſua, & multo minus aliorum in aliena opera prologos, ſed noſtra
tantum excerpta legat. Eſt quando plura ex præfationibus deſcripſi, non
tam ad præſentis operis notitiam, quàm quod nomina aut cenſuræ alio-
rum quoq; librorũ ibi haberẽtur, quamuis alterius ordinis: remittitur au
tem Lector ab uno loco ad alterum. Sed prolixitatẽ excuſaui etiã in præ-
fatiuncula ſuperiori, & poſſum me tueri ueterum authoritate. Photius
patriarcha in catalogo ſuo, quo plurimos ſibi lectos libros recenſet, non
breues modo periochas addit, ſed capita ferè ſingula perſequitur, & præ-
cipuas rationes quibus unuſquiſq; innititur: Galenus in opere de cõpo-
nendis ſecundum locos medicamentis, Critonis librorum capita ſingilla
tim enumerat: Gennadius etiam & alij argumenta uoluminum pluribus
uerbis exponunt. Non raro ſanè deſcripta mihi capita & argumẽta (quæ
impreſſis codicibus uel omnino adiuncta non erant, uel non eodem mo
do) indicis uſum præſtabunt, ut quis cõmodius in eis uerſetur. Autho-
rum nomina pro literarũ ordine, maiuſculis ubiq; characteribus ſignata
ſunt, & eorundem diuerſa opera nouis uerſuũ initijs diſtincta, uerba alie
na ex præfationibus uel aliunde ſumpta, geminis per margines ſemicir-
culis notaui, aut ſaltem authoris unde ſingula deprompta ſint nomẽ ad-
ſcripſi, & ſi quid aliud ad ordinem atq; claritatem facere uidebatur, non
indiligenter obſeruaui. Iam quod poſterior libri pars multò parcius ar-
gumenta & præfationes delibat, ueniam peto, ſi quis modo ſuccenſebit:
timebam ego ne moles, pergenti mihi ut inceperam, nimium exceſce-
ret. Et quanquam ſupra de prolixitate, hic uero de breuitate me excuſo,
non eſt mirandum, quoniam, ut dici ſolet, quot homines tot ſententiæ.
Interdum feſtinante prælo, nõ ut uolebam, ſed ut poſtulabat neceſſitas,
ſcribendum fuit. Præterea per uarias & magnas occupationes ſubor-
tas, quibus in deliberationem de uitæ ſtudiorumq; meorum mutatione

* 4

Et quoniam ipſe aliorum catalogos ſuo adhibuit, Proſperi, Honorij, Sigeberti, Richardi de Bury, Philippi Ribοti, & aliorum: non admodum de illis inquirendis laborauimus, integro ipſo Trittemij opere iuxta ordinem literarum (ipſe enim temporis rationem ſequitur) in noſtrum aſſumpto. Quod ubicunq; factum eſt, T. literam in margine notaui, cui mox ſubieci quoto anno Domini author, cuius mentio fit cl. id eſt claruerit, uel M. id eſt mortuus ſit. Verum ille uitas quoq; authorum, & alia quædam prolixius interdum recenſet, nec ullum ferè non magnifice laudatum dimittit: nos præter genus, patriam, ſtudium, & ſi quid tale dici breuiſſime poterat, nihil aliud ab eo mutuati ſumus: libros tamen ſingulorum omnes cum ſuis initijs, ſi quæ aderant, diligenter exſcripſimus. Monachorum & inelegantiorum hominum ſcripta, ut tum ferebant illæ ætates, totidem inde ut plurimum iiſdemq; uerbis repetita ſunt: Doctiorum uero, de quibus & ipſe nō paucis mentionē facit, locupletius ferè & caſtigatius ex Hieronymo aut alijs relata ſunt: & ſi quid poſt eius uerba de noſtro adijciendum uidebatur, aſteriſci notam interpoſui. Audio hunc Trittemium ut fauorem monachorum quorundā, præſertim Carmelitarum, ſibi conciliaret, omnes ex eorum familijs qualeſcunq; tandem rhapſodos ſuo catalogo dignatum eſſe. Nominati autem ſunt ubiq; omnes, ex quibus aliquid uſurpaui. Hæc autē operis ingreſſum habui, de quibus Lectores admonerem.

ببليوغرافيا

مصادر ومراجع باللغة العربية:

- ابن أبي زرع. – القرطاس، فاس 1886.
- ابن أبي أصعبية. – عيون الأنباء؛ بيروت 1965.
- ابن خلدون. – المقدمة، القاهرة 1957.
- ابن فرحون. – الدّيباج المذهب، القاهرة 1972.
- ابن النديم. – الفهرست، فلوغل، ليبزيغ 1871.
- ببليوغرافيا المنشورات الألمانية حول التراث العربي الإسلامي: نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، مجلد 1990، 1.
- حاجي خليفة. – كشف الظنون، اصطنبول 1941.
- الحديدي. – فلسفة علم تصنيف الكتب كمدخل لفلسفة العلوم، القاهرة 1969.
- داغر أسعد. – دليل الأعارب، بيروت 1949.
- روزنتال فرانز. – مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، لبنان 1980.
- السامرائي قاسم. – علم الأكتناه العربي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية 2001.
- عواد كوركيس. – فهارس المخطوطات العربية في العالم، الكويت 1984.

- فـــان ديـــك. – اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، القاهرة 1897 .
- القفطـــــي. – تاريخ الحكماء، القاهرة 1903 .
- محمد عبد الله عنان. – مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، القاهرة.
- المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي، ولادة، الدار البيضاء 1990 .
- المراكشـــي. – المعجب، الدار البيضاء 1978 .
- محمد المنوني. – الوراقة المغربية، كلية الآداب الرباط 1991 .
- بنبين وطوبي. – معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي)، مراكش 2003 .

مراجع باللغات الأجنبية:

- BALAGNA (J). -**Inventaire des livres imprimés arabes 1514-1959**, Bibliothèque Nationale-Paris,1986.
- BATAILLON (L.J). - **La production du livre universitaire au Moyen-Age**, Exemplar et Pecia, 1988.
- BINEBINE (A.Ch). - **Histoire des bibliothèques au Maroc**, Faculté des Lettres de Rabat, 1992.
- BRIQUET (C.M). - **Les Filigranes,** 4 vol, Paris, 1968.
- BOZZOLO (C.) et ORNATO (E.). -**Pour une histoire du livre manuscrit au Moyen -Age**. Trois essais de codicologie quantitative, C.N.R.S., Paris, 1983.
- BROCKELMANN . - Geschechte der Arabischen literatur (G.A.L.), Ed-Leiden, 2 volumes (1943-49) 3 suppléments, 1937-42.
- BRUNET (Ch). - **Manuel du libraire et de l'amateur de livres,** Paris, 1880.
- CASTRIES (H.de). – « Autour d'une bibliothèque marocaine », in **Journal des débats,** 20 Octobre 1907.

- CASTRIES (H.de). – **Sources inédites de l'histoire du Maroc,** Paris, 1905-1930.
- Catalogue des manuscrits arabes : G. Vajda et Y.Sauvan, Paris, 1985.
- CHAUVIN (Victor). – Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885, Publié en 1892-1922.
- The Codicology of Islamic manuscripts: proceedings of the second conference of Al-Furqàn Islamic Heritage Fondation, London, 1995.
- DAGHER (As'ad). – « L'état actuel de la bibliographie arabe » : in **Arabica,** 1958.
- DAIN (A). – **Les Manuscrits,** Paris, 1975.
- DEROCHE (F) et autres.- **Manuel de codicologie des manuscrits en écriture arabe,** Bibliothèque Nationale de France, Paris, 2000.
- D'HERBELOT.- **La Bibliothèque Orientale**, Paris, 1697.
- DESTREZ. – **La Pecia dans les manuscrits universitaires du XIIIe et du XIVe siècle,** Paris, 1935.
- FEBVRE (L.) et MARTIN (H.J.).- **L'apparition du Livre**, Paris, 1971.
- ADAM (Gacek). – **The Arabic manuscript tradition A glossary of** technical terms and bibliography, Leiden, 2002.
- GESNER (C.).- **Bibliotheca Universalis** – 1543, Zurich.
- GILS (P.M.J.). – **Codicologie et critique textuelle :** Pour une étude du manuscrit, Paris, 1978.
- GLISSEN (L.). – **Prolègomènes à la codicologie :** Recherches sur la constitution des cahiers et la mise en page des manuscrits médiévaux, Grand, 1977.
- GRAF (G.). – **Geschichte der christlichen arab Literatur,** 5 vol., Vatican, 1944-53.
- GRUIJS (Albert). – **Paléographie, codicologie et archéologie du livre,** Paris, 1972.
- HOFFMAN (Philippe). – **Recherches de codicologie comparée,** Presses de l'Ecole Normale Supérieure, Paris, 1998.

- HOUDAS (O.). – « Essai sur l'écriture maghrébine », in **Nouveaux mélanges orientaux,** 1886, pp. 85-112.
- HUMBERT (Geneviève). – **La Tradition manuscrite en écriture arabe** sous la responsabilité de Geneviève Humbert, C.N.R.S., Edisud, 2002.
- IRIGOIN (J.). – **La datation des manuscrits de papier à l'aide des filigranes,** Paris, 1969.
- KIRSOP (Wallace). – **Bibliographie matérielle et critique textuelle.** Vers une collaboration, Paris, 1970.
- LEMAIRE (Jacques). – **Introduction à la codicologie,** Louvain -La-Neuve, 1989.
- Le Livre au Moyen Age sous la direction de Jean Glenissen, Presses du CNRS, Paris, 1988.
- MALCLES (L.N.). – **Manuel de bibliographie,** 3e ed, Paris, 1975.
- METZGER (T.). – « La représentation du copiste dans les manuscrits hébreux médiévaux », dans **Journal des savants,** 1976, pp. 32-53.
- MUZERELLE (D.). – **Vocabulaire codicologique :** Répertoire méthodique des termes français relatifs aux manuscrits, Paris, 1985.
- ORSATI (Paola) .- **Le Manuscrit islamique : caractéristiques matérielles et typologie dans M.Maniaci et P.F.Munafo,** Vatican, 1993, P.269-331.
- OUY (G.). – **Pour une archivistique des manuscrits médiévaux,** 1958.
- PEIGNOT (G.). – **Manuel bibliographique,** Paris, 1800.
- PEDERSEN (J.). – **The arabic book,** Princeton, New Jersey, 1984.
- POLLARD (G.). – « The Pecia system in the medieval universities », in **Medieval scribes,** Manuscripts and Libraries, 1978, pp. 145-61.
- REBOUL (J.). – **Du bon usage des bibliographies,** Paris, 1973.
- RICHTER (Noé). – **Les bibliothèques populaires,** Paris, 1978.
- ROPER (Geoffrey) ed, - **World survey of islamic manuscripts,** 4 vol: al-Furqân, London, 1992-1994.
- SCHAZMANN. – « Conrad Gesner et la bibliographie universelle », in **libri,** Copenhague, 1952.
- SCHNURRER. – **Bibliotheca arabica,** 1811.

- Scribes et manuscrits du Moyen –Orient, Bibliothèque Nationale de France, Paris, 1997.
- SEZGIN. – **Geschichte der arabischen Schrifttums,** Francfort 1967.
- STEINSCHNEIDER. – **Arab Literature der Juden,** Francfort, 1902.
- VEZIN (J.). – **Codicologie comparée,** 1972.
- VEZIN (J.). – « Observations sur l'emploi des réclames dans les manuscrits latins » dans : Bibliothèque de l'Ecole des Chartes, CXXC, 1967.
- VEZIN (J.). –**Paléographie et codicologie**, 1978.
- VEZIN (J.). – « La réalisation matérielle des manuscrits latins. Eléments pour une codicologie comparée », in **codicologia,** T.II, pp. 15-51.
- Worldwide Survey of Islamic manuscripts. London, 1991. General Editor : Geoffrey Roper.
- ZENKER. – **Bibliotheca orientalis:** 1846-1860, 2 vol.

- MALCLES (L.N.) – Manuel de bibliographie, 3e éd. [illegible]
- METZGER (G.) – [illegible] », dans Journal des savants, 1976, pp. 32-53.
- MUZERELLE (D.) – Vocabulaire codicologique : Répertoire méthodique des termes français relatifs aux manuscrits, Paris, 1985.
- ORSATI (Paola) – Le Manuscrit islamique : caractéristiques matérielles et typologie dans M. Maniaci et P.F. Munafò, [illegible]
- OUY (G.) – Pour une archivistique des manuscrits médiévaux, 1958.
- PEIGNOT (G.) – Manuel bibliographique, Paris, 1800.
- PEDERSEN (J.) – The arabic book, Princeton, New Jersey, 1984.
- [illegible] – « [illegible] system in the [illegible] manuscripts », in [illegible], Manuscripts and Literature, 1976, pp. 145-61.
- REBOUL (J.) – Du bon usage des bibliographies, Paris, 1973.
- RICHTER (Noë) – Les bibliothèques populaires, Paris, 1978.
- ROPER (Geoffrey) ed. – World survey of Islamic manuscripts, 4 vols. al-Furqān, London, 1992-1994.
- SCHATZMANN – « Conrad Gesner et la bibliographie universelle », in ibid, Copenhague, 1952.
- SCHNURRER – Bibliotheca arabica, 1811.

فهرسة

- مقدمة الطبعة الثانية 5
- تقديم 7
- مقدمة الطبعة الأولى 9
- ما المخطوط؟ 13
- علم المخطوط العربي 21
- علم المخطوطات والتحقيق العلمي 30
- فهرسة المخطوط العربي: التجربة المغربية 42
- تقنيات فهرسة المخطوطات العربية 79
- فهرسة المخطوط العربي في بعض البلدان المتوسطية : مكتبة الفاتكان والمكتبة الوطنية الفرنسية ومكتبة الإسكوريال 90
- الفهرسة وعلم المخطوطات 101
- ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية 110
- وظيفة القيم في تاريخ الخزانة المغربية 134
- التعقيبة في المخطوط العربي 147
- موقف العرب والمستشرقين من إحراق أكبر خزانة في العصر القديم: خزانة الإسكندرية 156

• العلاقات المغربية الإسبانية إثر اختطاف خزانة الأمراء السعديين 172
• الكتب والمكتبات في مراكش على عهدي المرابطين والموحدين 187
• رعاية المغاربة للمكتبات في القرن التاسع عشر 197
• "ابن يوسف"، جامع أم جامعة ؟ 209
• البعثة العلمية الفرنسية بطنجة وخزاناتها الكبرى 217
• السيرة البيبليوغرافية أو البيوبلوغرافيا في التراث العربي 225
• التأليف البيبليوغرافي في التراث العربي 240
• مدخل إلى البيبليوغرافيا المغربية (الدرس البيبليوغرافي) 259
• البيبليوغرافيا الدولية العامة بين كونراد جسنر وحاجي خليفة 267
• ملحق 282
• المصادر والمراجع 299
• الفهرسة 305

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
الداوديات زنقة أبوعبيدة الحي المحمدي مراكش
الهاتف: 91 25 30 044/LG 74 37 30 044 الفاكس: 23 49 30 044
البريد الالكتروني: E-mail : wataimpr@iam.net.ma

هذا الكتاب

إن مجموعة الأبحاث التي يتضمنها هذا الكتاب تعبر عن اهتمام زائد، تقع مسألة علم المخطوط (codicologie) في صميمه ولكنه اهتمام أشمل بالبنية الرافدة للبحث التي هي المكتبة، وبالأدوات التي يتهيأ بها الاستفادة من المكتبات وهي الفهارس بمعناها التصنيفي والنقدي معا.

وبالتعرض لهذه الجوانب المختلفة يسهم المؤلف في إجلاء الوضع العربي لفن من الفنون، كما يسهم في تاريخ التراث العربي عامة، وتاريخ الثقافة المغربية بصفة خاصة .